

صِفَتِ كِتَابِ اللَّهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ

تأليف

الدكتور / ياسين غضبان

المجلد الأول

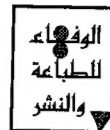
دار الوفاء



صِفَتِ كِتَابِ اللَّهِ
فِي كِتَابِ اللَّهِ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب ٢٣٠
ت / ٢٢٣٠٦٢٢ فاكس ٢٢٦.٩٧٤ / ٥٠.محمول ١٧٠.٥٦٥٨ / ١٠.
E-MAIL:darelwafa@HOTMAIL.COM
WWW.EL-WAFAA.COM



الإهداء

* إلى الذين آمنوا ويؤمنون بالله ، وملائكته ،
وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره
وشره ، وأتبعوا إيمانهم بإحسان.
أهدى هذا الكتاب.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله - تعالى - المنعم المتفضل حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، صلاة وسلاما تامين دائمين من قلب المحبين.

أما بعد :

صفة كتاب الله في كتاب الله... قادني إلى هذا العمل رغبتى بالوقوف على بعض ما قيل في هذا القرآن العظيم ، واستوقفني أول إشارة إليه في ثاني سورة منه بدايتها ﴿ اَلَمْ يَكُنْ اَلَّذِي اَلَمْ يَكُنْ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة] ، وكانت بداية الطريق لعمل استغرق منى عمرا ، ما فرحت بوقت مضى من عمرى بما فرحت بقضاء هذا الوقت مع كتاب الله تعالى: « أقرأ آياته ، أندبر تنزيله ، أسعد كلما وقفت على آية فيها ذكر القرآن أو ذكر صفة من صفاته... وقرأت الأسفار الكثيرة ، والتفاسير البسيطة والشهيرة ، وعشت مع جهد الصالحين من عباد الله ، الذين أفنوا أعمارهم في خدمة كتاب الله - تعالى ، فى أى علم ، أوفن ، أو جهد بذلوه فى تدبر هذا القرآن . وكلما وجدت نفسى قاربت ، أعود ثانية إلى البداية... وهكذا . ما أحلى هذه الأيام التى قضيتها فى تصنيف هذا الكتاب ربما لا أكون قد قدمت جديدا فى هذا ؛ فإن بحر كتاب الله لا شواطئ ولا مراسى له ، وكلما غاص فيه الغواصون ، وجدوا غاياتهم من اللؤلؤ والعجب العجائب ؛ ولذلك فقد فزت - إن شاء الله تعالى - بشئ نادر ويسير وقليل من هذه اللآلى التى يمتلئ بها هذا البحر... وهذا الكتاب العظيم.

قد أكون فى بعض الأماكن أبدى رأيا ، أو أرتاح لرأى ، أو أعجب لمقال فأذكره ولعل القارئ الكريم بعد ذلك يعذرني إن تحصل خطأ أو تقصير أو تجاوز ، أو هفوات ، وإننى أرجو أن تكون لى نورا أستضيء به يوم الدين من هذا الكتاب العظيم ، فالأثر الصحيح: أنه - أى القرآن الكريم - يشفع لمن تلاه وثابر على

تلاوته ، ولمن حفظه ولم ينسه ولمن حفظه ، ولمن خدمه ، ولمن سهل فهم آياته وكيف لا وهو الكتاب الحق المبين .

أضيف إلى سعادتي التي عشتها مع كتاب الله من هذا العمر القصير سعادة أخرى لو تفضل خدام كتاب الله - تعالى - بالاتصال بى بأية وسيلة كانت ليقولوا: أصبت فأفرح ، أو أخطأت فأفرح لأصحح خطئى لاستكمال سعادتي .

أرجو الله - تعالى - أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه ، وأطلب من الله - تعالى - أن يعيننى لأتابع هذا الطريق ؛ لأبحث عن فضائل القرآن فى أى مكان وفى كل مكان ، والله المعطى المنان ، وهو المستعان ، والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

عمان فى محرم ١٤٢٥هـ

المدخل

القرآن: المكان والزمان

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

إن خير البداية بداية الزمان والمكان ، اللذين اختاره الله - تعالى - ليكون أول تنزيل القرآن على محمد ﷺ ، معيدا بذلك صلة السماء بالأرض ، التي انقطعت منذ ما يزيد عن ستة قرون ، عندما رفع الله سيدنا عيسى إليه وتوفاه ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَٰذَا وَتَمُوتْ فِي حَقِّكَ ﴾ [آل عمران]. العودة هذه جاءت لخير نبي مرسل ، ولخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ، من سلالة نبي الله إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام .

هذه البداية - نزول القرآن الكريم - في زمان ومكان اختارهما الله - تعالى - ليكونا البداية التي غيرت وجه التاريخ ، وبدلت أحوال الأمم ، وأصلحت معتقدات الناس ، وأعادت العدل والخير والبركة والسلام إلى الأرض ، بعد أن طغى عليها الطغاة والجبارون ، وبعد أن حرف الإنسان كتب الله - تعالى - التوراة والإنجيل والزبور وكتبها بأيديهم ؛ ليكون هذا القرآن الكتاب الخاتم الشامل الجامع ، الصحيح ، العظيم ، الهادي إلى الخير ، الدائم دون تحريف أو تعديل أو تغيير ، تكفل الله - تعالى - بحفظه وحفظه ، فهو كما هو في اللوح المحفوظ الذي نقله جبريل «الروح الأمين» إلى الرسول ﷺ ، وبذات الأمانة ، وبذات الوضوح ، نقله النبي ﷺ إلى الصحابة - رضوان الله عليهم - فحفظوه ونقلوه إلى التابعين ، وما زال ينتقل من جيل إلى جيل حفظا وترتيلا وتسجيلا ودراية وفهما ، واستنباطا ، وتفسيرا ، وعملا به إلى يوم الدين ، حيث وعد الله ذلك عباده المتقين .

قال ابن إسحاق: فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله - تعالى - رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وكان الله - تبارك وتعالى - قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه ، يقول الله - تعالى - لمحمد ﷺ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ آيَ ثَقُلَ مَا حَمَلْتُمْ مِنْ عَهْدِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ ١٧ ﴾ [آل عمران] ، فأخذ الله ميثاق النبيين جميعا بالتصديق له والنصر له على من خالفه ، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين.

قال ابن إسحاق: فذكر الزهري عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - أنها حدثته: أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به: « الرؤيا الصادقة » لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح . قالت: وحبب الله - تعالى - إليه الخلوة ، فلم فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده.

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ حين أراد الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت (تحسر عنه البيوت: تبعد عنه ويتخلى عنها) ويفضى إلى شعاب مكة ، ويطوف بأوديتها ، فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله . قال: فيلتفت رسول الله ﷺ حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجر . فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما يشاء الله له أن يمكث . حتى جاءه جبريل ﷺ بما جاءه من كرامة الله وهو بجراة فى شهر رمضان^(١) . بعث الله نبينا محمدا على رأس الأربعين ، وهى سن الكمال . قيل: ولها تبعث الرسل ، وأما ما يذكر عن المسيح^{عليه السلام} : أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة ، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١ / ٢٥٠ ، حاشية للسهيلى (الروض الأنف).

جاءت مثل فلق الصبح^(١). قيل: وكان ذلك ستة أشهر ، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا ستة وأربعون جزءاً من النبوة ، والله أعلم.

ثم أكرمه الله - تعالى - بالنبوة ، فجاءه الملك وهو بغار حراء ، وكان يحب الخلوة فيه ، فأول ما أنزل عليه: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ [العلق] هذا قول عائشة^(٢) والجمهور.

سميت هذه السورة « سورة العلق » ، « وسورة اقرأ » أو « القلم » ؛ لأن الله - سبحانه - افتتحها بقوله: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾ ، والعلق: الدم المتجمد على شكل الدودة الصغيرة.

أما مناسبتها: فقد ذكر الله - تعالى - في سورة « التين » أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وهذا بيان للصورة ، وذكر هنا أنه: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ ، وهذا بيان للمادة.

هذه السورة المكية أول شيء نزل من القرآن على قلب النبي ﷺ لبيان الأمور الثلاثة التالية:

١- بيان حكمة الله - تعالى - في خلق الإنسان من ضعف إلى قوة ، والإشارة بما زوده وأمره به من فضيلة القراءة « اقرأ » ، وصورة الكتابة « علم بالقلم » ليميزه على غيره من المخلوقات: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾

٢- الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرده على أوامر الله ، وجحوده نعم الله

(١) أخرج البخاري عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي ،

الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ١ / ٢٢

(٢) أخرجه البخاري ٨ / ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ في تفسير سورة ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾

وفى بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، انظر : زاد المعاد في هدى خير

العباد ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ،

ومكتبة المنار الإسلامية ، ط ٢٠ ، ١٩٨٥ ، ٨٤ / ١ .

عليه وغفلته عنها ، رغم كثرتها في حال توافر الثروة والمال والغنى لديه ، يقابل النعمة بالنعمة ، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على فضله فجدد النعمة وتجبر واستكبر:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا غَافِلٌ ﴿١﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [العلق].

٣- افتضاح شأن فرعون هذه الأمة « أبو جهل » الذي كان ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة انتصارا للأوثان ، وتوعده بأشد العقاب إذا استمر على ضلاله وكفره وطغيانه وتنبه الرسول إلى عدم الالتفات لما كان يتوعده به ويتهدده [الآيات: ٩- ١٩].

أما عن حديث بدء الوحي: وهو المعنى بذلك فقد نزل صدر هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم ، وأن الرسول ﷺ قد حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه « وهو التعبد الليالي ذوات العدد » ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود مثلها ، حتى فاجأه الوحي ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال: « اقرأ ».

قال رسول الله ﷺ : « فقلت: ما أنا بقارئ » ، قال: « فأخذني فغطني - ضمي - حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق].

قال: فرجع بها ترتجف بوادره حتى دخل على خديجة ، فقال: « زملوني زملوني » ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال: « يا خديجة ، ما لي ؟ وأخبرها الخبر ، وقال: « قد خشيت على نفسي » ، فقالت له: كلا أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل - الضعيف العاجز - وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة ، حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهو ابن عم خديجة أخي

أيها- وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى. فقالت خديجة: أى ابن عم ، اسمع ابن أخيك ، فقال ورقة: ابن أخى ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة: هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى فيها جزءا ، « قويا جلدا ، ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ: « أوخرجى هم ؟ » ، فقال ورقة: نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب (يلبث) ورقة أن توفى ، وفتر الوحى ، حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزنا ، غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهد الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه ، تبدى له جبريل فقال: « يا محمد ، إنك رسول الله حقا » ، فيسكن بذلك جأشه ، وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل ، تبدى له جبريل... فقال له مثل ذلك^(١).

تلك بداية القرآن الكريم ؛ القراءة ، العلم ، الكتابة ، الوعى ، الفهم ، الإدراك ، ثم إقرار وحدانية الله- تعالى- الذى خلق كل شىء وخلق الإنسان من طين ، ثم جعله نقطة فى قرار مكين ، ثم جعله علقه ثم سواه ونفخ فيه من روحه. إقرار فى بداية التنزيل على الوعى المطلق والتدبر من بدايات الإنسان. وأن الخالق الرازق هو الله الواحد القهار لا شريك له ولا ولد ولا ما تخرص عليه المنكرون ، سبحانه وتعالى عما يشركون.

بداية القرآن الكريم: المكان: غار حراء : غار لا يأوى إليه إلا الطيور ، فى ارتفاع شاهق يطل على مكة ويعلو عن كل ما يحيط به من تضاريس. هناك تلقى النبى ﷺ أول الوحى ، هناك حفرت فى قلبه أول كلمات الله - تعالى- هنالك عاد اتصال السماء بالأرض ، هناك فى غار حراء بدأ تنزيل القرآن .

تحدثنا عن المكان ، والذى ارتبطت به أمور عدة:

منها: الملك الذى حمل القرآن الكريم ، ونقله إلى محمد ﷺ ، فهو جبريل وجبرين

وجبرائيل ، كلها أسماء لروح القدس - عليه الصلاة والسلام . قال ابن جني : وزن جبرائيل فعليل ، والهمزة فيه زائدة لقولهم : 'جبريل' ^(١) ، وقد ورد اسم جبريل في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم ^(٢) ، أما صفة جبريل الأخرى وهي الروح ، فقد وردت في القرآن الكريم تحت اسم « الروح » أو مقترنا بصفة القدس « الروح القدس » في ثلاثة عشر موضعاً ^(٣) ، كما ورد اسم جبريل ضمن أسماء للملائكة الآخرين باعتباره سيد الملائكة والأمين على الرسالات ، وقد ورد اسمه « الروح الأمين » مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء] ، وهذه الأسماء كلها والصفات ترد إلى الملك جبريل عليه السلام ، ولقد بقي مصاحباً للرسول ﷺ من أول نزوله في غار حراء إلى أن قبض . وكان مرافقه في رحلتي الإسراء والعروج حتى أوصله إلى « سدرة المنتهى » ، وهنالك اعترف جبريل بأن هذا حده لا يمكن له تجاوزه ، لكنَّ محمداً ﷺ تخطى سدرة المنتهى إلى ربه - عز وجل - كما سيرد ذلك تفصيلاً في سورة الجن .

ومن الأمور التي رافقت هذا الموقف : « الرسول ﷺ » الذي اختاره الله - تعالى - لحمل الرسالة ، ولحفظ الأمانة ، وتأدية ما أمره الله به من التبليغ والإنذار والبشرى ، والقيادة ، وتفسير ما غمض من القرآن الكريم ، وتأسيس أمة الإسلام التي هي اختيار الله - تعالى - لتكون خير أمة أخرجت للناس ^(٤) .

وتستعمل كلمة رسول وجمعها (رسل) في اللغة العربية بمعنى ليس له صلة بالدين وهو الرسول الذي يبعث لأمر يؤديه أما هنا فلا يعنينا إلا المعنى الديني لهذه الكلمة . وفي القرآن ما يدل على اختصاص كل رسول بأمره . ففي سورة يونس الآية : ٤٧ أنه

(١) لسان العرب: ابن منظور ، إعداد وتصنيف: يوسف خياط - دار لسان العرب ، بيروت ١/٣٩٦ .

(٢) البقرة: ٩٧ ، البقرة: ٩٨ ، التحريم: ٤ . معجم كلمات القرآن الكريم: عدنان سالم ، محمد وهبي

سليمان ، ص ٤٢٦ - دار الفكر - دمشق - دار الفكر المعاصر - بيروت ، ط ١٩٩٧ .

(٣) غافر: ١٥ ، النحل: ١٠٢ ، الشعراء: ١٩٣ ، المعارج: ٤ ، النبأ: ٣٨ ، القدر: ٤ ، النساء: ١٧١ ،

البقرة: ٨٧ ، ٢٥٣ ، المائدة: ١١٠ ، النحل: ٢ ، المجادلة: ٢٢ ، الشورى: ٥٢ . المصدر السابق ،

ص ٥٧ .

(٤) انظر كتابنا : ((كتم خير أمة أخرجت للناس)) .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ ، وفى سورة النحل : الآية ٣٨ ^(١) : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . راجع سورة غافر: الآية ٥ ، والمؤمنون : الآية ٤٤ . وما فى هذه الآيات التى تنص على أن الله فى يوم القيامة سيجىء من كل أمة بشهيد عليها [النساء: ٤١] ، [القصص: ٧٥] راجع ما جاء من أوصاف الرسول الذى سيجوز الصراط إلى الجنة على رأس أمته: البخارى ، كتاب الأذان ، باب ٢٩ ، وكتاب الرقاق ، باب ٥٢ ^(٢) .

ومحمد ﷺ قد أرسل إلى قوم لم يأتهم نذير من قبله [سورة القصص : آية ٤٦] ، [سورة السجدة: آية ٣] ، [سورة سبأ : آية ٤٤] ، أما الأشخاص الآخرون الذين يجعل القرآن لهم درجة الرسل فهم: نوح ولوط وإسماعيل وموسى وشعيب وهود وصالح وعيسى - عليهم السلام ^(٣) .

ومحمد ﷺ (٥٧١ - ٦٣٢) م (٥٣ ق.هـ - ١١هـ) بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، ينتهى نسبه إلى عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام . أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن مرة مات أبوه وهو فى بطن أمه ، وولد عام الفيل ، وسماه جده محمدا ، أرضعته حليلة السعدية وأقام بالبادية حتى سن الخامسة ، ماتت أمه وهو فى السادسة ، ومات جده وهو فى الثامنة .

فكفله عمه أبو طالب الذى صحبه وهو فى الثانية عشرة إلى الشام ، فالتقى فى بصرى بالراهب بحيرى ، الذى توسم فيه علامات النبوة .

اشتغل فى صباه برعى الغنم ، وانصرف عن اللهو والعبث ، واشتهر بالصدق والأمانة ، حتى سمي: الصادق الأمين . خرج إلى الشام وهو فى الخامسة

(١) فى المصحف العثماني ، الآية ٣٦ .

(٢) ليس فى هذين الموضعين من البخارى أكثر من أنه سينصب الصراط بين ظهرانى جهنم ، وأن النبى محمدا ﷺ سيكون أول من يجوز بأمرته من الأنبياء ، ولن يتكلم أحد فى ذلك الموقف إلا الأنبياء ، وسيكون دعاؤهم: ((اللهم سلم سلم)) .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية - دار المعرفة - بيروت - يصدرها بالعربية (أحمد الششتاوى وآخرون ١٠ .

والعشرين فى تجارة لخديجة ، وتزوجها بعد عودته ، وأنجب منها القاسم وبه يكنى ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، ولم ينجب من غيرها إلا إبراهيم . ولم يعيش من أبنائه وبناته بعده إلا فاطمة .

اجتنب عبادة الأصنام ، وتحث فى غار حراء حتى تهيأ لقبول الوحي وقد بلغ الأربعين ٦١٠ م - ١٣ ق . هـ ، فبعثه الله بشيرا ونذيرا ، نزل عليه جبريل بالوحي وهو فى الغار ، فأخبر خديجة بما رأى وسمع ، فصدقته وأخبرت ابن عمها ورقة ابن نوفل ، فقال: إنه لنبي هذه الأمة ، ثم آمن به على بن أبى طالب ، ومولاه زيد ابن حارثة ، وبدأ بدعوة قريش ، فأمن به أبو بكر ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم^(١) إلى أن انتشرت الدعوة فى قريش على كره ثم تحولت إلى العرب فالأنصار خاصة وإلى القبائل كلها وإلى الروم والفرس والحبشة .

وقبض ﷺ عام ٦٣٢ م بعد أن أحسن تبليغ الرسالة ، وأشهد الناس على أنه قام بواجب الدعوة سلما وحربا وقولا وفعلًا على أحسن وجه ، وبذلك فقد تعمقت جذور الإسلام فى الجليل الذى رباه محمد ﷺ وتركه وقد اطمأن إلى أن أصحابه سيقومون بالمهمة التى كان يقوم بها ، وبأنهم لن يخلوا فى سبيل الله بغال أو نفيس وهكذا حمل المسلمون الدعاة والمحاربون ، والعلماء والفقهاء والحفاظ ، والمحدثون ، وكل حمل من هذا الإسلام هما أداه على خير وجه ، وما زال - بعون الله تعالى - الأمر قائما إن بخل جيل ، فإن أجيالا لا تبخل ، وإن ضعفت أمة ، قامت غيرها من الأمم ، فى تناغم وتكامل وتوافق ووضوح وتفسير لما يستجد على أمة المسلمين ، وما يستجد على الفكر الإسلامى ، وما يمكن أن يكون تحديا أو توافقا لما عند المسلمين من علوم ومعارف وموارث واجتهادات .

والأمر الثالث: هو القرآن الكريم: والذى نحن بصدد الحديث عنه فى هذا السفر ؛ لنقف على ما ذكره الله - تعالى - فى جملة ما حوى القرآن الكريم من معارف وعلوم ومعجزات ، وهو المعجزة الدائمة التى أرادها الله - تعالى - للناس كافة ،

(١) الموسوعة العربية الميسرة: إشراف محمد شفيق غريال ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٩٨٧ ،

وحملة هذه الأمانة بين الناس هم المسلمون ، كل حسب ما حباه الله- تعالى- من قوة ومعرفة وصبر وجهد ، وإيمان حتى يكون الإسلام دين الناس جميعا الذى ارتضاه الله- تعالى- لعباده... ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] .
والقرآن الكريم بخلوده ، وتحدياته للخلق جميعا الإنس والجن قائم دائم.... انهزم أمام تحدياته الكثيرون ، وما زال آخرون يحاولون ، ولكنه يبقى هو الأثر الخالد ، وكلام الله- تعالى- الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد أن وقفنا على المكان والأمور المرتبطة بهذا القرآن نتقل بعد ذلك للحديث عن الزمان ، وعن ذكر هذا الكتاب متى نزل ، وكيف نزل ، وما هى صفاته الخالدات.

أما عن الزمان الذى نزل فيه القرآن الكريم: وموضوع النزول سنأتى على تفصيلاته فإن الله- تعالى- حدده بآيات ثلاث:

١- قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢- وقوله تعالى: ﴿ حَمِّمْ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [١] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۚ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٣﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤﴾ [الدخان].

٣- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ۚ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ [القدر].

((١))

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنْ

الْهَدَى وَالْفُرْقَانِ ﴿البقرة: ١٨٥﴾ ، أظن الشراح لهذه الآية الكريمة في ذكر شهر رمضان وفوائده ، باعتبار صومه أحد أركان الإسلام الخمسة ، ولم تأت شروحاتهم الطويلة على ذكر فضل القرآن الكريم ؛ لأنهم قد أفاضوا في مواضع أخرى ذكر كتاب الله في كتاب الله ، والإطناب والإطالة التي اختص بها رمضان الكريم..... اعتبروا من فضائله المتعددة نزول القرآن الكريم فيه.

وتحبيب آخر في أداء هذه الفريضة للصحيح المقيم (إنها صوم رمضان) الشهر الذي أنزل فيه القرآن ؛ إما بمعنى أن بدء نزوله كان في رمضان ، أو أن معظمه نزل في شهر رمضان ، والقرآن الكريم كتاب هذه الأمة الخالد ، الذي أخرجها من الظلمات إلى النور ، فأنشأها هذه النشأة ، وبدلها من خوفها أمنا ، ومكن لها في الأرض ، ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة ولم تكن من قبل شيئا ، وهي بدون هذه المقومات ليست أمة ، وليس لها مكان في الأرض ، ولا ذكر في السماء فلا أقل من شكر الله على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى الشهر الذي نزل فيه القرآن^(١).

وفي مجال الأحكام التي استخلصها القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) لهذه الآية يقول^(٢) في الحكم الثامن: الثانية: قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ نص في أن القرآن نزل في شهر رمضان ، وهو يبين قوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٢﴾ [الدخان] ، يعني ليلة القدر ، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر] ، وفي هذا دليل على أن ليلة القدر إنما تكون في رمضان لا في غيره . ولا خلاف أن القرآن الكريم أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة ، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم كان جبريل عليه السلام ينزل به منجما في الأوامر والنواهي والأسباب ، وذلك في عشرين سنة. وقال ابن عباس: أنزل القرآن من

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق ، ط شرعية ١٦ / ١٩٩٠ . بيروت - لبنان ١ / ١٧١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - دار إحياء التراث العربي . بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٩٧

اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في سماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل عليه السلام منجما - يعنى الآية والآيتين - فى أوقات مختلفة فى إحدى وعشرين سنة. وقال مقاتل فى قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ قال: أنزل من اللوح المحفوظ كل عام فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا ثم نزل إلى السفرة من اللوح المحفوظ فى عشرين شهرا ، ونزل به جبريل فى عشرين سنة.

قلت: وقول مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع: « أن القرآن أنزل جملة واحدة » والله أعلم . وروى واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ أنه قال: « أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان ، والتوراة لست مضمين منه ، والإنجيل ثلاث عشرة ، والقرآن لأربع وعشرين ».

قلت: وفى هذا الحديث دلالة على ما يقوله الحسن: أن ليلة القدر تكون ليلة أربع وعشرين ، وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان هذا.

قوله تعالى: ﴿ الْقُرْآنَ ﴾ : القرآن: اسم لكلام الله تعالى ، وهو بمعنى المقروء ، للمشروب يسمى شرباً ، والمكتوب يسمى كتاباً ، وعلى هذا قيل: هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً بمعنى. قال الشاعر:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أى قراءة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر: أن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا . (أى قراءة). وفى التنزيل: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] ، أى قراءة الفجر ، ويسمى المقروء قرآنا على عادة العرب فى تسميتها المفعول باسم المصدر ؛ كتسميتهم للمعلوم علما ، وللمضروب ضربا ، وللمشروب شربا ، كما ذكرنا ، ثم اشتهر الاستعمال فى هذا واقترن به العرف الشرعى ، فصار القرآن اسما لكلام الله ، حتى إذا قيل: القرآن غير مخلوق ، يراد به المقروء لا القراءة لذلك.

وقد يسمى المصحف الذى يكتب فيه كلام الله قرآنا توسعا ؛ وقد قال ﷺ: « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو »، أراد به المصحف . وهو مشتق من قرأت الشيء

جمعته ، وقيل: هو اسم علم لكتاب الله ، وغير مشتق كالتوراة والإنجيل. وهذا يحكى عن الشافعى. والصحيح: الاشتقاق فى الجميع ، وسيأتى.

قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ « هدى » فى موضع نصب على الحال من القرآن ، أى: هاديا لهم ، ﴿ وَبَيَّنَّتِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] عطف عليه ، و « الهدى » الإرشاد والبيان كما تقدم ؛ أى بيانا لهم وإرشادا ، والمراد القرآن بجملته من محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ ؛ ثم شرف بالذكر والتخصيص البيئات منه يعنى الحلال والحرام ، والمواعظ والأحكام ﴿ وَبَيَّنَّتِ ﴾ جمع بيئة ، من بان الشيء يبين إذا وضع (والفرقان) ما فرق بين الحق والباطل.

وهكذا يظهر أول زمان لذكر نزول القرآن: هو فى شهر رمضان ومع الإشارة إلى الليلة المباركة التى نزل فيها القرآن الكريم ، فإن تفصيلات هذه الليلة سترد فى الآيات التالية فى سورة الدخان ، وسورة القدر .

((٢))

قال تعالى: ﴿ حَمِّمْ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٣﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ [الدخان] ، نقلنا الآيات إلى هذا الباب ، وقد صنفنا فى باب الكتاب ؛ لأن البحث استدعانا لنجعل ذكر نزول القرآن فى بداية هذا السفر ، وذكر هذه الآيات هنا لا يمنع الإشارة إليها فى موضعها بإذن الله ، وقد استقلت الآيات فى افتتاح سورة الدخان بتحديد ليلة مباركة غير مسماة لهذا التنزيل ، ويضيق الزمن من شهر رمضان إلى ليلة مباركة دون تسميتها وألحقت بالإنذار ، ومجريات هذه الليلة التى سيرد شرحها تفصيلاً .

تبدأ سورة الدخان بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد ، وإنذاراً لهم وتحذيراً ، وتعريفاً للناس بربهم ،

رب السموات والأرض وما بينهما ، وإثباتاً لوحديته ، وهو المحيي المميت ، رب الأولين والآخرين .

وتبدأ غيرها من سور القرآن الكريم بالحرفين ، « حا ، ميم » على سبيل القسم بهما وبالكتاب المبين المؤلف من جنسهما . فأما القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية ، أو آية من آيات الله في تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه .

وكلها حقائق عظيمة تكبر في القلب كلما تدبرها مجردا عن واقع الألفة والعادة الذي يذهب بكل جديد .

فأما المقسم عليه ، فهو تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ﴿ أَمَّا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الدخان] .

والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن : هي - والله أعلم - الليلة التي بدأ فيها نزوله ، وهي إحدى ليل إلى رمضان الذي قيل فيه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، والقرآن لم ينزل كله في تلك الليلة ، كما أنه لم ينزل كله في رمضان ، ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ، وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة .

وإنها لمباركة حقا تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتي يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر ؛ والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتليها في هوادة ، وتقيم على أساسها عالما مستقرا على قواعد الفطرة واستجاباتها ، متناسقا مع الكون الذي يعيش فيه ، طاهرا نظيفا كريما بلا تعمد ولا تكلف ، يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولا بالسماء في كل حين ^(١) .

وأجمع المفسرون على أن هذه الليلة المباركة : هى ليلة القدر التى سيأتى ذكرها صراحة فى سورة القدر ﴿لَيْلَةُ مُبَرَّكَةٍ﴾ هى ليلة القدر ، ابتدئ فيها إنزال القرآن ، أو أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ؛ مباركة لأن نزول القرآن سبب للمنافع الدنيوية والدينية ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مخوفين به ، أقسم الله - سبحانه - بالقرآن العظيم ، الذى هو الكتاب الموضح لكل ما يحتاجه الإنسان من أمور الدنيا والدين على أنه أنزل القرآن فى ليلة كثيرة الخيرات ، التى هى ليلة القدر ، أى بدئ بإنزاله فى ليلة القدر ، من ليالى رمضان ، واستمر نزوله منجماً ثلاثاً وعشرين سنة أو أنزل كله فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا .

إننا كنا بهذا القرآن منذرين للناس من العذاب الأليم فى الآخرة ، إذا اقترفوا الذنوب والمعاصى ؛ ومُعَلِّمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً ؛ لتقوم حجة الله على عباده .

وسبب نزوله فى ليلة القدر ما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ، أى فى ليلة القدر يفصل ويبين الأمر المحكم ، فيكتب فيها ما يكون فى السنة من الآجال والأرزاق ، من خير وشر ، وحياة وموت ، وغير ذلك ، أو ما يكون من أمور محكمة لا تبدل فيها ولا تغيير ، بتشريع الأحكام الصالحة لهداية البشر فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، فالحكيم : معناه ذو الحكمة ، وإنما أنزل القرآن فى هذه الليلة خصوصاً ؛ لأن إنزال القرآن أشرف الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر ذى حكمة وقد دلت هذه الآيات على تعظيم الله - تعالى - القرآن فى هذه الآيات بأمر أهمها :

(١) أقسم به ، والله لا يقسم إلا بشئ عظيم ، والله أن يقسم بما شاء فى أى وقت يشاء .

(٢) أقسم به على أنه أنزل فى ليلة مباركة ، هى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة .

(٣) وصف الله ليلة إنزال القرآن بأنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، قال ابن عباس وغيره : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق ، وقال ابن عمر : إلا الشقاء والسعادة ؛ فإنهما لا يتغيران .

(٤) وصف الله القرآن بكونه كتابا مبينا .

(٥) الغاية من القرآن إنذار البشر وتخويفهم العذاب ؛ ليصلح حالهم في الدنيا .

(٦) إن إنزال القرآن كان بأمر الله ومن عنده .

(٧) كان إنزاله رحمة من الله بعباده .

(٨) كان إنزاله محققا لمصالح الناس وحاجاتهم ؛ لأن الله هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما . وهو الواحد القهار ، يحيى الأموات ، ويميت الأحياء ، فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء . ومالك الناس عند نزول القرآن ، ومالك من تقدم منهم ، ومالك من سيوجد إلى يوم القيامة ، فما على الناس إلا اتقاء تكذيب النبي محمد ﷺ لئلا ينزل بهم العذاب ^(١) .

وأنزل القرآن الكريم في غار حراء في ليلة القدر من شهر رمضان ، حمله جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ منجما مفرقا في ثلاث وعشرين سنة ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

ولقد عاش الذين أنزل القرآن عليهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء موصولين مباشرة بالله ، يطالعهم أولا بأول على ما في نفوسهم ، ويشعرهم أولا بأول بأن عينه عليهم ، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة ، وحساب هذه الرعاية ، في كل حركة وكل هاجسة تخطر في ضمائرهم ، يلجؤون إليه أول ما يلجؤون ، واثقين أنه قريب مجيب .

ومضى ذلك الجليل وبقي بعده القرآن كتابا مفتوحا موصولا بالقلب البشري ، يصنع به حين يفتح له مال يصنعه السحر ، ويحول مشاعره بصورة تحسب أحيانا

(١) التفسير المنير : د . وهبة الزحيلي ٢٥ / ٢٠٤ فما بعدها بتصرف .

فى الأساطير .

وبقى هذا القرآن منهجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية فى كل بيئة وفى كل زمان حياة إنسانية تعيش فى بيئتها وزمانها فى نطاق ذلك المنهج الإلهى المتميز الطابع بكل خصائصه دون تحريف ، وهذه سمة المنهج الإلهى وحده . وهى سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية .

إن البشر يصنعون ما يغنى مثلهم ، وما يصلح لفترة من الزمان ، ولظرف خاص من الحياة ، فأما صنعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال ، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات فى كل ظرف وفى كل حين ، جامعة بين ثبات الحقيقة ، وتشكل الصورة فى اتساق عجيب .

أنزل الله هذا القرآن فى هذه الليلة المباركة ، أولا للإنذار والتحذير: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ، فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه ، وحاجته إلى الإنذار والتنبيه .

وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلا وفارقا بهذا التنزيل ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، وقد فرق فيها بهذا القرآن فى كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد ، والباطل الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ، فلم يبق هناك أصل من الأصول التى تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم فى دنيا الناس ، كما هو واضح ومرسوم فى الناموس الكلى القديم وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته فى إرسال الرسل للفصل والتبيين ^(١) .

وهكذا بدت فى تلك الآيات معالم تلك الليلة المباركة التى نزل فيها القرآن إما إلى سماء الدنيا ، أو أول نزول آياته على قلب محمد ﷺ ، وعلى الرغم من تجاوز الأحداث والأزمان ، فإنه ما زال معنا المتسع للتوسع فى ذكر ليلة القدر ، وفحوى سورة القدر التى لم يعد فيها الإمكان إخفاء ما لا يخفى من حيث التوضيح المطلق لمعرفة ميزات هذه الليلة عدا ما تقدم من فضائلها وبعض من مميزاتها .

وهذا يظهر جليا كل التفصيلات التي أحاطت بنزول القرآن الكريم عن حامل القرآن وناقله إلى محمد (جبريل) عليهما السلام ، ومبلغ القرآن إلى الناس وشارحه لهم « محمد » ، وهذا الكتاب الخالد الذي سندخل - بعون الله وتوفيقه - في ذكر خصائصه وصفاته . وننتقل إلى سورة القدر .

((٣))

في الموضع الثالث الذي ذكر فيه التنزيل ، شهر رمضان ، والليلة المباركة تتضح الصورة أكثر فأكثر في سورة القدر : قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ [القدر] ، الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة ، التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهاج ، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملا الأعلى ، ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ﷺ ، ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته ، وفي دلالاته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعا ، العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

والنصوص القرآنية التي تذكر هذا الحدث تكاد تزف وتثير ، بل هي تفيض بالنور الهادي الساري الرائق الودود ، نور الله المشرق في قرآنه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ ، ونور الملائكة والروح وهم في غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملا الأعلى .

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ ، ونور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقا مع نور الوحي ونور الملائكة ، وروح السلام المرفرف على الوجود ، وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ ، واسمها «ليلة القدر» قد يكون معناه : التقدير والتدبير ، وقد يكون معناه : القيمة والمقام ، وكله يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم ، حدث القرآن

والوحى والرسالة ، وليس أعظم منه ولا أقيم فى أحداث هذا الوجود ، وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير فى حياة العبيد ، وهى خير من ألف شهر ، والعدد لا يفيد التحديد ، فى مثل هذه المواضع من القرآن ، إنما هو يفيد التأكيد ، واللييلة خير من آلاف الشهور فى حياة البشر ، فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك فى الحياة بعض ما تركته هذه اللييلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات .

واللييلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشرى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ، وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التى شاعت حول هذه اللييلة فى أوهام العامة ، فهى ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل القرآن الكريم ، وإفاضة هذا النور على الوجود كله ، وإسباغ السلام الذى فاض من روح الله على الضمير البشرى والحياة الإنسانية ، وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام فى الأرض والضمير ، وتنزيل الملائكة وجبريل - عليه السلام - خاصة بإذن ربهم ، ومعهم هذا القرآن - باعتبار جنسه الذى نزل فى هذه اللييلة - وانتشارهم فيما بين السماء والأرض فى هذا المهرجان الكونى ، الذى تصوره كلمات السورة تصويراً عجبياً .

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة ، إلى تلك اللييلة المجيدة السعيدة ، ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذى شهدته الأرض فى هذه اللييلة ، ونتدبر حقيقة الأمر الذى تم فيها ، ونتمثل آثاره المتطاولة فى مراحل الزمان ، وفى واقع الأرض ، وفى تصورات القلوب والعقول ، فإننا نرى أمراً عظيماً حقاً ، وندرك طرفاً من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك اللييلة .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ، لقد فرق فيها كل أمر حكيم ، وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازن ، وقد قررت فيها أقدار أكبر من أقدار الأفراد ، أقدار أمم ودول وشعوب ، بل أكثر وأعظم ، أقدار حقائق وأوضاع وقلوب وقد تغفل البشرية لجهالتها ونكد طالعتها - عن قدر ليلة القدر ، وعن حقيقة ذلك الحدث ، وعظمة هذا الأمر ، وهى منذ أن جهلت هذا وأغفلته ، فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها ، وخسرت السعادة والسلام الحقيقى - سلام الضمير ، وسلام البيت ،

وسلام المجتمع - الذى وهبها إياه الإسلام ، ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب ، كل شىء فى المادة والحضارة والعمارة ، فهى شقية ، شقية - على الرغم من فيض الإنتاج ، وتوافر وسائل المعاش : وطلاقة الرفرفة إلى عليين . ونحن - المؤمنین - مأمورون ألا ننسى ولا نغفل عن هذه الذكرى .

وقد جعل لنا نبينا ﷺ سيلاً هيناً لنا لإحياء هذه الذكرى فى أرواحنا لتظل موصولة بها أبداً . موصولة كذلك بالحدث الكونى الذى كان فيها ، وذلك فيما تعودنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام . ومن تحريها والتطلع إليها فى الليالى العشر الأخيرة من رمضان . فى الصحيحين : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » . وفى الصحيحين كذلك : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ^(١) ، هذه الليلة المنيرة الوضيئة التى نزل فيها القرآن ، سواء من الملائكة إلى السماء الدنيا ، أو لقاء جبريل الأول مع النبى الأُمى ﷺ ليلقنه أول آيات القرآن ، ويهيئه ليلقاه فى كل وقت أمره الله - تعالى - به أن تنزل آيات القرآن الكريم عليه ، فإن عظمة الليلة التى تنزل فيها الملائكة ، وهى خير من ألف شهر ليتبين للمؤمنين جلالة المناسبة وعظمة الحدث ، وقدسية الزمان الذى نزل فيه القرآن . إن ليلة القدر بما وصفها الله - تعالى - بتلك الأوصاف الموجزة والتى تملأ باتساعها الأرض والسماء ، إنما هو تعبير عن عظمة كتاب الله التى فازت هذه الليلة بنزوله فيها فبوركت به ، وعظمت من أجله ، وغمرت الكون بالنور والضياء يتكرر حدوثها فى كل عام ؛ لتكون على المؤمنين سلاماً ، وعلى الدنيا سلاماً ، فهى ﴿ سَلَمٌ هِىَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾ ، ليلة كهذه وهى خير من ألف شهر ، أضحت فى ضمير المسلمين ، وفى قلوب المؤمنين ، يذكرون قدرها ، ويتبعون توجيه المصطفى ﷺ بقيامها وإحيائها ، والتماس الخير الذى ينزل فيها على من أراد الله - تعالى - من عباده الصالحين ؛ ليزيد نور قلوبهم ، وسلامة نفوسهم وهدأة أعصابهم ، فهى خير ، وسلام ، ونور ، ففيها قد نزل القرآن الكريم .

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٤٤ فما بعدها - بتصرف .

معنى لفظ القرآن

إن الابتداء بصفة « القرآن » في كتاب الله - تعالى - لها دلالاتها فالقرآن بهذه الصفة قد تميز تماما عما سواه ، فلا يشاركه في هذه التسمية أى شىء يدرك بالقراءة ؛ وذلك أن الله - تعالى - قد أعطاه الكثير من الأسماء ، لكن ميزه بلفظ « القرآن » ، قول الله - تعالى - كما سيرد لاحقا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة: ١١١] ، ذكره هنا بالقرآن تميزا عن بقية الكتب المقدسة المتداولة بين أتباع الديانات السماوية - ميزه عن الإنجيل والتوراة والزبور. ويعرف القرآن بالقرآن وأوصافه الأخرى ربما يشاركه فيها أشياء أخرى ؛ كالكتاب والوحى والتنزيل.... إلخ ، تلك الصفات التى اتصف بها القرآن ، ومن هنا ، فقد ارتأينا أن نبدأ بالقرآن ؛ لأنه أكثر تميزا ، وأكثر فهما لدى الناس ، ولو أن كلمات كالفرقان تعنى تماما القرآن ، لكنه ذكر بهذه الصفة ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ؛ ولأن المعركة بين الحق والباطل قائمة قديما وحديثا ومستقبلا ، وستبقى إلى أن يتحقق أمر الله ، فالقرآن ابتداء آياته بلفظ القراءة ، ولو أنه لم يذكر فى مكان نزوله بهذا الاسم ، لكنه ذكر بالمشتق الأقرب بالعربية وخاصة بين إدراك الأمر بالقراءة ، فقال جبريل للرسول ﷺ : « اقرأ » .

(قرأ) الكتاب - قراءة وقرآنا: تتبع كلماته نظرا ونطق بها. وتبعب كلماته ولم ينطق بها ، وسميت (حديثا) بالقراءة الصامتة. و (الآية) من القرآن: نطق بالفاظها عن نظر أو حفظ فهو قارئ . (ج) قراء ، وعليه السلام قراءة : أبلغه إياه. والشىء قرأ وقرآنا: جمعه وضم بعضه إلى بعض.

أقرأ الرجل: تنسك . والنجوم: دنت من الطلوع أو الغروب. والرياح: هبت لأوانها. وفلانا جعله يقرأ. فهو مقرئ. ويقال: أقرأه القرآن و- أقرأه السلام: أى أبلغه إياه.

(قارأه) مقارأه ، وقراء : شاركه فى القراءة .

(اقترأ) القرآن والكتاب : قرأه .

(تقرأ) : تنسك ، وتفقه .

(استقرأه) : طلب إليه أن يقرأ .

(أقرأ) : اسم تفضيل من قرأ ، أى أجود قراءة .

(القرآن) : كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ ، المكتوب بالمصاحف .

والقراءة - ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة] أى . فاتبع قراءته .

(القراء) : الناسك المتعبد - والحسن القراءة للقرآن .

(المقرأة) : مكان فى مسجد أو ضريح يجتمع فيه حفاظ القرآن ليقرووه تبركا

به (ج) مقارئ^(١) .

والقرآن اصطلاحاً : كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، من بدء البعثة إلى وفاة الرسول ﷺ . فى صورته المكتوبة فى الكتب (المصاحف) بالرسوم المتفق عليها من المسلمين حسب القراءات - « حفص عن عاصم » ، و « ورش » ، وهى كلها من كلمات عربية متوافقة فى الأداء والمعنى واللفظ والنطق ، كما أنزلت على الرسول ﷺ وهو الكتاب المحفوظ فى اللوح المحفوظ ، وهو المتداول فى أحكامه بين الناس ، وهو المطلوب العمل بموجبه وبموجب أحكامه التى أمر الله الناس (المسلمين عنهم على الأقل) العمل بها وتطبيقها ، وهو المتعبد بقراءته برسمه فى المصاحف (الرسم العربى) ، فإذا كتب بأى حرف آخر سواء أكان اتباع اللفظ العربى أو كتابة المعنى فإنه يفقد التعبد به فلا يجوز التعبد إلا به لفظاً وشكلاً وحرفاً وصورة . كما لا يجوز التعبد بمعانيه التى كثرت بأشكال كثيرة ، فمنها ما هو بالعربية ، ومنها ما هو بلغات العالم كله ، والتى

(١) المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة - إبراهيم مصطفى وآخرون ٧٢١ / ٢ ، مادة قرأ .

لسان العرب مادة قرأ ، القاموس المحيط .

بلغت أكثر من مائة لغة منطوقة متداولة مع تعدد التفاسير والترجمات فى اللغات غير العربية.

القرآن الكريم الذى حفظه الله - تعالى - بعد أن تكفل بحفظه بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر] ، فهو كما نزل بأمانة بواسطة الأمين جبريل على الأمين محمد - عليهما السلام ، وبلغه الرسول ﷺ لفظا ورسما ومعنى وصورة للمسلمين الذين كان إيمانهم أداة الحفظ فى الصدور وفى وسائل الكتابة. القرآن الذى كتب وقرئ دون تغيير أو تبديل وما زال فى قلوب المسلمين كله . ولا يغيب لحظة من الزمان وفى أى مكان ذكر فى صلاة أو علم أو نقل أو استشهاد أو بحث أو دراسة ، أو حفظ ، أو تبرك ، وهو أكثر الكتب فى الدنيا طباعة وتداولاً حتى الآن ، ولا يخلو عقل مسلم ولا حياته من أمور تتعلق بالقرآن أو القرآن نفسه . والقرآن الكريم يحفظه من الله - تعالى - حجة على المسلمين جميعا ، وعلى الناس أجمع. إذ إن تداوله بهذا الشكل يجعله هو فقط النبراس الذى يضاء به ، والتشريع الذى يحكم ، والدستور الذى يحفظ للأمة وللناس حقوقهم وواجباتهم ، كتب بجميع الوسائل المعروفة قديما وحديثا ، وطبع بجميع الأحجام والأشكال والألوان ، والمتداولة من وسائل المعرفة. غلب عليه خط من خطوط العربية وهو (النسخ) ، ولا يعدم أن يكون هناك بعضا من المصاحف المخطوطة بالرقعة والفارسي والثلاث وغيرها من خطوط العربية.

أما محتواه: فقد تكفلت التفاسير ، ووساير المسلمين بالأخذ منه وتطبيقه فى الحياة ، وأما تداوله فقد تكفلت مدارس تعليمه على مدى انتشارها فى العالم على إخراج وطبعه وتوزيعه ، وتناقله بين المسلمين ، وهو الكتاب الحق الوحيد الباقي الخالد ، لم يتغير ولم يُحرف ولم يزد عليه أو ينقص منه ، كما جرت التحريفات على الكتب السماوية الأخرى كالإنجيل والتوراة ، والتى كتبت من الذاكرة بعد قبض النبى ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى. إنه القرآن الكريم الذى ورد ذكره بلفظ القرآن ، والكتاب ، والتنزيل ، والوحى ، والفرقان ، والذكر ، والآيات..... مما نرجو من الله المعونة لإتمام هذه الدراسة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة] ، فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة
 خيره ، ومنافعه ، وجلالته ؛ فإن الكريم: هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو
 من كل شىء أحسنه وأفضله ، والله - سبحانه وتعالى - وصف نفسه بالكرم ،
 ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره ،
 ومن النبات وغيره ؛ ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن . قال الكلبي: ﴿ إِنَّهُ
 لَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ ، أى حسن كريم على الله وقال مقاتل: كرمه الله وأعزه ؛ لأنه
 كلامه . وقال الأزهري: الكريم : اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال :
 ﴿ إِنَّهُ لَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ ، يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم: الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر ، وضده
 اللئيم الذى لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة ، وكذلك الكريم فى الناس
 واللئيم .

كتاب الله والقلم

أقسم الله - تعالى - بالقلم بعد أن ذكر (ن) أحد الأحرف النورانية ، وإذا لم يذكر كتاب الله - تعالى - بعد هذا الحرف ، كما ورد في أربع وعشرين سورة من القرآن الكريم ، كما سنوضح بالفصل اللاحق ، فإن الله - تعالى - قد ذكر أداة الكتابة : ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، وهذه الدلالة أدخلت هذه السورة مع بقية السور الأربع والعشرين ، وسورة طه في محيط واحد ، وهو ذكر القرآن الكريم بعد هذه الأحرف النورانية ، وتدرج فيما يلي أهمية هذا القسم وأهمية (ن) أحد الأحرف النورانية التي بدأت بها بعض سور القرآن الكريم.

أقسم سبحانه بـ ﴿ رَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، فأقسم بالكتاب وآله وهو القلم الذي هو إحدى آياته ، وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي ، وقيد به الدين ، وأثبتت به الشريعة ، وحفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد ، فوطدت به الممالك ، وأمنت به السبل والمسالك وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه ، وأنفعه لهم وأنصحه ، وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم وطيبا يبرئ بإذنه من أنواع الألم ، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك ، والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع ، فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم. ويودعها حكمه فتصير بوارد الفهوم ، والأقلام نظام للأفهام ، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان ، وتولد الحروف المسموعة عن اللسان . كتولد الحروف المكتوبة عن القلم ، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

والأقلام متفاوتة في الرتب ، فأعلاها وأجلها قدرا:

القلم الأول: قلم القدر السابق ، الذى كتب الله به مقادير الخلائق كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب ، قال: يا رب ، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » .

واختلف العلماء فى أى المخلوقات أسبق هل القلم أو المخلوقات أو العرش؟ على قولين: ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني: أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت فى الصحيح من حديث عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء » ؛ فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش ، والتقدير: وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا ، ولا يخلو قوله: « إن أول ما خلق الله القلم » إلى آخره ، إما أن يكون جملة أو جملتين ، فإن كان جملة - وهو الصحيح - كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: اكتب - كما فى لفظ: « أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب » بنصب أول ، والقلم فإن كانا جملتين وهو مروي برفع أول والقلم ، فيتعين حملة على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ؛ ليتفق الحديثان ، إذ حديث عبد الله بن عمر صريح فى أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم ، وفى اللفظ الآخر: « لما خلق الله القلم قال له: اكتب » ، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها ، وأجلها ، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذى أقسم الله - تعالى - به .

القلم الثانى: قلم الوحى ، وهو الذى يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدام لهم ، وإليهم الحل والعقد ، والأقلام كلها خدام لأقلامهم ، وقد رفع النبى ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام . فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحىه الله - تبارك وتعالى - من الأمور التى يدبر بها أمر العالم العلوى والسفلى .

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسله ، وهو قلم الفقهاء والمفتين ، وهذا القلم - أيضا - حاكم غير محكوم عليه ، فإليه التحاكم فى الدماء والأموال ، والفروج والحقوق ، وأصحابه يخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام ، وأقلام العالم خدام لهذا القلم .

القلم الرابع: قلم طب الأبدان ، التى تحفظ بها صحتها الموجودة ، وترد إليها صحتها المفقودة ، وتدفع به عنها آفاتهما وعوارضها المضادة لصحتها ، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان ، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياسة الملك ؛ ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام ، وهم المشاركون للملوك فى تدبير الدول ، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة ، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة ، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذى تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب ومبناه على الصدق والعدل ، فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم ، الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية ، فترد إلى اليد المحقة ، ويثبت به الإنسان ، وتنقطع به الخصومات . وبين هذا القلم ، وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ واللزوم ، وذلك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبت ، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق وتضان عن الإضاعة ، ويحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين على الدماء ، والفروج والأموال ، والأنساب والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته يستقيم أمر العالم ، ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير ، وهو كاتب وحى المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أريد منه ، وهو قلم شريف جليل ، مترجم للوحى المنامى ، كاشف له وهو من الأقلام التى تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته ، وتحريه للصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة مع علم راسخ ، وصفاء الباطن ، وحس مؤيد بالنور الإلهى ومعرفة بأحوال الخلق ، وهياتهم وسيرهم ،

وهو من لطف الأقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، مع سائر الموجودات علويها وسفليها ، وبالمضى والحال والمستقبل ، فتصرف هذا القلم فى المنام هو محل ولايته وكرسى مملكته وسلطانه.

القلم العاشر: قلم تواريخ العلم ودقائقه ، وهو القلم الذى تضبط به الحوادث ، وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العلم وحوادثه فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده ، فهو قلم المعاد الروحانى ، وهذا القلم قلم العجائب ، فإنه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك ، وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادى عشر: قلم اللغة ، وتفصيلها من شرح معانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها ، وأنواع دلالتها على المعانى ، وكيفية الدلالة ، وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الألفاظ ، وأعذبها وأسهلها وأوضحها ، وهذا القلم واسع التصرف جدا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

القلم الثانى عشر: القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، وتهافتهم ، وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل ، وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة ، الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم ، وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدل ، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدو لكل مخالف للرسل ، فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن^(١).

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلاله القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله - سبحانه - أقسم به فى كتابه ، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا بواسطة القلم . ولقد أبدع أبو تمام ، إذ يقول فى وصفه:

(١) التبيان فى أقسام القرآن ص ١٢٨.

لك القلم الأعلى الذى بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل
له ريقة طل ولكن وقعها بآثاره فى الغرب والشرق وإبل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجىها لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكى وأقبلت أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقدر رفدته الخنصران وسددت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه ، وهو قوله تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم] وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به ، وجدته دالا عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من عقل وافر ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الإتيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتابا ولا يخط يمينه ، مع كونه فى أعلى أنواع الفصاحة سليما من الاختلاف ، برياً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم ، فكيف يأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه؟ ! وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟^(١)

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة ، ولو أن رجلا أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر ، متساوية الأجزاء ليصدق بعضها بعضا ، أو قال قصيدة كذلك ، أو صنف كتابا كذلك لشهد له العقلاء بالعقل ، ولما استجاز أحد رمية بالجنون مع إمكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والإثبات

بمثلها أو أحسن منها ، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء ، وخضعت له أبواب الأولياء ، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له ، والانقياد والإذعان طائفة مختارة ، وهى ترى عقولها أشد فقرا وحاجة إلى ما جاء به ، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟ فهو الذى كمل عقولها ، كما يكمل الطفل برضاع الثدي ؛ ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق ، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفه ظهر لك التفاوت بينها ، ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى ، فكيف يكون متبوعهم مجنونا وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم ، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه^(١).

(١) التبيان فى أقسام القرآن : ابن قيم الجوزية - دار الفكر للطباعة والنشر ، ص ١٢٨ - ١٣٤ .

لا يمسه إلا المطهرون

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۖ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة].

قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ، اختلف المفسرون في هذا ؛ ف قيل : هو اللوح المحفوظ ؛ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، وهو المذكور في قوله - تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [الأنعام] ، بأيدي سَفَرَةٍ ﴿ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس] ، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة بقوله : ﴿ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ؛ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسه ، وهذا هو الصحيح في معنى الآية . ومن المفسرين من قال : إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر ، والأول أرجح لوجوه :

أحدها : أن الآية سبقت تنزيلها للقرآن أن تنزل به الشياطين ، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون ، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسه ، كما قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ [الشعراء] ، فنفي الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ، ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه ، فإن الفعل قد ينتفى عن من يحسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه ، فنفي عنهم الأمور الثلاثة ، وكذلك قوله في سورة عبس : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [الأنعام] ، بأيدي سَفَرَةٍ ﴿ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس] فوصف محلهم بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقدير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

الوجه الثاني : أن السورة مكية ، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة ، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظانه السور المدنية .

الوجه الثالث : أن القرآن الكريم لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا في حياة رسول الله ﷺ ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر ، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي ، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه .

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ ﴾ [الواقعة] ، والمكنون: المصون المستتر عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر ، كما قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَّكْنُونٌ ۝ ﴾ [الصفات] . وهكذا قال السلف ، قال الكلبي: مكنون من الشياطين . وقال مقاتل: مستور ، وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار ، وقال أبو إسحاق: مصون في السماء يوضحه.

الوجه الخامس: أنه وصفه بكونه مكنونا ، نظير وصفه بكونه محفوظا ، فقوله: ﴿ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ ﴾ ، كقوله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝ ﴾ [البروج] ، يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين ، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله - تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ ﴾ [الواقعة] بالرفع ؛ فهذا خبر لفظا ومعنى ، ولو كان نهيا لكان مفتوحا ، ومن احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي ، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: إنه قال: ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ ﴾ ولم يقل: «إلا المتطهرون» ولو أراد به منع الحدث من مسه لقال: «إلا المتطهرون» ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝ ﴾ [البقرة] ، وفي الحديث الشريف: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»^(١) ، فالمتطهر: فاعل التطهير ، والمطهر الذي

(١) رواه الترمذی عن أبي إدريس الخولاني عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «(من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء)» ، قال الترمذی: ((وهذا حديث في إسناده اضطراب ، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كثير شيء . قال البخاري : أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئا)). حاشية البيان ص ١٤٣ .

طهره غيره ، فالمتوضىء: متطهر ، والملائكة: مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الإخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة ، إذ مجرد كون الكلام مكنونا فى كتاب لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا فى كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية: إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص التى تدل على أنه منزل من عند الله وأنه محفوظ ومصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمس محله إلا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور فى سننه . حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا عن عاصم الأحول ، عن أنس بن مالك فى قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: المطهرون: الملائكة . وهذا عن طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع . وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا فى حكم المرفوع ، ومن لا يجعله مرفوعا فلا ريب أن عنده أصح من تفسير الصحابة ، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم ، وقال حرب فى مسائله: سمعت إسحاق فى قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: النسخة التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون . قال: الملائكة.

ويقول ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام^(١) يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمس المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة إذا كانت الصحف التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها إلا طاهر والحديث مشتق من هذه الآية . وقوله: « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » ، رواه أهل السنن من حديث الزهرى ، عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى أهل اليمن فى السنن والفرائض والديات: « ألا يمس القرآن إلا طاهر » . قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحا . وقال - أيضا: لا شك أن رسول الله ﷺ كتبه . قال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عن أهل السير معروف عند أهل العلم ، معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد ؛ لأنه أشبه التواتر فى مجيئه ، لتلقى الناس له

(١) يعنى شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ، التبيان - ابن القيم ، ص ١٤٤

بالقبول والمعرفة ، ثم قال : وهو كتاب معروف عن العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا ، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه ، ومالك فى موطئه ، وفى المسألة آثار أخرى مذكورة فى غير هذا الموضع ، ودلت الآية الكريمة : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، وإشاراتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى .

قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به ، وهو - أيضا - من إشارة الآية وتنبهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم به حقا ، وأنزله على رسوله وحيا ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يؤمن بأن الله - سبحانه - تكلم به وحيا وليس مخلوقا من جملة مخلوقاته ، ففى قلبه منه حرج ، ومن قال : إن له باطنا يخالف ظاهره ، وإن له تأويلا يخالف ما يفهم منه ، ففى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له تأويلا لا نفهمه ولا نعلمه ، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففى قلبه منه حرج .

ومن سلط عليه آراء الأرائيين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين ، ففى قلبه منه حرج .

ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده فى دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يحكم به ظاهرا و باطنا فى أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ففى قلبه من حرج .

ومن لم ياتم بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى قلبه منه حرج .

وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون

من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم ، وأنت إذا تأملت قوله:
﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة] ، وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ
وإيمائه وإشارته وتنبهه ، ويقاس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت
المشابهة التي عقدها الله - سبحانه وتعالى - وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه
المعاني كلها من الآية - وبالله التوفيق^(١).

القرآن - الأحرف النورانية - معجزة النطق

ومن ذلك قوله - تعالى: ﴿رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ [القلم] ، الصحيح: أن (ن) و(ق) و(ص) من حروف الهجاء ، التي يفتح بها الرب - سبحانه - بعض السور.

وهي أحادية: (ن) ، (ق) ، (ص).

وثنائية: (ح م) ، (ى س) ، (ط س) .

وثلاثية: (ال م) ، (ال ر) ، (ط س م) .

ورباعية: (ال م ر) ، (ال م ص) .

وخماسية: (ك هـ ى ع ص) ، (ح م ع س ق) .

ولم تذكر قط فى أول سورة إلا وأعقبها بذكر القرآن ، إما مقسما به ، أو مخبرا عنه ، كقوله تعالى: ﴿الْمَ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢] وقوله: ﴿الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ ﴿٢﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿الْمَصَّ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف] ، وقوله تعالى: ﴿الْمَرَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ١] ، وهكذا ما خلا أربع سور^(١) ، وهى (مريم ك هـ ى ع ص) ، و (العنكبوت أ ل م) ، و (الروم أ ل م) ، و (القلم ن) ، وتتقارب سورة القلم لأن الله قد أقسم بأداة الكتابة ﴿رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿١﴾ الذى كتب به القرآن وغيره من الكتب^(٢) السماوية ، وكل المعارف والعلوم فى حياة الإنسان.

ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالتها ؛ إذ هى مبانى كلامه وكتبه التى تكلم - سبحانه - بها ، وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده

(١) وفى الأصل (مريم - كهيعص والقلم - ن).

(٢) انظر بحث سابق .

وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله وأمره ، ونهيه ، ووعيده ووعده ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن والقيح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى ما فى أنفسهم ، بأسهل طريق ، وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله إلى المقصود ، وأدله عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم ، كما هو من أعظم آياته ؛ ولهذا عاب - سبحانه - على من عبد إلها لا يتكلم ، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم ، فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه ، فهى أولى أن يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات ، فهى دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله ، وكلامه ، وصدق رسله ^(١) .

وقد جمع - سبحانه - بين الأمرين - أعنى القرآن ونطق اللسان - وجعله تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه .

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن] ، فهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وفيها انتظمت مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وبها أمكن تنقلها فى الأذهان ، وكم جلبت بها من نعمة ، ودفع بها من نقمة ؟ وأقيلت بها من عثرة ، وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة ، وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل .

فآياته - سبحانه - فى تعلم البيان كآياته فى خلق الإنسان ، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب ، فسبحان من هذا صنعه فى هواء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم فى الحلقوم ، وينفرش شىء فى أقصى الحلق ، ووسطه ، وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا ، وفى الشفتين والخيشوم ، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له ، فإذا هو حرف فألهم - سبحانه - الإنسان بضم بعضها إلى بعض ، فإذا هى كلمات قائمة بأنفسها ، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى

بعض ، فإذا هو كلام دال على أنواع المعاني أمرا ونهيا ، وخبرا ، واستخبارا ، ونفيا ، وإثباتا ، وإقرارا وإنكارا وتصديقا ، وتكذيبا ، وإيجابا ، واستحبابا ، وسؤالا وجوابا إلى غير ذلك من أنواع الخطاب نظمه ونثره ، وجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغة الخلائق: كل ذلك صنعته - تبارك وتعالى - في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، في مجاز قد هيئت وأعدت لتقطيعه ، وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحروف التي بها تتكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل ، وإذا كان هذا شأن الحروف ، فحقيق أن تفتح بها السور ، كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية ، وأدلة الوجدانية ، فهي دالة على كمال قدرته - سبحانه - وكمال علمه وكمال حكمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه ، وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة ، فبنى من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن القرآن كلام الله ، تكلم به حقا ، وأنزله على رسوله وحيا ، وبلغه كما أوحى إليه صدقا ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بها الحروف ، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها ، وبالله التوفيق^(١).

ثم جاءت الأحرف لتدل على صدق رسالة محمد ﷺ ومن ذلك: ﴿ حَمَّ ۝١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الدخان] ، وقوله - تعالى: ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ ﴾ [ص] ، وقوله: ﴿ يَسَّ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ [يس] .

والصحيح أن (ي س) بمنزلة (ح م) ، و (أ ل م) ليست من أسماء النبي ﷺ وأقسم الله - سبحانه - بكتابه على صدق رسوله ، وصحة نبوته ورسالته ، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه . وقوله - تعالى: ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١ ﴾ [يس] ، وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أى: أرسلتك على صراط ،

وهذا يحتاج إلى بيان وتقدير المجعولين على صراط مستقيم ، وكونه من المرسلين مستلزماً لذلك فاستغنى عن ذكره^(١) .

بدأ الحق - سبحانه وتعالى - بعض السور المكية أو المدنية القرآنية ببعض حروف التهجي ، أو الحروف المقطعة:

منها: البسيط المؤلف من حرف واحد . وذلك في سور ثلاث: (صاد قاف ونون (القلم) إذ افتتحت الأولى بحرف (ص) ، والثانية بحرف (ق) والثالثة بحرف (ن).

ومنها: فواتح عشر سور مؤلفة من حرفين: سبع منها متماثلة تسمى (الحواميم) ؛ لابتدائها بحرفي (حم) ؛ وهى سور: (غافر ، وفصلت ، والشورى والزخرف ، والدخان ، والجن ، والأحقاف وتتمة العشر سور طه ، وطس ، ويس) . أما الشورى فبعتها آية أخرى ثلاث هى ع س ق .

ومنها: فواتح ثلاث عشرة سورة مركبة من ثلاثة أحرف ، ست منها بدأت بـ (الم) وهى سورة (البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة) ، وخمس منها بلفظ: (الر) وهى سور: (يونس وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر) ، واثنان بدئت بـ طسم ، وهما سورتا (الشعراء ، والقصاص) .

ومنها: سورتان افتتحتا بأربعة أحرف ، وهى سورة (الأعراف) فافتحتها: (المص) ، وسورة (الرعد) وافتحتها (المر) ، عدد السور التى افتتحت بالأحرف النورانية ثمان وعشرون على عدد حروف الهجاء .

ومنها: سورة واحدة افتتحت بخمسة أحرف هى سورة (مريم) ومستهلها (كهيعص) ، فصارت مجموعة الفواتح القرآنية تسعا وعشرين^(٢) ، وهى على ثلاثة عشر شكلاً: (ا ل م ، ا ل م ص ، ا ل ر ، ط س م ، ط س ، ي س ، ص ، ح م ، ح م ع س ق ، ق ، ن ، ك ه ي ع ص ، ا ل م ر) .

وحروفها أربعة عشر ، وهى نصف الحروف الهجائية (أ ، ل ، م ، ص ، ر ، ط ،

(١) التبيان ، فصل ، ١٤٨ ، ص ٢٧١ .

(٢) السور ثمان وعشرون ؛ إذ إن طه ليست من الأحرف النورانية الفواتح واعتبرها أكثر المفسرين

س ، هـ ، ن ، ح ، ع ، ق ، ك ، ي ^(١) .

وقد اختلف أهل التأويل والمفسرون في بيان المقصود من فواتح السور: فقال جماعة: هي سر الله في القرآن ، والله في كل كتاب سر ، وهي مما استأثر الله بعلمه ، فهو من المتشابه الذي نؤمن به ، على أنه من عند الله ، دون تأويل ولا تعليل ، لكنه أمر مفهوم عند النبي ﷺ .

وقال جماعة: لا بد أن يكون لذكره معنى وجيه ، والظاهر أنه إيجاء لإقامة الحجة على العرب وتثبيتته في أسماعهم وآذانهم ، بعد أن تحداهم القرآن على أن يأتوا بمثله ، علما بأن القرآن مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم .

فكأنه يقول لهم: كيف تعجزون عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه؟ مع أنه كلام عربى ، مكون من حروف هجائية ، ينطق بها كل عربى ، أمى أو متعلم ، وهم أساطين البيان ، وفرسان الفصاحة والبلاغة ، ويعتمدون على هذه الحروف فى الكلام ، نثره وشعره ، وخطابته وكتابته ، وهم يكتبون بهذه الحروف ، ومع هذا ، فقد عجزوا عن مجارة القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، فقامت الحجة عليهم أنه كلام الله ، لا كلام البشر ، فيجب الإيمان به ، وتكون الفواتح الهجائية تقريعا لهم ، وإثباتا لعجزهم أن يأتوا بمثله ، لكنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ، كانوا مكابرين معاندين فى عدم الإيمان به ، وقالوا ببلاهة وسخف وسطحية وسذاجة عن محمد والقرآن : محمد ساحر ، شاعر ، مجنون ، والقرآن : أساطير الأولين ، وذلك كله آية الإفلاس ، ومظهر الضعف ، وفقد الحجة ، وكذب المعارضة والممانعة ، وكفر المقلدة ، والعكوف على التقاليد العتيقة البالية والعقائد الوثنية الموروثة الخرقاء .

والرأى الثانى هو رأى جماهير المفسرين والمحققين من العلماء ، وهو المعقول المقتضى فتح الأسماع ، واستماع القرآن والإقرار بأنه كلام الله تعالى ^(٢) .

(١) انظر : مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح : ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) التفسير المنير : د . وهبة الزحيلي . دار الفكر المعاصر ١ / ٢٨ ، ٢٩ .

يقول الإمام القرطبى^(١): اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور فقال عامر والشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هى سر الله فى القرآن ، والله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله - تعالى - بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن تؤمن بها وتقرأ كما جاءت ، وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق ، وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - وذكر أبو الليث السمرقندى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر ، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطعة فى القرآن إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله - جل وعز - بها .

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى... عن الربيع بن خيثم قال: إن الله - تعالى - أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به لنفسه ، فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه ، فهو الذى تسألون عنه وتجربون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون.

قال أبو بكر: فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم ، اختبارا من الله - عز وجل - وامتحانا ، فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومن كفر وشك أثم وبعد ، حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى عن ... حريث بن ظهير عن عبد الله قال: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب . ثم قرأ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] .

قلت: هذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح . وقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها ، ويلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليها ، واختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ، فروى عن ابن عباس وعلى أيضا: أن الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما: هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين

(١) تفسير القرطبى : تفسير بداية سورة البقرة .

تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم ؛ إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب: كانوا ينفرون عند استماع القرآن ، فلما سمعو (الم) و (المص) استنكروا هذا اللفظ . فلما أنصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف لينبه أسماعهم وآذانهم . و يقيم الحجة عليهم .

وقال قوم: روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦] نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم ، فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة .

وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره: الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد ﷺ . وقيل: الألف مفتاح اسمه (الله) ، واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد) . وروى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله: (الم) أنا الله أعلم ، (الر) أنا الله أرى (المص) أنا الله أفصل ، فالألف تؤدي على معنى أنا ، واللام تؤدي معنى اسم الله ، والميم تؤدي على معنى أعلم ، واختار هذا القول الزجاج ، وقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها كقوله:

فقلت لها قفى فقالت قاف

أراد : قالت : وقفت .

وقال زهير:

بالخير خيرات وإن شراً فإ ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شراً فشر ، وأراد : إلا أن تشاء .

وقال آخر :

قالوا جميعاً كلهم ألا فا

نادوهم ألا أجموا ألا تا

أراد : ألا تركبون؟ قالوا: ألا فاركبوا.

وفي الحديث : « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة ».

قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: (اق) كما قال عليه السلام: « كفى بالسيف شا » معناه شافيا.

وقال زيد بن أسلم : هي أسماء السور .

وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله- تعالى- بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه.

عن ابن عباس- أيضا- أورد بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قسماً ؛ لأن القسم معقود على حروف مثل (إن ، وقد ، ولقد ، وما) ولم يوجد ها هنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا ، والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢] ، فلو أن إنسانا حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه ، لكان الكلام سديدا ، وتكون « لا » جواب القسم ، فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح . فإن قيل: ما الحكمة في القسم من الله تعالى ، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدق ، ومكذب ، فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم ؛ قيل له: القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه . والله- تعالى- أراد أن يؤكد عليهم الحجة ، فأقسم أن القرآن من عنده وقال بعضهم: " ألم " أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله: " ألم " قال : اسم من أسماء القرآن ، وروى عن محمد بن على الترمذى أنه قال: إن الله- تعالى- أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي ، ثم بين ذلك في جميع السور ليفقه الناس: وقيل غير هذا من الأقوال فالله أعلم.

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تقر بها ، واختلف هل لها محل من الإعراب؟ ف قيل: لا لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا أفعالا مضارعة ، وإنما هي بمنزلة حروف التهجي فهي محكية .

هذا مذهب الخليل وسيبويه . ومن قال: إنها أسماء السور ، فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر: أى هذه " ألم " كما تقول: هذه سورة البقرة.

أو تكون رفعا على الابتداء والخبر: ذلك كما تقول: زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى: ألم فى موضع نصب ، كما تقول : اقرأ ألم ، أو عليك ألم . وقيل فى موضع خفض بالقسم ، لقول ابن عباس: إنها أقسام أقسم الله بها . انتهى^(١) .

بعد أن وقفنا على بعض الآراء التى جمعت ما يتعلق بهذه الأحرف فإن الحديث المعنى هنا هو ارتباط هذه الأحرف ببعض سور القرآن... وهذه هى بعض الملاحظات:

١- الحروف النورانية التى وردت فى القرآن الكريم أربعة عشر حرفا أى نصف الحروف الهجائية^(٢) .

ابتدأت بالحروف النورانية ثمان وعشرون سورة . أربع وعشرون منها ذكر معها القرآن مباشرة^(٣)، وواحدة ذكر معها أداة الكتاب كقسم أقسم به تعالى على أنه أداة كتابة القرآن وعلى القرآن من الكتب السماوية ، ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ مَّا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٦﴾ [القلم] وثلاث سور لم يذكر معها القرآن مباشرة . (مريم ، الروم ، العنكبوت).

(١) انظر تفسير الطبرى . جامع البيان فى تفسير القرآن .

(٢) الحروف التى وردت هى (الألف ١٣ ، اللام ١٣ ، الميم ١٧ ، الصاد ٣ ، الراء ٦ ، ط ٣ ، س ٥ ، الهاء ١ ، النون ١ ، الحاء ٧ ، العين ٢ ، القاف ٢ ، الكاف ١ ، الياء ١) .

(٣) السور التى ورد ذكر كتاب الله تعالى معها مباشرة هى : (البقرة : ألم) ، (آل عمران : ألم) (الأعراف : ألمص) ، (يونس : ألمر) ، (هود : ألة) ، (يوسف : ألة) ، (الرعد : ألة) ، (إبراهيم : ألة) ، (الحجر : ألة) ، (الشعراء : طسم) ، (النمل : طس) ، (القصص : طسم) ، (لقمان : ألم) ، (السجدة : ألم) ، (يس : يس) (ص : ص) ، (غافر : حم) ، (فصلت : حم) ، (الشورى : حمسق) ، (الزخرف : حم) ، (الدخان : حم) ، (الجاثية : حم) ، (الأحقاف : حم) (ق : ق) (القلم : ن) . أما السور التى لم يرد بعدها ذكر كتاب الله فهى ثلاث سور : (مريم كهيعص) ، (العنكبوت ألم) (الروم . ألم) .

٢- تكررت الحروف النورانية ثلاثاً وستين مرة للتي ارتبطت بالقرآن الكريم ، وواحدة ارتبطت بالقلم ، وإحدى عشرة مرة للسور الثلاث التي لم يذكر معها القرآن باسمه أو بصفاته ، ومجموع ما تكررت الحروف النورانية خمس وسبعون مرة على إجمالها ، مع موافقة المفسرين أن (يس) من الحروف النورانية على خلاف مع بعض من اعتبرها اسماً من أسماء الرسول ﷺ . و(طه) ليست من الحروف النورانية ، وإنما هي اسم للرسول ﷺ على خلاف من اعتبرها من الحروف النورانية^(١).

٣- كما أن القرآن الكريم قد ذكر في بدايات سور أخرى غير سور الحروف النورانية الخمس والعشرين في ثمان منها ، وهى فى قوله - تعالى - من سور القرآن الكريم.

- ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ طه ﴾ .

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ .

[الكهف] .

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان] .

- ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب] .

- ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿ الزمر ﴾ .

- ﴿ وَالطُّورِ ﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴾ [الطور] .

- ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿ [الرحمن] .

(١) الحروف النورانية ١٤ ، تكرارها ٧٥ بالسور التي بدأت بها الحروف مع ذكر القرآن والقلم ٢٥

ومجموع هذه الأرقام ١١٤ توافق أعداد سور القرآن الكريم من الفاتحة إلى الناس .

- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر] .

فيكون القرآن الكريم قد استأثر في بدايات ثلاث وثلاثين سورة من أربع عشرة ومائة سورة مجموع سور القرآن الكريم ، وثلاث سور شاركت في بداياتها حروف نورانية بدون ذكر القرآن الكريم ، فهذه السور المشتركة بالحروف النورانية وذكر القرآن الكريم يكون مجموعها ستا وثلاثين سورة^(١).

(١) أما عن دلالات الحروف المقطعة : النورانية ، فقد كانت آية منفصلة في سور (البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، والشعراء ، القصص ، ولقمان ، ، والسجدة ، ويس ، وغافر ، وفصلت ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ، وكذلك في سور : مريم ، والعنكبوت ، الروم) وآيتين في سورة الشورى : (حم ، عسق) ، وإبراهيم ، والحجر ، والنمل ، ص) .

القرآن الكريم فى القرآن الكريم

هذا الموضوع سيكون مجملا لما ستتوسع بذكره عن صفات كتاب الله - عز وجل - فى كتاب الله ، وهذا الموضوع ليس أكثر من بداية للموضوع الأساسى الذى نريده فى هذا البحث .

القرآن الكريم - كتاب الله المنزل على رسوله المرسل - قد أشار إلى عظمة هذا الكتاب فذكره فيما يقارب الثلاثمائة موضع فى آية أو أكثر من آية . مقسما به ، مظهراً عظمته ، مبينا محتواه ، موضحا إعجازه . معلما قدره ، ميسراً ذكره ، مهولا هجره ، مبرزاً قيمته ، منيراً درب حامله ، مُشَفِّعاً بقرائه ، مبلغا هداه ، مخبراً حلاله . كل هذا فى آيات محكمات . ذكر فى مجمل سور القرآن الكريم . باسمه ، أو بصفة من الصفات التى ذكرها الله عنه . موضحا اسمه وصفته فى أكثر ما ذكر ومشيرا إليه فى بعض الآيات تعريفا له مما حوى ولقد استخلصت اسمه وصفته وحده دون غيره من الكتب السماوية ، فهو فى ذكر الله له أسمى وأجل وأعظم وأبلغ وأشد وأوقع مما ذكره الآخرون ، وسنقف - إن شاء الله تعالى - على هذا كله . وما تقدم إنما هو مداخل لدراسة هذا الكتاب كما وردت تنزيلا على المصطفى ﷺ مع ما نزل عليه من محتوى هذا الكتاب الذى يعتبر القمة فى ما خط القلم فى السموات والأرض ، فهو فى اللوح المحفوظ ، حفظه الله بتداوله بين البشر من أى مساس أو تحريف أو تشويه أو حذف أو إضافة أو إلغاء ، وجُنِّدَ علماء ، وأفذاذا وعباقره من عباده المؤمنين ليدرسوه ويشرحوه ، ويسروه ويترجموه معانيه وليخطوه وليلاحقوا علومه ، وبلاغته ، ومحتواه ، وأبعد عنه حتى ألأعيب الشيطان ، فحفظه الجن وسمعوه وآمنوا به ، وحملته الملائكة إلى السماء الدنيا وحمله جبريل عليه السلام إلى المصطفى ﷺ الذى ما عرف شيئا قبله ، ولا خلط بينه وبين أى شئ غيره ، وحملته القلوب المؤمنة على مر الأجيال والتواريخ - صغارا وشبابا ورجالا وشيوخا ونساء فى كل عصر وزمان ومكان وصل إليه . وشرح الله صدر دارسيه إلى معرفة أسرارهِ وإعجازه ، وأعطى فى كل زمان بعضا من معجزاته ، فبارى العلماء بالكشف والدرس والتحليل والتفسير والذكر حتى عجز المتأخرون فى كل زمان عن إحصاء ما قدمه المتقدمون ، وسيعجز القادمون عن حصر كل ما قيل فيه من

السابقين الأولين والآخرين ، وسيبقى - دائما - فى قلوب الحفظة وعقولهم ومدارك الدارسين وبحوثهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد قيض الله - تعالى - النفوس الطاهرة المطهرة وحبيبها فيه وخص أوقاتا طوالا من المؤمنين لدراسته وحفظه وتلاوته ، وهى لها الراحة والاطمئنان والإيمان واليقين فى جميع الظروف والأحوال ، وما خلا ولن يخلو زمان ومكان من ذكره وحفظه وترتيله وقراءته . فقد ربطه الله تعالى بالصلاة التى فرضت على المسلمين كافة ، وربطه الله تعالى بكل تقلبات الأحوال والأزمان والأعمار ، فجعل تلاوته عبادة ، وقراءة الحرف والحرفين فيه عبادة والعمل بموجبه عبادة ، ونشره وتوزيعه عبادة ، وما حفظه من طفل إلا وجعل الله ثواب والديه تاجاً من نور يوم القيامة ، وجعله شفيعاً لمن تلاه ، وشفيعاً لمن حفظه ، وشفيعاً لمن جعله إمامه وهداه ، وإنما سيرد عن بعض ذكره ليس قطعياً ذكره ، ولا محدوداً عدده ، فإنما هو اجتهاد نرجو الله تعالى الثواب عليه مع الإصابة ، فإن بحر علمه لا ينضب . وشواطئ معرفته لا وجود لها وسواحل إعجازه لا قرار لها ، فإن أصبت فالله الهادى إلى الصواب ، وإن أخطأت وقصرت فمن نفسى التى فطرت على التقصير والخطأ ، وهذه بعض ما وصلت إليه من بحث وجهد . أرجو الله تعالى أن تضيف نقطة جهد إلى بحار جهود البشر فى دراسة هذا الكتاب ، والعمل بمقتضاه . ولقد اخترت من القرآن الكريم هذا البحث فى جهد المقل ، وعجز البشر ، ونقص الإمكانيات . وجهل العقل بما لم يعلمه الله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨] وعلمت أن خير أمر هو تعلم القرآن وتعليم القرآن وصدق رسول الله ﷺ عندما قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، ونحن نرجو أن نكون من هؤلاء - متعلمين ومعلمين - واعين دارسين متابعين هذا الأمر حتى نلقى الله تعالى على خير وجه نرجوه إن شاء الله .

وأشير ثانية إلى تقصيرى ، ولا أدرى فلعلنى إذا رجعت يوماً إلى ما كتبتة الآن أجده أقل وأندر مما سعيت له ، فعلم القرآن واسع لا حدود له ، ولا شواطئ ولا سواحل كما قلت وإنما نحن نعطي قطرات ونأخذ قطرات ويبقى هذا القرآن للعالمين نذيراً .

أسماء القرآن الكريم وذكرها فى القرآن الكريم

ورد ذكر القرآن الكريم فى القرآن الكريم تحت اسم (الكتاب) اثنين وثمانين مرة وهذا الاسم هو الأكثر ورودا فى أسماء القرآن الكريم (أما اسم (القرآن) فقد ورد ثمان وستين مرة متكرراً فى بعض الآيات ومنفردا فى آيات أخرى . أما الاسم الثالث : (الفرقان) فقد ورد ثلاث مرات فقط وترد بعد ذلك صفات لهذا الفرقان كتاب الله القرآن . فكانت الآيات وقد وردت ستا وثلاثين مرة ، والتنزيل : أربعاً وعشرين مرة ، والوحى : خمس عشرة مرة ، والحق ثلاث عشرة مرة والذكر اثنتى عشرة مرة ، والنور : ست مرات ثم كلمات ولسان ثلاث مرات لكل واحدة منهما ، وبلاغ ، وصدق ، وبينات ، وبصائر ، مرتين لكل واحدة منها ، وأخيراً أنباء ، إنذار ، ومن عند الله ، وسحر ، وصحف ، وإشارة ، هو مرة واحدة لكل منها ^(١) .

أما هذه الأسماء التى بلغت اثنتى عشرة مرة كانت ترد فى موضعها وبالمكان المطلوب لها فى آيات بينات واضحات يذكرن دوماً بفضل هذا الكتاب ، وبعظمته وبسمو وبجلاله وبلاغته ومحتواه ، كل هذا فى سرد مبين للعالمين ، حتى يكون عليهم حجة ، ولهم شفيعاً ودستوراً وبياناً فى حياتهم الدنيا ، وفى أسلوب مشوق رائع أعجز الخلق من إنس وجن ؛ فقالت الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ ﴾ [الجن] .

أما الإنس فقد تحداهم ، والتحدى قائم بإعجازه وبلاغته وشموله ومحتواه على أن يأتوا بالسورة من مثله ، بل بآية من آياته فقط كل الذين تحدوه من زمن التحدى

(١) لو جمعنا ورود كلمات (الكتاب ٨٢ + الذكر ١٢ + الهدى ١٧ + الفرقان ٣) لكان المجموع ١١٤ على عدد سور القرآن الكريم . ولو جمعنا (القرآن ٦٨ + الآيات ٣٦ + النور ٦ + بصائر ٢ + بينات ٢) لكان المجموع أيضاً ١١٤ على عدد سور القرآن .

ولو جمعنا بقية الصفات وهى : (التنزيل ٢٤ + الوحى ١٥ + الحق ١٣ + كلمات ٣ + لسان ٣ + بلاغ ٢ + صدق ٢ + كلمات أنباء ، إنذار ، صحف ، من عند الله ، سحر ، هو ٦) لكان المجموع = ٦٨ ثمان وستين ، وتوازى هذه الصفات ذكر القرآن نفسه ثمان وستين مرة ومجموع ما ذكر القرآن فى القرآن الكريم هو مائتان وست وتسعون مرة ، والله أعلم بذلك .

عندما نزل على رسول الله ﷺ منذ ألف وأربعمائة وخمس وأربعين سنة قمرية إلى يومنا ، والتحدى قائم إلى أن يشاء الله جل وعلا .

إننا - إن شاء الله - سنعود إلى تلك الأوصاف الواحدة تلو الأخرى ، راجين الله تعالى أن يفتح أمامنا المغاليق كلها . وأن ينير قلوبنا وأبصارنا وبصائرنا بنور القرآن العظيم ، ليكون هذا البحث المتواضع خدمة لهذا الكتاب الجليل ، سنعود إلى كل صفة بعون الله تعالى فما وردت واحدة إلا والأخرى غيرها ، أو مؤكدة لها أو مساندة لها ، أو موضحة لها أو ذات معنى آخر ، ومفهوم آخر ، واتجاه آخر لكنها كلها تدور حول دور هذا الكتاب ، الذي اختاره الله تعالى لهداية عباده ، وليكون خاتماً ، جامعاً ، شاملاً على ما أوحى الله به إلى أنبيائه ، أمراً ، محلاً ، محرماً ، ناهياً ، منذراً ، مبشراً ، مقدراً ، حاكياً لخلق ما يريد منهم . هادياً إياهم إلى سبل الرشاد ، مبيناً لهم خاتمة سلوك طريق الضلال ، الجنة والنار كأنهما رأى العين والثواب والعقاب متفاوتان متفاوتاً عجيباً ، الثواب بعشرة أمثاله ويتضاعف ، والعقاب بمثله ويمحى مظهرها صفات الله تعالى ، وأسمائه التي ارتضاها لنفسه . مزيلاً عن العيون الرمد والغشاوة والمرض ، منيراً سبل السالكين إلى الحق حتى يطؤوا الجنة بسلام هذا الكتاب الموصوف بتلك الأوصاف التي سنقف عليها بعون الله وبمشيئة الله وبإرادة الله محللين مفسرين ، وبأهل الفضل ممن سبقنا مسترشدين ، حتى نبين ما يقدرنا الله عليه من عظمة هذا الكتاب .

الخطوة: أن أبدأ بالفاظ القرآن متتبعا ورودها في أماكنها ، ثم أنتقل إلى الكتاب ثم إلى غير هذين الاسمين من صفات وأسماء أخرى ، وليس في ذلك الترتيب أى فضل أو تقديم أو تأخير لغاية محددة ، ولكن الأمر كله هدى من الله إن شاء الله .

أردت أن أبدأ بشرح آيات القرآن المذكور فيها ولكن البداية ستكون بالكتاب وذلك لأسباب موجبة لهذا التقديم .. ألا وهى ورود كلمة الكتاب فى بداية المصحف بعد الفاتحة مباشرة وكذلك ورود لفظ الكتاب مقدما على الألفاظ الأخرى ، وتلك مشيئة الله تعالى ، فأردت أن أستفتح بما استفتح به الله تعالى كتابه العزيز بعد الفاتحة مباشرة ، وأرجو أن يكون ذلك هدياً من الله الهادى العزيز .

معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب: الإبانة لها من سورة أخرى ، وانفصالها عنها ؛ وسميت بذلك لأنه يرتفع بها من منزلة إلى منزلة ، قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة شرف ارتفعت إليها عن منزل الملوك ، وقيل سميت بذلك ؛ لشرفها وارتفاعها ، كما يقال لما ارتفع من الأرض : سور ، وقيل : سميت بذلك ؛ لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده كسور البناء ، كله بغير همز ، وقيل سميت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حدة من قول العرب للبقية : سؤر : وجاء فى أسار الناس أى بقاياهم . فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ، ثم خففت فأبدلت واوًا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكماها من قول العرب للناقة التامة : سورة وجمع سورة سور بفتح الواو .

وقال الشاعر :

سود المحاجر لا يقرآن بالسور

ويجوز أن تجمع على سورات وسؤرات .

وأما الآية : فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وانفصاله ، أى هى بائنة من أختها ومنفردة ، وتقول العرب ، بينى وبين فلان آية : أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] . وقال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم ، قال برج مسهر الطائى :

خرجنا من النقيين لاحى مثلنا بآياتنا نرجى اللقاح المكافلا .

وقيل : وسميت آية ؛ لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها ، واختلف النحويون فى أصل آية ؛ فقال سيبويه : آية على فعلة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا ؛ فصارت آية بهمزة بعده مدة وقال الكسائى : أصلها آية على وزن فاعلة ، مثل آمنة ، فقبلت الياء ألفا ؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتباسها بالجمع ، وقال الفراء : آية بتشديد الأولى فقبلت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء ، وأنشد أبو زيد :

لم يبق هذا الدهر من آياته غير أثافيه وأرمدائه

وأما الكلمة : فهى الصورة الفاتحة بجميع ما يختلط من الشبهات أى الحروف ، وأطول الكلم فى كتاب الله - عز وجل - ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله - تعالى : ﴿ لَيْسْتَ خَلْفَهُمْ ﴾ [النور: ٥٥] و ﴿ أُنْزِلْ مُكْمُوها ﴾ [هود: ٢٨] وشبههما ؛ فأما قوله : ﴿ فَأَسْقَيْنَهُمْ كُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢] فهو عشرة أحرف فى الرسم وأحد عشر فى اللفظ ، وأقصرهن ما كان على حرفين نحو (ما ، ولا ولك ، وله) وما شبه ذلك ومن حروف المعانى ؛ ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف ، إلا أنه لا ينطق به مفردا ، وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ، ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ . وكذلك ﴿ التَّمْ ﴾ و ﴿ التَّمَصْ ﴾ و ﴿ طه ﴾ ، و ﴿ يس ﴾ . و ﴿ حَم ﴾ فى قول الكوفيين ، وذلك فى فواتح السور ، فأما فى حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدانى : ولا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله - تعالى - ﴿ مُدْهَامَتَانِ ﴾ [الرحمن: ١٤] لا غير ، وقد تكون الكلمة فى غير هذه الآية التامة ، والكلام القائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنَى إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] قيل : إنما يعنى بالكلمة هاهنا قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥] إلى آخر الآيتين . وقال عز وجل : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾

[سورة الفتح : ٢٦] . قال مجاهد : لا إله إلا الله ، قال النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان . حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ، وقد تسمى العرب القصيدة بأسرها ، والقصة كلها كلمة فيقولون : قال قس في كلمته كذا أى فى خطبته ، وقال زهير فى كلمته كذا ، أى فى قصيدته وقال فلان فى كلمته ؛ يعنى فى رسالته فتسمى جملة الكلام كلمة إذا كانت الكلمة منها ، على عادتهم فى تسمية الشئ باسم ما هو منه ، وما قاربه ، وما جاوره ، وكان سبباً منه ، مجازاً واتساعاً .

وأما الحروف: فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة ، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفاً على ما بيناه من الاتساع والمجاز قال أبو عمرو الدانى : فإن قيل : فكيف يسمى ما جاء عن حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو « ص » و « ق » و « ن » حرفاً أو كلمة ؛ قلت : كلمة لا حرفاً وذلك أن الحرف لا يسكت عليه ، ولا ينفرد وحده فى السورة ، ولا ينفصل عما يختلط به ، وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كأنفراد الكلمة وانفصالها ، فلذلك سميت كلمات لا حروفاً . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا المذهب والوجه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ ، أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : أنزل الله القرآن على سبعة أحرف ، أى سبعة أوجه من اللغات . والله أعلم ^(١) .

فصل القرآن

١- هدى للمتقين

﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة] .

﴿الْم ﴿١﴾ : بداية المصحف الشريف بعد الفاتحة ^(١)، ودلالة على كون

(١) للفاتحة اثنا عشر اسما ذكرها القرطبي وهي :

الصلاة : للحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين » (رواه مسلم ومالك وغيرهما عن ابن أبي هريرة) .

وسورة الحمد : لأن فيها ذكر الحمد .

وفاتحة الكتاب : لأنه تفتح قراءة القرآن بها لفظا وكتابة ، وتفتح بها الصلوات .

وأم الكتاب : في رأى الجمهور .

وأم القرآن في رأى الجمهور لقوله ﷺ : « الحمد لله : أم القرآن ، وأم الكتاب والسبع المثاني » (رواه الترمذى عن أبى هريرة) .

والمثنى : لأنها تنثنى فى كل ركعة .

والقرآن العظيم : لتضمنها جميع علوم القرآن ومقاصده الأساسية .

والشفاء : لقوله ﷺ : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » (رواه الدارمى عن عبد الملك بن عمير) بلفظ : « فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء » .

والرقية : لقوله ﷺ لمن رقى بها سيد الحى : « ما أدراك أنها رقية » (رواه الأئمة عن أبى سعيد الخدرى) .

والأساس : لقول ابن عباس : وأساس الكتب ، القرآن وأساس القرآن الفاتحة ، وأساس الفاتحة (بسم الله الرحمن الرحيم) .

والواقية : لأنها لا تنصف ، ولا تحتل الاختزال . فلو نصفت الفاتحة فى ركعتين لم يحز عند الجمهور .

والكافية : لأنها تكفى عن سواها ، ولا يكفى سواها عنها .

﴿الْم﴾ مكونة من الحروف المقطعة : قول النبي ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى - فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول : ﴿الْم﴾ حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف^(١) ثم يأتى ذكر القرآن الكريم ، ومن ثم استكمال الذكر بذكر المتقين الذين يعرفون هذا الكتاب ويحملونه ويؤمنون به .

ثم وصف الله - تعالى - القرآن بأوصاف ثلاثة :

الأول: أنه الكتاب الكامل فى كل ما يشتمل عليه من معان ومقاصد وقصص وعبر وتشريعات غير قابلة للنقض .

والثانى: أنه لا شك فى كونه حقاً من عند الله لمن أمعن النظر وأمعن بقلبه .

والثالث: أنه مصدر هداية وإرشاد للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون عذاب الله ، بامتنال وأوامره واجتناب نواهيه ، فهم المنتفعون به .

هذه البداية الرائعة لذكر كتاب الله فى كتاب الله إنما هو درس فى ابتداء قراءة القرآن ، بدء يشير إلى أن هذا الكتاب لا يحتمل الريب والشك ، كتاب من عند الله - عز وجل - يقينا وصدقا وإيمانا ، هذا الكتاب الذى يفتح بذكره ، ليذهب من نفوس المترددين كل سوء وشك فى كونه حقاً مطلقاً من الله العزيز الحميد ، فيه الهدى والنور والدستور والحياة والقصص والعلوم والبلاغة . فهذه المعارف التى لا تحصى إنما هى هدى للمتقين ، حيث أبان الله تعالى أربع صفات للمتقين :

الذين يؤمنون بالغيب : وهم الذين يؤمنون ويصدقون بالغيبات التى أخبر عنها القرآن من البعث والحساب والصراط والجنة والنار وغيرها ، فلا يقفون عند مجرد الماديات والمحسوسات التى يدركها العقل إدراكاً قريباً ، وإنما يدركون أيضاً ما وراء المادة من عوالم أخرى كالروح والجن والملائكة ، وعلى رأسها وجود الله ووحدانيته .

هذه أسماء سورة الفاتحة وأشهرها ثلاثة : الفاتحة ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى ، والسورة : طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر ، لها اسم يعرف بطريق الرواية الثابتة . التفسير المنير

ثم يؤدون الصلاة : على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها وخشوعها فالصلاة بدون خشوع وتأمل في المقروء فيها وتدبر المعاني القرآنية وخشية الله جسم بلا روح .

ثم ينفقون : في وجوه البر والإحسان من الأموال كالزكاة والصدقات وسائر النفقات الواجبة شرعا ، فيتحقق الرخاء لجميع الناس ، وتتطهر الأموال مما شابها من شبهات ، فيكتمل البناء المنشود شرعا ، بناء الفرد بالصلاة التي هي عماد الدين وبناء المجتمع بالزكاة وتوابعها التي هي أساس التقدم ورفق الحياة وسعادة الأمة . فالآية عامة في كل غيب أخبر به الرسول ﷺ أنه كائن ، وعام في كل صلاة فرضا كانت أو نفلا ، وعام في كل نفقة .

ثم إن أولئك المتقين هم الذين يصدقون بجميع ما أنزل على النبي محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ويصدقون أيضا تصديقا جازما لا ريب فيه بالآخرة وما تضمنته من بعث الأجساد والأرواح معا من القبور ، وحساب وجزاء وميزان وصراط وجنة ونار .

وهؤلاء الموصوفون بما ذكر من الإيمان الحق بالغيب ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بالقرآن ، وبالكتب المنزل قبله (وهي التوراة والإنجيل والزبور والصحف) هم على هداية من ربهم ، وعلى منزلة عالية عند الله ، وهم الفائزون بالدرجات العالية في جنات الخلود ^(١) .

فمن اتصف بأوصاف المؤمنين المذكورة كان القرآن هدى له ؛ أي إنه إمامه في أعماله وأحواله ، لا يجيد عن نهجه ، وقد ضمن لنفسه النجاة في عالم الآخرة والسعادة والطمأنينة في الدنيا ، والمشار إليه عند الجمهور وهم المؤمنون وحدهم ، وكرر الإشارة للإعلام بأنه لا بد من تحقق الوصفين ؛ لتحقيق الحكم بأنهم على هدى وأنهم هم المفلحون . قال مجاهد : في أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين ^(٢) .

ونعود إلى صورة أخرى في هذا المقام ؛ تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة

(١) التفسير المنير ١ / ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٧٦ .

المقطعة : ألف ، لام ، ميم ، يليها الحديث عن كتاب الله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

ومثل هذه الأحرف تحيء في مقدمة لبعض السور القرآنية ، وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة ، نختار منها وجهها ؛ إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى في متناول المخاطبين به من العرب ، ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز ، الذى لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . الكتاب الذى يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يؤثوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدى جوابا !

والشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق الله جميعا ، وهو مثل صنع الله فى كل شىء وصنع الناس .

إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكلًا أو جهازًا كائنا فى دقته ما يكون ، ولكن الله البديع الصنع يجعل من تلك الذرات حياة ، حياة نابضة خافقه ، تطوى على ذلك السر الإلهى المعجز - سر الحياة . ذلك السر الذى لا يستطيع معرفته بشر ، ولا يعرف سره بشر ، وهكذا القرآن ، حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ويجعل الله منها قرآنا وفرقانا والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض ، هو الفرق بين صورة الحياة وحقيقة الحياة .

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ومن أين يكون ريب أو شك ، ودلالة الصدق واليقين كامنه فى هذا المطلع ، ظاهرة فى عجزهم عن صياغة مثله من مثل هذه الحروف المتداولة بينهم المعروفة لهم من لغتهم .

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى حقيقته ، والهدى طبيعته والهدى كيانه ، والهدى ماهيته ، ولكن لمن ؟ لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونورا ، ودليلا ناصعا مبينا ، للمتقين ، فالتقوى فى القلب هى التى تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب هى التى تفتح مغاليق القلب له ، فيدخل ويؤدى دوره هناك ، هى التى تهيب لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب .

لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يحىء إليه بقلب سليم ، بقلب خالص ثم يحىء إليه بقلب يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة وعندئذ يفتح القرآن عن أسرارہ وأنوارہ ، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً ، خائفاً ، حساساً ، مهياً للتقى ، ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلى ! قال : فما عملت ؟ قال : شمريت واجتهدت . قال : فذلك التقوى .

فذلك التقوى حساسية في الضمير ، وشفافية في الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوق لأشواق الطريق ، طريق الحياة ، الذي تتجاذبه أشواق الرغائب والشهوات ، وأشواق المطامع والمطامح ، وأشواق المخاوف والهواجس ، وأشواق الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء ، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعا ولا ضرراً ، وعشرات غيرها من الأشواق .

إن السمة الأولى للمتقين : هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة ، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب ، والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسول كافة ، واليقين بعد ذلك بالآخرة . هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية ، وتتماز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة ، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقى عليها الناس جميعاً ؛ ولتهيمن على البشرية جميعاً ، وليعيش الناس في ظلها بمشاعرهم ، وبمنهج حياتهم حياة متكاملة ، شاملة للشعور والعمل ، والإيمان والنظام^(١).

تلك كانت بداية ذكر القرآن الكريم ارتباطاً بالأحرف المعجزة - ثم هو لا شك فيه ولا ريب ، ثم هو هدى للمتقين ، الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وبالأخرة هم موقنون - ارتباطاً القرآن بهذه الفئة من الناس المؤمنة هي التي تؤدي إلى التفاعل بين المعتقد والمنهج ، فيكون ذلك الجيل القرآني الذي يمكن أن يتواجد في كل زمان ومكان ، يؤدي رسالة الإنسان في الأرض من العدل والعلم والبناء والحضارة والسلام .

فى ثمانية وستين موضعا ذكر القرآن الكريم ؛ تحدثنا عن بعض منها فى فصول سابقة لأهمية ورودها فى تلك المواضع ، ونتابع بعون الله تعالى وتوفيقه الحديث عن عظمة هذا الذكر ، وتفهم الناس عن جلالة معانى القرآن الكريم كما أرادها الله جلّت قدرته فى إعلام مركز لجلال وعظمة القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفى إعجاز متناه يفوق مدارك البشر وأفهامهم ، ليقف البشر بما أوتوا من علم ومقدرة أمام هذا الإعجاز خاشعين مقرين بأنهم هم الضعفاء ، وهم المتناهون فى الصغر أمام عظمة هذا الكتاب الذى لو أنزل على جبل لرأيتـه خاشعا متصدعا من خشية الله .

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة] (١)

٢- تدبر القرآن

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء] وردت هذه الآية الدالة على أن القرآن من عند الله عز وجل في سياق آيات أخرى ، وهذه الآيات قول الله جل وعلا: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۚ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۚ ﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۚ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنِيتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ ﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء]

إن سبب نزول هذه الآيات : روى مقاتل أن النبي ﷺ كان يقول: « من أحبني فقد أحب الله ، ومن أطاعني فقد أطاع الله » ، فقال المنافقون : ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك ؛ وقد نهى أن نعبد الله ، ويريد أن نتخذة ربنا كما اتخذت النصارى عيسى ، فأنزل الله هذه الآية .

فقد أكد الله تعالى هنا ما سبق من الأمر بطاعة الله والرسول ، وأوضح أن طاعة الرسول تعود في النهاية لله تعالى ، وكشف مراوغة المنافقين ^(١) .

ويخبر الله تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ؛ ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني ، معنى الآية : من أطاع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأنه الأمر الناهي في الخليفة ، والرسول مبلغ للأمر والنهي ، فليست الطاعة له بالذات وإنما هي لمن بلغ عنه وهو الله عز وجل .

أما ما يأمر به الرسول ﷺ من الأمور الدنيوية ؛ كتأبير النخل (تلقيحه بطلع الذكور) وأكل الزيت والادهان به ، وكيل الطعام من قمح وغيره عند طحنه وعجنه ، فهو مجرد اجتهاد برأيه ، لا تجب طاعته فيه . وكان الصحابة رضى الله عنهم إذا شكوا فى الأمر ، أهو وحى من عند الله أم اجتهاد من الرسول ؟ سألوه ، فإن كان وحيا أطاعوه بلا تردد ، وإن كان رأيا من عنده ذكروا رأيا آخر وأشاروا بما هو أولى . كما حدث فى غزوتى بدر وأحد ، وربما رجع إلى رأيهم .

ومن أعرض عن رأيك خاب وخسر ، وليس عليك من أمره شيء ، وليس لك أن تكرهه على ما تريد ، إن عليك إلا البلاغ ، لست عليهم بمسيطر ، والخسران لاحق به ، كما جاء فى الحديث الصحيح : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه .

ثم أخبر الله تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ، فيقولون : أمرنا طاعة لك أو أمرك طاعة أو أمرك مطاع ، نفاقا وانقيادا ظاهرا ، فإذا خرجوا من مكانك وتواروا عنك ، دبوا ليلا فيما بينهم رأيا غير ما أظهروه لك . روى ابن جرير الطبرى عن ابن عباس أنه قال : هم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ : آمنا بالله ورسوله ، ليأمنوا دماءهم وأموالهم وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوه عنده ، فعاتبهم الله على ذلك ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ﴾ ، ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبتين الذين هم موكلون بالعباد . والمعنى فى هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم ، وما يتفقون عليه ليلا من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه ، إن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزئهم على ذلك .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ، أى اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ولا تهتم بمؤامراتهم ، ولا تكشف أمورهم للناس . ولا تخف منهم - أيضا ، وتوكل على الله أى فوض الأمر إليه ، وثق به فى جميع أمورك ، فإن الله كافيك شرهم ، وكفى به وليا وناصرًا ومعينا لمن توكل عليه ، وأتاب إليه ^(١) .

وتأتى أهمية كتاب الله فى هذا السياق بالتأكيد على تدبر هذا القرآن ؛ إذ يقول تعالى آمرا لهم بتدبر القرآن ، وناهيا لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ، ومخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تعارض ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حق من حق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد] ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٨٢] أى : لو كان مفتعلا مختلفا كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين فى بواطنهم لوجدوا فيه اختلافا أى تضاربا وتضادا كثيرا ، وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله ، كما قال تعالى مخبرا عن الراسخين فى العلم حيث قالوا ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] أى : محكمه ومتشابهه حق ؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا ، والذين فى قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغفوا ؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين . قال الإمام أحمد : حدثنا أنس بن عياض حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو حازم ، حدثنا عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : لقد جلست مجلسا أنا وأخى ما أحب أن لى به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخى ؛ إذ مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة ؛ إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها ، حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا ، حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : مهلا يا قوم بهذا أهلك الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، إنما نزل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه .

وهكذا رواه - أيضا - عن أبى معاوية ، عن داود عن أبى هند ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر ، فكأنما يفتقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب فقال لهم : ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من كان قبلكم ، قال : فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهده ما غبطت نفسى بذلك المجلس أنى لم أشهده ، رواه ابن ماجه .

وحدث الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : هجرت

إلى رسول الله ﷺ يوماً فإننا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية ، فارتفعت أصواتهما فقال: إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم بالكتاب ، رواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن زيد به ^(١) .

وكانت الخطة التي وجه الله نبيه ﷺ بها في معاملة المنافقين ، هي أخذهم بظواهرهم لا بحقيقة نواياهم - والإعراض والتغاضي عما يبدر منهم ، وهي خطة قتلهم في النهاية وأضعفتهم ، وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفاً وخجلاً ، وهنا طرف من هذه الخطة ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ومع هذا التوجيه بالإغضاء عنهم والتطمين بكلاءة الله وحفظه مما يبيتون : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب]

نعم : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ، لا يضار من كان الله وكيله ، ولا يناله تأمر ، ولا تبيت ، ولا مكيدة ، وكأنما كان الذي يدفع هذه الطائفة إلى أن تقول في حضرة الرسول ﷺ مع القائلين : ﴿ طَائِعَةٌ ﴾ فإذا خرجت بيتت غير الذي تقول ... كأنما كان هذا بسبب شكهم في مصدر ما يأمرهم به الرسول ﷺ ، وظنهم أن هذا القرآن من عنده! وحين يوجد مثل هذا الشك لحظة يتوارى سلطان الأمر والتكليف جملة ، فهذا السلطان مستمد كله من الاعتقاد الجازم الكامل بأن هذا كلام الله - وبأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ومن ثم كان هذا التوكيد الشديد الجازم المكرر على هذه الحقيقة .

وهنا يعرض عليهم القرآن خطة ، هي غاية ما يبلغه المنهج الرباني من تكريم الإنسان والعقل الإنساني ، واحترام هذا الكائن البشري وإدراكه ، الذي وهبه له الخالق المنان ، يعرض عليهم الاحتكام في أمر القرآن إلى أدراكهم هم وتدبر عقولهم ، ويعين لهم منهج النظر الصحيح كما يعين لهم الظاهرة التي لا تخطئ إذا اتبعها ذلك المنهج ، وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة ، ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى . ودلالاتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

﴿ [النساء] ﴾

فى هذا النص وهذا التوجيه ، منتهى الإكرام للإنسان ، وإدراكه وشخصيته - كما قلنا - كما أن فيه منتهى النصفة فى الاحتكام إلى هذا الإدراك فى ظاهرة لا يعييه إدراكها ، وهى فى الوقت ذاته ذات دلالة - كما أسلفنا - لا تمارى !

والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التى لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً ، ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال فى إدراك مداها ، ولكن كل عقل وكل جيل يجد فيها - بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه - ما يملك إدراكه ، فى محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .

ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية . ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم - أن يدرك هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق - ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه .

وتلك الطائفة فى ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء ندركه ، وتملك التحقق منه بإدراكها فى حدودها الخاصة .

تتجلى هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ، ابتداءً فى التعبير القرآنى من ناحية الأداء ، وطرائقه الفنية ، وفى كلام البشر تبدو القمم والسفوح ، التوفيق والتعثر ، القوة والضعف ، التحليق والهبوط ، الرفرفة والثقل ، الإشراق والانطفاء .. إلى آخر الظواهر التى تتجلى فيها سمات البشر ، وأخصها سمة: التغير والاختلاف الدائم المستمر من حال إلى حال يبدو ذلك فى كلام البشر واضحاً عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد ، أو المفكر الواحد ، أو الفنان الواحد ، أو السياسى الواحد ، أو القائد العسكرى الواحد ، أو أى شخص فى صناعته التى يبدو الوسم البشرى واضحاً فيها وهو التغير والاختلاف .

هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو : الثبات والتناسق ، هو الظاهرة الملحوظة فى القرآن ، ونحن نتحدث - فقط - عن ناحية التعبير اللفظى ، والأداء الأسلوبى ، فهناك مستوى واحد فى هذا الكتاب المعجز تختلف ألوانه

باختلاف الموضوعات التى يتناولها ، ولكن يتحد مستواه وافقه . والكمال فى الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى - كما هو الحال فى كل ما يصنع الإنسان ، إنه يحمل طابع الصنعة الإلهية ، ويدل على الصانع ، يدل على الموجود الذى لا يتغير من حال إلى حال ، ولا تتوالى عليه الأحوال .

وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف .. والتناسق المطلق الشامل الكامل بعد ذلك فى ذات المنهج الذى تحمله العبارات ، ويؤديه الأداء^(١) .

وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحاً كل الوضوح فى جانب التعبير اللفظى والأداء الفنى ، فإنه أوضح من ذلك فى جانب التفكير والتنظيم والتشريع . فما من نظرية بشرية ، وما من مذهب بشرى إلا وهو يحمل الطابع البشرى ، جزئية النظر والرؤية ، والتأثر الوقتى بالمشكلات الوقتية ، وعدم رؤية المتناقضات فى النظرية أو المذهب أو الخطة التى تؤدى إلى الاصطدام بين مكوناتها - إن عاجلاً أو آجلاً - كما تؤدى إلى إيذاء بعض الخصائص فى الشخصية البشرية الواحدة ، التى لم يحسب حساب بعضها ، أو فى مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها ، إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف الناشئة من طبيعة الإدراك البشرى المحدود ، ومن الجهل البشرى بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة - فى أية لحظة حاضرة ، وعكس ذلك كله ما يتسم به المنهج القرآنى الشامل المتكامل الثابت الأصول ، ثبات النواميس الكونية ، الذى يسمح بالحركة الدائمة - مع ثباته - كما تسمح بها النواميس الكونية^(٢) .

(١) فى ظلال القرآن ٢/ ٧٢١ .

(٢) فى ظلال القرآن ٢/ ٧٢٢ .

٣- القرآن: البيان

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ؕ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة] .

كان بعضهم يكثر على رسول الله ﷺ من السؤال عن أشياء لم ينزل فيها أمر أو نهى ، أو يلحف فى طلب تفصيل أمور أجملها القرآن ، وجعل الله فى إجمالها سعة للناس ، أو فى الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذى السائل عنها أو يؤذى غيره من المسلمين .

و روى أنه لما نزلت آية الحج سأل سائل ، أفى كل عام ، فكره رسول الله ﷺ هذا السؤال ؛ لأن النص على الحج جاء مجملاً : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حِجُّ آلِ بَيْتٍ مِّنَ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] والحج مرة يجزى . فأما السؤال عنه : أفى كل عام فهو تفسير له بالصعب الذى لم يفرضه الله .

وفى حديث مرسل رواه الترمذى والدارقطنى عن على ؓ قال: لما نزلت هذه الآية : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] قالوا : يا رسول الله أفى كل عام ؟ فسكت فقالوا : أفى كل عام فقال : " لا . ولو قلت نعم لو جبت ، فأنزل الله : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ [المائدة : ١٠١] .

وفى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، عن أنس ؓ ، عن النبي ﷺ : فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به مادمت فى مقامى هذا ، فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : النار ، فقام عبدالله بن حذافة فقال : من أبى يا رسول الله ؟ فقال : أبوك حذافة ، قال ابن عبد البر : عبد الله بن حذافة أسلم قديما ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية وشهد بدرا وكانت فيه دغابة ! وكان

رسول الله ﷺ أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله ﷺ ولما قال : من أبى يا رسول الله ؟ قال : أبوك حذافة ، قالت أمه : ما سمعت بابن أعق منك . أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ؟! فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به .

وفى رواية لابن جرير بسنده عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا ؟ قال : فى النار . فقام آخر فقال : من أبى ؟ فقال : وأبوك حذافة ، فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، وبالقرآن إماما . إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلم من آباؤنا . قال : فسكن غضبه . ونزلت هذه الآية . وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهو قول سعيد بن جبير . وقال : ألا ترى بعده : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْمَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣] .

ومجموعة هذه الروايات وغيرها تعطى صورة عن نوع هذه الأسئلة التى نهى الله الذين آمنوا أن يسألوها .

لقد جاء القرآن الكريم لا ليقرر عقيدة فحسب ، ولا ليشرع عقيدة فحسب ، ولكن كذلك ليربى أمة ، وينشئ مجتمعا ، وليكون الأفراد وينشئهم على منهج عقلى وخلقى من صنعه ، وهو هنا يعلمهم أدب السؤال ، وحدود البحث ، ومنهج المعرفة . وما دام الله - سبحانه - هو الذى ينزل هذه الشريعة ، ويخبر بالغيب فمن الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها . وأن يتركوا له كشف هذا الغيب أو ستره ، وأن يقفوا هم فى هذه الأمور عند الحدود التى أرادها العليم الخبير . لا ليشددوا على أنفسهم بتنصيب النصوص ، والجرى وراء الاحتمالات والفروض ، كذلك لا يجرون وراء الغيب يحاولون الكشف عما لم يكشف الله منه ، وما هم ببالغيه ، والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم . فهو يشرع لهم فى حدود طاقتهم . ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم . وهناك أمور تركها الله مجملة أو مجهولة ولا ضير على الناس فى تركها هكذا كما أرادها الله .

لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوؤهم الكشف عنها ،

وأندرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا في فترة الوحي في حياة رسول الله ﷺ وسترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها^(١).

وهذه بعض الأحاديث التي تنهى عن السؤال - وعما يمكن أن يسأل عنه من غير حرج .

في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم .

ومن الأمثلة سؤال بنى إسرائيل عن البقرة والتشدد الذي وصلوا إليه ، وكذلك كان - شأنهم - دائما حتى حرم الله عليهم أشياء كثيرة تربية لهم وعقوبة .

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم - غير نسيان - فلا تسألوا عنها .

وفي صحيح مسلم عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال ، قال رسول الله ﷺ : إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما ، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسأله .

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن .. ذكره الدارمي في مسنده وذكر عن الزهري قال : بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصاري كان يقول إذا سئل عن الأمر . أكان هذا ؟ فإن قالوا: نعم قد كان حدث فيه بالذي يعلم ، وإن قالوا : لم يكن ، قال : فذروه حتى يكون ، وأسند عن عمار بن ياسر - وقد سئل عن مسأله - فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا ، قال : دعونا حتى يكون ، فإن كان تجشمتها لكم .

وقال الدارمي حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال : حدثنا ابن فضيل ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ ؛ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن في القرآن ، منهن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾

[البقرة : ٢٢٢] وشبهه وما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم .

وقال مالك : أدركت هذا البلد - يعنى المدينة - وما عندهم علم غير الكتاب والسنة ؛ فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء ، فما اتفقوا عليه أنفذه . وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ .

وقال القرطبي فى سياق تفسيره للآية : روى مسلم عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ومنعا وهات ، وكره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . قال كثير من العلماء : المراد بقوله : وكثرة السؤال ؛ التكثير من السؤال فى المسائل الفقهية تنطعا وتكلفا فيما لم ينزل ، والأغلوطات ، وتشقيق المولدات ، وقد كان السلف يكرهون ذلك ويروونه من التكلف ، ويقولون : إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها ^(١) .

وبذلك فإن هذا الذى نهى عنه رسول الله ﷺ قد جنب الجماعة المؤمنة الكثير من التكاليف التى إن سألوا عنها لوجبت ، تلك رحمة الله تعالى فى هذه الأمة ، تنتظر حتى تنزل الآيات ؛ تبين الأحكام - الحلال والحرام - وتبين تلك الشريعة السمحة التى أنزلت فى القرآن على لسان المصطفى ﷺ رحمة بالعباد ورأفة .

ويقف الإنسان حائرا ؛ إجلالا للتعبير القرآنى فى هذه الآية التى تبدى ابتداء حقيقة حاول الكثيرون التشكيك فيها فى الماضى والحاضر ، وما زالت محاولاتهم قائمة ، وسيأتى من يتابعهم بأن هذا القرآن من عند غير الله ، وتلك آية واحدة من مئات وآلاف الآيات التى تتناسق وتتكامل بشكل يجعل العقل البشرى يقطع أخيرا بأن هذا القرآن من عند الله فليس فيه اختلاف وليس فيه تناقض ، وليس فيه محدودية للزمان والمكان ، وإنما هو متكامل لكل زمان ومكان ، ولكل جيل يدب على الأرض فى المستقبل البعيد أو القريب : هذه صورة أولى من عظمة هذا الكتاب ؛ لإدراك الحقائق الأبدية الخالدة أن هذا القرآن من عند الله وحده ، وأوحى به إلى محمد ﷺ وحفظه ؛ ليخلد فيما يخلد به تحرك الإنسان على الأرض ؛ وليكون شفيعا يوم الدين لمن صدق وآمن وعرف أنه الحق من ربه - جل وعلا .

(١) راجع تفصيلا : التفسير المنير ٧٩/٧ فما بعدها ، الظلال ٩٨٤/٢ فما بعدها ، تفسير القرطبي

تفسير آيات ١٠١ - ١٠٢ من سورة المائدة - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير تفسير نفس الآيات .

٤- القرآن النذير

﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام] .

سبب نزول الآية : أخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، عن ابن عباس قال : جاء النحام بن زيد ، وقروم بن كعب ، وبحرى بن عمر . فقالوا : يا محمد ما نعلم مع الله إلها غيره ، فقال : لا إله إلا الله ، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله في قولهم : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

وقال الكلبي : إن رؤساء مكة قالوا : يا محمد ، ما نرى أحدا يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من يشهد ، إنك رسول كما تزعم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال الحسن البصري وغيره : إن المشركين قالوا للنبي ﷺ : من يشهد لك بأنك رسول ؟ فترلت الآية .

وبعد معرفة سبب النزول فإن الله - تعالى - قد أيد نبيه بشهادة هي أعظم الشهادات وأجلها ، وأصحها وأصدقها وهي شهادة الله بين نبيه ﷺ وبين المشركين شهادة تدل على صدق النبي ﷺ وتكشف حال أعدائه ، فهو تعالى العالم بما جاء به الرسول ، وما هم قائلون له ، وتقدير الكلام : أى شهيد أكبر شهادة : فوضع " شيئا مقام شهيد ليبالغ في التعميم . والجواب .. الله أكبر شهادة وهو شهيد بيني وبينكم ، أو الله شهيد بيني وبينكم ، وإذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة شهيد له . وتتضمن الآية ردا قاطعا على المشركين الذين كانوا يقولون للنبي ﷺ : من يشهد لك بأنك رسول الله ؟ ^(١) بماذا تقرر المبدأ ، مبدأ تحكيم الله - سبحانه - في القضية ؛ أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه تضمنها هذا القرآن ،

الذى أوحاه الله سبحانه إليه لينذرهم به ، وينذر به كل من يبلغه فى حياته ﷺ أو من بعد ، فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله فى هذه القضية الأساسية ؛ التى تقوم عليها الدنيا والآخرة ، ويوم يقوم عليها الوجود كله والوجود الإنسانى ضمنا .

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِإِنذِرْكُمْ بِهِ ۖ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، فكل من بلغه هذا القرآن من الناس ، بلغه يفهمها ، ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ، وبلغه الإنذار ، وحق عليه العذاب إن كذب بعد البلاغ ، فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه ، فلا تقوم عليه الحجة به ، ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين يبلغونه بلغته التى يفهم بها مضمون هذه الشهادة ، هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته ^(١) .

روى عبد الرزاق عن قتاده فى قوله - تعالى : ﴿ لِإِنذِرْكُمْ بِهِ ۖ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾ أن رسول الله ﷺ قال : « بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » وروى ابن المنذر ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ابن حبان الأنصارى ، عن محمد بن كعب القرظى قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ ، وهذه الكلمة مروية - أيضا - عن سعيد بن جبير ، ثم أعلن الله براءته من المشركين القائلين بتعدد الآلهة ، مبينا أن الواجب إعلان الشهادة بالوحدانية لله - عز وجل - فقال : ﴿ أَتَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُونَ ۖ وَهَٰذَا اسْتِفْهَامُ إِنكَارٍ وَاسْتِبْعَادٌ وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ ۖ فَإِنَّكُمْ أَهْلُ الْمُشْرِكُونَ تَقْرُونَ بِوُجُودِ آلِهَةٍ أُخْرَىٰ مَعَ اللَّهِ ، وَإِنِّى لَا أَشْهَدُ شَهَادَتَكُمْ ، كَمَا قَالَ - تعالى : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥٠] ؛ وأخرج بأن الإله هو إله واحد . وهو الله عز وجل ، وإنى أتبرأ مما تشركون به من الأصنام والأوثان وغيرها ^(٢) .

إن هذه القضية التى عرضها السياق القرآنى فى هذه الآيات : « قضية الولاء والتوحيد والمفاصلة » ، هى قضية هذه العقيدة ، وهى الحقيقة الكبرى فيها ، وإن العصبية المؤمنة اليوم لخليفة بأن تقف أمام هذا الدرس الربانى فيها وقفة طويلة ، إن

(١) فى ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٦

(٢) التفسير المنير ٧/ ١٥٨ .

هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة فى الأرض ، نفس ما كانت تواجهه العصبة التى تنزلت عليها هذه الآيات ؛ لتحدد على ضوءها موقفها ، ولتسير على هذا الضوء فى طريقها ، وتحتاج من ثم أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات ، لترسم طريقها على هواها .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله ، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد وإلى جور الأديان ، ونكصت عن لا إله إلا الله ، وإن ظل فريق منها . يردد على المآذن : لا إله إلا الله دون أن يدرك مدلولها ، ودون أن يعنى هذا المدلول وهو يرددها ، ودون أن يرفض شرعية الحاكمية التى يدعيها العباد لأنفسهم - وهى مرادف الألوهية - سواء ادعوها كأفراد ، أو كتشكيلات تشريعية ، أو كشعوب ، فالأفراد كالتشكيلات ، كالشعوب .. ليست آلهة فليس لها إذن حق الحاكمية إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية ، وارتدت عن لا إله إلا الله ، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية ، ولم تعد توحيد الله وتخلص له الولاء ، البشرية بجملتها ، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن فى مشارق الأرض ومغاربها كلمات : لا إله إلا الله ، بلا مدلول ولا واقع . وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة ؛ لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد من بعد ما تبين لهم الهدى ، ومن بعد أن كانوا فى دين الله .

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات ، ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء ^(١) .

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي ، إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان ، منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت مثل الموقف الذى تنزل فيه هذا القرآن ، وهى اليوم فى مثل هذا الموقف تماما ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشئ الإسلام فى الأرض إنشاء ، فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين ، والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره ، والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله ؛ لتكون هذه الجماعة المسلمة . والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ^(٢) .

(١) فى ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٧ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٩ .

ثم تتابع الآيات ، لتبين كذب وضلال المشركين الذي قالوا للنبي ﷺ : إنا سألنا عنك أهل الكتاب من النصارى واليهود فما عرفوك ، وتبين كذب أولئك الذين سئلوا : إن سألهم المشركون حقا - بأن الله - تعالى - قد بين صفة الرسول وذكره في كتبهم ، وهم يعرفون ذلك وينكرونه ، كل هؤلاء المشركين والذين كفروا من أهل الكتاب قال الله - تعالى - فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة] .

ويؤكد الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب ؛ لأنهم هم الذين يعرفون وينكرون ، وهم الذين يرون ويتجاهلون أولئك وصفهم الله - تعالى - تصديقا لرسوله ، وتكذيبا لهؤلاء وهؤلاء بقوله - تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٢] وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شِرْكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [٣] ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [٤] أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [٥] [الأنعام] .

٥- القرآن والرحمة

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِغَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢٢٢] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف].

هاتان الآيتان ارتبطتا بما قبلهما ، وارتبطتا أيضا بما بعدهما من آيات ، وجاءتا ضمن توجيهات الله - عز وجل - لنبية والمؤمنين ببناء المجتمع الصالح الذي يريده الله تعالى خاليا من الشك والشوائب ، وكذلك خاليا من فساد الأخلاق ، جاءت مجموعات الآيات هذه في أواخر سورة الأعراف ، وانتهت بأول سجدة: سجدة التلاوة ، في ترتيب سور القرآن الكريم ومجموع هذه الآيات هي :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [٢٢٣] وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٢٤] إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [٢٢٥] وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِغَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢٢٢] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [٢٢٦] إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف].

فالمناسبة لأولى الآيات: أن الله بين في هذه الآية ما هو المنهج القويم ، والصرط المستقيم في معاملة الناس ، وهي آية تشمل أصول الفضائل ، فهي من أسس التشريع التي تلى أصول عقيدة التوحيد المبينة بآتم بيان ، ثم أعقب ذلك بوصية

وقائية ، وهى اتقاء وساوس الشيطان من الجن بعد الأمر بالإعراض عن الجاهلين السفهاء . اتقاء لشر الفريتين .

أما عن أصول الفضائل والأخلاق الاجتماعية ، وهى تلى فى المرتبة أصول العقيدة فى المعاملات والعادات ، ولدى التعامل مع الآخرين تظهر أخلاق الناس وما أحوج الإنسان إلى هذه الأصول الخلقية فى تعامله مع الغير ، ومن تفسير الآية يتبين أن هذه الأصول ثلاثة :

١- أخذ بالعرف: أى المعاملة باللين ، والبيان باللطف ، ونفى الحرج فى الأخذ والإعطاء والتكليف ، ويشمل ترك التشدد فى كل ما يتعلق بالحقوق المالية ، والتخلق مع الناس بالخلق الطيب ، وترك الغلظة والفظاظة والدعوة إلى الدين الحق بالرفق واللطف ، وهذا النوع من الحقوق مما يقبل التساهل والتسامح فيه .

٢- وأمر بالمعروف: وهو كل ما عرف شرعا وعقلا وعادة من جميل الأفعال وألوان الخير ، وهذا النوع من الحقوق لا يقبل التساهل والتسامح ويشمل كل ما أمر به الشرع . وكل ما نهى عنه من الأقوال والأفعال والمأمورات والمنهيات معروف حكمها ، مستقر فى الشريعة موضعها ، والقلوب متفقة على العلم بها ، والفرد والجماعة مطالبان بمقتضى هذا الأمر ، والإعلان الدائم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإخفائه .

٣- وإعراض عن الجاهلين: وهم السفهاء ، وفى أثناء الأمر بالمعروف والترغيب فيه والنهى عن المنكر والتنفير منه ربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء ، فيكون الإعراض عنهم هو المتعين ، اتقاء لشرهم وصيانة للداعية عن آذاهم ، ورفعاً لقدرة عن مجابتهم ، وذلك يتناول جانب الصفح بالصبر . وهذه الأوامر الخلقية الثلاثة ، وإن كان الخطاب فيها من الله لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديب لجميع خلقه .

وتأتى المناسبة التالية: فبعد أن ذكر الله تعالى فيما سبق إغواء الشياطين وإضلالهم بين فى الآية (٢٠٣) نوعا خاصا من أنواع الإغواء والإضلال ، وهو أنهم كانوا يطلبون آيات كونية معينة ، ومعجزات مخصوصة ، على سبيل التعت ، كقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنَبٍ فَتَقْجِرَ الْآنْهَرَ خَلَّالَهَا تَقْجِرًا ﴿١١﴾ ﴿[الإسراء] .

فلقد كان لأهل مكة مع النبي ﷺ مواقف تعنت وتشدد ، ومطالب شبه مستحيلة تهربا من الإيمان ، وإصرارا على الكفر ، وإمعانا فى إيذاء النبي ﷺ ، واتهامه بأخطر أنواع الاتهام ، وهو افتراء القرآن ، وتمكنه من الإتيان بما شاؤوا من المعجزات وخوارق العادات ، وتقتصر مهمة النبي ﷺ على اتباع الوحي وامثال ما أمر الله به ، فإن أظهر الله معجزة أو آية على يديه قبلها ، وإن منعها عنه لم يسأله إياها إلا أن يأذن له فى ذلك ، فإنه عليم حكيم .

وأن هذا القرآن أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبيانات ، فهو متصف بخصائص ثلاث :

- مبصر بالحق فى دلالاته على التوحيد والنبوة والمعاد ، وتنظيم الحياة بأحسن التشريعات ، وهاد ومرشد إلى طريق الاستقامة ورحمة فى الدنيا والآخرة للمؤمنين به ^(١) .

ونأتى إلى ما نتوجه بالحديث عنه وهو صنعة القرآن الكريم فى مجموع هذه الآيات : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ [الأعراف] فإن سبب نزول هذه الآية : أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن أبى هريرة قال : نزلت : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ فى رفع الأصوات فى الصلاة خلف النبي ﷺ وأخرج - أيضا - عنه قال : كانوا يتكلمون فى الصلاة ، فنزلت : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ ، وأخرج عن عبد الله بن مغفل نحوه ، وأخرج ابن جرير الطبرى عن ابن مسعود مثله ، وأخرج عن الزهري قال : نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئا قرأه ، وقال سعيد بن منصور فى سننه عن محمد بن كعب قال : كانوا يتلقفون من رسول الله إذا قرأ شيئا قرؤوه معه .

(١) راجع تفصيلا : التفسير المنير ١٥/٩ فما بعدها .

حتى نزلت هذه الآية التى بالأعراف : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، وعقب السيوطى على هذه الروايات فقال : ظاهر ذلك أن الآية مدنية .

ويظهر من هذه الروايات أن الآية نزلت فى الصلاة ، وهو مروى عن ابن مسعود ، وأبى هريرة ، وجابر ، والزهرى ، وعبد الله بن عمير ، وعطاء بن أبى رباح ، وسعيد ابن المسيب . قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى . فيقول بعضهم لبعض بمكة : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ . [فصلت : ٢٦] فأنزل الله عز وجل عنها جوابا لهم : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

وقيل : إنها نزلت فى لحظة . قال سعيد بن جبير ، وعبد الله بن المبارك . قال ابن العربى : وهذا ضعيف ؛ لأن القرآن فيه قليل ، والإنصات يجب فى جميعها .

ولما ذكر الله تعالى أن القرآن بصائر للناس وآيات بينات للمؤمنين ، وهدى ورحمة لهم أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته ؛ إعظاما له واحتراما ، وتوصلا لينال الرحمة به ، والفوز بالمنافع الكثيرة التى يشتمل عليها ، لا كما كان يفعل كفار قريش فى قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [فصلت : ٢٦] .

ومفهوم الآية : أنه إذا قرئ القرآن الكريم فأصغوا له أسماعكم ، لتفهموا آياته وتتعضوا بمواعظه ، وأنصتوا له عند الكلام مع السكون والخشوع ، لتعقلوه وتتدبروه ، ولتتوصلوا بذلك إلى رحمة الله بسبب تفهمه والانتعاظ بمواعظه ، فإنه لا يفعل ذلك إلا المخلصون الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان .

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن ، سواء كانت التلاوة فى الصلاة أم فى خارجها وهى عامة فى جميع الأوضاع وكل الأحوال . ويتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى موسى الأشعرى ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا ، رواه - أيضا - أصحاب السنن عن أبى هريرة .

وهذا هو المروى عن الحسن البصرى ، لكن الجمهور خصوا وجوب الاستماع

والإنصات بقراءة الرسول ﷺ في عهده ، وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده يوم الجمعة ؛ لأن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم إذا يقتضى ترك الأعمال . وأما ترك الاستماع والإنصات للقرآن المتلو في المحافل ، فمكروه كراهة شديدة ، وعلى المؤمن أن يحرص على استماع القرآن عند قراءته ، كما يحرص على تلاوته والتأدب في مجلس التلاوة .

وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدال على التأثر والخشوع من غير تكلف ، ولا تصنع ولا تمطيط ولا تطويل في المدود ؛ فقد روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعا : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن » .

وثواب الاستماع كثواب التلاوة . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » .

ثم أمر الله تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : ٣٩] ، ومعنى الآية : اذكر ربك في نفسك سرا ، بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره ؛ اذكر بقلبك : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] واذكره ضارعا متذللاً خائفا راجيا ثوابه وفضله ، واذكره بلسانك ذكراً متوسطا بين الإسرار والجهر : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، والخطاب قيل : للنبي ﷺ ، وقيل : لمستمع القرآن ، والأولى أن يكون عاما .

وينبغي أن يكون ذكر اللسان مقرونا باستحضار القلب وملاحظة المعاني فذكر اللسان وحده لا نفع فيه ولا ثواب عليه ، فالواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان ، وأن يكون الذكر رغبة ورهبة .

وأنسب الأوقات للذكر : وقت الصباح والمساء ، وهو وقت الغدو والآصال ؛ لأن بقية النهار للعمل وكسب الرزق ؛ ولأن هذين الوقتين وقتا هجوع وسكون .

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ؓ قال : رفع الناس أصواتهم

بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبي ﷺ : يا أيها الناس : أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا . إن الذى تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ^(١) .

إن الأدب مع القرآن الكريم أمر مطلوب شرعا وتعظيم الله واجب عقلا وشرعا وذكر الله تعالى همزة وصل القلب والنفس مع الله . وشأن الملائكة دوام العبادة ، والتسبيح ، تنزيه الله عما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله ، والصحيح وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى كل الأحوال ، وعلى جميع الأوضاع فى الصلاة وغيرها .

وارتبط بذلك أمور تعبدية شرعية ، واختلف العلماء على آراء ثلاثة فى قراءة المأموم ، هل يسقط عنهم فرض القراءة فى الصلاة الجهرية والسرية ، أو يجب ، وهل الوجوب خاص فى السرية دون الجهرية :

١- الحنفية: رأوا أن المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقا ، جهرا كان يقرأ أو سرا لظاهرة هذه الآية ؛ فإن الله طلب الاستماع والإنصات ، وفى الجهرية يتحقق الأمران معا . وفى السرية يتحقق الإنصات ؛ لأنه الممكن لأن الإمام يقرأ . فعليه التزام الصمت . ويؤيده ما أخرج ابن أبى شيبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا ، ورواه مسلم عن أبى موسى كما تقدم وأخرج ابن أبى شيبه - أيضا - عن جابر أن الرسول ﷺ قال: من كان له إمام ، فقراءته له قراءة ، وهذا الحديث وإن كان مرسلا فإنه محتج به عند الحنفية . وقد رواه أبو حنيفة مرفوعا بسند صحيح ، وهو مذهب كثير من الصحابة رضوان الله عليهم : (على ، وابن مسعود ، وسعد ، وجابر ، وابن عباس وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخدرى ، وابن عمرو ، وزيد بن ثابت ، وأنس) .

٢- المالكية والحنابلة : رأوا أن المأموم يقرأ خلف الإمام إذا أسر ، ولا يقرأ إذا جهر ، وهو قول عروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، والزهري . ودليلهم ما يلى :

الأول: ما رواه مالك وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال: هل قرأ أحدكم أنفا ؟ فقال رجل : نعم يا رسول الله . فقال: إنى أقول مالى أنازع القرآن ؟! فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه من الصلوات بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

والثاني: ما روى مسلم عن عمران بن حصين ، قال : صلى رسول الله ﷺ بنا صلاة الظهر أو العصر فقال: وأيكم قرأ خلفى بسبح اسم ربك الأعلى ؟ فقال رجل : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : قد علمت أن بعضكم خالجنيها

والثالث: روى عن عبادة بن الصامت قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة فلما انصرف ، قال: إنى لأراكم تقرؤون وراء إمامكم ؟ قال : قلنا: يا رسول الله أى والله ، قال: فلا تفعلوا إلا بأم القرآن.

لكن هذه الأحاديث تدل على مذهب الشافعية لا على مذهبي المالكية والحنابلة .

٣- الشافعية: يقرأ المصلى بفاتحة الكتاب مطلقا ، سواء كان إماما أو مأموما أو منفردا ، فى صلاة جهرية أو سرية ، واستدلوا بالحديثين السابقين كما لاحظنا ، ويقولون تعالى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل : ٢٠] ، ويقولون ﷺ ، فيما رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة عن عبادة بن الصامت: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ، وهذا ما اختاره البخارى والبيهقى ^(١)

ويأتى بعد ذلك دلالات الآيات التالية لهذه الآية حتى السجود .. ودلت آية: ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ ﴾ على أن رفع الأصوات بالذكر ممنوع ، ثم السجود ومذاهبه وآراء الفقهاء فيه ^(٢) .

ومن ثم فإن انتشار اللغة العربية بين المسلمين غير العرب واسع لمن اتخذ الأمر بوجوب قراءة الفاتحة (الشافعية) فى السر والعلن و (قليلا بمن ألقى على الإمام

(١) التفسير المنير ٩ / ٢٣١ فما بعدها .

(٢) راجع التفسير المنير ٩ / ٢٣٣ فما بعدها ، وكتب الفقه المعتمدة عن سجود التلاوة .

وجوب القراءة) الأحناف ، ووسطا على رأى " المالكية والحنابلة " إن القراءة فى الصلاة السرية واجبة ومتروكة فى الصلاة الجهرية كما توسعت بذلك كتب الفقه .

ثم إن الله - تعالى - ربط الاستماع إلى القرآن والإنصات بالرحمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ، أى أن الرحمة فى قراءة القرآن والإنصات والاستماع له . وهى كما ورد عبادة للقارئ ، وعبادة للسامع وأكثر من ذلك هى عبادة ورحمة للقارئ وللسامع المتدبرين القرآن ، الخاشعين لذكر الله ، المنصتين له ، الواعين تلك المعانى المتدبرين لها ، والعاملين بعد ذلك بموجبها والله أرحم الراحمين ، ربط الرحمة بهذا الموقف الذى يتأتى من ربط القلوب بالله - عز وجل - عند سماع تلاوة القرآن فى أى وقت كان ، والأفضل - كما مر سابقا - فى الصباح والمساء ، وفى الغداة والعشى . والله المستعان .

٦- القرآن الوعد الحق

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة] .

﴿ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ هذا الوعد الحق الذي وعده الله - تعالى - للذين اشترى منهم أنفسهم إنهم المؤمنون الذين قبلوا المقايضة إنهم إلى الجنة مألهم هذا الترتيب المحكم في هذه الآية كلمات في آية واحدة ، وضعت دستوراً كاملاً للمسلمين والمؤمنين فيما يتعلق بالجهاد هذه الآية كافية وحدها لسلوك المؤمنين - كل المؤمنين - في طريق الجهاد في سبيل الله ، كيف وهى واحدة من آيات أخرى وردت في القرآن الكريم ، الذي أعطى به الله تعالى الوعد الحق لهؤلاء المجاهدين ثم ماذا .. ؟ ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ نعم من من خلق الله أوفى من الخالق بإنجاز وعهده الذي ثبته في القرآن الكريم في مواضع كثيرة .. إنها عملية بيع وشراء حلال ، مقايضة رابحة جداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ والسؤال الذي يستوجب الإجابة عليه هو من أين جاءت نفس المؤمن ؟ أليس الله خلقها وأوجدها ورزقها وغناها ، وعلمها ، وحفظها من العاديات ، وخلق منها رجالاً كثيراً ونساء ؟ أليس الله - تعالى - الذي فطر هذه النفس وهداها إلى الإيمان ، فكانت النعمة الكبرى التالية بعد الخلق ؟ أليس الله تعالى قد خلقها في أحسن تقويم ، كاملة ، مدركة عاقلة مؤمنة بالله - عز وجل - وقد هداها الله هذا الطريق . طريق الإيمان والإسلام ، ثم من أين المال ؟ أليس من رزق الله - تعالى - الذي لا ينضب ؟ أليس من نعم الله - تعالى - على الإنسان أن مده بالمال والبنين ، ورزقه رزقاً حلالاً ليسير أمور الدنيا ، ويقضى حوائجه ويبادل المال بالطعام واللباس والمأوى وما تهفو إليه نفسه .. من أين المال ؟ ألم يعط الله تعالى هذا المال للمؤمنين ولغير المؤمنين ، وجعل حبه في نفوس الناس :

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، وجعله زينة الحياة الدنيا : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] .

النفس والمال من الله تعالى ، هو المعطى والكريم والمانع والغنى والقادر والمحیی والممیت ، ومع هذا فإن الله تعالى وعد المؤمنين إذا باعوا الله - تعالى - أنفسهم وأموالهم فلهم الجنة . وطريق البيع واضح ، وطريق الشراء واضح وهو أن يخرج المؤمن بنفسه وماله مجاهدا في سبيل الله .. والجنة التي وصفها الله تعالى في كتابه ، ووصفها رسول الله ﷺ ومن ثم فهي ، أى الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر... وصفا ليس هناك أحلى وأجمل وأدق وأصفى لما يمكن أن يوصف من خلق الله بهذا الوصف .. أعدت الجنة - ثمنا لما يقدمه الإنسان من نفسه وماله ومن ثم : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة : ١١١] الجنة للشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون .

ومن ثم فالعودة للبدء إنه وعد الله للمؤمنين ، والله يوفى وعده ، وليس وفاء فقط ولكن ليس أوفى من الله فى وعده : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، ثم إن الله تعالى قد أورد هذا الوعد فى كتبه المنزلة على أنبيائه ووعد بها المؤمنين مع موسى فى التوراة ، والمؤمنين مع عيسى فى الإنجيل ، ومن ثم وعد المسلمين فى القرآن ، وهذه واحدة من عشرات الشواهد الأخرى فى القرآن الكريم ، والتي تدل كلها على أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن الجهاد فرحة وحياة :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران] ، ولما ورد فى الأثر عن رسول الله ﷺ : إن المؤمن إذا دخل الجنة لا يرغب تركها إلا الشهيد فإنه يرغب أن يعود ويقتل ، ويعود إلى الحياة ويقتل لما يرى من نعيم يفوق كل التصورات ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ : يدعونهم لأن يلحقوا بهم إلى الجنة التى أعدت للمتقين ، كما أن مقام الشهيد مع مقام النبوة .. ومن الكثير الذى ورد

فى القرآن الكريم عن هذا الأثر قول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَىٰ نَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ۖ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٣ ۖ وَأُخْرَىٰ نُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۖ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٤ ﴾ [الصف] .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٥ ﴾ [التوبة] .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ۖ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٦ ﴾ [النساء] .

﴿ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۖ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٧ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝٨ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۝٩ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطُنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝١٠ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِيتُنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝١١ ۖ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٢ ﴾ [النساء] .

وفى جميع آيات كتاب الله - عز وجل ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم يقف على مشاهد جديدة فى كل آية تبين ما للشهيد من فضل ، وما أعطى الله - تعالى - للذين يجاهدون فى سبيله من ثواب الدنيا والآخرة ؛ نصرا من الله تعالى للمؤمنين ،

وجنات عرضها السموات والأرض للشهداء ، ومثل ذلك وعد الله تعالى أتباع الأنبياء فى التوراة والإنجيل ، ولكن غير وبدل أهل الإنجيل والتوراة ، لكن الله تعالى سبق وعده للذين يبيعون أنفسهم وأموالهم بأن يعطيهم الجنة ، وأخرى يحبونها نصر من الله وفتح قريب .

وقبل أن تنتقل إلى الجزء المتبقى من الآية ، فإننا نحب أن نقف عند هذا الحد من الآية لقد تمكن عالم النصارى (القوى حالياً) ، واليهود (المسيطرون على عالم النصارى ومقدراته) من التنصل مما وعدهم الله فى التوراة والإنجيل ؛ لأنهم لم يعودوا هم المعنيين بما فى التوراة والإنجيل ، فقد حرفوا التوراة والإنجيل ، وحتى هذه خرجوا على ما فعلوه ، وحتى يبتلوا هذه الفريضة التى فرضت على أتباع الأنبياء جميعاً ؛ فإنهم تحولوا ليعبدوا المسلمين عن دينهم ، ويضعوا بين الجهاد والمسلمين حاجزاً ، أو يخلصوا العقلية المسلمة - بدعائهم - من فرضية الجهاد ، باعتبارها العدو الأول لهم . وقد ورد: وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ، وهم يريدون هذا الذل للمسلمين ، ويريدون أن يتخلص المسلمون من هذه الميزة العظيمة التى تحلوا بها خلال وجودهم ؛ فحملوا عليهم حملة بكل ما يملكون من قوى بشرية ، وأسلحة وإغراء وترهيب وترغيب ، وشراء ضمائر ، وانفراد بالمجاهدين فى كل مكان ، والقضاء عليهم باسم محاربة الإرهاب ، والحرب قائمة اليوم تحت تحالف دولي ؛ ضم دول النصارى والهندوس واليهود وحكام المسلمين ، وأخذوا يلاحقون المجاهدين فى كل موقع فى رؤوس الجبال ، وفى الكهوف ، وفى المدن ، وفى القرى ، وتدمير بيوتهم فوق رؤوسهم بهذه الحجة .

ويقف العالم المجرم مكتوف الأيدي أمام هذا العمل الذى يعتبر بحق أكبر جريمة ترتكب الآن لا للمنحرفين ، ولكن فقط للمجاهدين وعلنا ، والقتل على الشبهة ، والسجن على الريجة ، وأمور لم تكن فى عقول السابقين ، لكنهم اليوم وبكل جرأة ونذالة يقتلون المؤمنين فى كل مكان وبمحجة مكافحة الإرهاب والله - تعالى - قال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وترك المسلمون الأعداء وخضعوا للضغط والحرب النفسية والقهر ، وكانت مقدمة جيوشهم حكام العرب والمسلمين ؛ وذلك لمنع الجهاد - الذى أصبح إرهاباً - بأية وسيلة وأى شكل مورس بالقول أو الفعل ..

والله نرجو أن يقبل الشهداء في جنته . ووعده وعده الحق ، وعد في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم الذي تواترت وتتالت آيات الله الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

أيها المجاهدون ، إن الله أتم وعده ببشرى ، وهذه البشرى للمبايعين الذين سيكون لهم الخلد في جنات العلى .. أبشروا أيها المجاهدون ، فإن وعد الله حق . وقرآنه ناطق في كل آية . بهذا ، وقد نصر الله المؤمنين وأيدهم وأوصلهم إلى أقاصى الدنيا ، وسودهم على الدنيا كلها ، محققا وعده الذى وعده ، وكانت البشرى خير ما بشر به خلق بنصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين .

٧- القرآن الخالد

﴿وَإِذَا تُلِّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَئِنْتَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؕ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس] .

نسوق قبل الولوج فى معانى الآيات الثلاث - موضوع الحديث .. أمرا جاء فى تفسير بعض الآيات السابقات له من نفس سورة يونس عليه السلام حول بعض الآيات القرآنية ، التى دلت على آيات الله فى الكون ؛ وذلك لنعلم ونقر عظمة هذا القرآن الخالد خلود الحياة ، حيث إنه ما جاء إلا بالحق والحق باق دائم خالد ، والقرآن باق دائم خالد قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ إِنَّ فِي آخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس] .

فهذان مشهدان بارزان مألوفان من مشاهد الكون ننسأهما لطول الألفة ، ونفقد وقعهما فى القلب بطول التكرار ، وإلا فكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرة أول شروق شمس وأول غروب ، وأول مطلع قمر وأول مغيب ، هذان مشهدان مألوفان مكروران يردنا القرآن إليهما ، ليشير فى مشاعرنا وهلة الجدة ، وليحيى فى قلوبنا إحساس التطلع الحى ، والتأمل الذى لم يبلده التكرار ، والتيقظ فى خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ فيها اشتعال : ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ فيه إنارة : ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ ينزل فى كل ليلة منزلا يكون فيه على هيئة خاصة كما هو

مشهود فى القمر ، بدون حاجة إلى علوم فلكية لا يدركها إلا المتخصصون .

﴿ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابِ ﴾ وما تزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس .

هل هذا كله عبث ؟ هل هذا كله باطل ؟ هل هذا كله مصادفة .

كلا ما يكون كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق ، وكل هذه الدقة التى لا تختلف معها حركة ما يكون هذا كله عبثا ولا باطلا ولا مصادفة عابرة .

﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الحق قوامه ، والحق أدواته ، والحق غايته ، والحق ثابت راجح راسخ ، وهذه الدلائل التى تشهد به واضحة قائمة دائمة .

﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمشاهد التى تعرض هنا فى حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر . واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، ويشمل كذلك اختلافهما طولاً وقصرًا ، وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان ، تذهب ألفة المشاهدة بمجدة وقعهما فى الحس ، إلا فى اللحظات التى تستيقظ فى النفس ، ويتفرض فيها الوجدان للمطالع والمغرب فيقف فى الشروق وفى الغروب وقفة الإنسان الجديد فى هذا الكون يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب ، وهى هى اللحظات التى يحياها الإنسان حياة كاملة حقيقية ، وينفض فيها التيبس الذى خلقته الألفة فى أجهزة الاستقبال والاستجابة .

﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب ما خلق الله فى السموات والأرض ويستعرض هذا الحشد الذى لا يحصى من الأنواع والأجناس ، والهيئات والأحوال ، والأوضاع ، والأشكال ، لو وقف لحظة واحدة لامتلاً وطابه ، وفاض بما يغنيه حياته كلها ، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش . ودع خلق السموات والأرض وإنشاءهما وتكوينهما على هذا النحو العجيب ، فذلك ما يوجه إليه القلب بالإشارة السريعة ، ثم يتركه ليتمله إن فى ذلك كله : ﴿ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ تستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص ، وجدان التقوى ، الذى يدع هذه القلوب مستجاشة حساسة ، سريعة التأثر والاستجابة لمجالى القدرة ، ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار

والأسماع .

هذا هو منهج القرآن الكريم فى مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية ،
المبثوثة حول الإنسان فى هذا الكون ، والتى يعلم الله - سبحانه - أن بينها وبين
فطرة الكائن البشرى لغة مفهومة ، وإيجاءات مسموعة .

ولم يلجأ المنهج القرآنى إلى الأسلوب الجدلى الذى جد فيما بعد عند المتكلمين
والفلاسفة ؛ لأن الله يعلم أن هذا الأسلوب لا يصل إلى القلوب ولا يتجاوز منطقة
الذهن الباردة التى لا تدفع إلى حركة ولا تؤدى إلى بناء حياة ، وقصارى ما تنتهى
إليه حركة فى الذهن البارد تتلاشى فى الهواء .

ولكن الأدلة التى يقدمها المنهج القرآنى - بأسلوبه هذا - هى أقوى الأدلة المقنعة
للقلب والعقل جميعا - وهذه ميزتها .

فإن وجود هذا الكون ذاته أولا ، ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة ، وما يقع
فيها من تحولات وتغيرات تضبطها قوانين واضحة الأثر - حتى قبل أن يعرفها
البشر - ثانيا . إن هذا كله لا يمكن تفسيره بغير تصور قوة مدبرة .

والذين يمارون فى هذه الحقيقة لا يقدمون فى مكانها دليلا معقولا ، ولا
يزيدون على أن يقولوا : إن الكون وجد هكذا بقوانينه ، وأن وجوده لا يحتاج إلى
تعليل ؛ ووجوده يتضمن قوانينه ! فإن كان هذا كلاما مفهوما أو معقولا - فذاك !

ولقد كان هذا الكلام يقال للهروب من الله فى أوروبا ؛ لأن الهروب من
الكنيسة اقتضاها هناك الهروب من الله ! ثم يقال هنا وهناك ؛ لأنه الوسيلة إلى
التخلص من مقتضى الاعتراف بالوهية الله . ذلك أن مشركى الجاهليات القديمة
كان معظمهم يعترف بوجود الله . ثم يمارى فى ربوبيته ، على نحو ما رأينا فى
الجاهلية العربية التى واجهها هذا القرآن أول مرة . فقد كان البرهان القرآنى
يحاصرهم بمنطقهم هم وعقيدتهم فى وجود الله - سبحانه - وصفاته ، ويطالبهم
بمقتضى هذا المنطق ذاته أن يجعلوا الله وحده ربهم ، فيدينوا له وحده بالاتباع
والطاعة فى الشعائر والشرائع . فأما جاهلية القرن العشرين - الواحد والعشرين -
فتريد أن تخلص من ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها ابتداء !

ومن العجيب أنه فى البلاد التى تسمى : إسلامية ، يروج بكل وسيلة ظاهرة أو

خفية لهذا الهروب الفاضح باسم: العلم ، والعلمية ، فيقال: إن الغيبة لا مكان لها فى الأنظمة العلمية ، ومن الغيب كل ما يتعلق بالألوهية ..! ومن هذا المنفذ الخلفى يحاول الأبقون من الله الهروب . لا يخشون الله إنما يخشون الناس ، فيحتالون عليهم هذا الاحتيال.

وما تزال دلالة وجود الكون ذاته ، ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة تحاصر الهارين من الله هنا وهناك والفطرة البشرية بجمليتها - قلبا وعقلا وحسا ووجدانا - تواجه هذه الدلالة ، وتستجيب لها ، وما يزال المنهج القرآنى هذا يخاطب الفطرة بجمليتها ، يخاطبها من أقصر طريق وأعمق طريق . انتهى ^(١) .

ثم نعود أدراجنا إلى الآيات البينات الثلاث ١٥ - ١٧ من سورة يونس .

إن مناسبة نزول الآيات .. بعد أن ذكر الله - تعالى - شبهتين للمشركين « وهما التعجب من إنزال الوحي على بشر ، وتخصيص محمد بالنبوة والمطالبة بتعجيل العذاب إن كان ما يقول محمد حقا ، ثم أثبت لهم الألوهية والتوحيد ، والقدرة على الوحي والبعث بخلق العلم وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ، ذكر هنا النوع الثالث من شبهاتهم فى الطعن فى نبوة النبي ﷺ ، وهو التشكك فى القرآن ؛ لذا طالبوه بأحد أمرين أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن ، أو أن يبدل هذا القرآن . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن (الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاص ابن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن حنظلة) ، فقتل الله كلا منهم بطريق آخر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر] . فذكر تعالى أنهم كلما تليت عليهم آياته : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ^(٢) .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس : ١٥] ، وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد إنما يصدر عن

(١) الظلال ٣/ ١٧٦٥ .

(٢) التفسير المنير ١١/ ١٢٨ .

عبث وهزل ؛ وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن الخالد ومجدية تنزيله ، وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لا يظنون أنهم سيلاقون الله !

إن هذا القرآن دستور حياة شامل ، منسق بحيث يفي بمطالب هذه البشرية في حياتها الفردية والجماعية ، ويهدها إلى طرق الكمال في حياة الأرض بقدر ما تطيق ، ثم إلى الحياة الأخرى في نهاية المطاف ، ومن يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواه ، أو يطلب تبديل بعض أجزائه .

وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يؤمنون بلقاء الله ؛ كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية ، فما على محمد إلا أن يقبل التحدى ويؤلف قرأنا آخر ، أو يؤلف جزءا مكان جزء ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايْ نَفْسِي إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس] .

إنها ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر ، إنما هو الدستور الشامل الصادر عن مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ، فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه ، إن هو إلا مبلغ متبع للوحي الذي يأتيه ، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم .

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس] .

إنه وحي من الله ، وتبليغه لكم من الله كذلك ، ولو شاء الله ألا أتله عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم ، فالأمر كله لله في نزول هذا القرآن وفي تبليغه للناس ، قل لهم هذا وقل لهم : إنك لبثت فيهم عمرا كاملا من قبل الرسالة : أربعين سنة ، فلم تحدثهم بشيء من هذا القرآن ؛ لأنك لم تكن تملكه ، لم يكن قد أوحى إليك ، ولو كان في استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذي أقعدك عمرا طويلا كاملا ؟ ألا إنه الوحي الذي لا تملك من أمره شيئا إلا البلاغ .

قل لهم : ما كان لي أن أفترى على الله الكذب ، وأن أقول : إنه أوحى إلى إلا بالحق ، فليس هنالك من هو أشد ظلما ممن يفترى على الله أو من يكذب بآيات الله .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَاتِهِ ﴾ [يونس : ١٧] ،
وأنا أنهاكم عن ثمانية الجريمتين ، وهى التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما
ولا أكذب على الله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس] ^(١) .

ومن مجريات تفسير هذه الآيات [١٥ - ١٧ من سورة يونس] وكذلك معرفة
أسباب النزول .. نستنبط من الآيات ما يلي ^(٢) .

١- التسجيل الواضح الفاضح لكلام المشركين المطالبين ؛ إما الإتيان بغير
القرآن ، وإما تبديله ، والفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه غيره ،
وأما التبديل فلا يجوز أن يكون معه غيره ؛ وسبب هذا الطلب إما السخرية
والاستهزاء ، وإما التجربة والامتحان : ومضمون الأمرين : إما إسقاط ما فى
القرآن من عيب ألهتهم وتسفيه أحلامهم ، وإما تحويل الوعد وعيدا ، والوعيد
وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا ، وإما إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور
ويصح إرادة كل هذه الأشياء .

٢- رفض مطالب المشركين ، وإعلان كون القرآن كلام الله ، وأن مهمة الرسول
ﷺ مقصورة على تبليغ ما يوحى إليه ، واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعد ،
وتحليل وتحريم وأمر ونهى .

٣- الموقف الثابت من عدم التبديل والتغيير لشريعة القرآن ، والإصرار على
العمل بالقرآن إنما هو بسبب التعرض لعذاب عظيم يوم القيامة .

٤- المقصود بالقرآن تبليغه إلى جميع الناس ، ولا سيما المشركون ، ولولا أن
تكون مشيئة الله ذلك لما أنزله ، ولا أمر بتلاوته عليهم ولما أخبرهم بمضمونه .

٥- القرآن كلام الله بدليل إعجازه من حيث النظم والأسلوب والمبنى ، ومن
حيث المعانى التى اشتمل عليها ، وبدليل كون المبلغ له أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم
يتعلم من أحد ، وبدليل التحدى لمعارضته والإتيان بمثله أو بأقصر سورة من مثله .

٦- لا أحد أظلم ولا أعنى ولا أشد إجراما ممن افترى على الله الكذب، وبذل

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٧٥٠ فما بعدها .

(٢) التفسير المنير ١١/ ١٣٠ فما بعدها .

كلامه ، وأضاف شيئاً إليه مما لم ينزله ، وكذلك لا أحد أظلم منكم أيها المشركون والكفار إذا أنكرتم القرآن وافترتيم على الله الكذب ، وقلتم ليس هذا كلامه .

٧- لا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين ، والإجرام مصيره الخيبة حتماً

(انتهى).

٨- القرآن المعجز

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢٠) [يونس] .

ويتكرر الحديث عن القرآن في ذات السورة ((سورة يونس)) والآيات المعنية الآن إنما هي تواصل وتتمة للآيات [١٥ - ١٧] فما الذي جعل هذه الآيات تتأخر لتعود وتتصل ربما بالمناسبة بما سبقها .

إنه الأسلوب القرآني المعجز .. فبعد أن بين الرسول ﷺ أن هذا القرآن من عند الله وهو بينهم عمره كله كما قال أبو جهل مرة : إن محمدا لم يكذب على بشر قط فهل يكذب على الله ؟ وهذا اعتراف من رجل أوقف حياته كلها على حرب الإسلام ورسول الإسلام ، وما ترك أمرا يضر بمصلحة الإسلام إلا وفعله حتى سقط قتيلا في بدر ، ومن هنا لا بد أن نشير إلى ما ورد من آيات بين الحقائق الأولى عن القرآن والحقائق التالية عنه فهو الخالد ، وهو المعجز وهو الحق وما دونه الباطل .

إن الله تعالى بعد أن بين أن القرآن من عنده ، عاد بلغة معجزة بليغة ليذكر هؤلاء القوم ببعض الأمور التي ربما نسوها من ألفتها لعيونهم ، أو أنهم كابروها - رغم رؤيتها وأنكروها ؛ فذكر الله - تعالى - أنهم أي هؤلاء المجادلين المشركين إنما يفعلون ذلك لأنهم :

١- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَئُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢١) [يونس] .

٢- ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس].

٣- ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس].

ثم يذكرهم الله تعالى بنعمه التي لا تحصى ورحمته التي وسعت السموات والأرض :

١- ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّيَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس].

٢- ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس : ٢٢].

٣- ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس : ٢٣].

٤- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [يونس : ٢٤].

٥- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس].

ثم يأتي جزاء المحسنين والمسيئين كل يلاقى ما كسبت يده في الدنيا : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٢٧﴾﴾ [الزلزلة].

١- ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قُتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس].

٢- ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس].

٣- ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاتُكُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس].

٤- ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس].

٥- ﴿ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس].

وبين الله - تعالى - للناس أمورا تحيط بهم ، ويرونها في كل أمة ، ويقعون بها ، وتصيبهم كما تصيب غيرهم ، ويذكرهم بأن الحق من الله ، وأن الله هو الخالق وما دونه مخلوقات لا تنفع ولا تضر ، ثم إن الله يهدي إلى الحق والذين يعبدونهم يهدون إلى الباطل وما يتبع أكثرهم إلا الظن .

١- ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس].

٢- ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس].

٣- ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس].

٤- ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس].

٥- ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس].

٦- ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس] .

هذه الصور البديعة التى يتحدى الله تعالى بها الناس ، والتى أنزلها فى قرآنه بيانا للناس يهدى !. يعود أولئك إلى الشك فى مصداقية أن هذا القرآن من عند محمد ، إنه الحق المنزل من عند الله ، المعجز فى آياته ، المعجز فى بيانه ، المعجز فى تصويره المعجز فى عرضه .. وبذلك فليخرس الخراصون الذين يدعون على الكذب وهم لا يعقلون ، وتعود بعد ذلك الآيات إلى القرآن الكريم إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس] .

ومناسبة هذه الآيات : ذكر الله تعالى مطلب المشركين من النبي ﷺ بإنزال آية من ربه (الآية ٢٠) ؛ لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز ، وأن محمدا إنما يأتى به من عند نفسه اختلاقا ، وأجابهم بأن محمدا عاجز كغيره عن إنزال آية والإتيان بمثله ، ثم أبطل شركهم بأدلة كثيرة ، ثم عاد هنا إلى ترسيخ حقيقة أصيلة ، وهى أن القرآن وحى من عند الله تعالى ، وليس إتيان محمد عليه الصلاة والسلام به على سبيل افتراء على الله تعالى : مما يدل على أنه معجز نازل من عند الله ، وأنه مبرأ من افتراء هذه الآيات فى بيان إعجاز القرآن لإثبات أنه من عند الله تعالى ، وأنه ليس من عند النبي ﷺ ، وإنما هو معجزة خالدة تشهد بصديق النبي ﷺ ، وهو معنى قول الله فى الحديث القدسى : « صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى ».

ومعنى الآية : ما شأن القرآن ، وما ينبغى أن يختلق من غير الله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ، ووجازته وحلاوته ، وإخباره عن المغيبات ، وأصالة تشريعه ، واشتماله على المعانى الغزيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله تعالى ، فهو كلامه الذى لا يشبه كلام المخلوقين ، ولا يقدر أحد إلا الله أن يجاريه أو يعارضه.

وقد ثبت أن أبا جهل قال: إن محمدا لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله؟
وإنه مطابق ومصدق لما تقدمه من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل ؛ كإبراهيم

وموسى وعيسى ، وموافق لها فى الدعوة إلى أصول الدين ، فى التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر ، وصالح الأعمال ، وفضائل الأخلاق ، وهو - أيضا - مهيمن عليها ، ومبين كاشف لما وقع فيها من تحريف وتبديل ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ أى وبيان الأحكام والشرائع ، والحلال والحرام ، والعبر والمواعظ ، والآداب والأخلاق الشخصية والاجتماعية ، بيانا شافيا كافيا .

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى لا شك فيه أبدا ، ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه لوضوحه وبيانه الحق والهدى والصواب .

﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل وموحى به من الله لا من غيره ، بدليل سلامته عن الاضطراب والاختلاف ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء] ^(١) . وبه يتبين أن الله - سبحانه - وصف القرآن بصفات خمس هى :

- ١- لا يصح أن يفترى من دون الله ؛ لأن القرآن معجز لا يقدر عليه البشر .
- ٢- وهو مصدق مؤيد لما قبله من الكتب المنزلة على الرسل السابقين كموسى وعيسى فى أصول الدين والفضائل ، ومهيمن عليهما ؛ فهو معجز لاشتماله على الأخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلية ، وهو المراد بقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، ومن إخباره عن مغيبات المستقبل التى وقعت مطابقة للخبر: قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ ؟ عَلَّمْتَ الْأَرْوَامَ ﴾ [الروم] وقوله تعالى: فى فتح مكة : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ [الفتح : ٢٧] ، وقوله فى ظهور الدولة الإسلامية : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور : ٥٥] مما يدل على أن الإخبار إنما حصل بالوحى من الله تعالى .

(١) انظر قسم ٢ من هذا الكتاب .

٣- وهو مفصل ما يحتاج إليه الإنسان من الأحكام الشرعية والعلوم الكثيرة الدينية والدنيوية ؛ ففيه علم العقائد والأديان : وهو معرفة الله تعالى : ذاتا وصفات وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفيه علم الأعمال وهو علم الفقه ، وعلم الأخلاق مثل قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [النحل: ٩٠] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل: ٩٠] ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ١١١] .

٤- لا ريب ولا شك فيه ، لبيانه العلوم الكثيرة وعدم وجود التناقض فيه .

٥- كونه من عند الله - تعالى - نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ، ليكون من المنذرين .

- ثم أنكر الله تعالى على المشركين الجاهلين القائلين بأن محمدا ﷺ قد افتراه ، وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ [هود: ١٣] ، أى بل يقولون : اختلقه محمد ؟! فمحمد بشر مثلكم ، وقد زعمتم بأنه جاء بهذا القرآن ، فأتوا بسورة مثله : أى من جنس هذا القرآن ، ولو بما يشابه أقصر سورة فيه فى النظم والأسلوب ، والقوة والإحكام ، والبلاغة والدقة ، واستعينوا على ذلك بمن قدرتم عليه من إنس وجان ، ولن تستطيعوا فعل شيء ؛ فإن جميع الخلق عاجزون عن معارضته أو الإتيان بمثله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] .

فإن كنتم صادقين فى ادعائكم أن القرآن من عند محمد ، فلتأتوا بنظير ما جاء به وحده ، ولتستعينوا بمن شئتم . ولو كان التحدى للإتيان بمثل القرآن على مراحل :

أولها : ما ذكر فى هذه الآية : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ ﴾ وهى أعلى المراتب .

وثانيها: التنازل معهم إلى عشر سور منه. فقال في أول سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْخَرْتُهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ آسَاطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وثالثها: التنازل إلى سورة ، فقال هنا في هذه السورة المكية : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ وكذلك في سورة البقرة المدنية : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ ، ثم أثبت القرآن موقف هؤلاء المشركين منه فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ ، أى بل سارع هؤلاء إلى تكذيب القرآن من قبل أن يتدبروا ما فيه أو يفهموه ، وهذا شأن المعاند الجاهل .

﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى وكما أنهم كذبوا به بداهة قبل التدبر والمعرفة تقليدا للآباء ، كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علو شأنه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة ؛ تمردا وعنادا ، وبغيا وحسدا ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ : لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالمغيبات حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ؟ ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل ذلك التكذيب كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها ، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن تقليدا للآباء وعنادا .

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة أولئك الظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسلهم وطلبهم الدنيا وترك الآخرة وهى أننا أهلكناهم بسبب تكذيبهم رسلنا ظلما وعلوا وكفرا وعنادا وجهلا ؛ فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت] ^(١) ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ ﴾ [يونس : ٤٠] .

وبعد أن أبان الله تعالى طعن الكافرين في النبوة والوحى ، وبعد أن أُنذَرهم بالدمار والعذاب في الدنيا بقوله : ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس] ذكر أنهم في الواقع فريقان: فريق يصدق بأن القرآن كلام الله ، ولكنه يكابر ويعاند ، وفريق لا يصدق به أصلاً ؛ لفرط غباوته وجهله ، فيصر على تكذيب النبي ؛ لفقده الاستعداد للإيمان به ، فلا أمل في إصلاحه وهدايته ، فتكون المصلحة في إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيمان دون الاستئصال .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس] أى وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الضلالة فيضلّه وهؤلاء هم المعاندون أو المصرون والله تعالى العادل الذى لا يجوز ، بل يعطى كلا ما يستحقه ، فمعنى الآية: وربك أعلم بمن يفسد فى الأرض بالشرك والظلم والطغيان ، فلا أمل فى إصلاحهم لفقدهم الاستعداد للإيمان وسيعذبهم فى الدنيا والآخرة^(١) .

فأى إعجاز أبلغ من هذا .. وإن العقل البشرى مهما أوتى من تحد فإنه يبقى عاجزاً عن الحد الذى أعطاه الله . فلا يعلم الغيب ، ولا يعلم العلم إلا قليل ، ولا يعلم ملكوت السموات إلا ما وقع تحت ناظره - فعلى العموم - فإن المكابرين هم أولئك الذين يتحركون فى الدنيا بمنظار المحسوس والملموس ، أو ما يقع تحت الحواس ، أما الغيب فإن الله - تعالى - قد اختص به نفسه ولم يطلع أحداً عليه إلا الخواص من خلقه وبالوحى كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِىْ اِسْرَءِيلَ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلِ يَّاتِىْ مِنْ بَعْدِىْ اَسْمُهُ اَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ مُّؤْمِنٍ ﴾ [الصف] ، فعلم عيسى عليه السلام الذى فاق به معاصريه إنما هو إكرام من الله - تعالى - لأنبيائه .

وقد بشر النبي ﷺ بأمور قد وقعت ، ومن ثم فإن كل ما بشر الله تعالى به فى

كتابه أمة الإسلام قد تحقق ، كما تحقق أيضا عذاب الله في الذين تركوا الدين والقرآن والتفتوا إلى أهل الدنيا يتزودون منهم ؛ عصيانا وذنوبا وانحرافا لآخرتهم ، ظانين أن هؤلاء يقدرّون على أن يدرؤوا العذاب عنهم في الدنيا (أمراض ، خوف ، ضعف) وجهنم في الدار الآخرة.

إن هذا هو القرآن المعجز التي عجزت أمامه صنوف الخلق من الجن والإنس .

٩- القرآن الشامل

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس].

وللمرة الثالثة فى سورة يونس يرد ذكر القرآن الكريم ولكن بصفة أخرى غير كل الصفات التى سبق ذكرها ، يعود هذه المرة ليؤكد الجوانب السابقة للذين أرادوا أن يلغوا فى هذا القرآن ، أو دعواهم بأنه من عند محمد ، ورد حججهم الباطلة فإن ما فى هذا القرآن قد أعجز الذين تحدوه عند نزوله ، وأبطل ادعاءات الذين يتناولون على عظمتهم بعد نزوله ، واستمرار التحدى لكل الخلق أن يأتوا بعشر سور ، بسورة واحدة ، والتحدى قائم ، والعجز البشرى ما زال قائما أيضا ، فلم يتمكن خلال خمسة عشر قرنا من الزمان - مع وجود التحديات الكبرى من الشعوب الكافرة للمسلمين - أن يجتمع أولئك لقبول التحدى ؛ فإنهم تحولوا عن عجزهم هذا إلى افتراء أمور أخرى على الإسلام والمسلمين ، فى كلام مغلوط ممجوج ، غير مقبول بأية حال من الأحوال ، اعترفوا بسخفه ، وهزاله ، وتجنههم بالسنتهم ، أو السنة أبناء جلدتهم ، الذين وقفوا عاجزين أمام عظمة هذا القرآن وإعجازه .

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ، و ما: نافية ، أى لست فى شأن من عبادة أو غيرها إلا والرب مطلع عليك ، ﴿شَأْنٍ﴾ أمر مهم عظيم . ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ من الشأن ؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ ؛ بل هو معظم شأنه ، أو ما تتلو من التنزيل من قرآن ؛ لأن كل جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تفخيم له ، أو من الله - عز وجل : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعا أيها المؤمنون - الأمة والنبي - وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم : ﴿شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصى عليكم : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى تندفعون فيه وتحوضون أو تأخذون فى العمل :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ وما يبعد عنه وما يغيب عن علمه : ﴿ مِثْقَالِ ﴾ وزن ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ أصغر نملة أو هباء ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ، أى فى الوجود والإمكان ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بين وهو اللوح المحفوظ . هذه معانى الكلمات فى هذه الآية .

أما مناسبتها: فبعد أن بين الله تعالى أن القليل من الناس شاكرون نعم الله بدوام طاعته وترك معصيته ، ذكرهم بأن علمه محيط بجميع شؤونهم وأعمالهم صغيرها وكبيرها ، وبكل الموجودات والكائنات كلها فى السموات والأرض ، حتى يحملهم ذلك على الطاعة والشكر والعبادة وتجنب المعصية ؛ لأنه إذا كان الحق - تعالى - عالما بكل شىء ، سر الطائعون ، وهدد المذنبون ^(١) .

- وتعود هذه الآية إلى شعور مطمئن ومخيف معا ، مؤنس ومرهب معا ، وكيف بهذا المخلوق البشرى وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه الله بكل عظمته وبكل هيئته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته .. الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . ومدبر هذا الكون ما جل منه وما هان .. الله مع هذا المخلوق البشرى ، الذرة التائهة فى الفضاء ، لولا عناية الله تمسك بها وترعاها ! إنه شعور رهيب ، ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن ، إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية .. إن الله معها .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ .

إنه ليس شمول العلم وحده ، ولكن شمول الرعاية ، ثم شمول الرقابة .

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبا: ٣] .

ويسبح الخيال مع الذرات السابجة فى الأرض أو فى السماء ومعها علم الله - وما هو أصغر من الذرة وأكبر محصور فى علم الله . ويرتعش الوجدان إشفافا ورهبة ، ويخشع القلب إجلالا وتقوى ، حتى يطمئن القلب من الروعة والرهبة ،

ويهدد القلب الواجف ، يأنس بالقرب في الله.

وفي ظل هذا الأنس ، وفي طمأنينة هذا القرب يأتى الإعلان الجاهز .. تأتي الآية التالية:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس] (١).

إن كل من يتأمل في مدلول هذه الآية ولا يتأمل فيها بحق الا عالم مؤمن ، واسع العلم والأفق والنظر - فسيجد سعة علم الله الشامل ، ورصده لكل شىء فى الوجود ، وأعمال جميع الكائنات الحية ، والناس قاطبة فى البر والبحر والجو ، يسيطر عليه الخوف والرغبة ، ويملاً قلبه اليقين بعظمة الله تعالى ، ويدرك أن جميع أعماله مسجلة عليه ، سواء أكانت صغيرة حقيرة أم كبيرة جليلة .

ولله المثل الأعلى - رصد الله لحركاتنا - وعلمه بجميع أعمالنا ، بل اطلاعه على ما تكنه نفوسنا ، يملأ النفس رهبة وخوفا ، فسبحانك يارب ، لا يسعنا إلا سترك وعفوك ورحمتك ، وكفى بهذه الآية باعثا على الطاعة والإيمان ، ورادعا عن المعصية والكفر ، وكفى بالله حسيبا ، وهو أسرع الحاسبين (٢) .

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٨٠٣ .

(٢) التفسير المنير ١١/ ٢٠٨ - ٢١٠ .

١٠- القرآن العربى

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف] .

﴿الر﴾ : افتتحت سورة يوسف المتلازمة مع كتاب الله تعالى من خلال الأربع والعشرين سورة فى القرآن الكريم اللاتى كان افتتاحهن بالحروف النورانية . وشاركت سورة يوسف بالأحرف ﴿الر﴾ كل من سورة (الحجر ويونس وهود وإبراهيم) ، والسور الخمس بدأت بـ ﴿الر﴾ كما هو مبين .. هذه ملاحظة ، والأخرى هو أن فى هذه السورة أول ذكر للغة القرآن الكريم وهى العربية ، وسنكرر ذكر اللغة العربية فى مواقف أخرى كقوله تعالى : ﴿ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت] ، وكذلك فى سورة فصلت الآيات ٤٢ ٤٣ ، ومواضع أخرى . هذه البداية الآن لتأكيد أن هذا القرآن عربى . نزل بلغة العرب التى اختارها الله تعالى دون غيرها من لغات الأرض لتكون فحوى التنزيل ورفع هذه اللغة لتكون من الفضل والسمو والعلو بسمو ما نزل بها من الله تعالى . إن معرفة هذا الفضل وهذه القدسية لهذه اللغة - جعل كل أعداء الإسلام ينادون لحربها بأى أسلوب من الأساليب المعروفة فى أحابيل الشيطان وجنده ؛ وكذلك لإبعاد هذه اللغة ، وليكون ما نزل بها مهجوراً .. لكن حفظ الله تعالى الذى تكفل به لهذا التنزيل ، يبطل ويدحض ويهزم كل رأى ، أو كل عدو مهما بلغت قوته وجمع جنده ، واستمر القرآن يتحدى كل أعدائه وأعداء الإسلام من المشركين والكفرة من أهل الكتاب ؛ وبذلك فقد تمكنت اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم أن تتخطى كل ما فى الدنيا من مؤامرات ، وأن يبقى القرآن عربياً .

ومع أنه قد ترجمت معانيه الآن لما يقارب المائة وخمسين لغة فى العالم ، فلم يرق ولن يرقى ، إلى سمو رسمه بالعربية وبلاغتها وبيانها أى ترجمة لمعانيه ، حتى أى

معارضة له مهما كانت فى بلاغة اللغة التى كتبت بها .

إن الإعجاز المطلق فى هذا القرآن أنه عربى معجز بلغة مباركة تعتبر من أرقى لغات العالم وأفضلها ؛ إذ بها اختير التنزيل المبارك للقرآن الكريم .

وأمر ثالث: هو أن الله - عز وجل - ربط التنزيل بالعربية بالمفهوم العلمى والعقلى فجاءت مباشرة كلمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والعقل ضد الجنون ، والعقل ضد الجهل ، والعقل ضد الخرافة ، والعقل ضد التشويش ، والعقل أخيرا هو نعمة الله - تعالى - التى أنعم بها على الإنسان من جملة نعمه التى كرم بها هذا المخلوق وميزه ورفعته عن جميع مخلوقاته . أى أن الخطاب جاء مباشرة لأصحاب العقول ، ولعلمهم يعقلون إن كانوا قد انحازوا أو انحرفوا عن العقلانية التى فطر الله الناس عليها .

ورابع الأمر: أن هذا القرآن العربى يقص أحسن القصص وهى قصة سيدنا يوسف عليه السلام بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام حيث ترد هذه القصة الوحيدة متكاملة فى القرآن الكريم ، وغيرها جاء متفرقا متكررا - فى المجاز - فى كل ورود .

سبب نزول الآيات: ﴿حٰنُ نَقْصُ﴾ روى ابن جرير ، عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ؟

فنزلت : ﴿حٰنُ نَقْصُ عَلَيْكَ﴾ . وفى سرد لما أورده صاحب التفسير المنير^(١) :

- تشبه فاتحة هذه السورة فاتحة سورة يونس ، لكن وصف القرآن الكريم هنا بالمبين ، وهناك بالحكيم ؛ والسبب أن سورة يوسف تعبر عن أحداث جسام مر بها نبي كريم صبور فناسبها الوصف بالبيان ، وأما سورة يونس فمضمونها إثبات أصول الدين من توحيد الله ، وإثبات الوحي والنبوة ، والبعث والجزاء ، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة .

والمعنى : تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وهذا تفسير الزمخشري . وقال أبو حيان: والظاهر أن المراد

ب ﴿الْكِتَابُ﴾ ، القرآن و ﴿الْمُيِّنُ﴾ إما البين في نفسه الظاهر أمره في إعجاز العرب وتبكيتهم ، وإما المبين الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، وما يحتاج إليه من أمر الدين ، أو المبين الهدى والرشد والبركة .

وعلى أية حال فإن الكتاب اسم جنس يطلق على البعض وعلى الكل ، فسواء قلنا : إن المراد به هذه السورة أو كل القرآن ، فالقصود إثبات صفة القرآن ، وصفاته لا تختلف بين السور جميعها . فكلها واضحة جلية تفصح عن أشياء مبهمة وآياتها تبين وتفسر غوامض الأمور ، وتوضح أحكام الشريعة ، وترشد إلى ما هو خير في الدنيا والآخرة .

قال القرطبي وابن كثير : هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين ، أى الواضح الجلى الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها ، يعنى بالكتاب المبين : القرآن المبين ، أى المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهده وبركته .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أى إنا أنزلنا هذا القرآن على النبي محمد العربى بلغة العرب ؛ أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس ، لتتعلموا ما لم تكونوا تعلمون من قصص وأخبار ، وآداب وأخلاق وأحكام وتشريعات ، ومناهج حياة سليمة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد وشؤون الدولة ، ولتتدبروا ما فيها من معان وأهداف ، تبني الفرد والجماعة على أقوم الأسس .

قال ابن كثير: فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ إنزاله فى أشرف شهور السنة ، فأكمل من كل الوجوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لَحْنُ نَقْصٍ﴾ أى نحن نخبرك بأحسن الأخبار ، بسبب وحيناً إليك هذا القرآن الذى جاء تاماً كاملاً مفصلاً كل شئ ، وجاءت قصة يوسف كاملة تامة مفصلة ، ذات أهداف سامية وعبر كثيرة ، وإن كنت من قبل ما أوحينا ، أى من قبل وحيناً إليك ﴿لَمَنْ الْغَفِيلِينَ﴾ ﴿٢٠٠﴾ عما عرفناك به : أى من الجاهلين به فلا علم لك به قط ، شأنك شأن قومك ، لا يعلمون من قصص الماضين وأخبارهم شيئاً .

ولقد دلت الآيات على ما يلي :

١- القرآن الكريم كتاب مبين ، أوضح الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، والشرائع والأخلاق ؛ ليكون هدى للعالمين ، وبركة وخيرا للناس أجمعين ، فهو معجزة بينة لمحمد ﷺ .

٢- القرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين ، يقرأ بلغة العرب ، فكان معشر العرب أولى الناس بالإيمان به وفهم ما فيه ، وتعلم معانيه .

٣- القرآن بيان جلى متضمن أحسن القصص ، وأثبت الأخبار ، وأجدى الآثار وتواريخ الأمم الماضية ، والمراد بأحسن القصص أنه اقتصر على أبداع طريقة وأعجب أسلوب ، أى أن المراد من الحسن حسن البيان ، وكون الألفاظ بلغت بالفصاحة حد الإعجاز .

٤- قصة يوسف عليه السلام أحسن القصص ؛ والسبب فى تسمية هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقايص ؛ هو ما تضمنته هذه القصة من العبر والحكم ، وما اشتملت عليه من التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجميل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا ، وذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والإنس ، والأنعام والطير وأخبار الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، فهى قصة جامعة شاملة للدين والدنيا والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية الملائى بالعبر والعظات ، ولعل من أهمها الصبر على الأذى والعفو عند المقدرة . انتهى .

١١- القرآن الخارق

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَتٌ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ ۖ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوِ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۖ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد] .

أسباب نزول الآية : أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال : قالوا للنبي ﷺ : ^(١) إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول ، نكلمهم من الموتى ، وافسح لنا هذه الجبال - جبال مكة - التي قد ضمتنا ، فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾ الآية ورواية ابن جرير ، وأبى الشيخ : عن حيان الأنصارى عن ابن عباس أنه قال : سير بالقرآن الجبال ، قطع بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عطية العوفى قال : قالوا للنبي ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة ، حتى تتسع فنحرت فيها ، أو قطعت لنا الأرض ، كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى ، كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله ﷺ : إن كنت نبيا كما تزعم ، فباعد جبلى مكة أخشبيها جبلين فيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آبائنا من الموتى ، حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي ، واحملنا إلى الشام أو اليمن أو

(١) المشركون الذين كانوا يطلبون المعجزات الخارقة من النبي ﷺ .

إلى الخيرة ، حتى نجىء ونذهب فى ليلة ، كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

أما مناسبة الآية: فبعد أن قص الله علينا ما طلبه المشركون من آيات تثبت نبوة محمد ﷺ أوضح أن محمداً غيره من الرسل مع أقوامهم ، طلبوا الآيات من أنبيائهم وأجابهم الله إلى مطلبهم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فعذبوا بعذاب الاستئصال .

ولو أرادوا آية ؛ فقد أعطيناك هذا الكتاب (القرآن المعجز) وأنت تتلوه والله قادر على كل شىء من الإتيان بما أقرحوه ، ولكنه لا يحقق المقصود ، ثم هددهم الله بداهية تحمل بهم ، ثم أتبع ذلك بتسليية للنبي ﷺ على استهزائهم به .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِغَايَةِ مَن رَّبِّهِ ﴾ ، وذلك أن نفرا من مشركى مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية المخزوميان ، جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم ، فقال له عبد الله: إن سرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبهما عنا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضيقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ، حتى نغرس ونزرع ، فليست كما زعمت بأنه بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فتركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا ، فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت ، فليست بأهون على ربك من سليمان وداود وأحى لنا قصصاً^(١) جدك ، أو من شئت من موتانا نسأله ؛ أحق ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى وليست بأهون على الله منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية .

قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد ، وقتادة والضحاك ، والجواب محذوف تقديره ، لكان هذا القرآن لكن حذف إيجازا . لما فى ظاهر الكلام من الدلالة عليه . كما قال امرؤ القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعه ولكنها نفس تساقط أنفسا

يعنى لھان على ؛ هذا معنى قول قتادة ؛ قال : لو فعل هذا القرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم وقيل : الجواب متقدم ، وفى الكلام تقديم وتأخير : أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن ، وفعلنا بهم ما اقترحوا . قال الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن ، وقال الزجاج : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ﴾ . إلى قوله : ﴿ اَلْمَوْقَى ﴾ لما آمنوا ، والجواب المضمر هنا ما أظهر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ اَلْمَلَتِيكَةَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اَللَّهُ ﴾ ، ﴿ بَلِ اَللَّهُ اَلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو المالك لجميع الأمور الفاعل لما يشاء فيها ، فليس ما تلتسموه مما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَأْيَسِ اَلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، قال الفراء : قال الكلبي : ﴿ يَأْيَسِ ﴾ بمعنى يعلم ، لغة النخع ؛ وحكاه القشيري عن ابن عباس ؛ أى أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري فى الصحاح . وقيل : هى لغة هوازن ؛ أى أفلم يعلم ، عن ابن عباس ومجاهد ، والحسن ، وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ ؛ أى داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل فى القرع الضرب .

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قتل أو من أسر ، أو جذب . أو غير ذلك من العذاب والبلاء ، كما نزل بالمستهزئين وهم رؤساء المشركين ، وقال عكرمة عن ابن عباس القارعة : النكبة ، وقال ابن عباس - أيضا - وعكرمة : القارعة : الطلائع والسرايا التى كان ينفذها رسول الله ﷺ . ﴿ أَوْ تَحُلْ ﴾ أى القارعة ﴿ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . قيل : ونزلت الآية بالمدينة ؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتتزل بساحتهم ، أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اَللَّهِ ﴾ فى فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ، أى تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد . فتحل قريبا من دارهم ، أو تحل بهم محاصرا لهم ، وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاع خيبر ، ويأتى وعد الله بالإذن

لك في قتالهم وقهرهم ، وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة ^(١) .

وبذلك فقد كان طلب المشركين أن يكون القرآن الذى يتلوه محمد ﷺ يملك من الخوارق ما يغير تضاريس الأرض ويحيى الموتى . ويجمع معجزات الأنبياء السابقين المادية . والقرآن معجزة أكبر من هذا بكثير فهو دائم التجدد والعطاء والإعجاز فى كل زمان وحين : ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص] ولكن إدراك المشركين كان لا يؤمن إلا بتغيير واقعهم الذى يعيشونه .

١٢- القرآن المبين

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ۝١ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ۝٣ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٤ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٥ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ۝٦﴾ [الحجر].

ورد ذكر القرآن الكريم فى سورة الحجر فى ثلاثة مواضع .. أولها فى بداية السورة - الآيات السابقة ، وفى الآية ٨٧ ، وأخيرا فى نهاية السورة تقريبا . وذكر القرآن فى المواضع الثلاثة جاء تأكيدا وتبيانا لعظمة هذا القرآن ، ولكونه من عند الله تعالى ، وبأنه قرآن مبين ، وقرآن عظيم ، وصفات أخرى مما اتصف به هذا الكتاب ، ثم إن القرآن الكريم قد ذكر بصفتين متتابعتين من أسمائه - الكتاب والقرآن المبين ، كما أنه ورد بعد أحرف نورانية فى السور المتكررة الذى ذكر فيها القرآن بعد هذه السور، وبذلك فإن افتتاح سورة الحجر بهذه المعانى المتكررة جاء تعظيما وتوضيحا وتبيانا لهذا الكتاب - القرآن المبين .

﴿الرَّ﴾ إشارة لتحدى العرب بإعجاز القرآن البياني : أى هذا الكتاب كلام الله المنظوم من حروف لغتكم العربية الهجائية : ألف لام . ميم .. وهنا راء ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات ﴿الْكِتَابِ﴾ هو السور وكذا القرآن ، أى هذه آيات الكتاب العظيم المتميز بالفصاحة الكاملة والبيان التام : ﴿وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ أى وقرآن واضح تام البيان. لا خلل فيه مظهر للحق من الباطل ، والكتاب والقرآن المبين ، الكتاب الذى وعد الله تعالى به محمدا ﷺ . وتنكير ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ للتفخيم والمعنى : تلك آيات الكتاب الجامع لكونه كتابا وقرآنا ، فهو كامل بكونه كتابا وفى كونه قرآنا مفيدا للبيان .

﴿الر﴾^(١) هذه الحروف المقطعة مقصود بها التنبيه وإشعار العرب بإعجاز القرآن البياني ، وتحديدهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه ؛ لأنه نزل بلغتهم ، وتكون من حروفها التى تتركب منها الكلمات ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ أى تلك الآيات من هذه السورة هى آيات الكتاب الكامل فى كل شىء ، وآيات القرآن المبين التام الوضوح والبيان لهذه السورة وغيرها . وتنكير كلمة : ﴿وَقُرْآنٍ﴾ للتفخيم ، وقد جمع بين الوصفين : ﴿الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ للدلالة على أنه القرآن الجامع للكمال ، والغرابة فى البيان ، كما قال الزمخشري .

فالقرآن الكريم جامع بين صفة الكمال فى كل شىء ، والوضوح والبيان فلا نقص فيه ولا خلل ، ولا غموض ولا لبس وإنما يظهر الحق من الباطل لكل إنسان^(٢) .

وتلى هذه الآية الأولى من سورة الحجر آيات تصور حال الكفار الذين سيقوا إلى جهنم ، فلما أصابهم ما أصابهم من العذاب ، ولم يكونوا فى حياتهم الدنيا يصدقون أو يتصورون هذا العذاب جاءت كلمة ﴿رُبَّمَا﴾ تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، وقد تستعمل فى الكثير كما هنا ، فإنه يكثر منهم تمنى الإسلام ،

(١) ﴿الر﴾ قال النحاس : قرئ على أبى جعفر أحمد بن شعيب بن على أبى الحسن بن حريث قال : أخبرنا على بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدثه عن ابن عباس : (آلر ، حم ، ونون حروف الرحمن) مفرقة ، فحدثت به الأعمش فقال : عندك أشباه هذا ولا تخبرنى به ؟ وعن ابن عباس أيضا قال : معنى ﴿الر﴾ أنا الله أرى ، قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد :

بالخير خيرات وإن شرافا ولا أريد الشر إلا أن تا

وقال الحسن وعكرمة : ﴿الر﴾ قسم . وقال سعيد عن قتادة " آلر " اسم السورة ؛ قال . وكذلك كل هجاء فى القرآن . وقال مجاهد : هى فواتح السور ، وقال محمد بن يزيد : هى تنبيه ، وكذا حروف التهجى . وقرئ ﴿الر﴾ من غير إمالة ، وقرئ بالإمالة لثلاث تشبه ما ولا من الحروف - تفسير القرطبي ٨ / ٣٠٤ ، التفسير المنير ١٤ / ٩ .

(٢) التفسير المنير : ١٤ / ٩ - ١١ بتصرف من عناوين المفردات اللغوية والتفسير والبيان وفقه الحياة .

وقيل : للتسليل ؛ فإن الأهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة ، وما كفت دخول رب عن الجر فجاز دخولها على الفعل ، و ﴿ مَا ﴾ نكرة موصوفة أى رب شىء ﴿ يَوَدُّ ﴾ يتمنى أى : أن الكفار عندما رأوا العذاب تمنوا لو كانوا مسلمين ، وأيضا عندما رأوا المسلمون إلى أى مآل سيقوا .

ثم يشير القرآن وبنه الرسول ﷺ إلى أن يدعهم ﴿ ذَرَهُمْ ﴾ فى طغيانهم يعمهون وأن الله - عز وجل - لم يعذب قوما إلا وأرسل لهم كتابا معلوما ، وجاءت الآية واضحة البيان : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، وجعل الله تعالى للأمم آجالها كما للأفراد أجلها من الناس ، كما لكل خلق خلقه الله تعالى له أجل حتى لتلك الآيات الكبيرة فى الكون والسماء والشمس والقمر والكواكب . كل لها أجلها المعلوم ونعود إلى تلك الأمة التى لا يسبق أجلها ويستأخر ، فكل شىء عنده فى كتاب معلوم فى اللوح المحفوظ عندما قدر الله للحياة والمخلوقات أقدارها وآجالها : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ .

١٣- القرآن العظيم

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [٤٥] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٤٧﴾ [الحجر]

هذا هو الموضع الثانى الذى ورد فيه ذكر القرآن فى سورة الحجر ، وذكره هنا يختلف عن مناسبة ذكره فى بداية السورة ، وربما عما سيرد وفى آخرها من ذكر لهذا الكتاب العظيم . هنا يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ ويبين له حال الأمم السابقة التى ما زالت آثارها ماثلة فى وقت نزول القرآن ، وما زالت ماثلة أمامنا حتى اليوم . ويبين الله - تعالى - أن هذه الحضارة التى شيدت على غير الإيمان ، أصاب أهلها من النعمة ما أصابهم وبقيت آثارهم بعدهم شاهدة عليهم . ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [٤٨] ءَاتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِّنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٥٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٥١﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ [الحج] .

هؤلاء القوم لم يدمر الله تعالى بنيانهم على رؤوسهم كما فعل بمن سبقهم بمن المنكرين الضالين ؛ بل ذهب بهم وأبقى آثارهم وسميت السورة باسمهم: الحجر لأنهم شيدوا بنيانهم من الحجارة ونحتوا الجبال وظنوا أن هذه الأبنية مانعتهم من العذاب ، ولكن جاءهم ما لم يكونوا يحسبون .

ثم تنتقل السورة إلى تبيان عظمة الله - تعالى - المتمثلة فى خلقه ، فى خلق السموات والأرض وما بينهما خلق بالحق ، لا عبث فيه ، ولا هو ولا لعب ، ولكنه خلق بالحق لتحقيق إرادة الله - تعالى - فى خلقه وامره ، ثم يأتى بتداخل رائع نصيحة للنبي ﷺ : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ وعودة للتذكير بأن الله هو الخالق ولا خالق غيره ، ثم يبين الله - تعالى - للرسول ما آتاه من نعم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ ﴾ .

المثنى: جمع مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، والسبع المثنى : هى الفاتحة كما قال ﷺ فى حديث رواه الشيخان ؛ لأنها تثنى فى كل ركعة وآياتها سبع .

لما صبر الله - تعالى - محمدا ﷺ على أذى قومه ، وأمره بأن يصفح الصفح الجميل أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله - تعالى - محمدا ﷺ بها ؛ لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز ، وتالله لقد أعطيناك وأنزلنا عليك أيها الرسول السبع المثنى والقرآن العظيم .

السبع المثنى هى سورة الفاتحة ، ذات الآيات السبع التى تثنى وتكرر فى كل ركعات الصلاة ، والبسملة هى الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها . روى البخارى حديثين فى تفسير السبع المثنى : الأول عن أبى سعيد بن المعلى ، والثانى عن أبى هريرة .

أما حديث أبى سعيد فقال : مر بى النبي ﷺ وأنا أصلى فدعانى ، فلم آته حتى صليت . فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلى ، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هى السبع المثنى والقرآن العظيم الذى أوتيته .

وأما حديث أبى هريرة فقال : قال رسول الله ﷺ : أم القرآن هى السبع المثنى ، والقرآن العظيم ، وقيل : السبع المثنى هى السبع الطوال : (البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال) لتكرار القصص والأحكام والحدود وتثبيتها فيها .

وقيل : المراد بالسبع المثنى : جميع القرآن ، ويكون العطف من باب الترادف . كما قال تعالى : ﴿ اَللّٰهُ نَزَلَ اَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانًى ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فهو مثنى من وجه ومتشابه من وجه .

والراجع أن تفسير البخارى نص فى أن الفاتحة : السبع المثنى ، ولا مانع - كما قال ابن كثير - من وصف غيرها بذلك لما فيها من هذه الصفة .

كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك ، والآية نزلت فى مسجد قباء ، فلا تنافى فإن ذكر الشيء ، لا ينفى ذكر ما عداه إذا اشتركا فى تلك الصفة^(١) .

ثم رتب - تعالى - على هذا العطاء العظيم قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ، أى لا تطمح أيها الرسول - والخطاب لأمته - إلى ما متعنا به الأغنياء من زينة الحياة الدنيا فمن وراء ذلك عقاب شديد واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم عليه من المتاع والزهرة الفانية ، والمقصود: فاخر بما أوحى إليك وقدر عظمة نعمته عليك ، ولا تنظر إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية . لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ولا تتحسر عليهم فى تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك وإنك فى نعمة عظمى ، هانت أمامها بقية النعم وكانت حقيرة وهذا دليل على أن القرآن ثروة كبرى وخير وفلاح ونظير الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] قال أبو بكر رضي الله عنه: من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أى ولا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا ليتقوى بهم الإسلام ، ويعتز بهم المسلمون : وقيل المعنى: لا تحزن على ما متعوا به فى الدنيا ، فلك فى الآخرة أفضل منه^(٢) .

وتأتى الصورة الثالثة - أو الذكر الثالث للقرآن الكريم - فى سورة الحجر استكمالا للصورة الثانية ، وفيها بعض الارتباط من حيث إن الذكر الأول للكتاب يبين عظمة هذا الذكر ، وعلوه ، وسموه ، ويأتى الذكر الآخر ليبين موقف الكفار من أهل الكتاب من هذا القرآن ، وكيف أنهم وزعوا وجزؤوا مواقفهم منه جملة ومن بعضه أيضا ، فجاءت الصورة بينة فى موقف هؤلاء ، فبعد أن بين - الله تعالى - للنبي عظمة هذا الكتاب ، وتوجيهه له ﷺ بالآية يتأثر بمواقفهم وقوتهم ومواقعهم فأوصاه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يوجه

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٥٧ .

(٢) التفسير المنير ١٤ / ٦٩ ، ٧٠ .

الله - تعالى - تفكير نبيه واهتمامه إلى أمر آخر ، يعظم به أمام موقف الأعداء وحالهم ، فيطلب الله تعالى من نبيه ﷺ أن يخفض جناحه للمؤمنين ، ويبلغ الكفار والمنافقين وأهل الكتاب بأنه هو النذير المبين : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر] .

تشير الآيات بعد ذلك إلى مواقف هؤلاء كما وردت فيهم : ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿ فَوَرِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر] ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا الْعَذَابَ ﴾ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿ هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ؛ لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، وقيل : هم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) .

﴿ الْقُرْآنَ ﴾ حيث قال المشركون - عنادا : بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين ، وإذا كان المراد أهل الكتاب ، فالقرآن : ككتبهم المنزلة عليهم ، آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض ، فيكون تسلية للنبي ﷺ .

﴿ عِضِينَ ﴾ أجزاء جمع عضة بمعنى الكذب ، أى جعلوه مفترى أى آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿ فَوَرِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ سؤال توبيخ عن التقسيم أو النسبة إلى السحر فيجازيهم عليه ، أو هو عام فى كل ما فعلوه من الكفر والمعاصى ، فليس المقصود بالسؤال سؤال استخبار واستعلام ؛ لأن الله عالم بكل شئ ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ ، فيقول لهم : لما عصيتم القرآن : وما حجتكم فيه؟ هذا قول ابن عباس . وقال عكرمة : إن القيامة مواطن ، فمرة يكون هناك سؤال وكلام كما فى هذه الآية ، ومرة لا يكون هناك سؤال وكلام كما فى قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن] .

﴿ فَأَصْدَعْ ﴾ يا محمد ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى اجهر وأمضه ، من صدع بالحجة إذا تكلم به جهارا ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بإهلاكنا كلاً منهم بأفة ، وهم الوليد

ابن المغيرة ، وبقية المشركين وعدى بن قيس ، والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبتهم في الدارين .

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿﴾ هناك رأيان في تعليق قوله : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ ^(١) .

أحدهما: أن يتعلق بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ ﴾ أى أنزلنا عليك ، كما أنزلنا التوراة والإنجيل على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من قبلك ، وهم المقتسمون الذين اقتسموا القرآن إلى أجزاء ، فأمنوا ببعضه الموافق للتوراة والإنجيل ، وكفروا ببعضه المخالف لهما ، فاقسموه إلى حق وباطل . وهذا مروى عند البخارى وسعيد بن منصور ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عباس .

والثانى: أن يتعلق بقوله : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْنَذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ أى : وأنذر قريشا بالعذاب مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين - يعنى اليهود - وهو ما جرى على بنى قريظة والنضير ، فجعل المتوقع بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز ؛ لأنه إخبار بما سيكون وكان .

فكل من هذين الرأيين جعل المقتسمين من أهل الكتاب ، والمقتسم هو القرآن ، ويجوز أن يراد بالقرآن كتبهم التى يقرؤونها ، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ويكون هذا من باب التسلية للنبي ﷺ حيث قال قومه عن القرآن : إنه سحر ، أو شعر ، أو كهانة .

وهناك وجه ثالث : مروى - أيضا - عن ابن عباس ، جعله الرازى هو القول الأول ، حيث قال ابن عباس : هم الذين اقتسموا طرق مكة ، ليصدوا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ ، ويقرب عددهم من أربعين . وقال مقاتل بن سليمان : كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها : لا تغتروا بالخارج منها ، والمدعى للنبوّة فإنه مجنون ، وكانوا ينفرون الناس عنه ، بأنه ساحر ، أو كاهن ، أو شاعر ، فأنزل الله تعالى بهم خزيا ، فماتوا شر ميتة ، والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين ^(٢) فالققسامون هم القرشيون ^(٣) .

(١) الكشف ٢ / ١٩٥ .

(٢) تفسير الرازى ١٩ / ٢١١ وما بعدها .

(٣) التفسير المنير ١٤ / ٧٥ ، ٧٦ .

١٤- القرآن المحفوظ

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧ ۝ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ١٨ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ١٩ ۝ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ٢٠ ۝ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً ۖ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢١ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٢٢ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ٢٣ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِءَايَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِءَايَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ٢٥ ۝ ﴾ [النحل] .

وهذه الآيات التسع من سورة النحل صور متجانسة متوافقة متتابعة لأمر تربط المؤمنين بالقرآن الكريم ، والذي اختص بالآيات الثمان التالية للآية ٩٧ في مشاهد رائعة واضحة بينة عند نزول القرآن الكريم ، بعد أن بين نزاهة هذا الكتاب عن الشر وأهله وصانعيه من الجن والإنس ، والتأكيد على الجن أولا ، ثم الإنس الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى .

هذه الصور وهذه المشاهد البينة الواضحة النيرة تضيء على كتاب الله تعالى من الصفات والحفظ والحرز والصدق ما يحاول الكثير من المضلين الضالين أن يصوروا هذا الكتاب ، وتسعفهم نفوسهم الخبيثة ؛ لإظهار انتقاداتهم على أنها وجه حق ، أو أنها تتجه إلى الحق ، ولقد بين الله - تعالى - في مضمون هذه الآيات هذه الافتراءات والتخرصات بقوة وبإظهار الحق ودفع الباطل ؛ ليعلم المؤمنين الذين اختارهم الله - تعالى - لحمل هذا القرآن ، وأن يعرفوا وأن يروا الطريق الواضح المستقيم وهذه الصور نقف على كل منها منفردة أو مجتمعة ، موقف المؤمن الصادق المتيقن من هذا الحق .

الآية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل] فهي ترغيب للرجل والمرأة في أداء الطاعات والفرائض الدينية ، فبعد أن رغب الله تعالى المؤمنين في القسم الأول ، وهو الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأن يجزيهم على أحسن أعمالهم التي تشمل المباحات والمندوبات والواجبات ، ويثيبهم على ما عدا المباحات ، رغب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام .

هذا وعد من الله - تعالى - لمن عمل صالحا ، فمن عمل صالح الأعمال من ذكر أو أنثى ، وهى الأعمال المطابقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فأدى الفرائض وكان قلبه مؤمنا بالله ورسوله ، فله حياة طيبة في الدنيا ، وجزاء بأحسن ما عمله في الدار الآخرة .

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة المختلفة ، وفسرها ابن عباس وجماعة : بالرزق الحلال الطيب ، أو السعادة والعمل بالطاعة والانشراح بها ، أو القناعة ، والصحيح كما قال ابن كثير: إن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد ، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ((قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه)) ، ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ .

وروى الترمذى والنسائى عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((قد أفلح من هدى للإسلام ، وكان عيشه كفافا ، وقنع به)) .

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا)) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول :

((اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه ، واخلف على كل غائبة لي بخير))^(١) .

وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال أصحها : أنها تشمل كل مناحي السعادة في الدنيا من الصحة والرزق الحلال الطيب والطمأنينة النفسية وراحة البال، والتوفيق إلى الطاعات ، فإنها تؤدي إلى رضوان الله تعالى^(٢) ، وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل ، وناس من أهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء ، نحن أفضل .. فنزلت .

وتأتى الآيات التاليات للحديث عن القرآن الكريم والتفصيلات التي أشارت إليه ، وإلى أن الله تعالى قد حفظه ودل الناس على أنهم إذا أرادوا حفظه فليستعينوا بالله من الشيطان الرجيم قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٣) .

إن هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، فإذا أخذت في قراءته فاستعذ من أن يعرض لك الشيطان ، فيصرفك عن تدبره والعمل بما فيه ، وليس يريد استعذ بعد القراءة ؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل : بسم الله ؛ أى إذا أردت أن تأكل ، وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ حين افتتح الصلاة قال : ((اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه))^(٣) .

وروى أبو سعيد الخدرى أن النبي ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة .

قال الطبرى : ونقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقا ؛ احتجاجا بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٤) ، ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ

(١) التفسير المنير ١٤ / ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٢) انظر تفصيلا - تفسير القرطبي ١٠ / ١٧٤ .

(٣) الهمزة : النخس والغمز ، وكل شيء دفعته فقد همزته . والنفخ : الكبر ؛ لأن المتكبر يتعاطم ويجمع نفسه ونفسه فيحتاج أن ينفخ ، والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر لأنه ينفث من الفم .

وروى أبو سعيد الخدرى : أن النبي ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة .

الصَّلَاةَ فَادْكَرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا ﴿ [النساء: ١٠٣] إلا أنه غير محتمل مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتْنَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم ، ومثله قول القائل: إذا قلت فاصدق وإذا أحرمت فاغتسل - يعنى قبل الإحرام - والمعنى فى جميع ذلك : إذا أردت ذلك ؛ فكذلك الاستعاذة^(١).

وبعد أن أبان الله تعالى أنه يجزى المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذى تخلص به أعمالهم من وساوس الشيطان ، ثم ذكر بعض وساوسه إلى منكرى نبوة محمد ﷺ بإلقاء الشبهات ومنها شبهتان:

الأولى: شبهة النسخ : وهو التبديل ، أى رفع الشئ مع وضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : رفعها بآية أخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها .

والثانية: شبهة كون القرآن من تعليم نصرانى لا من الله ، وكان الرد مفحما موضحا بطلان هذه الشبهة وهو أن القرآن كلام عربى مبين ، وهذا المعلم المزعوم أعجمى ، فكيف يعلم كلاما عربيا فصيحاً ؟!

وفى هذه الآية : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ : يأمر الله عباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فيقول: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ أى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله . أى الجأ إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم الملعون المطرود من رحمة الله ، حتى لا تلتبس عليك القراءة ، ولتدبر معانى القرآن والآية متصلة بما سبق: ﴿ وَتَزَلَّنَا عَلَيْكَ الْكَتَبَ تَبِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وخطاب النبي ﷺ خطاب لأتمته ، بل هى أولى ؛ لأنه معصوم من وساوس الشيطان .

والاستعاذة أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . والأمر بها أمر ندب بإجماع العلماء ، كما حكى ابن جرير وغيره من الأئمة . وعن الثورى وعطاء : أنها واجبة فى الصلاة أو غيرها عملا بظاهر الآية ؛ إذ الأمر للوجوب ، لكن الوجوب

فى رأى الجمهور مصروف عنه إلى الندب ؛ لأنه ﷺ لم يعلمها الأعرابى ، ولأنه كان يتركها أحيانا .

والاستعاذة فى رأى الحنفية وجماعة: مطلوبة فقط فى أول الصلاة ؛ لأنها عمل واحد ، مفتتح بقراءة فتكون فى ابتدائها ، وفى رأى الشافعية وجماعة : تتكرر فى كل ركعة فيها قراءة ، فتبدأ الركعة بالاستعاذة .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ أى أن الشيطان أى جنسه ليس له قوة ولا تسلط على المصدقين بقاء الله جل وعلا والمفوضين أمورهم إليه إنما سلطانه أى إنما تسلطه بالغواية والإضلال على الذين أطاعوه ، واتخذوه وليا وناصر لهم من دون الله ، والذين أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان وإغوائه لهم مشركين بربهم ، ثم ذكر الله تعالى شبهتين من شبهات منكرى النبوة بتأثير وسوسة الشيطان .

الشبهة الأولى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَارَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: إذا رفعنا آية وجعلنا مكانها آية أخرى لحكمة وهدف والله أعلم بما ينزله من القرآن ، ورأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها ، غيروا رسول الله ﷺ ، وقالوا له: إنما أنت مفتر ، أى كذاب متقول على الله ، تأمر بشيء ثم تنهى عنه ، بل أكثرهم لا يعلمون ما فى التغير من حكمة ومصلحة للناس ، ومراعاة لظروف التغير والتطور ، وأخذاً بمبدأ التدرج فى تنزيل الأحكام ، فليس محمد بمفتر ، وإنما يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد كما قال تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة] .

فرد الله عليهم شبهتهم الواهية أمرا رسوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ أى قل لهم يا محمد : نزله أى القرآن المتلو عليكم جبريل عليه السلام ، وقد أضيف أى جبريل إلى القدس وهو الطهر من المآثم نزله من ربك بالحق أى مقترنا بالصدق والعدل والحكمة ، وأن النسخ من جملة الحق .

﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى ليلوهم بالنسخ ، فيصدقوا بما أنزل أولا وثانيا

وتطمئن له قلوبهم ، فإذا قالوا هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم ، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب .

واستعمال كلمة ﴿ تَزَلُّهُ ﴾ الدالة على أن التنزيل كان شيئا فشيئا على حسب الحوادث والمصالح ، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة .

﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ معطوف على محل: ليثبت ، أى أن القرآن بما فيه من نسخ نزل تثبيتا لهم ، وإرشادا وهاديا ، وبشارة بالجنة للمسلمين الذين أسلموا وجوههم لله وأطاعوه ، وانقادوا لحكمه وأمره وآمنوا بالله ورسوله .

وهذا يدل على أن المسلمين إذا رأوا النسخ ، رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ، وثبت الدين في نفوسهم وتيقنوا من حكمة الله ، وهدوا إلى الحق من الضلال والزيغ ، وبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وأما المشركون فهم على الضد من هذه الصفات .

والشبهة الثانية: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]
أى ونحن نعلم تمام العلم ما يقوله المشركون من الكذب والافتراء على محمد ﷺ ، فهم يقولون- جهلا: إنما يعلمه هذا القرآن بشر آدمى ، وليس وحيا من الله ويشيرون إلى رجل أعجمى اللسان ، ولا يعرف العربية ، غلام لبعض القرشيين ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء . واسمه جبر ، وقيل : بلعام وقيل : يعيش عبد لبنى الحضرمى ، وكان غلاما للفاكه بن المغيرة أو لعامر بن الحضرمى أو لعقبة بن ربيعة ^(١) ، وكان نصرانيا فأسلم ، فإذا سمع المشركون بعض القصص القرآنى ، قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمى .

فرد الله عليهم افتراءهم وكذبهم بنحو يدعو إلى العجب ، فقال: ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ ﴾ ، أى لسان الذين يميلون ويشيرون إليه أعجمى لا عربى ،

(١) قال القرطبي : والكل محتمل ، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم ما علمه الله ، وكان ذلك فى مكة .

والقرآن كلام عربى واضح مبين لكل شىء فصيح يدرك بسرعة ، بل أفصح ما يكون من العربية ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته ، وبلاغته ، ومعانيه الثامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى لا يحسن التعبير العربى؟! ألا يعقل أن يتعلم هذا النبى كلاما من هذا النوع من مثل هذا الرجل الأعجمى.

ثم كشف الله زيغهم وتوعدهم بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا آتَيْنَا آلِهَ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، أى أن الذين لا يصدقون بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ ، ولم يكن لهم قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله .

لا يهديهم ولا يوفقهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله ؛ لفقد استعدادهم لذلك واقترافهم السيئات ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم موجه : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ، أى أولئك المشركون من قريش هم الكاذبون المفترون ، لا أنت يا محمد ﷺ .

وهذا تصريح بوصفهم بالكذب الذين عرفوا به عند الناس ، أما الرسول محمد ﷺ ، فكان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وبقينا ، معروفا بالصدق بين قومه حتى لقبوه بالصادق الأمين محمد ؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات الرسول ﷺ أجابه : بأنه صدوق ، وكان فيما قاله له : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله - عز وجل ^(١).

ونستنبط الأحكام التالية من هذه الآيات :

١ - الاستعاذة من الشيطان الرجيم مطلوبة على سبيل التدب عند الشروع فى قراءة القرآن وفى الصلاة وغيرها ؛ حتى لا يعرض الشيطان بوسوسته للقارئ فيصرفه عن تدبر القرآن والعمل بما فيه .

(١) التفسير المنير ١٤ / ٢٣٢ ، ٢٣٦ يتصرف . انظر القرطبى ١ / ١٧٦ فما بعدها .

وللشيطان وسوسة في القلب ، حتى في حق الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ [الحج: ٥٢] .

٢- ليس للشيطان مجال سلطان وقوة بالإغواء والكفر على المؤمنين المصدقين بالله ورسوله ؛ لأن الله - تعالى - صرف سلطانه عنهم حين قال إبليس : ﴿ لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غَوِيَّتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [١] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢﴾ [الحجر] قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر] .

لكن قال القرطبي: إن هذا عام يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربك ؟

٣- النسخ واقع في القرآن لحكمة هي مراعاة المصالح والحوادث وتطور الأوضاع البشرية ، والنسخ : رفع الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ أو متأخر عنه .

وقد نزل جبريل بالقرآن كله ؛ ناسخه ومنسوخه من كلام ربه ؛ ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات ، ولجعله هاديا ومرشدا ومبشرا للمسلمين بجنات النعيم فلا يصح للمشركين الاعتراض على النسخ .

وقال الشافعي - رحمه الله : القرآن لا ينسخ بالسنة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً وَهَذَا يَقْتَضِي مَكَارِبَ آيَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١] أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى ، ورد عليه بأن هذه تدل على أنه - تعالى - يبدل آية بآية أخرى ، ولا دلالة فيها على أنه - تعالى - لا يبدل آية إلا بآية ، وأيضا فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية ، وأيضا فالسنة تكون مثبتة للآية .

٤- القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فكيف يصح للمشركين الزعم بأن محمدا الرسول ﷺ يتعلمه من حداد أعجمي مقيم في مكة ، مع أن الإنس والجن عجزوا أن يعارضوا منه سورة واحدة فأكثر .

٥- لا يوفق الله للإيمان هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالقرآن ، لإصرارهم على الكفر وعنادهم ، وإعراضهم عن هدى الرسول ﷺ ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجه .

٦- قد صرحت الآية : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ﴾ بوصف المشركين بالكذب والافتراء جواباً لوصفهم النبي ﷺ بالافتراء وقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب ، أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم ^(١) .

هذه الآيات المتكاملات المتتابعات من إيمان المؤمنين ، إلى التنبيه أن الاستعاذة عند قراءة القرآن من الشيطان لإبطال نزغه وشره ، ثم الرد على المشركين الذين ظنوا أن هذا القرآن من رجل عبد نصراني لا يفقه من لغة العرب أمراً وفعلاً ولا حرفاً ، وبلاغة القرآن التي أعجزت عبقرية العباقرة وشاعرية الشعراء وبلاغة البلغاء ، وتحداهم بما عندهم وما افتخروا به وكان لديهم عند نزول القرآن في أوج بلاغته وسحره ، ثم أى أعجمى عادى يستطيع أن يأتى بمثل آية أو سورة من سورة .

ولو عدنا لما ورد عن مسيلمة الكذاب في كتب التاريخ لوجدنا قوله وهو عربى صميم ، ورجل ليس بالإنسان العادى قد جاء بضحالة من القول ينفر منها الذوق العربى ويهزأ بها من لديه شىء من علوم العربية ثم تنتقل الآيات لذكر الناسخ والمنسوخ ، وبأنه أمر من الله - جل جلاله ؛ ليثبت به الذين آمنوا ، وليعلموا أن الله نزله بواسطة الروح القدس على قلب محمد ﷺ ، هذه القضايا المرسومة والموزعة والمتابعة بمتهى البلاغة والوضوح ، أمر من أمر الله الذى حفظ القرآن من كل معتد أثيم ، وما زال الأمر قائماً بالحفظ والتحدى إلى يوم الدين .

١٥- أهداف القرآن الكريم

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ ﴾ [الإسراء].

سورة الإسراء أكثر ذكراً للقرآن الكريم من كل سور المصحف الشريف ، فقد ذكر القرآن بلفظه تسع مرات ؛ أولها الآية ٩ ، وآخرها الآية ١٠٦ ، وإذا امتازت هذه السورة بالذكر فإن ما ورد عن صفات القرآن - أيضا - فاق ما ذكر في أماكن أخرى ، ولو أنها كلها تدعو للهداية والإيمان والعمل بهذا الكتاب العظيم . إن اختيار العنوان جاء مصادقة حيث اختاره غيرى فاستعرتة هنا . ونتابع - بعون الله وتوفيقه - ما يمكن لنا أن نهتدى به لفضائل وصفات هذا القرآن العظيم .

مناسبة هذه الآية: بعد أن ذكر الله - تعالى - ما أكرم به محمدا ﷺ وهو الإسراء ، وأكرم موسى ﷺ بالتوراة ، وأنها هدى لبني إسرائيل ، وما سلط عليهم بذنوبهم من عذاب الدنيا والآخرة ، مما يستدعى ردع العقلاء عن معاصي الله ، ذكر ما شرف الله به رسوله - أيضا - من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي ، وأبان أهدافه من الهداية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم ، والتبشير بالثواب العظيم لمن أطاعه ، وإنذار الكافرين بالعذاب الأليم ^(١) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدى إليه البشر في كل زمان ومكان .

﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ في عالم الضمير والشعور بالعقيدة الواضحة البسيطة ، التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ،

وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وترتبط بين نواميس الكون الطبيعية ، و نواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ؛ فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عباده متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة ، ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس في ملل ويأس من الوفاء ، ولا تسهل ولا تترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ في علاقات الناس بعضهم ببعض - أفرادا وأزواجا ، وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا - ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأى والهوى ، ولا تميل مع المودة والشنآن ولا تعرفها المصالح والأغراض ، الأسس التي أقامها العليم الخبير بخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ، ونظام المال ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان .

﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها . وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها ، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾
فهذه هي قاعدته الأصلية في العمل والجزاء ، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه ، فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان ، الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثاني مقطوع لا ركيزة له ، وبهما معا تسير الحياة التي هي أقوم ، وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن ، فهم متروكون لهوى الإنسان - الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المندفع الذى لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له ^(١).

ويرتبط الحال بما سبق من آيات حال بنى إسرائيل الذين ضلوا وأضلوا فأوقع الله بهم العذاب مرتين ، وأنذرهم بكل عودة إلى الشر عودة الله إلى الانتقام : ﴿ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ^ط وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا^ط فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْأَوْجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا^ط ﴾ عسى ربكم أن يرحمكم^ط وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا^ط وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا^ط ﴾ [الإسراء] فيأتى القرآن الذى يهذى للتى هى أقوم ، ويخبر وينذر بنى إسرائيل بعدم إيمانهم بالقرآن ، وهو كالتوراة منزل من الله ، وهو متصف بصفات ثلاث :

الصفة الأولى: أنه يرشد للسبيل التى هى أقوم ؛ فهو يهذى لأقوم الطرق وأوضح السبل ، وإلى الطريقة المثلى التى هى الدين القيم ، والملة الحنيفية السمحة التى تقوم على أساس التوحيد الخالص لله ، وأنه الفرد الصمد ، صاحب الملك ، والعزة والجبروت ، المعز ، المذل ، الذى يحى ويميت ، وتدعو إلى فضائل الأعمال ، وإلى خيرى الدنيا والآخرة . فقلوه تعالى : ﴿ لِلَّتى هى أَقَوْمُ^ط ﴾ معناه : الطريقة التى هى أعدل وأصوب .

الصفة الثانية: أنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا يوم القيامة جزاء عملهم .

الصفة الثالثة: أنه ينذر الذين لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته ، ولا بالمعاد ولا بالثواب والعقاب ، ولا يعملون الخير بأن لهم عذاب جهنم ، جزاء ما قدمت أيديهم .

والمعنى : أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم ، وإطلاق البشارة على البشارة بالعذاب من قبيل التهكم ، كما فى قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران] ، أو من إطلاق اسم الشيء على ضده كقوله - تعالى - : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] وبعد أن بين الله - تعالى - لبنى إسرائيل وغيرهم صفات الهادى وهو القرآن ، بين حال المهدى وهو الإنسان ؛ ليقوى الترابط بينهما ، ويدل على وحدة المهدين بالكتب السماوية بالآيات التالية: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَنُ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء] .

إن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على محمد ﷺ سبب اهتداء للبشرية قاطبة ، يرشدها لأقوم الطرق وأوضح المناهج ، وأعدل المسالك ، وهى توحيد الله والإيمان برسله ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وأفضل مناهج الحياة ، وللقرآن هدف آخر وهو التبشير والإنذار ، تبشير المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بالجنة ، وإنذار أعدائهم الكفار بالعقاب فى نار جهنم ، والقرآن معظمه وعد ووعد^(١) .



١٦- القرآن المذكر

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝١٦ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ
 إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝١٧ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ
 عُلُوًّا كَبِيرًا ۝١٨ ﴾ [الإسراء] .

سبق هذه الآيات في سورة الإسراء بداية ونهاية بتوحيد الله والنهي عن الشرك
 وضم بين البداية والنهاية تكاليف وأوامراً ونواهي وآداباً ، مرتكزة كلها على قاعدة
 التوحيد الوطيدة ، ويأتى بعد ذلك فى مجموعة الآيات التالية ، استنكار فكرة الولد
 والشريك ، وبيان ما فيها من تهافت واضطراب ، وتقرير وحدة الاتجاه الكونى إلى
 الخالق الواحد : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۝١٩ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، ووحدة المصير
 والرجعة إلى الله فى الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن فى السموات ومن فى
 الأرض ، ووحدة التصرف فى شؤون الخلق بلا معقب : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ يُنْزِلُ
 بِسَخَطٍ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢٠ ﴾ [الإسراء : ٥٤] ، ومن خلال السياق تتهافت عقائد الشرك وتهاوى ،
 وتنفرد الذات الإلهية بالعبادة والإيجاد والقدرة والتصرف والحكم فى هذا الوجود ،
 ظاهره وخافيه ، دنياه وآخرته ، ويبدو الوجود كله متجها إلى خالقه فى تسبيحة
 مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والأشياء ^(١) .

وترد فى هذا السياق آيتان ، ويذكر فيهما القرآن الآية ٤١ ، والآية ٤٥ ، ولقد
 أبان الله - تعالى - فى الأولى أنه ضرب فى القرآن الأمثال للناس ليتدبروا ويتأملوا
 فيها ، وذكر أنه لو كانت هذه الأصنام تقرب إلى الله زلفى لطلبت لنفسها القربى
 إلى الله ، ولكنها لم تفعل ذلك ، فبان خطؤهم فى ادعائهم أن الملائكة بنات الله
 وتبين إبطال تعدد الآلهة ، وإثبات الوحداية لله ، والتنزيه له ؛ لأن كل ما فى الكون
 تدل أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته ، ولكنكم بسبب الجهل والغفلة
 لا تدركون دلالة تلك الدلالة.

ولقد نبه الله - تعالى - إلى كون هذه المناقشة فى هذه الأفكار وذلك الكلام غاية فى الوضوح بقوله - تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أى : ولقد بينا فى هذا القرآن الحجج والبيانات والمواعظ ، وأوضحنا الأمثال لهم ، وحذرنا وأنذرنا ليتعظوا وينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ، وهم مع ذلك ما يزيدهم التذكير إلا نفوراً من الحق وبعداً عنه ^(١) .

لقد أوضح الله - تعالى - فى القرآن الكريم ما يحتاجه العقل البشرى العاقل من أمثال ، وقصص ، وأحكام ، وبراهين ، وحجج تدل كلها على وحدته ، وانفراده بالخلق ، وتنزيهه - جل وعلا - عن خلقه . وعن سننهم وحياتهم إلا كونه معهم فى هذه الحياة يدبر أمرهم ، ويصرف حالهم ، ويرزقهم ، وينصرهم ، ويعطيهم من فضله ، وينعم عليهم بالحياة والتفكير ، والتكاثر والتناسل وبجودة الرزق ، وهو معهم أينما كانوا ، ثم يردهم إليه بالموت لتلقى كل نفس ما كسبت من خير محضراً ومن شر ، ولو كان مثقال حبة من خردل - أيضاً - يلقونه أمامهم ، وكل ما ورد فى القرآن من هذه العلوم والمعارف والأحداث والأحكام والذكر وما زادهم إلا نفوراً ، وبعداً عن الحق ، وبعداً عن الصواب ، ومع بيان القرآن الشافى لهذه الحجج والبيانات الدالة على توحيد الله تعالى ، ووحدانيته المطلقة ، والاتعاظ بما فيها ، فإن المشركين المعاندين الظالمين لا يزدادون بعد هذا البيان إلا التبعاد عن الحق ، والغفلة عن النظر والاعتبار لسوء نظرهم ، وخلل تفكيرهم ، واعتقادهم فى القرآن أنه حيلة وسحر ، وكهانة وشعر .

ويؤكد الله - تعالى - بعد ذلك ، أنه لو كان هناك آلهة شفعاء مع الله كما يزعم المشركون ؛ لكانت هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب إلى الله بالعبادة والتعظيم ؛ لتجعل لنفسها مكانة عند الله ، وتلتمس الزلفى عنده لأنهم دونه ، والمشركون اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، فإذا اعتقدوا فى الأصنام أنها بحاجة إلى الله ، محتاجة إليه - سبحانه وتعالى ، فقد بطل أنها آلهة ، وكان الأحرى بعبدتها أن يعبدوا الإله الحقيقى وهو الله - جل جلاله ^(٢) .

(١) التفسير المنير : ١٥ / ٨٢ ، ٨٣ بتصرف .

(٢) التفسير المنير ١٥ / ٤٤ .

ويأتى بيان القرطبى حول هذه الآية الكريمة ^(١) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أى بنا . وقيل : كررنا ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ قيل : فى زائدة ، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن مثل : ﴿ وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ [الأحقاف : ١٥] أى أصلح ذريتي .

والتصريف : صرف الشئ من جهة إلى جهة . والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير وقيل : المغيرة ؛ أى غايرنا بين المواعظ ليزكروا ويتعظوا ، وقراءة العامة : ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ بالتشديد على التكرير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف ، وقوله : ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ يعنى الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبى : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبى الطيب : لقوله - تعالى : ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ معنيان :

أحدهما : لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهيا وأمرنا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ؛ مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال وتصريف الأفعال من الماضى والمستقبل والأمر والنهى ، والفعل والفاعل والمفعول ونحوها .

والثانى : أنه لم ينزل مرة واحدة ؛ بل نجوما ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك : ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ قراءة يحى والأعمش وحمة والكسائى : ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ خففا ، وكذلك فى الفرقان ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا ﴾ [الفرقان : ٥٠] وقرأ الباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة ؛ لأن معناه ليزكروا وليتعظوا . قال المهدوى : من شدد : ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ أراد التدبر ، وكذلك من قرأ ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ ونظير الأول : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٢٨] .

والثانى : ﴿ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٦٣] ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أى التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار ؛ وذلك

لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر. انتهى .

ثم آيات بينات قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

[الإسراء] .

١٧- القرآن الحجاب الساتر

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿١٦﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿١٨﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت : لما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ﴿١﴾ أقبلت العوراء - أم جميل بنت حرب - ولها ولولة وهي تقول : ((مذمما عصينا ، وأمره أبينا ، ودينه قلينا)) ، والنبي ﷺ قاعد فما سجد ومعه أبو بكر ﷺ ؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك : قال رسول الله ﷺ : إنها لن ترانى وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال ، وقرأ : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿١٦﴾ . فوفقت على أبى بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، أخبرت أن صاحبك هجانى : فقال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . قال : فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها .

وقال سعيد بن جبير ﷺ : لما نزلت : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ﴿١﴾ جاءت امرأة أبى لهب إلى النبي ﷺ ، ومعه أبو بكر ﷺ فقال أبو بكر : لو تنحيت عنها لثلاث سمعك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذئية . فقال النبي ﷺ : إنه سيحال بينى وبينها ، فلم تره . فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك ! فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله ، فقالت : وإنك لمصدقته ؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر ﷺ : يا رسول الله أما رأيتك ؟ قال : لا ، ما زال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت . وقال كعب ﷺ فى هذه الآية : كان النبي ﷺ يستر من المشركين بثلاث آيات : الآية التى بالكهف ٥٧ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ، والآية التى فى النحل ١٠٨ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾

والآية التي في الجاثية : ٢٣ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ فكان النبي ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين .

قال كعب ؓ : فحدثت بهن رجلا من أهل الشام ، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه ، فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه . قال الثعلبي ، وهذا الذي يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الري فأسر بالديلم ، فمكث زمانا ثم خرج هاربا ، فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه .

قلت : ويزاد إلى هذه الآية أول سورة يس إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، فإن في السيرة النبوية في هجرة النبي ﷺ ومقام على ﷺ في فراشه قال : وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تراب في يده ، وأخذ الله - عز وجل - أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : ﴿ يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [يس] إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٥﴾ ﴾ [يس] ، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت ^(١) : ولقد اتفق لي ببلادنا - الأندلس - بمحسن منشور ^(٢) من أعمال قرطبة مثل هذا ، وذلك أني هربت أمام العدو ، وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألث أن خرج في طلبى فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شيء . وأنا أقرأ أول سورة يس ، وغير ذلك من القرآن ؛ فعبرا على ثم رجعا من حيث جاءا ، وأحدهما يقول للآخر : هذا (ديلة) ^(٣) يعنون شيطانا ، وأعمى الله - عز

(١) القائل القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ، المرجع لهذه الآيات ١٠ / ٢٦٩ فما بعدها .

(٢) كذا في الأصول .

(٣) لفظة فرنجية معناها جنى ، ولعله كذلك في لغة اللاتين .

وجل - أبصارهم فلم يرونى والحمد لله حمدا كثيرا .. انتهى .

وقيل : الحجاب المستور طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة ؛ وقال قتادة وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية .

وقيل: نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . وهم : أبو جهل ، وأبو سفيان والنضر بن الحارث ، وأم جميل امرأة أبى لهب ، وخويطب ، فحجب الله - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يرون به ولا يرونه . قال الزجاج وغيره : وهو معنى القول الأول بعينه - وهو الأظهر فى الآية والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُورًا ﴾ فيه قولان :

أحدهما: إن الحجاب مستور عنكم لا ترونه .

والثانى: إن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه ، ويكون مستورا بمعنى ساتر^(١) .

ولقد كان كفار قريش وكبراءهم يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، وما يمانعون فطرتهم أن تتأثر به فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا - حجابا خفيا - وجعل على قلوبهم أكنة كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا تعى ما فيه من توجيه .

وقد روى ابن إسحاق فى السيرة: عن محمد بن مسلم بن شهاب ، عن الزهري أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفى حليف بن زهرة : خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا . فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفوسهم شيئا ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : مثل ما قالوه أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت

الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا الذى حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وعبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن فطرتهم فيصدونها ، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيمنعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا ، لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا يتفعلون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذى يتلونه وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ، ثم يغلبهم التأثير فيعودون ، ثم يتناجون من جديد ، حتى ليتعاهدوا على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب ، الذى يخلب القلوب والألباب ، ذلك أن عقيدة التوحيد التى يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم فى مكانهم ، وفى امتيازاتهم وفى كبريائهم فينفرون عنها .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴾ ﴿١١﴾ نفورا من كلمة التوحيد ، التى تهدد وضعهم الاجتماعى ، القائم على أوهام الوثنية ، وتقاليد الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يغيب عنهم ما فى القرآن من سمو وارتفاع وامتياز ، وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم يدافعونها فيها .

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ، والكبرياء يدفعهم عن التسليم والإذعان ، فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد .

﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (١٧) وهذه الكلمة ذاتها تحمل في ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ، فهم يستكثرون في دخيلتهم أن يكون هذا القول قول بشر؛ لأنهم يحسون فيه شيئاً غير بشرى ، ويحسون ديبه الخفى من مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر ، يرجعون إليه هذه الغرابة فى قوله ، وهذا التميز فى حديثه ، وهذا التفوق فى نظمه ؛ فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر! ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ، ولا خلق آخر من خلق الله .

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (١٨) ضربوا لك الأمثال بالمسحورين ، ولست بمسحور ، إنما أنت رسول ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحاروا فلم يجدوا طريقاً يسلكونه .. لا إلى الهدى ولا إلى تعليل موقفهم المريب ؛ ذلك قولهم عن القرآن وعن الرسول ﷺ وهو يتلو عليهم القرآن ، كذلك كذبوا بالبعث ، وكفروا بالآخرة (١) .

١٨- الشجرة الملعونة في القرآن

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء] .

تشير الآية الكريمة إلى حال الناس الذين سمعوا من الرسول ﷺ حديث الإسراء عندما عاد وخرج يخبر الناس في مكة ومع أن ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب قد حاولت منعه من أن يحدث الناس عن هذه الرحلة التي لم يستوعبها سامعوها ، حتى من بعض الذين أسلموا فارتدوا فكانت اختباراً قوياً صارخاً لجماعة المسلمين فضعاف الإيمان ارتدوا وأقوياء الإيمان زاد إيمانهم كما أجاب أبو بكر ﷺ عندما أخبره المشركون بأن محمداً يتحدث عن رحلة غريبة ، يقول : إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد من ليلته ، والناس يحتاجون شهراً بالذهاب وشهراً بالإياب ، فما كان من الصديق ﷺ إلا أن قال : إن قالها - (أى الرسول ﷺ) فقد صدق . فقالوا : أتصدق مقالة الرسول ؟ وهم مندهشون من جواب أبي بكر ، أى أيعقل في ذلك الزمان ، ووسيلة المواصلات هي الدواب والأرجل . أتصدق يا أبا بكر؟ قال: نعم ، إنى أصدقه ، يخبر السماء والسماء أبعد من بيت المقدس .

وتشير الآية إلى أن الله تعالى قد أحاط بالناس خلقهم وقدر أعمارهم ، وقدر أرزاقهم ، وقدر أجناسهم وقدر أحوالهم ، وقدر مجراهم في الحياة بين جانبي السعادة والشقاء . وقدر أهليهم ، وقدر أبناءهم كل هذا من قوة الله تعالى الخالق البارئ المصور ، فإن الله تعالى قد أحاط بالناس ، وقد جعل الله تعالى الرؤيا هنا ليست في النوم ، فلو كانت في النوم ما عجب الناس وأشاعوا الخبر في كل مكان فالرؤيا بالنوم لا تثير كثيراً اهتماماتهم ، ولا تجعل الضعاف يرتدون ولكن الرؤيا هنا هي المشاهدة والمعاينة ، والوصف بعد ذلك ثم طلبوا وصف بيت المقدس فقد نقل الله - تعالى - له البيت ووصفه بدقائقه وأماكنه والناس يعجبون ، وأبو بكر الصديق يقول لرسول الله ﷺ (صدقت) وعندها عرف بالصديق .

فالرؤيا كانت للناس حتى يتميز المؤمن الصادق من المسلم الضعيف ، وفعلا

فقد كانت كذلك فثبت من ثبت وارتد من ارتد .

وشبيه بهذه الحالة: الشجرة الملعونة التي وردت في القرآن الكريم - وهي الشجرة المرة المكروهة ، وهي ملعونة كما ورد في كتاب الله - تعالى - القرآن عن شجرة: الزقوم فيه تقديم وتأخير أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس ، أى اختباراً لهم ، مثل حادث الإسراء والمعراج ، وتلك الشجرة هي شجرة الزقوم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُومِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الدخان] وقد اختلف الناس فيها : فمنهم من ازداد إيماناً ، فكثير من الأشياء لا تحرقها النار ومنهم من ازداد كفرًا كأبى جهل وأبى الزهرى ، وقالوا : وما الزقوم إلا التمر والزبد فجعلوا يأكلون ويتزقمون منهما .

﴿ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ ، أى نخوف الكفار بالوعيد والعذاب والنكال فى الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديًا فى الطغيان فيما هم فيه من الكفر والضلال ، فكيف يؤمن قوم حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات ^(١) .

١٩- قرآن الفجر المشهود

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [٧٨] وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [٧٩] [الإسراء] .

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بإقامة الصلوات المفروضة المكتوبة في أوقاتها ، والمعنى : أيها الرسول ، إن الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك تامة الأركان والشروط ، من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل ، وذلك يشمل الصلوات الأربع : الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء . والدلوك : ميل الشمس وزوالها عن كبد السماء ووسطها وقت الظهر ، وإنما وجه الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد أمته - أيضا - لمكانة المأمور به وهو الصلاة ^(١) .

وقد أطلال القرطبي - رحمه الله - في شرحه حول هذا المقطع من الآية ، وأورد أقوال الصحابة والفقهاء في هذا المعنى ^(٢) وينصب الرأى حول أوقات الصلاة ومواعيدها ، وفيما ورد فيها من آراء متوافقة أو مختلفة و ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب قرآن من وجهين : أحدهما : أن يكون معطوفا على الصلاة ؛ والمعنى : وأقم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة : انتصب على الإغراء ، أى فعليك بقرآن الفجر ؛ قاله الزجاج ، وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات ؛ لأن القرآن هو أعظمها ، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور عن الزجاج أيضا .

قلت ^(٣) : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه - يقرأ فيها بطوال المفصل ، ويليهما في ذلك الظهر والجمعة - وتخفيف القراءة في المغرب ، وتوسطها في العصر والعشاء ، وقد قيل في العصر :

(١) التفسير المنير ١٥ / ١٤٤ .

(٢) القرطبي ١٠ / ٣٠٣ ، ٣٠٥ .

(٣) القرطبي ١٠ / ٣٠٦ .

إنها تخفف كالمغرب ، وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيها التقصير ، أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته في الفجر المعوذتين - كما روى النسائي - وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب ، فمتروك بالعمل ، ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة ، وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال: أيها الناس إن منكم منفرين ، فأياكم أم الناس فليخفف ؛ فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة ، وقال: فإذا صلى أحدكم وحده فليطول ما شاء ، كله مسطور في صحيح الحديث .

ولقوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ دليل على أنه لا صلاة إلا بقراءة ؛ لأنه سمي الصلاة قرآنا ، وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والنفذ - المفرد - في كل ركعة ، وهو مشهور قول مالك ، وعنه أيضا : إنها واجبة في جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق ، وعنه أيضا تجب في ركعة واحدة ، قاله المغيرة وسحنون ، وعنه أن القراءة لا تجب في شئ من الصلاة ، وهي أشدّ الروايات عنه ، وحكى عن مالك أيضا : أنها تجب في نصف الصلاة ، وهي أشدّ الروايات عنه ، وإليه ذهب الأوزاعي أيضا وأيوب: أنها تجب على الإمام والنفذ (المفرد) والمأموم على كل حال ، وقد مضى في الفاتحة مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ كَاتِبَ مَشْهُودًا ﴾ روى الترمذى عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَاتِبٌ مَشْهُودًا ﴾ قال: تشهد الملائكة ملائكة الليل وملائكة النهار ، هذا حديث حسن صحيح ، ورواه على بن مسهر ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، وأبى سعيد ، عن النبي ﷺ .

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال: فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح ، يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَاتِبٌ مَشْهُودًا ﴾ ؛ ولهذا المعنى يكرر بهذه الصلاة فمن لا يكرر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة ؛ ولهذا المعنى - أيضا - قال مالك

والشافعي : التغليس بالصبح أفضل . قال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ؛ فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس .. وهذا مخالف كما كان يفعلهُ عليه السلام من المداومة على التغليس ، وأيضاً فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل . والله أعلم ، واستدل بعض العلماء بقوله ﷺ : تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار^(١).

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ، فإن في الصحيح عن النبي العظيم ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر » الحديث ، ومعلوم أن صلاة العصر من النهار، فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل - وليس كذلك - وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان ، وهذا واضح (انتهى) وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً ، عن النبي ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم - وهم أعلم بهم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر ، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء .

وقد يكون المراد بقوله : ﴿ مَشْهُودًا ﴾ الترغيب في أن تؤدي هذه الصلاة بجماعة والمعنى : كونها مشهودة بالجماعة الكثيرة أو شهود كمال قدرة الله تعالى ، من اختلاط الظلمة بالضوء ، والظلمة مناسبة للموت والعدم ، والضوء مناسب للحياة والوجود ، وينتقل العالم من الظلمة إلى الضوء ، ومن الموت بالمنام إلى الحياة ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن العدم إلى الوجود^(١) .

﴿ وَمِنْ أَلَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ هذا فرض آخر خاص بالنبي ﷺ وهو صلاة التهجد ، والمعنى : قم للصلاة في جزء من الليل ، وهو أول أمر للنبي ﷺ بقيام الليل . زيادة على الصلوات المفروضة (المكتوبة) ، روى سالم عن أبي هريرة أن

النبي ﷺ سئل : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صلاة الليل » ؛ ولهذا أمر الله تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد : ما كان بعد نوم ، وثبت عن جماعة من الصحابة أن النبي ﷺ كان يتهجد بعد نومه .

وقوله : ﴿ نَافِلَةٌ لَّكَ ﴾ أى عبادة لك زائدة عن الصلوات الخمس ، مخصوصة بك دون الأمة ، وهى فريضة عليك خاصة دون غيرك ، وأما أمتك فهى لهم مندوبة أو تطوع لهم . وهذا هو الراجح . وقيل : المراد أن قيام الليل فى حقه ﷺ نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأما غيره من أمته فإن النوافل تكفر ذنوبهم . ورد ابن جرير هذا القول ؛ لأنه ﷺ كان مأمورا بالاستغفار : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر] ، وكان ﷺ يزيد فى الاستغفار فى اليوم على مائة مرة ، وكلما اشتد قرب العبد من ربه ، كلما زاد خوفه منه ، وإن كان السيد قد آمنه ، وذلك مقام يعرفه أهله .

﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [النور] : أى : افعل هذا الذى أمرتك به لتقيمك يوم القيامة مقاما محمودا ، يحمذك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم - تبارك وتعالى ، كما قال ابن كثير .

وأجمع المفسرون - كما ذكر الواحدى - على أنه مقام الشفاعة العظمى فى إسقاط العقاب . وهو - كما ذكر ابن جرير - مقام النبي ﷺ يوم القيامة للشفاعة بالناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

وكلمة : (عسى) فى كلام العرب تفيد الوقوع ، وهى هنا للوجوب ؛ لأنها تفيد الإطماع ، ومن أطمع إنسانا فى شىء ثم حرمه ، كان غارًا ، وهذا المعنى مستحيل على الله تعالى . فهذه الكلمة من الكريم إطماع محقق الوقوع ، وهى من الله باتفاق المفسرين واجب .

والمقام المحمود : هو المكان المرموق ، والمركز المعلوم المعد للنبي ﷺ ، وهو كما بينا مقام الشفاعة التى يتخلى عنها كل نبي ورسول ، أما الرسول ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » ، فيشفع للخلق جميعا لتقديمهم للحساب ، وتخليصهم من وهج الشمس الشديد التى تدنو من الرؤوس ، ويتمنون الانصراف ولو إلى النار .

روى مسلم بسنده عن النبي ﷺ في قوله - تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ قال : « هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه » .

وروى النسائي والحاكم عن حذيفة ؓ قال : يجمع الله الناس فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، حفاة عراة ، كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادى : يا محمد ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت ، فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله - عز وجل .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، غير فخر » ^(١) .

٢٠- القرآن الشافي

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ [الإسراء] ﴾

في هذه الآية الكريمة أخبر الله - تعالى - عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ : أنه شفاء ورحمة فقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : ونزل عليك أيها النبي قرآنا فيه شفاء ، فكل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، يزدادون به إيمانا ، ويستصلحون به دينهم ، فهو يذهب ما فى القلوب من أمراض الشك والنفاق، والشرك والزيغ والإلحاد ، والجهل والضلالة ، فالقرآن يشفى من ذلك كله ، وهو - أيضا - رحمة لمن آمن به وصدقته واتبعه ؛ لأنه يرشد إلى الإيمان والحكمة والخير ، فيؤدى إلى دخول الجنة والنجاة من العذاب ، وعن النبي ﷺ فيما رواه الديلمى فى الفردوس : « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له » .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى : لا يزيد سماع القرآن الكافر الظالم نفسه إلا بعدا عن الإيمان ، وكفرا بالله لتأصل الكفر فى نفسه .

ونظير الآية : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٤٤ ﴾ [فصلت : ٤٤] وأيضا قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٤٦ ﴾ [التوبة] .

قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه : ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ، أى لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة (١) .

ويعود الكاتب مرة أخرى بعد شرح عدة آيات إلى الخوض في موضوع الرقية ^(١). وقد أقر النبي ﷺ الاستشفاء بالقرآن ، والرقية بالفاتحة بقراءتها سبع مرات على لديغ ، وإعطاء قارئها عوضاً عن الرقية ثلاثين شاة ، والقصة كما وردت في القرطبي ^(٢) : عن أبي سعيد الخدري قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ثلاثين راكبا قال: فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا ؛ قال : فلدغ سيد الحى ، فأتوا فقالوا : فيكم أحد يرقى العقرب ؟ وفى رواية ابن قتة : إن الملك يموت . قال: قلت: أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا . فقالوا: فإننا نعطيكم ثلاثين شاة. قال: فقرأت عليه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سبع مرات فبرأ . وفى رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد : فأفاق وبرأ . فبعث إلينا بالنزل ، وبعث إلينا بالشاء . فأكلنا الطعام أنا وأصحابى وأبوا أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله ﷺ ، فأخبرته الخبر فقال: ((وما يدريك أنها رقية ؟)) قلت: يا رسول الله شىء ألقى فى روعى . قال: ((كلوا وأطعمونا من الغنم)) خرجه فى كتاب السنن ، وخرج فى كتاب المديح من حديث السرى بن يحيى قال : حدثنى المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي سليم ، عن الحسن ، عن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال: ((ينفع بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسل والحمى والنفس أن تكتب بزعفران أو بمشق يعنى المغرة - أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلها عامة من شر السامة والغامة ، من شر العين اللامة ومن شر حاسد إذا حسد ، ومن أبى فروة وما ولد)) - كناية عن إبليس - انتهى النقل ^(٣) ، وقد أجاز سعيد بن المسيب ما يسمى بالنشرة ، وهى أن يكتب الراقى شيئاً من أسماء الله تعالى ، أو من القرآن ، ثم يغسله بالماء ، ثم يمسخ به المريض ، أو يسقيه . وقال الإمام مالك: لا بأس بتعليق الكتب التى فيها أسماء الله - عز وجل - على

(١) نفس المصدر ١٥ / ١٥٤ .

(٢) القرطبي ١٠ / ٣١٦ - ٣٢١ .

(٣) ويحسن الرجوع للاستيضاح أكثر.

أعناق المرضى على وجه التبرك بها ، إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين ؛ أى قبل أن ينزل به شيء من العين . ووافقه على ذلك جماعة من أهل العلم .

وكره بعض أهل العلم تعليق التيممة على كل حال ، قبل نزول البلاء وبعده ، قال القرطبي: والقول الأول أصح فى الأثر والنظر إن شاء الله - تعالى .

وعلى كل حال ، إن الفاعل الحقيقى المؤثر هو الله - تعالى ، أما الأدعية الماثورة وتلاوة آيات الشفاء والفاحة والمعوذات وغير ذلك فهى من وسائل الفرج والبرء بإذن الله تعالى ، بشرط تعظيم القرآن فى الصدور ، والإيمان الصادق به ، والبعد عما لا يتناسب مع تعظيم آيات الله تعالى . ولا يعنى هذا الاكتفاء بالرقى عن المداواة والعلاج بالأدوية الناجعة ، فذلك كله من الوسائل التى أذن الشرع بها ، بل وأوجبها لصيانة حق الحياة ، أما ما يفعله بعض العوام من إهمال المريض المحموم أو المبتلى بداء خطير مثلاً ، اعتماداً على مجرد التلاوة لشيء من القرآن أو التيممة ، فهذا جهل بحقائق الدين ، وإهدار لقدسية العلم الذى عظمه الله ورفع شأن علمائه وأتباعه.

وأما ما روى عن ابن مسعود: إن التمام والرقى والتولة من الشرك ، قيل : ما التولة ..؟ قال: ما تحببت به لزوجها ، فيجوز أن يريد بما ذكره تعليق غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكهان ، إذ الاستشفاء بالقرآن - معلقاً وغير معلق - لا يكون شركاً .

ثم إن هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً صفتهم ؛ الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران بنعمه ، وكذلك شأن الإنسان عموماً النسيان وكفران النعم إلا من عصمه الله ، فتراه إذا كان منعماً مترفاً بعد عن القيام بحقوق الله - عز وجل ، وإذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط ؛ لأنه لا يثق بفضل الله - تعالى ^(١) .

٢١- عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثل هذا القرآن

﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ٨٨ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء] .

سبب نزول الآية ٨٨ : أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس قال : أتى النبي ﷺ سلام بن مشكم فى عامة من يهود سماهم ، فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ؟ وإن هذا الذى جئت به ، لا نراه متناسقا ، كما تناسق التوراة ، فأنزل علينا كتابا نعرفه ، وإلا جئناك بمثل ما تأتى به . فأنزل الله - تعالى : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ ، ونورد فى هذا المقام نكتا فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها - كما قال القرطبي :

المعجزة : واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم - صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة ؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها .

وشرائطها خمس فإن اختلف شرط منها شرط لا تكون معجزة:

فالشرط الأول من شروطها : أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله - سبحانه - وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة ؛ لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجيء الرسل ، وادعى الرسالة ، وجعل معجزته أن يتحرك ، ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادعاه معجزة له ، ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات ؛ كفلق البحر ، وانشقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثانى : هو أن تخرق العادة ، وإنما وجب اشتراط ذلك ؛ لأنه لو قال المدعى للرسالة: آتى مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها ، لم يكن فيما ادعاه معجزة ؛ لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله ، فلم تفعل لأجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه . ودعواه فى

دلالتها على نبوءته كدعوى غيره ؛ فبان أنه لا وجه له على صدقه والذي يستشهد به الرسول ﷺ له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول : الدليل على صدقي أن يخرق الله - تعالى - العادة من أجل دعوى عليه الرسالة ؛ فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبع من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادة ، التي ينفرد بها جبار السموات والأرض ؛ فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب - سبحانه ، لو أسمعننا كلامه العزيز وقال: صدق ، أو بعثته . ومثال هذه المسألة - والله ولرسوله المثل الأعلى - ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمراى منه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيتها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أفعاله وهو أن يخرج خاتمه من يده - قاصدا بذلك تصديقي ؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ثم عمل ما استشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله ، وقال : صدق فيما ادعاه على ، فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو ، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه - تعالى - لو أسمعنناه وقال: صدق عبدى فى دعوى الرسالة وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدعى الرسالة على الله - عز وجل ؛ فيقول : آتني أن يقلب الله - سبحانه - هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولى لها : تنزلنى ، فإذا فعل الله - سبحانه - ذلك حصل المتحدى به .

والشرط الرابع: هو أن تقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعى للرسالة : آية نبوءتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هذه الدابة ، فنطقت يده أو الدابة بأن قالت: كذب وليس هو منى ، فإن هذا الكلام الذى خلقه الله - تعالى - دال على كذب ذلك المدعى للرسالة ؛ لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه ، وكذلك ما يروى أن مسيلمة الكذاب - لعنه الله - تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء ، فما فعل الله - سبحانه - من هذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ؛ لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة: ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه

المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة ، فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله - تعالى - من يعارضه حتى يأتي بمثل ما أتى به ، ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا ، وخرج من كونه معجزا ولم يدل على صدقه ؛ ولهذا قال المولى سبحانه : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور] ، وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُمْ بِكَلِمَاتٍ مِنْ رَبِّكَ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [هود : ١٣] . كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد ﷺ وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه فإن عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله . وبعد أن أورد القرطبي^(١) الشروط المطلوبة لتصبح المعجزة خارقة وآية ، فإنه أشار إلى معجزات قد تحصل على يدى المسيح الدجال فيقول^(٢) :

لا يقال : إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين ، وهذا المسيح الدجال فيما رويت عن نبيكم ﷺ يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور ؛ فإننا نقول : ذلك يدعى الرسالة ، وهذا يدعى الربوبية وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقلي على أن بعثته بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية - أيضا - على أن المسيح الدجال أعطى التصوير والتغيير من حال إلى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ثم يتابع المؤلف ذكر الفرق بين المعجزة الدائمة ، والتي يريد من حديثه الوصول إليها والتي لا تنطبق إلا على معجزة الرسول ﷺ - محمد بن عبد الله - وهى القرآن وبين المعجزات الأنبياء التي تنتهى بحياة الرسول وانتهاء رسالته إذا ثبت هذا فاعلم

(١) تفسير القرطبي ٢ / ٦٨ - ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٧١ .

أن المعجزات على ضربين :

الأول: ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي ﷺ .

والثاني: ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوت وجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه : أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الأئمة - رضى الله عنهم - لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي ﷺ - عن ربه - عز وجل ، فنقل القرآن فى الأصل رسولان معصومان جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام من الزيادة والنقصان ، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه لكثرة العدد ، ولذلك وقع على يديه وتحديه به ، ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان ، كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة ، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ؛ فإن القرآن معجزة نبينا ﷺ الباقية بعده إلى يوم القيامة ، معجزة كل نبي انقرضت بانقراضه ، أو دخلها التبديل والتغير كالتوراة والإنجيل .

ويختتم القرطبي^(١) قوله المبدع فى إعجاز القرآن الكريم من وجوه عشرة :

١ - منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء ، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [يس: ٦٩] ، وفى صحيح مسلم: أن أنيسا - أخا أبى ذر - قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت فما يقول الناس ؟ قال: يقولون: شاعر ، كاهن ، ساحر وكان أنيس أحد الشعراء ؛ قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقرأ^(٢) الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر . والله إنه لصادق

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٧٣ .

(٢) أقرأ الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره وأنحائه .

وإنهم لكاذبون.

وكذلك أقر عتبة بن ربيعة ، أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله ﷺ سورة: فصلت ﴿ حم ﴾ فصلت ؛ فإذا اعترف عتبة - على موضعه من اللسان ، وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط ، كان في هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ، ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

٢- ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣- ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك في سورة ﴿ ق ﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿ إلى آخرها ، وقوله - سبحانه وتعالى ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الزمر : ٦٧] وكذلك قوله - سبحانه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله - سبحانه وتعالى - هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر : ١٦] ، ولا أن يقول: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ [الرعد : ١٣] .

وقال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب والجزالة ، لازمة كل سورة بل لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدى والتعجيز مع هذا ، فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن ينضاف إليها آخر من الوجوه العشرة ، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار ، وهى أقصر سورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن معنيين:

أحدهما: الإخبار عن الكوثر وعظمة وكثرة أوائيه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل .

والثانى: الإخبار عن الوليد بن المغيرة وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد على ما يقتضيه قول الحق - جل وعلا ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ ۝

مَالًا مَّمدُودًا ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٨﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٩﴾ [المدرثر] ، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده وانقطع نسله .

٤- ومنها: التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

٥- ومنها: الإخبار عن الأمور التى تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمى ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، فأخبر ما كان من أخبار الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر - عليهما السلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجاءهم - وهو أمى من أمة أمية ليس لها بذلك علم ربما عرفوا من الكتب السالفة صحته ؛ فتحققوا صحته وصدقه ، قال القاضى ابن الطيب: ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا أن نعلم ؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الإثارة ، وحلة الأخبار ، ولا متردداً إلى المتعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي .

٦- ومنها: الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس فى العيان فى كل ما وعد الله سبحانه وينقسم إلى أخباره المطلقة كوعده بنصر رسوله ﷺ ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه وإلى وعد مقيد بشرط : كقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] ، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [١] ، [الطلاق] ، ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥] وشبه ذلك .

٧- ومنها: الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحي ؛ فمن ذلك ما وعد الله نبيه ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة: ٣٣] ففعل ذلك ، وكان أبوبكر ؓ إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر وليستيقنوا بالنجح ، وكان عمر يفعل ذلك ، فلم يزل الفتح

يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : ٥٥] ، وقال : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٧] ، وقال : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] ، وقال : ﴿ الْم ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : ١] ، فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، تدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله ؛ لتكون دلالة على صدقه .

٨- ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

٩- ومنها: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

١٠- ومنها: التناسب فى جميع ما تضمنه - ظاهرا وباطنا - من غير اختلاف . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

فصل

فى فصاحة القرآن

قال ابن عطية: وجه التحدى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه : أن الله - تعالى - قد أحاط بكل شىء علما ، وأحاط بالكلام كله علما فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه ، والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع

خطبة أو قصيدة يستفرغ بها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقرينة جامعة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نزعته منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فصاحة القرآن: أن الله تعالى - جل ذكره . ذكر في آية واحدة أمرين ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ، وهو قوله - تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧] . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك مما لا يقدر عليه الا الله - سبحانه ، وأنبا - سبحانه - عن الموت ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلّة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥] . وأنبا - أيضا - عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، في شطر آية ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠] . وأنبا - جل وعلا - عن أمر السفينة وإجرائها ، وإهلاك الكفرة ، واستقرار السفينة واستوائها ، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والماء بقوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ أَرَكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حَجْرُهَا وَمُرْسُهَا ﴾ [هود: ٤١] إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٢] إلى غير ذلك ، فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله ، وقالت: إن النبي ﷺ يقول: أنزل الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النبي: ٢٤] فليأتوا بحديث مثله - إن كانوا صدّيقين ﴿ [الطور: ١٧] . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك ، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ ﴾ [هود: ١٣] ، فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار على مثل سورة من السور القصار ، فقال - جل ذكره: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] ، فأفحموا عن الجواب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سبى الحريم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا ، وأبلغ

فى الحجّة وأشدّ تأثيراً ، هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللّحن^(١) وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن^(٢) .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتى من جوامع الكلم ، واختص به من غرائب الحكم ؛ إذا تأملت قوله ﷺ فى صفة الجنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته أقل من رتبة القرآن : وذلك فى قوله ﷺ : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، فأين ذلك من قوله - عز وجل : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف : ٧١] ، وقوله - تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] هذا أعدل وزنا ، وأحسن تركيباً ، وأعذب لفظاً ، وأقل حروفاً ، على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية ؛ لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف . وضاق المقال عن القاصر المتكلف ؛ وبهذا قامت الحجّة على العرب ؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ، وفطنة المعارضة ؛ كما قامت الحجّة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة ، فإن الله - سبحانه - إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمن النبي الذى أراد إظهاره ؛ فكان السحرفى زمن موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطب فى زمن عيسى عليه السلام والفصاحة فى زمن محمد ﷺ^(٣) .

وبعد : فقد نبه الله - تعالى - على شرف هذا القرآن العظيم وأهميته وخطورته فقال : ﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ [الإسراء : ٨٨] ، قل يا محمد - متحدياً والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المنزل فى بلاغته وحسن نظمه وبيانه ، ومعانيه وأحكامه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان والفصاحة ، لعجزوا عن الإتيان بمثله ، حتى ولو كان الجميع متعاونين متآزرين فيما بينهم لتلك الغاية ، فإن هذا أمر غير مستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لا نظير له ولا مثل ؟!

(١) اللحن : (بالتحريك) الفطنة واللغة .

(٢) اللسن : (بالتحريك) الفصاحة .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١١ / ٧٢ - ٧٨ بتصرف .

ثم أبان- تعالى - مضمون القرآن ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء : ٨٩] أى لقد بينا للناس ورددنا البيان وكررناه على وجوه مختلفة ، وألوان متعددة ، وعبارات متنوعة ، مرة بالإيجاز وأخرى بالإطناب وذكرنا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، وأوضحنا الحق وشرحناه ، وآتيناهم بالآيات والعبر ، والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهي ، والحكم والتشريع ، وقصص الأولين ، والجنة والنار والقيامة للعظة والعبرة.

فقوله: ﴿ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل معنى . وهو كالمثل فى غرابته وحسنه ومع ذلك: ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٨٩] أى فأبى أكثر الناس - أى أهل مكة - وأمثالهم إلا جحودًا وإنكارًا للحق ، وردا للصواب وبقاءً على الكفر .

فظل القرآن هو المعجزة الباقية الناطقة بأنه من عند الله تعالى ، وأنه وحى منه لرسوله ﷺ ، وأنه حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة ، فمن آمن به نجا ، ومن كفر به خسر وهلك .

وكان بيان القرآن شاملا لكل شىء من شؤون الحياة ، شافيا بلسم كل معذب ومحروم ، موضحا كل ما يحتاجه البشر من قضايا الدين والدنيا والآخرة ، مبينا الحق الأبلج ، فأبى أهل مكة وأشباههم إلا الكفر بعد بيان الحق وتمييزه من الباطل . مع قدرتهم على طلب الحق ومعرفة الصواب^(١).

٢٢- القرآن المحفوظ المحروس

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء] .

لقد سبق هذه الآيات البيّنات الآيات من ١٠١ - ١٠٤ تتحدث عن الآيات التي آتاه الله تعالى موسى ﷺ ، ونشير فقط لهذه الآيات وتعدادها قبل أن نذكر ما يتعلق بالآيات الثلاث ١٠٥ - ١٠٧ الواردة ذكر القرآن الكريم بها ، وقد ذكر القرآن الكريم المجيد ست عشرة معجزة لموسى ﷺ ذكرها الرازي ^(١) .

وهي: إزالة العقدة من لسانه؛ أى إذهاب العجمة وصيرورته فصيحًا ، وانقلاب العصا حية ، وتلقف الحية جباهم وعصيتهم على كثرتها ، واليد البيضاء والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وشق البحر: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠] ، وضرب الحجر: ﴿أَنْ أَوْضَرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] . وإظلال الجبل: ﴿وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] . وإنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه ، والجذب ، ونقص الثمرات : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] والطمس على أموالهم من النخل والدقيق والأطعمة والنقود .

وقال الرازي ^(٢): بعد أن ذكر أن الروايات ظنية غير يقينية فى بيان الآيات التسع : أجود الروايات فى تفسير قوله- تعالى : ﴿تَسْعَ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾ ما روى صفوان بن عسال المرادى أنه قال: إن يهوديا قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات ، فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها ، فقال: هن ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا

(١) تفسير الرازي ٢١ / ٦٤ .

(٢) المرجع السابق .

تقدفوا المحصنة ، ولا تولوا الفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن تعدلوا في السبت ، فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه ، وقالوا : نشهد إنك نبي ، ولولا نخاف القتل ، لاتبعناك^(١) .

وبعد أن رد الله - تعالى - على الكفار بأنه لا حاجة للمعجزات ؛ لأن قوم موسى آتاهم الله تسع آيات بينات ، فلما جحدوا بها أهلكهم الله ؛ ولأنه لو جاءهم بتلك المعجزات التي اقترحوها ، ثم كفروا بها ، لأنزل عليهم عذاب الاستئصال ، فاقتضت الحكمة عدم تلبية مطالبهم لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن ، ومنهم من لا يؤمن ، بعد هذا عاد الله تعالى إلى تذكيرهم بالمعجزة الخالدة وهي القرآن ، وإلى تعظيم شأنه ، والاكتفاء به ، فقال : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] أى أننا أنزلنا القرآن متضمناً للحق من تبيان براهين الوحدانية والوجود ، وحاجة الناس إلى الرسل ، والأمر بالعدل ، ومكارم الأخلاق ، والنهي عن الظلم وقبائح الأفعال والأقوال ، والأحكام التشريعية والأوامر والنواهي المنظمة لحياة الفرد والجماعة والدولة ، وغير ذلك من أصول التشريع الرفيع .

ونزل إليك يا محمد هذا القرآن محفوظاً محروساً ، لم يختلط بغيره ، ولم يطرأ عليه زيادة عنه ولا نقص منه ، بل وصل إليك مع الحق - وهو جبريل عليه السلام - الشديد القوى ، الأمين المكين المطاع في الملاء الأعلى .

وبعد بيان خواص القرآن ؛ أبان الله - تعالى - مهام النبي عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٠٥] ، أى وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين بالجنة ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين بالنار ، ثم عاد إلى بيان كيفية نزول القرآن منجماً ، أى مقسماً بحسب الوقائع والمناسبات فقال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] أى : وأنزلنا قرآناً مفرقاً منجماً في مدى ثلاث وعشرين سنة ، فلم ينزل في يومين أو ثلاثة ، وإنما أنزلناه بحسب الوقائع والحوادث على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة النافعة في الدنيا والآخرة على وفق المناسبات .

(١) أخرجه أحمد والترمذى والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجه ، التفسير المنير ١٥ / ١٨٢ .

وقد ابتدئ نزوله في ليلة مباركة - هي ليلة القدر في رمضان^(١) وقرئ: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتشديد أى أنزلناه آية آية مبينا مفسرا.

وذلك لتبلغه للناس وتتلوه عليهم على مهل: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أى شيئا بعد شىء ، على الحد المذكور ، والصفة المذكورة ، وفائدة قوله : ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ بعد قوله ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بيان كون التنزيل على حسب الحوادث ، ثم هددهم الله محققا لهم غير مبال بشأنهم بقوله ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ١٠٧] أى قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين لم يقتنعوا بكون القرآن معجزة باقية كافية ، وقالوا لك : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] . آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، فهو حق فى نفسه أنزله الله ، وكتاب خالد إلى أبد الدهر : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧] أى أن علماء أهل الكتاب الصالحين الذين تمسكوا بكتابهم ، ولم يبدلوه ولم يحرفوه ، إذا يتلى عليهم هذا القرآن يسجدون على وجوههم - تعظيما لله - عز وجل ، وشكروا على ما أنعم به عليهم ، وعبر عن السجود بقوله: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٧] لأن الإنسان كلما ابتدأ بالخرور والإقبال على السجود ، فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض الذقن ، أو هو كناية عن المبالغة بالخضوع والخشوع والخوف من الله - تعالى :

ويقولون فى سجودهم: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ أى تنزيها لله - تعالى - وتعظيما وتوقيرا على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد ، لذا قال: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [٢١] أى منجزا واقعا آتيا لا محالة .

وهذا السجود من هؤلاء تعريض بأهل الجاهلية والشرك ؛ فإنهم وإن لم يؤمنوا بالقرآن ، فإن خيرا منهم وأفضل علماء أهل الكتاب الذين قرؤوا الكتب ، وعلموا ما الوحي ، وما الشرائع ، فأمنوا وصدقوا به ، وثبت لديهم أنه النبي الموعود به من كتبهم ، فإذا تلى عليهم خروا سجدا لله ، تعظيما لأمره ، ولإنجاز ما وعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثة محمد ﷺ ، وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد

(١) انظر : بحث الزمان والمكان فى بداية هذا الكتاب .

في الآية : ﴿ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أى بإنزال القرآن وبعثة محمد ﷺ .

وعن صفة سجودهم قال الله - تعالى : ﴿ وَخَرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ ﴾ [الإسراء] ، أى ويخرون ساجدين باكين خاشعين خاضعين لله - عز وجل - من خشية الله ، وإيمانا وتصديقا بكتابه ورسوله .

ويزيدهم السجود خشوعا ، أى إيمانا وتسليما ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آهَتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝ ﴾ [محمد] .

وقد امتدح النبي ﷺ البكاء فى أحاديث كثيرة منها: ما رواه الترمذى ، عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عينا لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » (١) .

وبذلك فإن الله - تعالى - أنزل القرآن متضمنا الحق والعدل والشرعية والحكم الأمثل ، والجمع بين الإنزالين المعينين ، فقلوه : ﴿ وَيَا حَقِّ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أى أوجبنا إنزاله بالحق . وقوله : ﴿ وَيَا حَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ؛ أى ونزل فيه الحق ، أو أن الأول معناه : مع الحق ، والثانى : بالحق أى بمحمد ﷺ ، أى نزل عليه .

وكان إنزال القرآن منجما مقسطا على حسب الوقائع والمناسبات فى مدى ثلاث وعشرين سنة ؛ ليتمكن الناس من قراءته على مهل وتدبر وإمعان ، وليعملوا به تفصيلا ، فإنهم لو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا .

فائدة: قوله - تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليل على جواز البكاء فى الصلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصية فى دين الله ، وأن البكاء لا يقطعها ولا يضرها ، وقيد ذلك بعض الفقهاء بألا يكون مقرونا بصلاة وكلام. أما الأنين فلا يقطع الصلاة للمريض ، ويكره للصحيح فى رأى مالك ، وكذلك التنحنح والنفخ لا يقطع الصلاة عند مالك. وقال الشافعى: إن كان له حروف تسمع وتفهم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع (٢) .

(١) التفسير المنير ١٥ / ١٨٤ فما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١٥ / ١٨٨ .

وقفة : وردت كلمة القرآن في سورة الإسراء إحدى عشرة مرة ، وتعتبر هذه السورة أكثر السور القرآنية التي ورد فيها ذكر القرآن الكريم ، وإن كان من دلالة على هذا فإن سورة الإسراء تقع في نهاية النصف الأول من القرآن الكريم ، ويشملها الجزء الخامس عشر كلها . وقد بدأ ذكر القرآن بقوله - تعالى :

- ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء] ؛ بدأ بذكر الهدى الذي تضمنه القرآن الكريم في آياته المحكمات وفي الهدى والخير الذي حواه ، ثم إنه يبشر المؤمنين بالأجر الكبير من الله تعالى وما أعد الله تعالى للمؤمنين من نعيم مقيم .

- ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ [الإسراء : ٤١] ؛ صَرَفَ الله تعالى في هذا القرآن ليعلم الكافرون الذي صموا آذانهم عنه ولم يؤمنوا به .

- ﴿ وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء] ، وبذلك فقد أصم الله آذان الكفار حتى لا يتجنوا ويعترضوا على قراءة هذا القرآن ، أو تلاوته ، أو حفظه ، أو التذكير به .

- ثم يذكر الله تعالى تلك الشجرة الملعونة التي ذكرت في القرآن الكريم ؛ لتكون للكافرين نذيراً وتحويلاً وتذكيراً لهم بضلالتهم وبأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم .

- ثم ينتقل الذكر ليجعل الصلاة - وصلاة الفجر خاصة - وقراءة القرآن بها ذات موقع ومركز لا يناله غير هذه الصلاة وعبر عنها بالقرآن : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء] ، ويأمر الله تعالى بأن يقيمه الرسول والذين آمنوا لعلو شأنه وثوابه .

- وإن الله تعالى ينزل في القرآن آيات هي شفاء للعباد ، شفاء لقلوبهم ، وشفاء لأمرضهم ، ويكون للمؤمنين شفاء وهناء ، وللكافرين خسارة وضللاً مبيناً .

- ويأتى بعد ذلك التحدى المطلق للجن والإنس مجتمعين على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات ، أو بسورة ، بل بأقصر سورة ، بل بآية ، وهذا التحدى جاء

لأهل البيان والبلاغة ، وما زال التحدى قائما ولم يتمكن الكثيرون الذين أضلهم الله تعالى أن يدخلوا هذا التحدى ويقدموا شيئا مهما كان ، ولو التقت عبقریات الجن والإنس معا على أن يأتوا بالقليل القليل جدا من هذا القرآن الذى هو كلام الله ورسالته ، التى أنزلها على محمد ﷺ .

- لقد أنزل هذا القرآن بالحق وبالحق نزل ، واختلاف اللفظين فى إعجازه وفى سموه وعظمته ؛ ليوقع الكافرين فى عجز وتقهقر وتخلف وحسرة ؛ وليؤكد بأن الله تعالى أنزله من عليائه على نبيه فى هذه الأرض ، والتأكيد على موضوع التنزيل أنه من العلى الأعلى فى السموات العلا على محمد المبعوث للعباد ، رحمة ، ونذيرا ، وبشيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا .

هذه المعانى التى جاءت متوافقة ، متتالية ، متناغمة ، متناسقة ، يكمل بعضها بعضا ، مع أن كل آية مع ابتعاد ذكرها فى هذه السورة تأتى تاليتها ؛ لتكون استكمالا وتجاوبا وتناغما ، ودعما مطلقا لما سبقها من ذكر هذا القرآن فى هذه السورة - سورة الإسراء ، التى ذكرت فيها معجزة النبي أيضا فى إسرائه ومعراجهِ الآتى فى معجزته الدائمة الخالدة . والله أعلم وأقدر .

٢٣- القرآن المتصرف به من كل فعل

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۖ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَهُمْ أَلْهَدُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۖ﴾ [الكهف].

بعد أن ذكر الله - تعالى - الجواب على شبهات الكفار المبطلين ، الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم ، أردف ذلك بيان كثرة الأمثال في القرآن لمن تدبر فيها ، ومع تلك الأمثال الواقعية والإجابات الشافية لهؤلاء الكفار لا يتركون المجادلة الباطلة ؛ لأن الإنسان أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل ، ثم هددهم تعالى على عدم الإيمان متسائلا: هل هناك مانع يمنعهم من الإيمان إلا نزول عذاب الاستئصال أو مجيئه عيانا ؟ وأبان أن مهمة الرسل هي الجدل في الدين من طريق تبشير المؤمنين بالجنان ، وإنذار العصاة بالنار ، وأوضح أن أشد الناس ظلما هو المعرض عن هداية القرآن ، والله الفضل العظيم في تأخير العقاب عن الناس ، وتخصيصه بموعده لا يتجاوزهم ، لعلمهم يثوبون إلى رشدهم (١) .

لقد ورد في هاتين الآيتين ذكر الناس عموما ، وذكر الإنسان - من الناس - أكثر شيء جدلا . ثم يرد ذكر الكافرين أو المشركين أو أهل الكتاب الذين أورد الله - تعالى - ذكرهم كثيرا ممن أصابهم العذاب وكانوا عبرة للمعتبرين - كقوم عاد وثمود وقوم نوح ولوط وقوم فرعون وغيرهم ، ممن خص الله - تعالى - ذكرهم في كثير من الآيات وفي مواضع كثيرة في القرآن الكريم . ذكر الناس هنا ، للدلالة على الكافرين من قريش الذين صدوا عن ذكر الله - تعالى .

ويرتبط أول الآية بآخرها .. عندما أشار الله - تعالى - بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ ، والقرآن منزل على محمد ، لينذر به قومه - وقريشًا خاصة - فذكر الناس هنا عموما ولكنهم تخصيصا الذين سمعوا القرآن وعلموا أن هذا القرآن قد صرّف الله فيه للناس من كل مثل ، أخبار السابقين ، البشارة لمحمد

وأتباعه ، الإنذار للكافرين (الناس) هنا .

فضل الله - تعالى - العظيم تأخير العقاب ، الذى تأخر عن قريش - رغم إصرارها وعنادها وكفرها ، والأشد الذين آذوا الرسول ﷺ فى الطائف ، وهو الموقف الذى سما به ﷺ عن جميع الرسالات .. فالرسل لما يؤسوا طلبوا العذاب للكافرين بهم من الله ، والأكثر أنهم خانوا (الناس) مواعيدهم مع الأنبياء - عقر الناقة - ظلم فرعون ، قوم ثمود ، قوم شعيب ، قوم لوط ، فنزل بهم العذاب ، لكن الرسول ﷺ كان له الموقف العظيم عندما جاءه جبريل وأخبره أن الله - تعالى - قد أمر ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين - جبلى الطائف - وفى هذا الموقف الذى تتفاعل به النفس البشرية للثأر ، للرد على الأذى ، للرد على الظلم ، كانت عظمة محمد ﷺ عندما قال: « إني لأرجو من الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله » ، ورفض أن تباد ثقيف ، أو تباد قريش ، أو أن يقع عليهم العذاب ، هذه خاصية لمحمد ﷺ .

وكما أن الله - تعالى - فى هاتين الآيتين ذكر الناس عموما ، تخصيصا للكافرين فإنه - جل وعلا - قد خص العباد - ويعنى جميع خلقه - فالخلق جميعا عبيده خص هذه الكلمة بعباده المؤمنين به ، الذى استجابوا لدعوة الإسلام وآمنوا فسماهم عباده: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [ص] وقوله - تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥] ، وقوله - تعالى: ﴿ قُلْ يَعِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وهذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦] ، فهؤلاء العباد المؤمنون قد تخلصوا من الشرك فلا ينطبق عليهم إطلاقا ، ولكن الله يغفر لهم جميع ذنوبهم بمنطوق الآية الأولى فهم مؤمنون .

إن هذا التخصيص باسم عام وهو الناس - بالكفار - وكذلك التخصيص بالعباد باسم خاص للمؤمنين ذلك من بلاغة القرآن الكريم المعجز ، الذى صرف الله - تعالى - للناس فيه من كل مثل ، ليذكروا ، وليؤمنوا ، وأيضا فإن الله - تعالى - مع ذكر العموم للخصوص - فإن الله تعالى أيضا قد صرف فى هذا القرآن للناس

- كل الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، حاضرهم ومن سيأتى بعدهم ، فى زمانهم وتالى أزمانهم ، فإن هذا القرآن المعجزة الخالدة ضرب الله للناس فيه من الأمثال ؛ لأن الله تعالى قد أودع فى الإنسان خاصية الجدل ، حيث أشار الله - تعالى - بعد ذلك إليه أنه يجادل ، بل يكثر من الجدل ، وفى الإنسان الذى سمع عند نزول القرآن ، أو حتى إنسان اليوم فإن فطرة الإنسان التى فطره الله عليها أنه أكثر جدلا .

وتأتى الآية التالية لتبين للناس فى كل زمان ومكان ، ما هو المانع لهم من الإيمان بهذا القرآن وقد جاءهم بالهدى ، ويطلب منهم أن يؤمنوا ويستغفروا ربهم قبل أن يأتيتهم العذاب قبلا: مقبلا عليهم ، كما أصاب من سبقهم من الذين كفروا وصدوا عن ذكر الله ، فهذا أيضا توضيح - للناس كل الناس - فى أى زمان أو مكان كانوا ، وقد سمعوا بما فصل الله تعالى فى هذا الكتاب عن أخبار السابقين الذين دمرهم الله ، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلُهُمْ ۖ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمِثْلُهَا ۖ ﴾ [محمد] .

هذا هو القرآن العظيم ، الذى جعله الله - تعالى - هدى للناس الذين وعوه فآمنوا ، وجعله أيضا صدا للكافرين الذين لم يعتبروا بما أنزل إليهم من أخبار الذين سبقوهم ، فدمر الله تعالى أقوامهم وليس للناس من الذين يطلعون على هذا القرآن إلا أن يهتدوا ، وتأتى الآية بصيغة التعجب: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ۖ ﴾ [الكهف: ٥٥] الآية ما هو المانع ، وقد رمت عيونهم ، وسمعت آذانهم ووعت عقولهم أخبار الذين دمر الله عليهم وأخذهم بعذاب كبير.. هذا هو القرآن العظيم.. هدى وبشرى للمؤمنين ، ونذير للكافرين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويتوضح ذلك بالآيات التالية عن مهمة الرسل عليهم السلام: ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَتُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ ﴾

الآية [الإسراء: ٥٦] .

٢٤- القرآن... تذكرة لمن يخشى (أ)

﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ ﴿ طه ﴾ .

سبب نزول هذه الآية: قال مقاتل : قال أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، ومطعم بن عدي للنبي ﷺ : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك . فقال ﷺ : « بل بعثت رحمة للعالمين » ثم قالوا: بل أنت تشقى ، فأنزل الله الآية ردا عليهم ، وتعريفا لمحمد ﷺ بأن دين الإسلام هو سبب كل سعادة وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ .

﴿ طه ﴾ ذكرها بعض العلماء على أنها من الأحرف المقطعة: النورانية (٢) وأكثرهم ذكر أنها من أسماء النبي ﷺ وهو الأرجح ومعناه: طأ الأرض يا محمد . قال ابن الأنباري : وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة ، حتى كادت قدماه تتورمان ، ويحتاج إلى التروح . ف قيل له: طأ الأرض ، أى لا تتعب نفسك فى الصلاة جدا حتى تحتاج إلى المراحة بين قدميك.

نزلت هذه السورة قبل إسلام عمر بن الخطاب. وقد روى ابن إسحاق قصة إسلام عمر مطولا (٣) ورواها بإيجاز الدارقطني فى سننه عن أنس بن مالك ؓ قال: خرج عمر متقلدا بسيف ، ف قيل له : إن ختنك وأختك قد صبؤوا (٤) فأتاهما

(١) التفسير المنبر ١٦ / ١٧٨ .

(٢) انظر بحث: القرآن - الأحرف النورانية - معجزة النطق من هذا الكتاب.

(٣) راجع سيرة فاطمة بنت الخطاب فى : الإصابة ، الاستيعاب ، الطبقات الكبرى وفى كتابنا نساء فى حياة خاتم الأنبياء.

(٤) يقال : صبأ : خرج من دين إلى دين وبابه: خضع.

عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له: خباب وكانوا يقرؤون ﴿طه﴾ . فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه - وكان عمر ﴿١﴾ يقرأ الكتب فقالت له أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ ، فقام عمر ﴿٢﴾ وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ: ﴿طه﴾ . وكان ذلك سبب إسلامه: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿١﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن تَخْشَىٰ ﴿٢﴾﴾ ، أى لم ننزل القرآن عليك لتتعب نفسك بسبب تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وفرط تحسرك على أن يؤمنوا ؛ فإن إيمانهم ليس إليك ، بل أنزلناه لتبلغ وتذكر فحسبك التبليغ والتذكير ، فلا تلتفت بعد هذا لإعراض المعادين ولا ترهق نفسك وتتعبها بحملهم على قبول دعوتك .

ونظير الآية قوله - تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿١﴾﴾ [الكهف] فقلوه: ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا .

روى جبير عن الضحاك قال - ومعه مقاتل: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ ، قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش: ما أنزل الله هذا القرآن إلا ليشقى ، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿١﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن تَخْشَىٰ ﴿٢﴾﴾ ، فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من آتاه الله العلم ، فقد أراد به خيرا ، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» .

وما أنزلناه إلا تذكرة لتذكر به من يخاف عذاب الله ، وينتفع بما سمع من كتاب الله الذي جعلناه رحمة ونورا ودليلا إلى الجنة ، وليس عليك جبرهم على الإيمان: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلُغُ﴾ [الشورى: ٤٨] . ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية] .

وفي هذا تسلية للنبي على إعراض قومه عن دعوته ، وضيق نفسه من تصميمهم على الكفر .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني ، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله - تعالى - للعلماء يوم القيامة . إذا قعد على كرسيه للقضاء بين

عباده : إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالى .

وكلمة « إلا » فى الآية إما استثناء منقطع بمعنى : لكن ، أو متصل ، والتقدير : ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة .

وإنما خص من يخشى بالتذكرة ؛ لأنهم المنتفعون بها ، وإن كان القرآن عاما فى الجميع ، وهو كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة] ، ودليل العموم قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان] .

وجه التذكير بالقرآن : أن النبي ﷺ كان يعظمهم به وبيانه .

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه] ، أى أن هذا القرآن الذى جاءك الذى جاءك يا محمد نزل عليك تنزيلا من خالق الأرض والسموات العليا ، والمراد به جهة السفلى والعلو ، الأرض بانخفاضها وكثافتها ، والسموات فى ارتفاعها ولطافتها . والمراد بالآية : إخبار العباد عن كمال عظمة منزل القرآن ، ليقدروا القرآن حق قدره : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه] ؛ أى ومنزل القرآن هو الرحمن المنعم بجلال النعم ودقائنها ، وهو الذى علا وارتفع على العرش ولا يعلم البشر كيف ذلك ، بل نؤمن به على طريقة السلف الصالح الذين يؤمنون بالصفات من دون تحريف ولا تأويل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، فهو استواء يليق بجلال الله وعظمته ، بلا كيف ولا انحصار ، كقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] ؛ لأن الله تعالى ليس بجسم ولا يشبه شيئا من الحوادث ، والعرش : شئ مخلوق ، لا ندرى حقيقته .

ويرى الخلف تأويل الصفات ، فيراد بالاستواء : الاستيلاء والقهر والتصرف الكامل ، والعرش هو الملك ، واليد القدرة ^(١) .

يوضح الكلبي : لما نزل على النبي ﷺ الوحي بمكة ، اجتهد فى العبادة واشتدت عبادته ، فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية ، فأمره الله تعالى أن

يخفف عن نفسه ، فيصلى وينام ، فنسخت هذه الآية قيام الليل ، فكان بعد هذه الآية يصلى وينام ، وهكذا لم يكن إنزال القرآن لإتعب النفس فى العبادة ، وإذاقتها المشقة الفادحة ، وإنما كان القرآن كتاب يسر وما بعث النبي ﷺ إلا بالحنيفية السمحة.

فالله تعالى منزل القرآن هو خالق السموات والأرض ، وهو الرحمن المنعم بجلائل النعم ودقائقها الذى اعتلى عرشه ، فكان له مطلق التصرف فى الخلق والكون ، وله جميع ما فى السموات وما فى الأرض وما فيهما من الموجودات وما تحت الأرض من معادن وذخائر وأموال وغير ذلك ، والأرضون سبع والسموات سبع أيضا وهو العالم بكل شىء ، يستوى عنده السر والجهر وما هو أخفى من السر . قال ابن عباس: السر: ما حدث به الإنسان غيره فى خفاء وأخفى منه ما أضمر فى نفسه مما لم يحدث غيره.

وهو - سبحانه - الإله الواحد فى الكون ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، له الأسماء الحسنى التسعة والتسعون ، والصفات العليا ، والأفعال الحميدة الحكيمة^(١) .

٢٥- القرآن العربي (ب)

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿ [طه] .

سبب نزول الآية (١١٤) : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن ، أتعب نفسه في حفظه ، حتى يشق على نفسه ، فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظه ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ الآية . وثبت في الصحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية ، يعني أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه .

كما أنزل الله آيات الوعيد من أهوال يوم القيامة ، أنزل القرآن كله بلغة عربية مبينة ، ليفهمه العرب ، ثم أبان الله تعالى نفع هذا القرآن للناس بالتحصن بالتقوى والاتعاظ والاعتبار بهلاك الأمم المتقدمة ، وأنه - سبحانه - متصف بصفات الكمال ومنزه عن صفات النقصان ، وأنه ضامن غرس القرآن في صدر نبيه وصونه عن النسيان والسهو ^(١) .

وهل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ؟

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب ، كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من كلام العرب ؟ فذهب القاضى أبو بكر الطيب والطبرى وغيرهما: إلى أن ذلك لا يوجد فيه ،

وأن القرآن عربى صريح ، وما وجد فيه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم ، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا ، ولا عن رسول الله ﷺ متكلمًا بلسان قومه فالمشكاة ؛ الكوة ، ونشأ : قام من الليل ومنه : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ [المزمل : ٦] ، ﴿ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ ﴾ [الحديد : ٢٨] أى ضعفين . و ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : ١٠] ، أى الأسد ؛ كله بلسان الحبشة . (والغساق) : البارد المنتن بلسان الترك . (والقسطاس) : الميزان بلغة الروم ، (والسجيل) : الحجارة والطين بلسان الفرس ، ﴿ وَالطُّورِ ﴾ [الطور : ١] الجبل . واليم : البحر بالسريرية . والتنور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية : فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكنها استعملتها العرب وعربتها فهى عربية بهذا الوجه ، وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات ، وبرحلتى قريش وكسفر مسافر بن أبى عمرو إلى الشام . وكسفر عمر بن الخطاب ، وكسفر عمرو بن العاص ، وعمار بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ؛ فعلمت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها . وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربى الصحيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فإن جهلها عربى ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره . كما يعرف ابن عباس معنى : ﴿ فَاطِرٍ ﴾ [فاطر : ١] إلى غير ذلك .

قال ابن عطية : وما ذهب إليه الطبرى - رحمه الله : من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظة فذلك بعيد ؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع فى الأكثر لأننا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليل شاذ . قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم ، ليس بأولى من العكس . فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا ، فإن كان الأول فهى من كلامهم . إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم . ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة . فإن قيل : ليست هذه الكلمات

على أوزان كلام العرب فلا تكون منه.

قلنا: ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب ، ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم . والله أعلم .

جمع صاحب المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام بحثا طويلا حول موضوع الآيات التى وردت بذكر أن القرآن عربى^(١) قال : لقد تطرق الطبرى فى مقدمة تفسيره إلى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأى من زعم أن فى القرآن كلما أعجميا وأن فيه من كل لسان شيئا ، فقال : قال أبو جعفر : قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه ، على أن الله - جل ثناؤه - أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها . فنقول الآن : إذا كان صحيحا فى الدلالة عليه فبأى ألسن العرب أنزل ؟ بألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ إذا كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنها عرب فهم مختلفو الألسن بالبيان متباينو المنطق والكلام .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله - جل ذكره - قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربيا ، وأنه أنزل بلسان عربى ميين ، ثم كان ظاهره محتملا خصوصا وعموما ، لم يكن السبيل إلى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه إلا ببيان من جعل إليه بيان القرآن ، وهو رسول الله ﷺ . فإذا كان ذلك كذلك ، وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه ﷺ بما حدثنا خلاد بن أسلم قال : حدثنا أنس بن عياض عن أبى حازم عن أبى سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف فالمرء فى القرآن كفر ، ثلاث مرات ، فما عرفتم عنه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه^(٢) .

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د . جواد على - دار العلم للملايين - بيروت - مكتبة

النهضة - بغداد ط آذار ١٩٧٨ / ٨ - ٥٩٥ - حتى نهاية الجزء ٨ .

(٢) تفسير الطبرى ٩/١ وما بعدها .

واستمر الطبرى بعد ذلك فى تعداد الطرق التى ورد فيها هذا الحديث :
 حديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ورواية بعض الأخبار الواردة فى حدوث
 اختلاف بين الصحابة فى حفظ بعض الآيات وقراءاتها ثم خلاص بعد هذا السرد
 إلى نتيجة هى أن القرآن : « نزل باللسن بعض العرب دون ألسن جميعها ، وإن قراءة
 المسلمين اليوم ومصاحفهم التى بين أظهرهم هى ببعض الألسن التى نزل بها
 القرآن دون جميعها فلم يجزم بتعيين اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم » ^(١) انتهى .
 وسنعود لنذكر الآراء والأقوال التى وردت فى هذا الموضوع: القرآن ولغة
 العرب فى مواقع أخرى مع آيات أخرى ، أكد الله تعالى بها أن القرآن عرب
 وبلسان عربى مبین .

﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : ١١٤] ؛ أى وبيننا
 فيه أنواع الوعيد - تخويفا وتهديدا ، كى يخافوا الله ، فيتجنبوا معاصيه ، ويحذروا
 عقابه ، أو يحدث لهم فى قلوبهم عبرة وعظة يعتبرون بها ويتعظون ، ويقبلون على
 فعل الطاعات . وعظم الله تعالى نفسه بعد تعظيم القرآن الكريم فقال : ﴿ فَتَعَالَى
 اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [طه : ١١٤] ؛ أى تقدس وتنزه الله الملك المتصرف بالأمر والنهى
 الثابت الذى لا يزول ولا يتغير عن إلحاد الملحدين ، وعما يقول المشركون ، فإنه
 الملك حقا الذى بيده الثواب والعقاب و بيده الحياة والموت وهو على كل شىء
 قدير ، ومن حقه وعدله ألا يعذب أحدا قبل الإنذار وبعثة الرسل ، والإعذار إلى
 خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة .

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : ١١٤] ؛ أى لا
 تتعجل أو تبادر إلى قراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصا منه على ما
 كان ينزل عليه منه ، بل أنصت ، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ،
 ومثله قوله - تبارك وتعالى فى سورة القيامة: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾
 ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ﴿ فَإِذَا قُرَأْنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾
 [القيامة] .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه] ؛ أى سل ربك زيادة العلم . روى الترمذى وابن ماجه والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علما ، والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار . قال الحسن البصري : إن هذه الآية نزلت في رجل لطم وجه امرأته ، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب القصاص ، فجعل النبي ﷺ لها القصاص ، فنزل : ﴿ أَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ، ولهذا قال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ؛ أى فهما ومعرفة ؛ لأنه ﷺ حكم بالقصاص وأبى الله ذلك ، لكن قال الرازي: هذا بعيد ، أما قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ؛ فالمعنى أنه - سبحانه وتعالى - أمره بالفرع إلى الله - سبحانه - في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه .

وفى الآية الترغيب في تحصيل العلم والترقى فيه إلى ما شاء الله ؛ لأن رتبة العلم أعلى الرتب ، وبحره واسع لا يحيط به إنسان^(١) .

(١) التفسير المنير ١٦ / ٢٩٠ فما بعدها ببعض التصرف .

٢٦- القرآن ، وأعداء النبي من المجرمين

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝١٠٠ ﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ
 وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝١٠١ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝١٠٢﴾
 [الفرقان] .

لا بد وأن المشركين قد اكتشفوا بعد الجدال الطويل بينهم وبين الرسول ﷺ وبعض المسلمين أن الذي يحتاج به الرسول ﷺ والمسلمون الكفار - ألا وهو القرآن - بأنه شيء غير عادي وبأن الأقوال التي يسمعونها ليست من صنع البشر ، مهما حاول أساطين البلاغة أن يقلدوه أو يأتوه بمثله أو حتى بسورة منه ، هذه الحقيقة التي وصل إليها المشركون ؛ وبأنهم غير قادرين على مقارعة الحجة بالحجة مهما بلغت مراتب بلاغتهم ، تحول إلى أمر آخر وهو هجر هذا القرآن وتركه ، والأخذ بالإجراءات الكفيلة التي تمنع وصول هذا القول إلى الناس ، ولم يفعل ذلك المشركون والكفار من قريش وغير قريش إلا بعد أن حاجهم المسلمون بالقرآن فأبطل حججهم وآراءهم ، وسفه أحلامهم ، وأعجز أقوالهم . وفي السيرة المطهرة الكثير من الشواهد على ذلك . ألم يضع عتبة بن ربيعة يديه بعد مجادلته للنبي ﷺ ، وبعد أن عرض إغراءات قريش المتكررة ؛ من المال ، والنساء ، والملك ، والطب والرياسة على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضع إصبعيه في أذنيه صائحاً صه يا محمد ؛ بعد أن حاجه الرسول ﷺ بالقرآن ، عندما قال له : لقد سمعت ما قالت يا عم فاسمع ما أقول ، وتلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١١٠ ﴾ [النحل] ، وخرج من لدن النبي ﷺ واعتزل الناس في بيته حتى ظن الناس أنه أسلم .

ألم يدخل سماع القرآن الكريم من مصعب بن عمير ، أسيد بن حضير ، وسعد ابن معاذ - سيد الأوس - في الإسلام ؛ لمجرد سماعهما القرآن من مصعب ﷺ ولم يجادلهما بغير القرآن ، وغيرهم وغيرهم ، عندما اعترفوا بأن القرآن ليس شعراً وليس كهانة ، وليس بلاغة مجردة ، إنما هو كلام الله المعجز الذي كان الدليل

الأقوى في جميع المواقف يقول ابن كثير^(١) : يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعتنهم ، وكلامهم فيما لا يعنيههم ، حيث قالوا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان : ٣٢] أى: هل أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله على ذلك ، بأنه إنما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنُزِّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الإسراء] ؛ ولهذا قال: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الإسراء] قال قتادة: وبيناه تبينا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيرا . ولا يأتونك بشيء: أى بحجة وشبهة: ﴿ جِئْتَنكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان] ؛ أى: ولا يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس: ولا يأتون بشيء: أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْتَنكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الإسراء] ؛ أى : إلا نزل جبريل من الله بجوابهم ، ثم فى هذا اعتناء كبير لشرف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، حيث كان يأتيه الوحي بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ أعظم نبي أرسله الله ، وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففى الملاء الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا فى

(١) تفسير القرآن العظيم . الحافظ بن كثير ، دار ابن حزم ، ط ٢٠٠٠ - بيروت ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ .

ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، قال : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان] وقال : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء] .

ثم قال تعالى مخبرا عن حال سوء الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم ، في أسوء الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان] وفي الصحيح عن أنس : أن رجلا قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتاده ، وغير واحد من المفسرين والله أعلم .. انتهى .

٢٧- القرآن المبين

﴿ طَسَّ تَلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا هُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [النمل]

كما أن القرآن الكريم هو حجة المؤمنين المفحمة للكافرين ، فإنه هو الهدى والبشرى للمؤمنين ، ففي كل المواقف كان الرسول ﷺ والمؤمنون يحتاجون بآيات الله المعجزة ، وهى المواقف التى صدت حجج المشككين وحجج الكافرين ، أظهرت بجلاء ووضوح أن هذا الكلام - القرآن الكريم - ليس كلاما عاديا من صنع البشر ، لكنه كلام الله تعالى خالق البشر الذى أنزله على عبده ليكون للعلمين نورا وهداية ، ثم إن القرآن الكريم فى آياته وسوره الهداية للمؤمنين حيث تطمئن قلوبهم لذكر الله بتلاوة آياته . والبشرى الدائمة للمؤمنين بالتمكين فى الأرض ، والثبات على الحق ، واليقين المطلق بالله ، والنصر المؤكد على أعداء الله فى الدنيا ، ثم الفوز الكبير بالجنة التى أعدت للمتقين ، تلك الجنة التى وصف الله تعالى بعض نعيمها ، كما وصف الرسول ﷺ هذا المآل ، وحدد بعد ذلك : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

من هم أولئك المؤمنون الذى كان القرآن المبين هدى لهم وبشرى ، إنهم الذين يقيمون الصلاة ويداومون على إقامتها بأوقاتها ، وفرائضها ، وأركانها ، وسننها ، والخشوع المطلق لقلوبهم وهم يؤدونها بين يدى الله جل جلاله . يقيمونها كما أراد الله تعالى خالصة لوجهه ، منيين إليه فى الوقوف والركوع والسجود جماعة إثر جماعة فى صفوف متراسة متلاحمة .

تذكر بقوة المؤمنين فى هذا الموقف بين يدى الله تعالى ، وهؤلاء الذين يقيمون الصلاة ، يؤتون الزكاة ، يؤدون حق الله تعالى فى أموالهم ، يؤدونها برضا وفرجة

يُؤَدُّونَهَا وَقَدْ انْقَطَعَتْ نَفُوسُهُمْ مِنْهَا ، وَاسْتَبَدَّلَتْ بِثَوَابِهَا الْعَظِيمِ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۖ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾ [البقرة] .

هؤلاء المؤمنون الذين ينفقون في الليل والنهار ، ولا ترى يسراهم ما أنفقت يمينهم . يعطون زكاتهم لمستحقيها ، وفي مصارفها الشرعية التي حددت في كتاب الله تعالى ، وتوجيه النبي ﷺ ، وليس هذا فقط فهناك أمور كثيرة يتعامل معها المؤمن ، ومنها الإيمان بالآخرة ، الإيمان بأن الدنيا فانية ، وما هي إلا طريق قصير جدا يختبر به الإنسان ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الملك] ، الإيمان بالآخرة واليقين بأنها هي دار الخلود يجازى فيها المؤمن بالجنة الأبدية ، ويجازى الكافر بالنار ، الإيمان بالآخرة جزء هام من أركان الإيمان ، ليستيقن المؤمنون ، ويؤمنون باليوم الآخر .. مع إيمانهم بشعب الإيمان الأخرى كلها ، وممارسة الحياة على أساسها .

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وقد ذكر واحدا من شعب الإيمان التي حوت تأكيداً: الإيمان بالله وكتبه وملائكته ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ثم قول النبي ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها الإيمان بالله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"، هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة فإن الله تعالى قد زين لهم أعمالهم في الدنيا ، وأفرحهم بها ، وجعلها قناعات تملأ نفوسهم فهم يعمهون أي أنهم صم بكم عمى ، وأنهم كالأنعام أو أشد ضلالة ، إنهم يعيشون في الضلالة ، ظانين أنها الحق - مع أن الحق - قد لا يختلف فيه الخلق ، إلا الكافرون الذين زينت لهم أعمالهم فهم في ضلالة يرتعون ، ومن ثم إن كفرهم في الآخرة سيكون شأنهم بها الخسارة - خسارة النعيم المقيم ، وجزاؤهم جهنم وبئس المصير ، هذه حال الكافرين في يوم كفروا به وأبعدوه من حساباتهم فدخلوا في الضلالة في الدنيا ، والخسارة الأبدية في الآخرة .

ثم إنك يا محمد لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، الله تعالى ، الذى أنزل الكتاب ، وأجرى السحاب ، وخلق الموت والحياة ، إنك يا محمد تتلقى أوامره آيات وسور جمعت فى القرآن العظيم ، إنه وحى الله تعالى إليك ، وهذا طمئنة لنفس الرسول ﷺ بأن الصلة مع خالق الخلق ، مع إله السموات والأرض ، هو الذى يوحى إليك هذا القرآن ، فهو يلقيه إليك منجما ؛ ليكون بشرى لك وللمؤمنين ، ونذيراً للذين ضلوا وكفروا فى الدنيا ، الذين سيكون مآلهم الخسران المبين فى الآخرة دار القرار والخلود .

٢٨- القرآن وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ ﴾
 وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ
 ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ [النمل] .

لقد أفرط بنو إسرائيل فى غيهم ، وأفرطوا فى ضلالهم ، وحرفوا كتابهم التوراة وكتبوه بأيديهم ؛ ولهذا فقد ظهر اختلافهم فى كثير من أحكام الله تعالى التى أمرهم بها ، اختلفوا فى كل شىء ، وقد أوضح الله تعالى اختلافهم هذا اختلفوا فى عيسى عليه السلام ، وأنكروا نبوته مع أنه جاء عليه السلام منهم ، مصدقا لما عندهم ، صحيحه وليس محرفه ومتغيره ، وبذلك فقد كفروا به ، وأنكروا نبوته وتأمروا عليه ، أو عزوا للسلطات الحاكمة وقتها قتله . وجرى الأمر ، ولكن ضلوا وأخطؤوا ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧] ، والبعض القليل آمن به وهم الحواريون: ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف] ، وكذلك التلاميذ وأعداد هؤلاء وهؤلاء لا تصل كلها إلى المائة ، فالحواريون اثنا عشر والتلاميذ خمسة وسبعون وعلى أيديهم انتشرت النصرانية فى العالم ، أما بقية بنى إسرائيل فقد كفرت به .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِىْ إِسْرَءِيلَ إِنِّى رَسُوْلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىْ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلِ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى أَسْمُهُ أَهْمْدُ فَاَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوْا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ﴾ [الصف] ، وكان هذا مثالا واحدا لاختلاف بنى إسرائيل فجاء القرآن الكريم يقص على بنى إسرائيل اختلافهم ، ويظهر لهم الحقائق التى ضلوا وكفروا بها ، فبين القرآن الكريم حقيقة عيسى عليه السلام بأنه نبي ورسول من أنبياء الله تعالى ، أرسل إلى بنى إسرائيل بعد أن زاد ضلالهم بتحريف

التوراة ، وقتل الأنبياء بغير حق ، وتكذيب رسل الله تعالى ، ومنهم عيسى الذى كذبه أولئك ، وقد بين القرآن الكريم أكثر ما اختلفوا فيه .

أما عن عيسى فقال الله تعالى فى سورة مريم: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ ١٧ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ١٨ وَهَزَيْتُ إِلَيْكِ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ١٩ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ النَّبَشِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ٢٠ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ٢١ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٢ يَتَأَخَّتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٣ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ٢٤ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ٢٥ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٢٦ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٢٧ وَبِرَأٍ بَوَلَدَنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٢٨ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٢٩ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٠ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣١ ﴿

لقد بين القرآن الكريم حقيقة عيسى عليه السلام ، وأظهر لبني إسرائيل اختلافهم وإنكارهم له . وفى آيات أخرى أوضح القرآن حقيقتهم ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٨] .

كما أن القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين ، يبين لهم طريق الحق والخير والحلال ليسلكوه ، وفيه من الرحمة بهم والنور الذى ينير لهم حياتهم فى الدنيا ، ويبين لهم طريقهم فى الآخرة وثوابهم المقيم فيها ، ومن هنا فإن شمولية القرآن الكريم لكل مافى الحياة الدنيا من أحداث وتغيرات ؛ كانت قبل نزوله ، وستكون فى المستقبل بعد نزوله ، وهاتان إشارتان فقط فى هذه الآية لإظهار الحق لبني إسرائيل ، وبأنه هداية ورحمة للمؤمنين ، وأن الله يقضى بحكمه بعد هذا فى ضلال من ضل وهداية من اهتدى ، فيرحم المهتدين ، ويعذب الضالين والمنافقين ، وخاصة بعد أن جاءهم الهدى فاختلفوا فيه ، وابتعدوا عن هديه ، وضلوا سبيل

الرشاد ، وركبوا درب الغواية والشيطان .

ثم إن الله تعالى يطمئن الرسول ﷺ بقوله : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل] ، وهذه الآية توضح بجلاء أن الإسلام فقط هو الدين الحق ، وبأن الرسول ﷺ قد سار في هذا الدرب ، درب الحق الظاهر المبين وأن ما يأتيه من ربه هو النور والخير الذي يريده الله تعالى لعباده ، فتوكل على الله يا محمد ، ولا تخشى غير الله ، فإنك على درب الحق والخير سالك ولا يضرك بعد هذا شيء في هذه الدنيا من الملحدين والضالين والمنحرفين مهما بلغت قواهم وحججهم ، وما عندهم من أقوال أو أفعال .

٢٩- تلاوة القرآن

﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ۚ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٢٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ؕ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [النمل].

يرتبط تفسير هاتين الآيتين بآية سبقتهما وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ۚ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۚ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٢١﴾ [النمل].

يقول الله تعالى مخبرا رسوله وأمره له أن يقول: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ۚ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۚ كَمَا قَالَ: ﴿ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۚ الَّذِي يَتَوَفَّكُم ﴾ [يونس: ١٠٤] ، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها . كما قال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝١٢٥﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝١٢٦﴾ [قريش] ، وقوله: ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ۚ أَى : إنما صارت حراما - قدرا وشرعا - ، بتحريمه لها ؛ كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاها ، الحديث بتمامه ، وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع ، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام والله الحمد . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۚ ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شيء ومليكه ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٢٣﴾ [النمل] أى الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له .

ويأتى تفسير الآية التالية من قوله: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ﴾ أى على الناس أبلغهم

إياه ، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران]
 وكقوله: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
 [القصص]. أنا منذر ومبلغ ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا
 أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل] أى: لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا
 بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم وحساب أمهم على الله.
 كقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد] ، وقال
 ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود].

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٢] أى الله الحمد الذى لا
 يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه والاعتذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سِيرِكُمْ ءَايَتِهِ
 فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ سُنُرِهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
 أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] ؛ وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [أى: بل
 هو شهيد على كل شيء . قال ابن أبى حاتم : ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص
 ابن عمر: حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى ، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ، سمعت أبا
 هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس ، لا يغترن أحدكم بالله ، فإن الله
 لو كان غافلا شيئا ، لأغفل البعوضة والخرذلة والذرة ، وقال أيضاً : حدثنا محمد
 ابن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبى : أخبرنى خالد بن قيس ، عن مطر ، عن
 عمر بن عبد العزيز ، قال: فلو كان الله مغفلاً شيئاً ، لأغفل ما تخفى الرياح من أثر
 قدمى ابن آدم ، وقد ذكر عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه كان ينشد هذين البيتين ..
 إما له أو لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
 ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب^(١)

إن تلاوة القرآن الكريم في كل مكان أو مجمع من الناس أو منفرد كل ذلك له آثاره في سماع هذه التلاوة فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإن رسول الله ﷺ منذر للناس من الأنبياء المنذرين ، وكان النبي ﷺ وصحبه والدعاة والقراء ، والمسلمون على هذا الدرب يتلون القرآن ، فإن فيه من الخلاوة والطلاوة والسحر والتأثير على النفس ما يجذب إليه أصحاب القلوب الرقيقة فتؤمن ، والذين يصدون عن ذكر الله وقست قلوبهم ، وختم الله على سمعهم وأبصارهم غشاوة فلهم العذاب العظيم .. يا محمد سلاحك وحجتك ، ونورك وبقينك هو هذا الكتاب أنزله الله تعالى عليك لتبلغه للناس فهو لهم كما هو لك السلاح والحجة والنور واليقين . ولا تكثر لمن صد عن ذكر الله فعليك الإنذار والبلاغ والله بعد ذلك الهادي إلى صراط مستقيم.

٣٠- القرآن المفروض

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ نَتَّبِعْ أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٠﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] .

اتفق المفسرون على صدر الآية .. أن الله تعالى الذي فرض عليك القرآن ، أى أنزله عليك منجما بليغا ، صريحا ، عربيا ، لتبشر به الذين آمنوا ، وتنذر قوما صدوا عن سماعه وأعرضوا عنه ، مع أن فيه من البلاغة والروعة والتحدى ، والأخبار والقصص والعبر ، إن الذي فرض عليك هذا القرآن لرادك إلى معاد ، وقد تباينت آراء المفسرين نقلا عن صحابة رسول الله ﷺ فى الجملة الجوابية ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ وهذه بعض هذه الآراء .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ومخبرا له بأنه سيرده إلى معاد ، أى: وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : أى افترض عليك أدائه إلى الناس .

﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى: إلى يوم القيامة فيسأله عن ذلك ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ ﴾ [الأعراف] ، وقال: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة] ، وقال : ﴿ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر: ٦٩] ، وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ يقول: لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدى وقال أبو سعيد مثلها .

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما:

﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى يوم القيامة ، ورواه مالك عن الزهري . وقال الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة .

وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبى قزعة ، وأبى مالك ، وأبى صالح . وقال الحسن البصرى : إى والله ، إن له لمعادا يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة ، وقال : روى عن ابن عباس غير ذلك . كما قال البخارى فى التفسير فى صحيحه ، حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العصفري عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى مكة ، وهكذا رواه النسائي فى التفسير فى سننه ، وابن جرير من حديث يعلى ، وهو ابن على الطنافسى - به - وهكذا روى العوفى عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ ، أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مولدك بمكة . قال ابن أبى حاتم ؛ وقد روى عن ابن عباس ويحيى ابن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية والضحاك ، نحو ذلك . وحدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : فسمعنا عن مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة . فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مكة . وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكية والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتبها . وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن نعيم القارى أنه قال فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى بيت المقدس . وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو بيت المحشر والمنشر والله الموفق للصواب .

وجه الجمع بين هذه الأقوال : أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجله صلوات الله وسلامه

عليه ، كما فسرہ ابن عباس بسورة: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾^(١) إنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك. وقال: لا أعلم منها غير الذى تعلم ؛ ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قول الله تعالى ﴿ لَرَأُذُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۖ ﴾ : بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس ؛ ولأنه أكمل وأفصح وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله: ﴿ قُلْ رَبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [القصص : ٢٨] أى: قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم - قل ربي أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى مذكرا لنبية نعمته العظيمة عليه وعلى العباد الذين أرسل إليهم . ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ۖ ﴾ [القصص : ٨٦] أى: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ أى: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة. ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ۖ ﴾ أى: معينا ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ۖ ﴾ أى: فارقههم وناذبهم وخالفهم^(١) .

والمشهد يبقى منيرا فى هذا العرض ، الذى نزل القرآن عليك يا محمد ، رادك إلى معاد ، ومهما اختلفت التفاسير ، فإنه سيرده إلى مكان موعود فى علم الله . سواء إلى الجنة ، أو إلى مكة ، أو إلى بيت المقدس ، فإن الله بيده ملكوت كل شىء ، وهو القادر والمقتدر ، وتبقى هذه الآية معجزة كبيرة .. أى: أن الله أنزل القرآن عليك ، والله يردك إلى معاد .. المكان الذى ترغبه وتريده ، وتسعى للوصول إليه ، فليس غير الله تعالى يملك هذه الحقائق ، ليس البشر الذين يمكن أن يحققوا لك العودة إلى ما كان قد ذهب منك ، لكن الله وحده جلت قدرته ، وعلت عظمتة هو القادر على كل ذلك ، أنزل القرآن ، لتبلغه إلى الناس ، ثم يردك إلى معاد - ما أحببت الله - أن تكون معادك - والله أعلم.

٣١- القرآن مجمع الأمثال

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٢٥٦ ﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٢٥٧ ﴾ [الروم] .

أى بينا لهم الحق ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه .
 إن الله تعالى قد أكثر للناس فى القرآن من الأمثال ، والقصص ، والعبر والأخبار ، والتوجيهات ، والأوامر ، والفروض ، والنواهي ، وبين للناس فى هذا القرآن الحلال والحرام ، وبين لهم أصلهم وتناقلهم من عالم الذر إلى وجودهم فى بطون أمهاتهم بخلقهم من ظهور آبائهم ، ونقلهم فى فترات الحمل .. فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ويكون الله تعالى المخلوق ، وقد ذكره فى مواقف كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ١٥ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٦ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٧ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٨ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ١٩ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ٢٠ ﴾ [المؤمنون] ، وتكرر الصورة بأساليب وعروض أخرى ، ومن ثم دخول الإنسان فى عالم البرزخ بعد الموت حتى يوم الحشر ، فى الجنة ونعيمها أو إلى النار وسعيرها .

لقد بين الله تعالى للناس كل هذا ببيان مبين بليغ متناه ببلاغة العرض قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ [البقرة] .

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٦٩﴾ [محمد] .

وبذلك فقد حوى القرآن من كل مثل ، ومع هذا الذى أوردنا جزءا بسيطا منه ، فإن الكافرين ومع ذكر الآيات المعجزات فى هذا القرآن فإنهم يقولون إن أنتم إلا مبطلون ، أى لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر بقوله تعالى: ﴿ أَقْرَبْتَ السَّاعَةَ ۖ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةَ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ التُّنُذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَكُرٍ ﴿٦﴾ [القمر] .

وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس] ؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿١٤﴾﴾ [الروم] .

أى اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة (١) .

٣٢- القرآن الحكيم

﴿ يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ
عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [يس].

القول فى ﴿ يَسَ ﴾ كالقول فى الحروف المقطعة الواقعة فى أوائل الصور ومن
جملتها : أنه اسم من أسماء الله تعالى ؛ رواه أشهب عن مالك قاله ابن العربى .
وفيه عن ابن عباس أنه : يا إنسان بلسان الحبشه . وعنه أنها كذلك بلغة طيىء ،
ولا أحسب هذا يصح عنه ؛ لأن كتابتها فى المصاحف على حرفين ينافى ذلك .

ومن الناس من يدعى أن ﴿ يَسَ ﴾ اسم من أسماء النبي ﷺ . وبنى عليه
إسماعيل ابن بكر الجميرى شاعر الرافضة المشهور عندهم بالسيد الحميرى قوله :

يا نفس لا تمحضى بالود جاهدة على المودة إلا آل ياسينا

ولعله أخذه من قوله تعالى فى صورة الصفات: ﴿ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ۝ ﴾
[الصفات] ، فقد قيل : إنه يعنى آل محمد ﷺ ، ومن الناس من قال: إن يس اختزال
يا سيد ، خطابا للنبي ﷺ . ويوهنه نطق القراء بها بنون ، ومن الناس من يسمي
ابنه بهذه الكلمة ، وهو كثير فى البلاد المصرية والشامية . ومنهم الشيخ يس بن
زيد الدين العايمى الحمصى المتوفى سنة ١٠٦١ ، صاحب التعاليق ، فإنما يكتب
اسمه بحسب ما ينطق به لا بحروف التهجى ، وإن كان الناس يفعلون فيكتبونه
بحرفين كما يكتب أول هذه السورة . اسم مؤلف هذا البحث يس وهو من بلاد
الشام.

قال ابن العربى: قال أشهب سألت مالكا هل ينبغى لأحد أن يسمى ياسين؟
قال: ما أراه ينبغى لقول الله تعالى : ﴿ يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾ يقول هذا
اسمى: ياسين ، يس . قال ابن العربى : وهو كلام بديع ؛ لأن العبد لا يجوز أن
يسمى باسم الله إذا كان فيه معنى منه كقوله : عالم وقادر ، وإنما منع مالك من

التسمية بهذا ؛ لأنه اسم من أسماء الله لا يدرى معناه ، فربما معناه ينفرد به الرب ، فلا يجوز أن يقدم عليه العبد فيقدم على خطر ، فاقضى النظر رفعه عنه . أ . هـ ، وفيه نظر .

والنطق باسم : يا ، بدون مد تخفيف كما فى ﴿ كَهَيْعَصَ ﴾ ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ .

القسم بالقرآن كناية عن شرف قدره وتعظيمه عند الله تعالى . وذلك هو المقصود من الآيات الأولى من هذه السورة ، والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر مع ذلك التنويه .

والقرآن : علم بالغلبة على الكتاب الموحى به إلى محمد ﷺ من وقت مبعثه إلى وفاته للإعجاز والتشريع ، وقد تقدم فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ [يونس : ٦١] .

والحكيم : يجوز أن يكون بمعنى المحكم بفتح الكاف : أى المجمعول ذا إحكام ، والإحكام : الإتيان بما فيه الشئ فيما يراد منه ، ويجوز أن يكون بمعنى صاحب الحكمة ، ووصفه بذلك مجاز عقلى لأنه محتوٍ عليها .

وجملة ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ جواب القسم ، وتأكيد هذا الخبر بالقسم وحرف التأكيد ولام الابتداء باعتبار كونه مراداً به التعريض بالمشركين الذين كذبوا بالرسالة ، فهو تأنيس للنبي ﷺ ، وتعريض بالمشركين ، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير وبالنسبة للمعنى الكنائى لرد إنكارهم ، والنكت لاتتراحم .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ خبر ثان لـ (إن) أو حال من اسم (إن) والمقصود منه : الإيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إثبات أنه مرسل كغيره من المرسلين .

و ﴿ عَلَى ﴾ للاستعلاء المجازى الذى هو بمعنى التمكن كما تقدم فى قوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٥] ، وليس الغرض من الإخبار به عن المخاطب إفادة كونه على صراط مستقيم ؛ لأن ذلك معلوم حصوله من الأخبار من كونه أحد المرسلين ، فقد علم أن المراد من المرسلين ، المرسلون من عند الله ،

ولكن الغرض الجمع بين حال الرسول ﷺ وبين حال دينه ؛ ليكون العلم بأن دينه صراط مستقيم علما مستقلا لا ضمنيا .

والصراط المستقيم : الهدى الموصل إلى الفوز فى الآخرة . وهو الدين الذى بعث النبي ﷺ ، والخلق الذى لقنه الله شبه بطريق مستقيم لا اعوجاج فيه فى أنه موثق به فى الإيصال إلى المقصود دون أن يتردد السائر فيه .

فالإسلام فيه الهدى من الحياتين فمتبعه كالسائر فى صراط مستقيم لا حيرة فى سيرة تعتريه حتى يبلغ المكان المراد ، والقرآن حاوى الدين فكان القرآن من الصراط المستقيم ، وتنكير : صراط للتوصل إلى تعظيمه .

﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١﴾ راجع إلى: القرآن الحكيم ؛ إذ هو المنزل من عند الله فبعد أن استوفى القسم جوابه رجع الكلام إلى بعض المقصود من القسم وهو تشريف المقسم به ، فوسم بأنه تنزيل العزيز الرحيم . وقد قرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف للعلم به ، وهذا من مواضع حذف المسند إليه الذى سماه السكاكى: الحذف الجارى على متابعة الاستعمال فى أمثاله . وذلك أنهم إذا أجروا حديثا على شىء ثم أخبروا عنه التزموا حذف ضميره الذى هو مسند إليه إشارة إلى التنويه به كأنه لا يخفى كقول إبراهيم الصولى . أو عبد الله بن الزبير الأسدى . أو محمد بن سعيد الكاتب . وهى من أبيات الحماسة من باب الأضياف:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى أياذى لمن تمنن وإن هى خلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذ النعل زلت

تقديره: هو فتى . وقرأه ابن عامر وحمة والكسائى وحفص عن عاصم وخلف بنصب: تنزيل على تقدير أعنى . والمعنى: أعنى من قسمى قرآنا نزلته ، وتلك العناية زيادة فى التنويه بشأنه وهى تعادل حذف المسند إليه الذى فى قراءة الرفع .

والتنزيل: مصدر بمعنى المفعول أخبر عنه بالمصدر للمبالغة فى تحقيق كونه نزلا .

وأضيف التنزيل إلى الله بعنوان صفتى ﴿ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ ؛ لأن ما اشتمل عليه القرآن لا يعدو أن يكون من آثار عزة الله تعالى وهو ما فيه من حمل الناس على

الحق ، وسلوك طريق الهدى دون مصانعة ولا ضعف مع ما فيه من الإنذار بالوعيد على العصيان والكفران.

وأن يكون من آثار رحمته ، وهو ما فى القرآن من نصب الأدلة وتقريب البعيد ، وكشف الحقائق للناظرين مع ما فيه من البشارة للذين يكونون عند مرضاة الله تعالى ، وذلك هو ما ورد بيانه بعد ، إجمالا من قوله : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، ثم تفصيلا بقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ ، وبقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ فاللام فى ﴿ لِنُنذِرَ ﴾ متعلقة بتنزيل ، وهى لام التعليل تعليلا لإنزال القرآن .

واقصر على الإنذار ؛ لأن أول ما ابتدئ به القوم من التبليغ إنذارهم جميعا بما تضمنه أول سورة نزلت من قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْعَى ﴾ ١ أن رآه استغنى ٢ . [العلق] .. وما تضمنته سورة المدثر ؛ لأن القوم جميعا كانوا على حالة لا ترضى الله تعالى ، فكان حالهم يقتضى الإنذار ليسرعوا إلى الإقلاع عما هم فيه مرتكبون ، والقوم الموصفون بأنهم لم تنذر آبائهم : إما العرب العدنانيون فإنهم مضت فيهم قرون لم يأتهم فيها نذير ، ومضى آبائهم لم يسمعوا نذيرا ، وإنما يتبدأ عد آبائهم من جددهم الأعلى فى عمود نسبهم الذين يميزون به جدًا ما وهو عدنان ؛ لأنه جد العرب المستعربة ، أو أريد أهل مكة . وإنما باشر النبي ﷺ فى ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها ، فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقوا الدين ، وأن تتأصل فهم جامعة الإسلام ، ثم كانوا هم حملة الشريعة ، وأعوان الرسول ﷺ فى تبليغ دعوته وتأييده ، فانضم إليهم أهل يثرب ، وهم قحطانيون ، فكانوا أنصارا ، ثم تتابع إيمان قبائل العرب ، وفرع عليه قوله : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى فتسبب على عدم إنذار آبائهم أنهم متصفون بالغفلة وصفا ثابتا ، أى هم غافلون عما تأتى به الرسل والشرائع فهم فى جهالة وغواية ؛ إذ تراكمت الضلالات فيهم عاما فعاما وجيلا فجيلا .

فهذه الحالة تشمل جميع من دعاهم النبي ﷺ سواء من آمن بعد ومن لم يؤمن .

والغفلة صريحها الذهول عن شئ وعدم تذكره ، وهى هنا كناية عن الإهمال

والإعراض عما يحق التنبيه إليه كقول النابغة :

يقول أناس يجهلون خليقتي لعل زيادا لا أباك^(١) غافل

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥﴾ هذا تفصيل لحال القوم الذين أرسل محمد ﷺ لينذرهم فهم قسمان: قسم لم تنفع فيهم النذارة ، وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة ، وبين أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب ، أى: علم الله أنهم لا يؤمنون بما جبل عليه عقولهم من النفور عن الخير ، فحقق فى علمه وكتب أنهم لا يؤمنون ، فالفاء لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذى حق على أكثرهم.

﴿حَقَّ﴾ : بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقضا ، والقول مصدر أريد به ما أراده الله تعالى بهم ، فهو قول من قبيل الكلام النفسى ، أو مما أوحى الله به إلى رسله . والتعريف فى القول تعريف الجنس، والمقول محذوف لدلالة تفريعه عليه والتقدير: لقد حق القول ، أى القول النفسى ، وهو المكتوب فى علمه تعالى أنهم لا يؤمنون فهم لا يؤمنون^(٢) .

(١) لا أباك : هكذا وردت فى الأصل . ويستكمل وزن البيت إذا قيل : لا أبالك .

(٢) البحث كله منقول من : تفسير التحرير والتنوير : لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن

٣٣- القرآن ذى الذكر

﴿ صَ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴾ [ص] سميت فى المصاحف وكتب التفسير والآثار عن السلف سورة (صاد) كما ينطق باسم حرف الصاد ، تسمية لها بأول كلمة منها فى صاد (بصاد بألف بدال ساكنة سكون وقف) ، شأن حروف التهجى عند التهجى بها أن تكون موقوفة ؛ أى ساكنة الأعجاز. وأما قول المعرى يذكر سليمان عليه السلام :

وهو من سخرت له الإنس والجن بما صح من شهادة صاد
فإنما هى كسرة القافية الساكنة تغير إلى الكسرة ؛ (لأن الكسر أصل فى
التخلص من السكون) كقول امرئ القيس :

عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

وفى الاتفاق من كتاب جمال القراء للسخاوى : أن سورة ص تسمى أيضا سورة داود ، ولم يذكر سنده بذلك وكتب اسمها فى المصاحف بصورة حرف الصاد ، مثل سائر الحروف المقطعة فى أوائل السور اتباعا لما كتب فى المصحف وهى مكية فى قول الجميع ، وذكر بالاتفاق أن الجعبرى حكى قولاً بأنها مدنية . قال السيوطى : وهى خلاف حكاية جماعة الإجماع أنها مكية . وعند الدانى فى كتاب العدد قول : بأنها مدنية وقال : إنه ليس بصحيح .

وهى السورة الثامنة والثلاثون فى عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة :
﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ ﴾ ، وقبل سورة الأعراف ^(١) .

﴿ صَ ﴾ : القول فى هذا الحرف كقول فى نظائره من الحروف المقطعة الواقعة فى أوائل بعض السور بدون فرق ، إنها مقصودة للتهجى تحديدا لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن وتوركا عليهم إذ عجزوا عنه واتفق أهل العد على أن ﴿ صَ ﴾ ليس بآية مستقلة ؛ بل هى فى مبدأ آية إلى قوله : ﴿ ذِى الذِّكْرِ ﴾ ، وإنما لم تعد : ص

آية ؛ لأنها حرف واحد كما لم يعد: ق ، و: ن آية .

﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ وصف بذى الذكر ؛ لأن ﴿ ذِي ﴾ تضاف إلى الأشياء الرفيعة ، فتجرى على متصف مقصود التنويه به .

﴿ وَالذِّكْرِ ﴾ : التذكير .. أى تذكير الناس بما هم عنه غافلون ، ويجوز أن يراد بالذكر ذكر اللسان ، وهو على معنى : الذى يذكر بالنائب للنائب ، أى والقرآن المذكور ، أى الممدوح استحق الثناء على أحد التفسيرين فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء] أى شرفكم .

وقد تردد المفسرون فى تعيين جواب القسم على أقوال سبعة أو ثمانية ، وأحسن ما قيل فيه هنا أحد وجهين :

أولهما: أن يكون محذوفا دل عليه حرف ﴿ ص ﴾ ، فإن المقصود منه التحدى بإعجاز القرآن وعجزهم عن معارضته بأنه كلام بلغتهم ومؤلف من حروفها ، فكيف عجزوا عن معارضته . فالتقدير : والقرآن ذى الذكر أنه لمن عند الله لهذا عجزهم عن الإتيان بمثله .

وثانيهما: الذى أرى أن الجواب محذوف أيضا دل عليه الإضراب الذى فى قوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص] بعد أن وصف القرآن ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ؛ لأن ذلك الوصف يشعر بأنه ذكر وموقظ للعقول ، فكأنه قيل : إنه لذكر ولكن الذين كفروا فى عزة وشقاق ؛ يحدون أنه ذكر ويقولون : سحر مفترى وهم يعلمون أنه حق كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ تَجَحَّدُونَ ﴾ [الأنعام] ، فجواب القسم محذوف يدل على السياق ، وليس حرف ﴿ ص ﴾ هو المقسم عليه مقدما على القسم ، أى ليس دليل الجواب من اللفظ بل من المعنى والسياق.

والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر ، وهو صفة الذين كفروا وكذبوا بالقرآن عنادا أو شقاقا منهم^(١) . وبذلك فإن هذه

الآية الكريمة بكلماتها القليلة دليل على عظمة هذا الكتاب في صياغته وفي كلماته وفي جملة ، وتحدي بالغ التحدي للذين كفروا بأنه من لغتهم ، ومن أقوالهم .. ومن تراكيب كلماتهم ، ولكنهم بجانبه يخسؤون وعجزوا ويعجزون أن يقابلوا هذا التحدي أولاً ، أو في إتيان المتشابه به بعد ذلك . والله أعلم .

٣٤- القرآن مجمع الأمثال

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٢٧] قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر] .

كما في صدر الآية السابعة والخمسين من سورة الروم ، فقد تكرر بذات اللفظ صدر هذه الآية ٢٧ من سورة الزمر ولكن الانعطاف الكبير في نهاية الآية تلك ونهاية الآية هذه . فبعد أن ذكر الله تعالى أنه جل شأنه قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل راح الذهن في متابعة الآية إلى الذين كفروا الذين يصدون عن ذكر الله ، وليصف حالا من حالهم عند سماعهم هذا القرآن ، وأمثال هذا القرآن بجواب متسرع ، ورد فعل آنى ومن غير تفكير أو تدبر بقولهم: ﴿ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم] ، وفي هذه الآية .. تكرار الصورة الأولى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨] ، ولكن بعد ذلك أن هذه الأمثال التي يعجزون أن يعرفوها إنما جاء تثبيتاً لأفئدتهم ، وتحريضاً لعقولهم ، وتذكيراً لهم فإن أفاتوا ، وتذكروا وعرفوه أنه الحق ، فهذا هو المراد من ذلك ، وبعد ذلك يقرب الله تعالى الصورة أكثر فأكثر ؛ ليحدد من هؤلاء الذين يخاطبهم الله تعالى ، ومن هم الذين يصدون ؟ ومن هم الذين يدعوه للتذكير .. إنهم العرب .. قوم محمد .. أصحاب اللغة العربية ، وأساطينها .. وعباقرتها .. وبلغائها .. هذا القرآن الذي ضرب الله به للناس من كل مثل، إنه من لغتكم ومن أقوالكم، ومما عرفتم وتكلمتم فهو غير ذي عوج ويؤكد ثانية لعلمهم يتقون ، عندما يعرفون أن الحق من ربهم .

وإضافة لذلك ^(١) .. عطف على جملة: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر] تنمة للتنويه بالقرآن وإرشاده ، وللتعريض بتسفيه أحلام الذين كذبوا وأعرضوا عن الاهتداء به .

وتأكيد الخبر بلام القسم ، وحرف التحقيق منظور فيه إلى حال الفريقين الذين لم يتدبروا القرآن وطعنوا فيه وأنكروا أنه من عند الله .

والتعريف في ﴿النَّاسِ﴾ للاستغراق.. أى لجميع الناس فإن الله بعث محمدا ﷺ للناس كافة وضرب المثل : ذكره ووصفه ، وقد تقدم فى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] ، وتنوين: مثل للتعظيم والشرف ، أى من كل أشرف الأمثال . فالمعنى: ذكرنا للناس فى القرآن أمثالا هى بعض من كل أنفع الأمثال وأشرفها . والمراد : شرف نفسها .

وخصت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبر فى ناحية عظيمة من نواحي إعجازه ، وهى بلاغة أمثاله ، فإن بلغاءهم كانوا يتنافسون فى جودة الأمثال وإصابتها المحز من تشبيه الحالة بالحالة.

وتقدم هذا عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ، وتقدم فى قوله : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨] ومعنى الرجاء فى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ منصرف إلى أن حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكر ، وهذا مثل نظائر هذا الترجى الواقع فى القرآن ، وتقدم فى سورة البقرة .

ومعنى التذكر: التأمل والتدبر لينكشف لهم ما هم غافلون عنه سواء ما سبق لهم به علم فنسوه وشغلوا عنه بسفاسف الأمور ، وما لم يسبق لهم علم به مما شأنه أن يستبصره الرأى الأصيل حتى إذا انكشف له كان كالشيء الذى سبق له علمه ، وذهل عنه . فمعنى التذكر معنى بديع شامل لهذه الخصائص .

وهذا وصف القرآن فى حد ذاته إن صادف عقلا صافيا ونفسا مجردة عن المكابرة ، فتذكر به المؤمنون به من قبل ، ونذكر به من كان التذكر سببا فى إيمانه بعد كفره بسرعة أو ببطء ، وأما الذين لم يتذكروا به فإن عدم تذكرهم لنقص فى فطرتهم وتغشية العناد لألبابهم .

وكذلك معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

وانتصب ﴿قُرْءَانًا﴾ على الحال من اسم الإشارة المبين بالقرآن ، فالحال هنا موطئة ؛ لأنها توطئة للنعت فى قوله تعالى . ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف : ٢] ، وإن كان بظاهر لفظ: قرآنا حالا مؤكدة ، ولكن العبرة بما بعده ؛ ولذلك قال الزجاج : إن ﴿عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال . أى لأنه نعت على الحال .

والمقصود من هذه الحال التورك على المشركين ، حيث تلقوا القرآن تلقى من سمع كلاما لم يفهمه كأنه بلغة غير لغته . لا يعبره بالأ كقوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان] ، مع التحدى لهم بأنهم عجزوا عن معارضته وهو من لغتهم ، وهو أيضا ثناء على القرآن من حيث إنه كلام باستقامة ألفاظه ؛ لأن اللغة العربية أفصح لغات البشر .

والعوج بكسر العين أريد به: اختلال المعانى دون الأعيان . وأما العوج بفتح العين فيشملهما ، وهذا مختار أئمة اللغة ؛ مثل ابن دريد والزحشرى والزجاج والفيروز آبادى ، وصحح المرزوقى فى شرح الفصيح أنهما سواء ، وقد تقدم عن قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف] ، وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه : ١٠٧] .

وهذا ثناء على القرآن بكمال معانيه بعد أن أثنى عليه باستقامة ألفاظه .

ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج عنه التوسل إلى إيقاع: عوج ، وهو نكرة ما هو فى سياق ما هو بمعنى النفى وهو كلمة: غير ، فيفيد انتفاء جنس العوج على وجه عموم النفى أى ليس فيه عوج قط ؛ ولأن لفظ: عوج ، مختص باختلال المعانى ، فيكون الكلام نصا فى استقامة معانى القرآن ؛ لأن الدلالة على استقامة ألفاظه ونظمه قد استفيدت من وصفه بكونه عربيا ، كما علمته آنفا .

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مثل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١] ، وذكر هنا ﴿يَتَّقُونَ﴾ ؛ لأنهم إذا تذكروا يسرت عليهم التقوى ، ولأن التذكر أنسب

بضرب الأمثال ، لأن في الأمثال عبرة بأحوال الممثل به فهي مفضية إلى التذكر ،
والانتقاء أنسب بانتفاء العوج ؛ لأنه إذا استقامت معانيه ، واتضحت كان العمل
بما يدعو إليه أيسر وذلك هو التقوى ، انتهى .

٣٥- القرآن العربى - البشير النذير

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ﴾ [فصلت]

﴿ حَمَّ ﴾ القول فى الحروف الواقعة فى فاتحة هذه السورة كالقول فى: ألم .

ورد فى هذه الآيات اسما القرآن والكتاب ، وصفة التنزيل ، وقد تتكرر هذه الأمور المتعلقة بلفظ القرآن كاسم الكتاب ويتلوها بعض الصفات التى دلت عليه كما هى هنا ، أو كالوحي والهدى ، وغيرها من الصفات .

افتتح الكلام باسم نكرة لما فى التنكير من التعظيم ، والوجه أن يكون ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ مبتدأ سوغ الابتداء به لما فى التنكير من معنى التعظيم ، فكانت بذلك كالموصوفة .

وقوله : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ خبر عنه . وقوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ بدل من ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ فحصل من المعنى : أن التنزيل من الله كتاب وأن صفته : ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ موسوما بكونه : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ فحصل من هذا الأسلوب أن القرآن نزل من الرحمن الرحيم مفصلا عربيا .

ولك أن تجعل قوله : ﴿ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى موضع الصفة للمبتدأ ، وتجعل قوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر المبتدأ ، وعلى كلا التقديرين هو أسلوب فخم ، وقد مضى مثله فى قوله تعالى : ﴿ الْقَمَصَ ۝ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف] ، والمراد : أنه نزل ، فالمصدر بمعنى المفعول كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ ﴾ [الشعراء] ، وهو مبالغة فى كونه فعل الله تنزيله ؛ تحقيقا لكونه موحى به ، وليس منقولاً من صحف الأولين ، وتنكير ﴿ لَتَنْزِيلُ ﴾ ، و ﴿ كِتَابٌ ﴾ ، لإفادة التعظيم .

والكتاب : اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة ، وسمى القرآن كتابا ؛ لأن الله أوحى بالفاظه ، وأمر رسوله ﷺ بأن يكتب ما أوحى إليه ؛ ولذلك اتخذ

الرسول ﷺ كتابا يكتبون له كل ما ينزل عليه من القرآن .

وإثبات الصفتين : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت] .

والجمع بين صفتي : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ للإيماء أن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى . وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة . وفي ذلك إيماء إلى استحماق للذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب ، بأنهم أعرضوا عن رحمة ، وأن الذين اهتدوا به هم أهل الرحمة ؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] .

ومعنى ﴿ فَصَلَّتْ ءَايَتُهُ ﴾ : بينت ، والتفصيل : التبيين والإخلاء من الالتباس . والمراد : أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها ، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشمل عليها .

ومن تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني ، واسعة الأفنان ، فصيحة الألفاظ ، فكانت سالمة من التباس الدلالة ، وانغلاق الألفاظ ، مع وفرة المعاني غير المتنافية في قلة التراكيب . فكان وصفه بأنه عربي من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل ، وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء] ولهذا فرع عليه ذم الذين أعرضوا عنه بقوله هنا : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت] .

والقرآن : الكلام المقروء المتلو ، وكونه قرآنا من صفات كماله ، وهو أنه سهل الحفظ ، سهل التلاوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر : ١٧] ؛ ولذلك كان شأن الرسول ﷺ حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكان شأن المسلمين الاقتداء به في ذلك على حسب الهمم والإمكانات .

وكان النبي ﷺ يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن ، وكان يوم أحد يقدم في لحد شهدائه من كان أكثرهم أخذا للقرآن تنبيها على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة .

وانتصب ﴿ قُرْءَانًا ﴾ على النعت المقطوع للاختصاص بالمدح ، وإلا لكان مرفوعا على أنه خبر ثالث أو صفة للخبر الثاني ، فقوله : ﴿ قُرْءَانًا ﴾ مقصود بالذكر للإشارة إلى هذه الخصوصية التي اختص بها من بين سائر الكتب الدينية ، ولولا ذلك لقال : كتاب فصلت آياته عربى كما قال فى سورة : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء] ، ولك أن تجعله منصوبا على الحال . وقوله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ صفة لـ قرآنا ظرف مستقر . أى كائنا لقوم يعلمون ، باعتبار ما أفاده قوله : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ من معنى وضوح الدلالة ، وسطوع الحجة ، أو يتعلق ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ بقوله : ﴿ لَتَنْزِيلُ ﴾ أو بقوله : ﴿ فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ ، على معنى أن فوائد تنزيله وتفصيله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ دون غيرهم ، فكأنه لم ينزل إلا لهم أى فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنهم قوم لا يعلمون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت] .

والبشير : اسم للمبشر ، وهو المخبر بخبر يسر المخبر . والنذير : المخبر بأمر مخوف شبه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين ، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصى . فالكلام تشبيه بليغ . وليس ﴿ بَشِيرًا ﴾ و ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ اسمى فاعل ؛ لأنه لو أريد ذلك لقليل : مبشرا ومنذرا ، والجمع بين ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ من قبيل محاسن الطباق .

وانتصب ﴿بَشِيرًا﴾ على أنه حال ثانية من كتاب أو صفه لـ ﴿قُرْآنًا﴾ وصفة الحال في معنى الحال فالأولى كونه حالا ثانية .

وجيء بقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ معطوفا بالواو للتنبيه على اختلاف موقع كل من الحالين ، فهو بشير لقوم وهم الذين اتبعوه ونذير للآخرين ، وهم المعرضون عنه ، وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة ، فالواو هنا كالواو في قوله تعالى : ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا﴾ [التحریم: ٥] بعد قوله: ﴿مُسْلِمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَانِتَةٍ تَبَيَّنَتْ عَنِ دَابِّ السَّيِّئَاتِ﴾ [التحریم: ٥]

وتفريع ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ على ما ذكر من صفات القرآن ، وضمير ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون ، كما هي عادة القرآن في غير موضع .

والمعنى ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ، أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم يهتدوا ، ومن البشارة فلم يعنوا بها . وبالنذارة فلم يحذروها ، فكانوا في أشد الحماقة ، ، إذ لم يعنوا بخير ، ولا حذروا الشر . فلم يأخذوا بالحيلة لأنفسهم وليس عائدا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأن الذين يعلمون لا يعرض أحد منهم . والفاء في قوله : ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ للتفريع على الإعراض . أى فهم لا يلقون أسماعهم للقرآن فضلا عن تدبره ، وهذا إجمال لإعراضهم ، وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ دون أن يقول فلا يسمعون لإفادة تقوى الحكم وتأكيده .

٣٦- القرآن الغالب

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[فصلت]..

حجة المسلمين كتاب الله تعالى .. فهو الحق ، وهو المحفوظ من لدن حكيم عليم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر] ، وهو الغالب فى كل حديث بين المسلمين وخصومهم ، وتولدت قناعات لدى الكافرين الذين يحاجون المؤمنين بأن القرآن إذا ذكر دفع حججهم ، وأبطل تخرصاتهم وأبان لهم الطريق القويم ، وإزاء هذا الحال فإن الكافرين الذين لم يعد لديهم ما يقولونه إزاء ذكر القرآن قد اتخذوا أمورا تواصلوا بها ، واقتنعوا بها ، وهم لا بد لهم من إتيان القول فى كل موقف مع المؤمنين . حتى أن الرسول ﷺ كانت حجة القرآن .. فإذا عرض عليه الجاهلون بهذه الرسالة ، وأهدافها ومراميها عرضوا عليه متاعا فى الدنيا ؛ ملكا ، ومالا ، ونساء وطبا ، وهذا ماكرروه له لإغرائه وغوايته لترك هذا الدين ، فإنه ﷺ يحاجهم بالقرآن . والغالب حجة ، والغالب ما ذكر فى ذاك الموقع أو هذا ؛ ليبين لهم معجزته التى خصها الله تعالى بها دون غيره من المسلمين ، أمدته بالحق المبين ، أمدته بالقرآن العظيم .

ولما غلب المجادلون ، واستنفدوا حججهم ، وضعفت ردودهم ، فقد لجؤوا إلى أسلوب جديد يريدون به منع وصول كلمة الحق إلى آذان الناس ، ومنع المستمعين الذين ربما تجمعوا للوقوف على أقوال الطرفين ، المؤمنين والمشركون .. لجؤوا إلى تنبيه أتباعهم والسائرين فى ركابهم بأن يحدثوا فوضى ، ويرفعوا أصواتهم ، ويصيحوا ويصفروا ويحدثوا أصواتا ﴿ وَالْغَوْا ﴾ عند سماعهم القرآن أو عند تلاوة بعض آياته أمام الناس ، وذلك ظنا منهم أن سيغلبون أولئك الذين حملوا القرآن ليحاجوا به الناس ، وليبشروا وينذروا بهذا القرآن الغالب ، طلبوا منهم أن يخرجوا عن طور الجدل والكلام المتبادل إلى إحداث التشويش والتنفير ، والصياح ، والهياج ، لعلهم بذلك يغلبون خصومهم ولو مرة واحدة فى أى مكان أو زمان .

إن أسلوب اللغو ، وأسلوب التشويش والتشويه ، ورفع الأصوات المنكرة ،

والصياح فى مواقف الحديث يفسد وصول القرآن إلى آذان الناس ، الذين إذا سمعوه صدقوا وآمنوا واتقوا واتبعوا محمدا ﷺ وآمنوا معه . عندما يرون الكذب والدجل فى ردود المشركين وأقوالهم ويسمعون كلام الله تعالى الصدق والعدل والإيمان ، والبشائر والنذر التى يحملها إلى الناس كافة ، ويمنع المؤمنين من تبيان الحق الذى يحملون .

هذا الأسلوب الهمجى إنما هو سلاح الضعفاء ، وسلاح الأغبياء ، الذين يظنون أنهم بهذا ستكون له الغلبة على المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا ، وتحملوا ، وأوذوا فى سبيل الله ، فأمدهم الله تعالى بالقوة والصبر والتحمل ، والحجة البالغة الغالبة ، وجعل هذا القرآن سلاحا فى كل المواقع والمواقف ، وطمانة لقلوب المؤمنين فى ضعفهم وفى قوتهم ، وهو السبيل الأمثل لرفعتهم وغلبهم فى الدنيا والفوز بالنعيم بالآخرة .

٣٧- القرآن العربي (١)

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۖ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] .

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ [فصلت : ٤١] ، وما تخلل ذلك من الأوصاف ، فيقول سائل : فما بال هؤلاء طعنوا فيه ؟ فأجيب : بأن هذه سنة الأنبياء مع أمهم لا يعدمون معاندين جاحدين يكفرون بما جاؤوا به ، وإذا بنيت على ما جوزته سابقا أن يكون جملة : ما يقال خبر (إن) كانت خبرا وليست استنفا .

وهذا تسلية للنبي ﷺ بطريق الكناية وأمر له بالصبر على ذلك صبر من قبله من الرسل بطريق التعريض ولهذا الكلام تفسيران :

أحدهما : أن ما يقوله المشركون في القرآن والنبي ﷺ هو دأب أمثالهم من المعاندين من قبلهم فما صدق ﴿ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ ﴾ هو مقالات الذين كذبوهم أى : تشابهت قلوب المكذبين فكانت مقالاتهم متماثلة .

قال تعالى : ﴿ اتَّوَصَّوْا بِهِ ﴾ [الذاريات : ٥٣] .

التفسير الثانى : ما قلنا لك إلا ما قلناه للرسل من قبلك ، فأنت لم تكن بدعا من الرسل ، فيكون لقومك بعض العذر فى التكذيب ، ولكنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، فما صدق ﴿ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ ﴾ هو الدين والوحى فيكون من طريقة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [الأعلى] ، وكلا المعنيين

وارد في القرآن فيحمل الكلام على كليهما ، وفي التعبير ﴿ مَا ﴾ الموصولة ، وفي حذف فاعل القولين في قوله : ﴿ مَا يُقَالُ ﴾ وقوله : ﴿ مَا قَدْ قِيلَ ﴾ نظم متين حمل الكلام هذان المعنيان العظيمان ، وفي قوله : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ ﴾ تشبيهه بليغ . والمعنى : إلا ما قيل قد قيل للرسول .

واجتلاب المضارع في ﴿ مَا يُقَالُ ﴾ لإفادة تجدد هذا القول منهم وعدم ارعوائهم عنه مع ظهور ما شأنه أن يصدهم عن ذلك .

واقتران الفعل : ﴿ قَدْ ﴾ لتحقيق أنه قد قيل ما قالت المشركون للرسول ﷺ . فهو تأكيد للآزم الخبر وهو لزوم الصبر على قولهم ، وهو منظور فيه إلى حال المردود عليهم ، إذ حسبوا أنهم جابهوا الرسول ﷺ بما لم يخطر ببال غيرهم ، وهذا على حد قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴾ اتَّوَصَوْا بِهِ ۖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٦﴾ [الذاريات] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ؛ تسلية للرسول ﷺ ، ووعد بأن الله يغفر له ، ووقوع هذا الخبر عقب قوله : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يومئ أن هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله ، وأن الوعيد للذين آذوه ، فالخبر مستعمل في لازمه .

ومعنى المغفرة له : التجاوز عما يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير ، وحرف (إن) فيه لإفادة التعليل والتسبب لا للتأكيد .

وكلمة (ذو) مؤذنة بأن المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى ، وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكل منهما . ووصف العقاب بأليم دون وصف آخر للإشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا من أجله ، فإنهم آلموا نفس النبي ﷺ بما عصوا وأذوا .

وفي جملة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ محسن الجمع ثم التقسيم ، فقوله : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ يجمع قائلًا ومقولًا له ، فكان الإيماء بوصف ﴿ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾

إلى المقول له ووصف: ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى القائلين ، وهو جار على طريقة اللف والنشر المعكوس ، وقرينة المقام ترد كلا إلى مناسبه .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۚ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت] .

اتصال نظم الكلام من أول السورة إلى هنا ، وتناسب تنقلاته بالتفريع والبيان ، والاعتراض والاستطراد يقتضى أن قوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا ﴾ إلى آخره ، تنقل فى درج إثبات أن قصدهم العناد فيما يتعللون به ؛ ليوجهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه بما يختلقونه عليه من الطعن فيه والتكذيب به ، وتكلف الأعذار الباطلة ليتستروا بذلك من الظهور فى مظهر المنهزم المحجوج ، فأخذ ينقض دعاويهم عروة عروة ، إذ بدئت السورة بتحديدهم بمعجزة القرآن بقوله: ﴿ حَمَّازٌ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ﴾ [فصلت] ، فهذا تحد لهم ، ووصف للقرآن بصفة الإعجاز .

ثم أخذ فى إبطال معاذيرهم ومطاعنهم بقوله : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ۝ ﴾ [فصلت : ٥] فإن قولهم ذلك قصدوا به أن حجة القرآن غير مقنعة لهم إغاطة منهم للنبي ﷺ ، ثم تأليبهم على الإعراض بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْءَانَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ۝ ﴾ [فصلت] وهو عجز مكشوف بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيْ آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وبقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِى ذُكِّرَ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ [فصلت : ٤١] الآيات ، فأعقبها بأوصاف كمال القرآن التى لا يجدون مطعنا فيها بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ الآية .

إذن قد كانت هذه المجادلات من أول السورة إلى هنا إبطالا لتعللاتهم ، وكان عماده على أن القرآن عربى متصل الدلالة المعروفة فى لغتهم حسبما ابتدئ الكلام بقوله ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ ، وانتهى هنا بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، فقد نهضت الحجة

عليهم بدلالته على صدق الرسول ﷺ من هذه الجهة ، فانتقل إلى حجة أخرى عمادها الفرض والتقدير أن يكون قد جاءهم الرسول ﷺ بقرآن من لغة أخرى غير لغة العرب .

ولذلك فجملة: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَإِنَّا لَكِتَابٌ عَرَبِيٌّ ﴾ على الاعتبارين المتقدمين أنفاً في موضع تلك الجملة .

ومعنى الآية متفرع على ما يتضمنه قوله: ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١] من التحدى بصفة الأمية كما علمت آنفاً ، أى لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية ، فأنزلنا على الرسول قرآناً أعجمياً ، وليس للرسول ﷺ علم تلك اللغة من قبل ، لقلبوا معاذيرهم ، فقالوا : لولا بينت آياته بلغة نفهمها وكيف يخاطب بكلام أعجمي ، فالكلام جار على طريقة الفرض ، كما هو مقتضى حرف (لو) الامتناعية ، وهذا إبانة على أن هؤلاء القوم لا تجدى معهم الحجة ، ولا ينقطعون عن المعاذير ، لأن جدالهم لا يريدون به تطلب الحق ، وما هو إلا تعنت لترويج هواهم .

ومن هذا النوع فى الاحتجاج قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء] ، أى لو نزلناه بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بالعربية ، لاشتراك الحجتين فى صفة الأمية فى اللغة المفروض إنزال الكتاب بها ، إلا أن تلك الآية بينت على فرض أن ينزل القرآن على الرسول العربى ﷺ بلغة غير العربية .

وفى هذه الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد ﷺ للعرب والعجم ، فلم يكن عجيباً أن يكون الكتاب المنزل عليه بلغة غير العرب لولا أن فى إنزاله بالعربية حكمة علمها الله ، فإن الله لما اصطفى الرسول ﷺ عربياً ، وبعثه بين أمة عربية كان أحق اللغات ، بأن ينزل بها كتابه إليه بالعربية ؛ إذ لو نزل كتابه بغير العربية لاستوت لغات الأمم كلها فى استحقاق نزول الكتاب بها ، فأوقع ذلك تحاسداً بينها ؛ لأن بينهم من سوابق الحوادث فى التاريخ ما يثير الغيرة والتحاسد بينهم

بخلاف العرب إذا كانوا في عزلة عن بقية الأمم ، فلا جرم رجحت العربية ؛ لأنها لغة الرسول ﷺ ، ولغة القوم المرسل بينهم ، فلا يستقيم أن يبقى القوم الذين يدعوه لا يفقهون الكتاب المنزل إليهم .

ولو تعددت الكتب بعدد اللغات لفاتت معجزة البلاغة الخاصة بالعربية ؛ لأن العربية أشرف اللغات وأعلاها خصائص وفصاحة وحسن أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة ، ثم العرب هم الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم وتبيين معاني القرآن لهم .

ووقع في تفسير الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن أعجميا وعربيا ؟ فأنزل الله ﴿لَوْلَا فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت : ٤٤] بهمزة واحدة على غير مذهب الاستفهام . أ . هـ . ولا أجد هذا إلا تأويلا لسعيد بن جبير لأنه لم يسنده إلى راو ، ولم يرو عن غيره ، فرأى أن الآية تنبئ عن جواب كلام صدر عن المشركين المعبر عنهم بضمير : لقالوا .

وساق الآية ولفظها ينبو عن هذا المعنى ، وكيف و (لو) الامتناعية تمتنع من تحمل هذا التأويل وتدفعه وأما ما ذكره في الكشف « أنهم كانوا لتعتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقليل : لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعت ، وقالوا : ﴿لَوْلَا فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ﴾ . . . إلخ » ، فلم نقف على من ذكر مثله من المفسرين وأصحاب أسباب النزول ، وما هو إلا من صنف ما روى عن سعيد ، ولو كان كذلك لكان نظم الآية : وقالوا لولا فصلت آياته ، ولم يكن على طريقة (لولا) وجوابها ، ولا يظن بقريش أن يقولوا ذلك إلا إذا كان على سبيل التهكم والاستهزاء .

وضمير ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد إلى ﴿الَّذِكْرِ﴾ في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِكْرِ﴾ وقوله : ﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بقية ما يقولونه على فرض أن يجعل القرآن أعجميا ، أي أنهم لا يخلوا من الطعن في القرآن على كل تقدير .

و (لولا) هنا : بينت ووضحت ، أي لولا جعلت آياته عربية نفهمها .

والواو في قوله : ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾ للعطف بمعنى المعية . والمعنى : وكيف يلتقى

أعجمى وعربى ، أى كيف يكون اللفظ أعجميا والمخاطب به عربيا كأنهم يقولون : أيلقى لفظ أعجمى إلى مخاطب عربى .

ومعنى ﴿ قُرْءَانًا ﴾ كتابا مقروءا . وورد فى الحديث تسمية كتاب داود عليه السلام قرآنا قال النبي ﷺ : « (إن داود يسر له القرآن فكان يقرأ القرآن كله فى حين يسرج له فرسه) (أو كما قال) .

والأعجمى : المنسوب إلى أعجم ، والأعجم مشتق من العجمة ، وهى الإفصاح فالأعجم : الذى لا يفصح باللغة العربية ، وزيادة الياء فيه للوصف نحو : أحمزى ودوارى . فالأعجمى من صفات الكلام .

وأفرد : وعربى أن يجمع ، ولكنه أفرد لأنه بنى الإنكار على تنافر حالتى الكتاب والمرسل إليهم ، فاعتبر فيه الجنس دون أن ينظر إلى أفراد ، أو جمع .

وحاصل معنى الآية : أنها تؤذن بكلام مقدر داخل من صفات الذكر ، وهو أنه بلسان عربى بلغتكم إتماما لهدىكم فلم تؤمنوا به وكفرتم وتعللتم بالتعللات الباطلة فلو جعلناه أعجميا لقلتم هلا بينت لنا حتى نفهمه .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت] .

هذا جواب تضمنه قوله ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ؛ أى ما يقال من الطعن فى القرآن فجوابه : إن ذلك الذكر أو الكتاب للذين آمنوا هدى وشفاء ، أى : إن تلك الخصال العظيمة للقرآن حرمهم كفرهم الانتفاع بها وانتفع بها المؤمنون فكان لهم هديا وشفاء ، وهذا ناظر إلى ما حكاه عنهم من قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت : ٥] ، فهو إزام لهم بحكم على أنفسهم . وحقيقة الشفاء : زوال المرض وهو مستعار هنا للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء يقال : شفيت نفسى ، إذا زال مرضه . قال قيس بن زهير :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفى من حذيفة قد شفانى

ونظيره قولهم: شفى غليله ، وبرد غليله ، فإن الكفر كالداء فى النفس ؛ لأنه يوقع فى العذاب ، ويبعث على السيئات وجملة: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [فصلت : ٤٤] معطوفة على جملة: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى ﴾ ، فهى مستأنفة استئنافا ابتدائيا . أى وأما الذين لا يؤمنون فلا تتخلل آياته نفوسهم ؛ لأنهم كمن فى آذانهم قر دون سماعه ، وهو ما تقدم فى حكاية قولهم: ﴿ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ ؛ ولهذا الاعتبار كان معنى الجملة متعلقا بأحوال القرآن مع الفريق غير المؤمن من غير تكلف لتقدير جعل الجملة خبرا عن القرآن.

ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا عن ضمير الذكر ، أى القرآن ، فتكون من مقول القول ، وكذلك جملة: ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ .

والإخبار عنه بـ ﴿ وَقْرٌ ﴾ و ﴿ عَمًى ﴾ تشبيه بليغ ، ووجه الشبه هو عدم الانتفاع به مع سماع ألفاظه ، والوقر: داء ومقابلته بالشفاء من محاسن الطباق .

وضمير ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ يتبادر أنه عائد على الذكر أو الكتاب كما عاد ضمير ﴿ وَهُوَ ﴾ ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى ﴾ العمى : عدم البصر ، وهو مستعار هنا لصد الاهتمام بمقابلته بالهدى فيها من محاسن الطباق والإسناد على القرآن على هذا الوجه فى معاد الضمير بأنه عليهم عمى من الإسناد المجازى ؛ لأن عنادهم فى قوله كان سببا لضلالتهم ، فكان القرآن سبب سبب كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٢٥] .

ويجوز أن يكون ضمير: هو ضمير شأن تنبيها على فظاعة ضلالتهم

وجملة ﴿ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ خبر ضمير الشأن ، أى وأعظم من الوقر أن عليهم عمى أى على أبصارهم عمى . كقوله: ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

وإنما علق العمى بالكون على ذواتهم ؛ لأنه لما كان عمى مجازيا تعين أن يصيبه على أنفسهم كلها لا على أبصارهم خاصة ، فإن عمى البصائر أشد ضرراً من عمى الأبصار كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصُّدُورِ ﴿٥٥﴾ [الحج] .

وجملة: ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت] خبر ثالث عن الذين لا يؤمنون ، والكلام تمثيل لحال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من ينادى من مكان بعيد لا يبلغ إليه في مثله المنادى على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ كما تقدم في سورة [البقرة : ١٧١] وتقول العرب لمن لا يفهم : أنت تتأذى من مكان بعيد .

والإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى: الذين لا يؤمنون ؛ لقصد التنبيه على أن المشار إليهم بعد تلك الأوصاف أحرىء بما سيذكر بعدها من الحكم من أجلها نظير ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة : ٥] ويتعلق ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لا محالة كما تقدم في تعلق : ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ بقوله : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى دعاكم من مكانكم فى الأرض ، وبذلك يجوز أن يكون ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ظرفاً مستتراً فى موضع الحال من ضمير ﴿يُنَادُونَ﴾ وذلك غير متأت فى قوله : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾^(١)

(١) تفسير التنوير والتحرير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، ١١ / ٣٠٩ فما بعدها .

٣٨- القرآن العربى (٢)

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى].

معنى قوله تعالى فى الآية وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، وفى هذه الآية الكريمة عودة لذكر القرآن العربى ، حيث إنك تعلمه وتحدث به ويعلمه الذين طلب إليك إنذارهم من قومك فى أم القرى فى مكة المكرمة وما حولها ، بلغتهم التى يعرفونها ويفهمونها ، وبكلام عربى فصيح يتحداهم ولا يجدون حاجة إلى التوجه لفهمه ؛ لأنهم يعرفون مضامينه ، ويعرفون كلماته ، ويعرفون بديعه ، ويعرفون قواعده . ويعرفون أنه الحق ، ويعلمون أنه واضح جلى مبين ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهى مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى من سائر البلاد شرقا وغربا .

وسميت مكة أم القرى ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد ، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها ومن أوجز ذلك وأدله ما قاله الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب .. عن الزهري ، أخبرنا أبو سلمة عن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري أخبره : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة : والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله . ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت ، وهكذا رواية الترمذى والنسائى ، وابن ماجه من حديث الزهري به . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقوله : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد . وقوله : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى : لا شك فى وقوعه ، وأنه كائن بلا محالة . وقوله : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله : ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن : ٩] أى : يغيب أهل الجنة أهل النار ، وكقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ

يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٢﴾ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٤﴾ [هود].

قال أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا ليث ، حدثني أبو قبيل المغافري ، عن شفي الأصبحي ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قال: قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم . لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ، ثم قال للذي في يساره : هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء قبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأى شيء إذا نعمل إذا كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ : سدّدوا وقاربوا ؛ فإن صاحب الجنة يَحْتَمُّ له بعمل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار ليَحْتَمُّ له بعمل النار ، وإن عمل أى عمل ، ثم مال بيده فقبضها ، ثم قال: فرغ ربكم جل وعلا من العباد ، فنبد بها فقال : فريق فى الجنة ، ونبد باليسرى فقال : وفريق من السعير .

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا ، عن قتيبة عن الليث بن سعد وبكر فى مضر ، كلاهما عن أبى قبيل ، عن شفي بن مائع الأصبحي ، عن عبد الله بن عمر .. به ، وقال الترمذى : حسن صحيح غريب وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر ، عن سعيد بن عثمان ، عن أبى الزاهرية ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ فذكره بنحوه . وعنده زيادات منها : ثم قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير عدل من الله جل جلاله ، وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : إن الله لما خلق آدم نفضه نفضة المزود ، وأخرج من كل ذرية مخرج أمثال فقبضهم قبضتين ثم قال : شقى وسعيد ، ثم ألقاهما ، ثم قبضهما . فقال : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا الموقف أشبه بالصواب والله أعلم .

وروى الإمام أحمد عن أبى نضرة : أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله دخل عليه صحابة يعودونه ، وهو يبكى ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ : خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى ، قال : بلى ، ولكنى

سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله قبض بيمينه قبضة ، وأخرى باليد الأخرى ، قال هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالي ، فلا أدري في أى القبضتين أنا .

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا ، منها حديث على ، وابن مسعود وعائشة ، وجماعة جمة ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الشورى : ٨] أى : إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ، ولهذا قال : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى] قال ابن جرير عن أبى حنيفة : أنه بلغه أن موسى عليه السلام قال : يارب ، خلقتك الذين خلقتهم . جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟! فقال : يا موسى ، ارفع ذراعك فرفع قال : قد رفعت . قال : ارفع ، فرفع فلم يترك شيئا . قال : يا رب ، قد رفعت . قال : ارفع . قال : قد رفعت إلا ما لا خير فيه . قال : كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة . إلا ما لا خير فيه ^(١) .

٣٩- القرآن العلى الحكيم

﴿ حَمَّ ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣
وَأَنَّهُ فِي أَمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ٤ ﴾ [الزخرف] .

﴿ حَمَّ ﴾ من الأحرف المقطعة النورانية ، والتي تحدثنا عنها فى بداية هذه الدراسة ، وشفعنا آراء العلماء فى المواقع التى وردت ، وهى فى هذا المقام تكرر معنى قوله تعالى : ﴿ يَسَّ ٥ ﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ٦ ﴾ [يس : ١ - ٢] وردت آيتان منفصلتان ﴿ حَمَّ ﴾ ، و ﴿ يَسَّ ﴾ وتلاها القسم بالقرآن . بلفظه وصفته الحكيم فى الأولى ، وبلفظه أيضا وبصفته فى الثانية : أى باسمه كتاب وصفته « المبين » .

﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ كما سنقف على اسم الكتاب الذى ورد أكثر من ورود اسمه ﴿ وَالْقُرْءَانِ ﴾ ، وفى كثير من المواقع بجمع الاسمين كما هو فى هذه الآيات ، ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يقسم الله تعالى بالقرآن كشيء عظيم بالنسبة للبشر ، فهو القرآن المتفرد من كل الكتب ، سواء السماوية أو ما أدركه البشر من علمه ، فإنه يبقى متفردًا متميزًا لخلق الله المتميز والمتفرد عن كل ما يفعله خلقه .

وبذلك فقد تكرر هذا القسم كثيرا بهذا الكتاب الذى فيه الخير هاديا مبينا ، كريما ، عظيما .. إلخ ما أعطاه الله تعالى من صفات ؛ ولذلك فإن القسم به ، كآيات الله تعالى عندما أقسم بالشمس ، وأقسم بالقمر ، وأقسم بالليل والنهار ، وبكل ما يعجز الإنسان أمامه رغم أنه خير خلق الله تعالى فى الأرض ، وعلمه مالم يعلم ملائكته ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٧ ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨ ﴾ قَالَ يَتَفَادَمُ أَنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٩ ﴾

[البقرة] .

القرآن كما ورد فى السابق من سمو منزلته ، وكما سيرد لاحقا فإنه عقل البشرية المطلق أودعه الله تعالى عقول المسلمين ، وفهمه وعرفه أولئك ، وانقادوا لأوامره على مر الزمان ، ثم إنه بقدرة الله الخارقة لم تطله يد البشر ؛ لأن أية محاولة للبشر لم تنجح ولن تنجح ؛ لأن التحدى قائم ، والمتحدين يحاولون ، ولم ينجحوا فى أية محاولة رغم أن المحاولين من علية المجادلين الأعداء وأشدهم كرها وعداوة لهذا القرآن ، وكانت النتيجة الفشل الذريع .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ تأكيد للمعاندين من الكفار ، الذين اتخذوا العناد والكفر والضلال عقيدة لهم ، يخاطبهم الله تعالى : إن هذا القرآن من لغتكم ، من أحرفكم ، كلماتكم ، وجملكم ، فيه معجزة البيان ، فيه معجزة التحدى ، بدأ بالأحرف النورانية التى ما زالت حتى الآن لغزا حير حتى عقول المفكرين المسلمين ولكن كل ما قيل فيها هو من باب الاجتهاد ، ومن باب الترجيح ولذلك فإن هذا القرآن المؤلف من هذه الأحرف نزل بلغة العرب التى كانت وقتها فى أوج بلاغتها وعظائنها ، وفى هذا العلو والسمو جاء القرآن عربيا ؛ ليصل أوج البلاغة والفصاحة والبيان ، وقف منه البلغاء صاغرين ، عاجزين على أن يأتوا بمثله أو بسورة واحدة منه ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الحديث للمعاندين من العرب ولعلمكم سؤال استفهام أى أن حجية القرآن وبلاغته وسعة محتواه ، وما حواه من إعجاز وبيان وآيات كان لكم للقناعة ولاتخاذ منطق التعقل ، والاعتراف الذى يمكن أن يقودكم إلى الإيمان بالله والتصديق بما فى هذا الكتاب من الأمثال والقصص وتصوير الأحداث وذكر الغيب ، كل هذا لا يمكن أن يكون من محمد الأُمى والذى عاش فى منطقة محدودة وإذا به يذكر لكم آيات من هذا الكتاب تعرفونها وآيات لا تعرفونها وسيعرفها بعدكم آخرون من أجيال وثقافات أخرى فى جميع أنحاء العالم حيث يمتد هذا الدين كما هو مقرر له من الله تعالى من مختلف الثقافات والشعوب فى العالم .

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴾ ① هذا الكتاب العظيم العربى المبين

إن موقعه عند الله في أم الكتاب : وبين هذا المصدر الأول للكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى ، أو أوحى بها إلى أنبيائه في أزمنة وأمكنة متباعدة ، كلها في علم الله وأسمائها أم الكتاب ، أى المصدر أو اللوح المحفوظ تميز هذا الكتاب عن غيره من الكتب ، بأن يعلو عليهم جميعاً ﴿ لَعَلَّيْ ﴾ ويحوى من الحكمة ما لا تحويه تلك الكتب الحكيم والحكمة فى العربية معناها منتهى العطاء البشرى . بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ومن الله تعالى على من أوتى الحكمة من الأنبياء والأوفياء وبأنهم قد نالوا موقعاً ومكاناً علياً ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان] .

وبذلك فإن هذا الكتاب: القرآن العربى المبين ، يتميز بالعلو والسمو والحكمة فى مصدره عن أم الكتاب فى سائر الكتب بأن حفظه الله تعالى من كل تحريف أو تزوير أو تغيير أو زيادة أو نقصان ولم يكن ذلك فى الكتب السابقة ، وهذه الشهادة من الله تعالى على علو مكانة القرآن الكريم الدليل القاطع على تفرد هذا الكتاب بكل العلوم المرئية والغيبية ، والحكمة والمعرفة الإنسانية تتهاوى معه كل الكتب سواء التى من أم الكتاب ، أو من العطاء البشرى الذى يبقى فى مدركات البشر ما علمهم الله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء] .

٤٠- صاحب الأحقية فى القرآن

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [٢١] وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٣﴾ [الزخرف] .

الحديث فى الآية الأولى من ذرية إبراهيم عليه السلام من ابنه إسماعيل عليه السلام ؛ إذ إن بنى إسرائيل قد فشلوا فى تجربة استمرار الإيمان ، رغم كثرة الرسل الذين أرسلوا إليهم ، من نذرة من بعث لأبناء إسماعيل حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الذرية ؛ ليقم الدين ، وليبقى هذا الدين . خاصة وأن انحراف بنى إسماعيل عن دين الحق وتمكن بعض المضلين أمثال عمرو بن لحي أن يجرهم إلى عبادة الأصنام ويخرجهم من دائرة التوحيد . ولتتابع بعد ذلك هذا العرض .

الآية: إضراب عن قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٢٤] [الزخرف] فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٢٥] وهو إضراب إبطال ، أى لم يحصل ما رجاه إبراهيم عليه السلام من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التى أوصى برعايتها ، فإن أقدم أمة من عقبه لم يرجعوا إلى كلمته ، وهؤلاء مع العرب الذين أشركوا وعبدوا الأصنام .

وبعد ﴿ بَلْ ﴾ كلام محذوف دل عليه الإبطال وما بعد الإبطال ، وتقدير المحذوف: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأولون إلى التوحيد ، ولم يتبرؤوا من عبادة الأصنام ، ولا أخذوا بوصاية إبراهيم ، وجلة: ﴿ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ مستأنفة استئناف بيان لسائل يسأل عما عاملهم الله به جزاء على تفريطهم فى وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم؟ كما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [الزخرف: ٢٣] إلى قوله: ﴿ فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٥] فأجيب بأن الله متعمم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحق ، وذلك لحكمة علمها الله يرتبط بها وجود العرب زمنا طويلا بدون رسول ، وتأخر مجيء الرسول إلى الإبان الذى ظهر فيه.

وبهذا الاستئناف حصل التخلص إلى ما بدا من المشركين بعد مجيء الرسول ﷺ من فظيع توغلهم في الإعراض عن التوحيد الذي كان عليه أبوهم ؛ فكان موقع ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورقامها

إذ كان انتقاله اقتضابا وكان هنا تخلصا حسنا .

وهؤلاء إشارة إلى غير مذكور في الكلام ، وقد استقرت^(١) أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركى العرب . ولم أر من اهتدى للتنبيه عليه ، وقد قدمته عند قوله تعالى: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝١١٠ ﴾ في سورة [النساء] وفي مواضع أخرى . والمراد بآبائهم آبائهم الذين سنوا عبادة الأصنام مثل عمرو بن لحي ، والذين عبدوها من بعده ، وتمتع آبائهم تمهيد تمتع هؤلاء ، ولذلك كانت غاية التمتع بمجيء الرسول ﷺ .

والتمتع هنا التمتع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدل عليه الغاية في قوله : ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١١٠ ﴾ ، والمراد بالحق القرآن ، كما يدل عليه قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝١١١ ﴾ ، وهذه الآية ثناء راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة .

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد ﷺ انتهى التمتع وأخذوا بالعذاب تدريجيا إلى أن كان عذاب يوم بدر^(٢) ويوم حنين ، وهدى الله للإسلام من بقى يوم الفتح - فتح مكة ، وأيام الوفود ، وهذا فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١٢ ﴾ فى سورة [هود] .

والحق الذى جاءهم هو القرآن والرسول المبين : محمد ﷺ ووصفه بـ (مبين) ؛

(١) الكلام للمؤلف : الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ١٢ / ١٩٦ .

(٢) هكذا بالأصل ، ولعل المقصود وهو يوم أحد ويوم حنين ؛ لأن يوم بدر كان يوما مشهودا فى

لأنه أوضح الهدى ، ونصب الأدلة وجاء بأفصح كلام ، فالإبانه راجعة إلى معانى دينه وبالألفاظ كتابه .

والحكمة فى ذلك: أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق عن عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام ، واتباع أفضل الرسل وأفضل الشرائع ، فيجبر الأمة من عقب إبراهيم ما فرطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة .

والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلمهم يتذكرون كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٥٥] أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿ ١٥٦ ﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِفَايْتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [١٥٧] [الأنعام] ويستروح فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [الزخرف : ٢٨] إلى قوله : ﴿ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ أن اباء النبي ﷺ فى عمود نسبه لم يكونوا مضميرين الشرك ، وأنهم بعض من عقب إبراهيم الذين بقيت كلمته فيهم ، ولم يجهروا بمخالفة قومهم اتقاء الفتنة ، ولا عجب فى ذلك فإن تغيير المنكر إنما وجب بالشرع ولم يكن لديهم شرع .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [١٦١] تعجب من حال تغافلهم ، أى: قد كان لهم بعض العذر قبل مجىء الرسول ﷺ والقرآن ؛ لأن للغفلات المتقدمة غشاوة تصير الغفلة جهالة ، فكان الشأن أن يستيقظوا لما جاءهم الحق ورسول مبين ، فيتذكروا كلمة أبيهم إبراهيم ، ولكنهم لما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر أى قالوا للرسول: هذا ساحر فازدادوا رينا على رين .

فالخبر مستعمل فى التعجب لا فى إفادة صدور هذا القول منهم ؛ لأن ذلك معلوم لهم وللمسلمين .

وفى تعقيب الغاية بهذا الكلام إيذان بأن تمتيعهم أصبح على وشك الانتهاء .

فجملة ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ ، فإن ﴿ وَلَمَّا ﴾ توقيتية فهي فى قوة ﴿ حَتَّىٰ ﴾ الغائية ، كأن قيل : ﴿ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ عقب ذلك التمتع لم يستفيقوا من غفلتهم ، وقالوا : هذا سحر ، أى كانوا قبل مجيء الحق مشركين عن غفلة وتساهل ، فلما جاءهم الحق صاروا مشركين عن عناد ومكابرة .

وجملة : ﴿ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ مفعول ثان أى قالوا : سحر فلا تلتفت إليه ، وقالوا : إنا به ، أى بالقرآن ، كافرون ، أى سواء كان سحرا أم غيره ، أى فرضوا أنه سحر ثم ارتقوا فقالوا : إنا به كافرون ، أى كافرون بأنه من عند الله سواء كان سحرا ، أم شعراً ، أم أساطير الأولين ؛ ولهذا المعنى أكدوا الخبر بحرف التأكيد ليؤسوا الرسول ﷺ من إيمانهم به . انتهى .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ لقد شعر الذين كفروا من العرب عند سماعهم القرآن ومحاجة الرسول ﷺ والمؤمنون لهم به بأن هذا القرآن شئ عظيم تتسامى عظمته بقناعتهم كل ما عندهم من بلاغة وقول أوصلوه إلى أنه قول ساحر ، وأنه قول كاهن ، وأنه قول شاعر ، أى أنه يسمو ويعلو ويرتفع فوق أقوالهم وفهمهم ؛ ولذلك عادوا ليقولوا : طالما أن هذا القرآن بهذه المنزلة الرفيعة السامقة لماذا أنزل على رجل يتيم فقير؟ عرفوا أربعين سنة من عمره بينهم بأنه يتصف بالأمانة والصدق والوفاء بالوعد ، وصلة الرحم ، وإطعام المسكين ، وكل هذه الصفات لا تكفى لأن يتنزل هذا القرآن العظيم عليه ؛ لأنهم يرون أن العظمة تجلّى بالقوة والحكم والسلطان وكثرة الأتباع ، فلو أن القرآن العظيم نزل على رجل عظيم من مكة أو قراها والقريتان هما : مكة والطائف ؛ لأنهم أكبر قوى تهامة بلد القائلين ، وسكانها من العرب العدنانيين عرب الشمال وأما يثرب ، وتيماء ونحوهما فهي من بلد الحجاز ، وسكان يثرب خاصة من عرب الجنوب القحطانيين وبه قبائل يهود التى تجاورهم .

فالتعريف فى القريتين للعهد ، جعلوا عماد التأهل لسيادة الأقوام أمرين ؛
عظمة المسوّد ، وعظمة قريته ، فهم لا يدينون إلا لمن هو من أشهر القبائل فى
أشهر القرى لأن القرى هى مأوى شئون القبائل ، وتموينهم وتجارتهم ، والعظيم :
مستعار لصاحب السوّد فى قوته فكأنه عظيم الذات ^(١) .

روى عن ابن عباس: أنهم عنوا بعظيم مكة (الوليد بن المغيرة المخزومى) ،
وبعظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى ، وعن مجاهد : أنهم عنوا بعظيم مكة عتبه
ابن ربيعة ، وبعظيم الطائف كنانة بن عبد ياليل . وعن قتادة : عن الوليد بن المغيرة
وعمر بن مسعود الثقفى . ثم يحتمل أنهم قالوا هذا اللفظ المحكى عنهم فى القرآن
ولم يسموا شخصين معينين .

ويحتمل أنهم سموا شخصين ووصفوهما بهذين الوصفين ، فاقصر القرآن على
ذكر الوصفين إيجازا مع التنبيه على ما كانوا يؤهلون به الاختيار للرسالة تحميها
لرأيهم . وكان الرجلان اللذان عنوهما ذوى مال ؛ لأن سعة المال كانت من
مقومات وصف السوّد كما حكى عن بنى إسرائيل قولهم : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ
الْمَالِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

٤١- القرآن : هدى للجن كما للإنس

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۖ﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرُكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف] .

سياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ، ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال سياقة الخبر في هذا المجال بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذى يتمثل فى قولهم: ﴿أَنْصِتُوا﴾ عندما طرق أسماعهم ، يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ؛ الذين جاء القرآن لهم فى الأصل ، وهو إيقاع مؤثر ولا شك ، يلفت هذه القلوب لفتة عنيقة عميقة ، وفى الوقت ذاته تحيى الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن فتعلن هذه الحقيقة التى يدركها الجن ويغفل عنها البشر . ولا يخفى ما فى هذه اللفتة من إحياء عميق متفق مع ما جاء فى السورة .

كذلك ما يرد فى كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة فى خلق السماوات والأرض الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث ، وهى القضية التى يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ

النَّارِ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

ثم تحيى وصية للرسول ﷺ بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم ، وتركهم

للأجل المرسوم ، وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار .. للبلاغ قبل الهلاك .

وفي هذه العجالة نجمل ما تطرق إليه صاحب الظلال ^(١) فقال عن الجن : بعد أن أورد بعض الحقائق في الكون هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقا اسمه الجن ، مخلوق من النار .. لقول إبليس في الحديث عن آدم : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص] ، وإبليس من الجن لقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ٥٠] فأصله من أصل الجن .

وإن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر، منها : خلقته من نار ، وأنه يرى الناس ولا يراه الإنسان ، لقوله تعالى عن إبليس - وهو من الجن ﴿ إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس . للقول السابق : ﴿ إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ ، وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لا ندرى أين - لقوله تعالى - لآدم وإبليس معا : ﴿ فَازْلَمْهَ الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة] .

والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها ، وأن له قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب ؛ لقوله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ ^(٢) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ^(٣) [الجن] ، وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم - غير عباد الله - للنصوص السابقة ؛ ولقوله تعالى في حوار إبليس اللعين : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٤) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ^(٥) [الجن]

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب - الطبعة الشرعية السابعة ١٩٧٨ ، ٦ / ٣٢٦٨ - ٣٢٧٦ بتصرف ، دار الشروق .

[ص] ، وغير هذا من النصوص المماثلة ، ولكننا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأى أداة ؟

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به ، قابل للهدى والضلال بدلالة قول هذا النفر فى سورة الجن ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ ﴾ [الجن] ، وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين بدعوتهم إلى الإيمان ، وبعد ما وجدوه فى نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن ، وهو حسبنا بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

فأما الحادث الذى تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة أصحها : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب .

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يتغنون من هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر ، الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فهناك حين رجعوا إلى قومهم . وقالوا : يا قومنا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾ [الجن] وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ ﴾ [الجن] ، وإنما أوحى إليه قول الجن ومع تعدد الروايات

فى هذا المضممار ، فإن هذه الرواية هى الأكثر والأقرب اعتمادا ؛ لأنها هى التى تتفق تماما مع النصوص القرآنية ﴿ قُلْ أُوْحَىٰٓ إِلَىٰ أَنَّهُ أُسْتَمْعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، وهى قاطعة فى أن الرسول ﷺ ، إنما علم بالحادث عن طريق الوحى ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم ، ثم إن هذه الرواية هى الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج ، وتتفق معها فى هذه النقطة رواية ابن إسحاق ، كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن : ﴿ إِنَّهُ يَرْبِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧] ، وفى هذا غناء فى تحقيق الحادث .

والتفسير أخيرا: لقد كان إذن تدبيرا من الله أن ينصرف هؤلاء النفـر من الجن إلى استماع القرآن ، لا مصادفة عابرة ، وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ، وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لـشياطين الجن كما هى معدة لـشياطين الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفـر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع فى حسهم منه ، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وهذه كذلك تصور الأثر الذى انطبع فى قلوبهم من الإنصات للقرآن ، فقد استمعوا صامتين متبهيـن حتى النهاية ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به وهى حالة من امتلاء حسه بشىء جديد وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب . يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين فى جد واهتمام ﴿ قَالُوا يَبْقَوْنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف] ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى فى أصوله ، فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا

يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تشي بأنها من ذلك النبع الذى نبع منه كتاب موسى ، وشهادة هؤلاء الجن البعيدين - نسيبا - عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن . ذات دلالة وذات إيجاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم ، فقالوا عنه : ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، ووقع الحق والهدى فى هذا القرآن هائل ضخم لا يقف له قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللئيم ، ومن ثم لمس هذا القلوب لأول وهلة فإذا هى تنطق بهذه الشهادة ، وتعبّر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا بنذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع ، الذى يحس أن عليه واجبا فى النذارة لا بد أن يؤديه ﴿ يَنْقُومَنَّا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف] .

فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ، واعتبروا محمدا ﷺ داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له ، فنادوا قومهم : ﴿ يَنْقُومَنَّا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ﴾ وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب ، والإجارة من العذاب فبشروا وأنذروا بهذا الذى عرفوه .

ويروى ابن إسحاق: أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية ، ولكن السياق يوحى بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضا . ونحن نرجح هذا وخاصة الآية التالية :

﴿ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف] .

فهى تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم ، فقد دعواهم إلى الاستجابة والإيمان ، فالاحتمال قوى وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة ، وأن الذى

لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء ، ويذيقه العذاب الأليم ، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه ، وأن هؤلاء المعرضين ضلوا ضلالا مبينا عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التي بعدها يحتمل كثيرا أن تكون من كلامهم ، تعجبا من أولئك الذين لا يستجيون لله ، حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [الأحقاف] .

وهي لفظة إلى كتاب الكون المنظور ، الذي ورد ذكره في أول السورة ، وكثيرا ما يتضمن السياق القرآني مثل هذا التناسق بين قول مباشر في السورة ، وقول مثله يحىء في قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة ، وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل: السماوات والأرض ، ويوحى للحس البشرى بيسر الإحياء بعد الموت ، وهذا الإحياء هو المقصود . وصياغة القضية في أسلوب الاستفهام والجواب أقوى . وأكد في تقدير هذه الحقيقة ، ثم يحىء التعقيب الشامل : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ ؛ فتضم الإحياء وغيره في نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شيء كان أو يكون . انتهى .

وتأتى الصورة المشابهة في هذا السياق وما ورد في سورة الجن ، والتي جاءت تؤكد أن حديث الجن واستماعهم للقرآن الكريم كان وحيا للنبي ﷺ ، ولم تكن رؤيا مباشرة ، مع ما ورد عن قراءة النبي ﷺ سورة الرحمن على الجن وكان جوابهم بعد كل قول لله تعالى ﴿ قَبَائِدُ الْعَالَمِينَ أَوْ رِكَابَهُمْ يُنَادِيهِمْ الْوَيْلُ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ [الرحمن] : لا بشيء من نعمة ربنا نكذب ؛ ولا يمنع ذلك أن قراءة النبي هذه لم تكن مباشرة أى وجهها لوجه وما ورد في سورة الجن تؤكد وحى الله تعالى لما جرى للجن عندما سمعوا القرآن آمنوا به ، وذهبوا منذرين إلى قومهم - فمنهم المؤمن ومنهم دون ذلك ، ولعل الخوض في هذا المعنى لا ينتهى مما حاول الذين ادعوا الاتصال بالجن ذكره وتثبيته .. فكله ما زال خاصا ، ومن غير برهان واضح ، مع التأكيد عند أولئك بتحقيق الرؤيا وبأشكال مختلفة.

٤٢- تدبر القرآن الكريم

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّاتِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٢٤] إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ
أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ [محمد] .

القول من الآية الأولى (٢٤) : مفرع عن قوله تعالى في آية سابقة (٢٣)
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [٢٢] .. أى هلا تدبروا القرآن
عوض شغل باهم فى مجلسك بتتبع أحوال المؤمنين ، أو تفريع على قوله:
﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [٢٢] .

والمعنى : أن الله خلقهم بعقول غير منفعة بمعانى الخير والصلاح ، فلا يتدبرون
القرآن مع فهمه أولا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأمرين عجيب !

والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه ،
وحرف أم للإضراب الانتقالي ، والمعنى : بل على قلوبهم أقفال وهذا الذى سلكه
جمهور المفسرين ، وهو الجارى على كلام سيويه فى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾
[القصص] ، ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف : ٥٢] ،
خلافا لما توهمه ابن هشام فى معنى اللبيب .

والتدبر: التفهم فى دبر الأمر ، أى ما يخفى منه وهو مشتق من دبر الشيء أى
خلفه .

والأقفال: جمع قفل ، وهو استعارة مكنية إذ شبهت القلوب ، أى العقول فى
عدم إدراكها المعانى بالأبواب أو الصناديق المغلقة ، والأقفال تخيل كالأظفار للمنية
فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل قيمة لا تنفع

وتتكبر قلوب للتنوع أو التبعض ، أى على نوع من القلوب أقفال .

والمعنى : بل بعض القلوب عليها أقفال ، وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع ؛ لأن ثبات هذا النوع من القلوب فى أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذوات الأقفال ، فكون قلوبهم من هذا النوع مستفاد من الإضراب الانتقالي فى حكاية أحوالهم ويدنو من هذا قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها

يريد نفسه لأنه وقع بعد قوله : تراك أمكنة البيت ، أى أنا تراك أمكنة .

وإضافة (أقفال) إلى ضمير قلوب نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب ، أى ملازمتها لها فدل على أنها قاسية .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ﴾ [محمد] .

لم يزل الكلام عن المنافقين ، فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون ، فيجوز أن يكون مراد به قوما من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقاً ثم رجعوا إلى الكفر ؛ لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلى الاطمئنان ، وهم الذين مثلهم الله فى سورة البقرة بقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة : ١٧) والارتداد على الأدبار على هذا الوجه : تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثم ارتد فى طريقه ولما كان الارتداد سيرا على الجهة التى كانت وراء الستر ، جعل الارتداد إلى الأدبار ، أى إلى جهة الأدبار وجيء بحرف على للدلالة على أن الارتداد تمكن من جهة الأدبار كما يقال ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يس] .

والهدى : الإيمان وتبين الهدى لهم على هذا الوجه تبين حقيقى ؛ لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن بين لهم هدى الإيمان ^(١) .

(١) تفسير التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ٢٦ / ١١٤ وما بعدها ببعض التصرف .

ويجوز أن يكون به جميع المنافقين ، كما يجوز أن ينطبق الأمر على الذين ارتدوا عن معركة أحد بقيادة عبدالله بن أبي ابن سلول ، وذلك بعد أن علموا أن القتال حق .

والتسويل : تسهيل الأمر الذى يستشعر منه صعوبة أو ضرر وتزيين ما لا يحسن والإملاء : المد والتمديد فى الزمان ، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيرا ، أى أراهم الارتداد حسنا دائما ، كما حكى عنه فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةٍ الْخَلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه] ؛ أى أن ارتدادهم من عمل الشيطان .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد] .

استئناف بيانى ؛ إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتداد بعد أن تبين لهم الهدى ، فأجيب بأن الشيطان استدرجهم إلى الضلال ، عندما تبين لهم الهدى ، فسول لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر فى بعض الأمور مسولا أن تلك الموافقة فى بعض الأمر لا تنقص اهتدائهم ، فلما وافقوهم وجدوا حلاوة ما ألقوه من الكفر فيما وافقوا فيه أهل الكفر ، فأخذوا يعودون إلى الكفر المألوف حتى ارتدوا على أديبارهم ، وهذا شأن النفس فى معاودة ما تحبه بعد الانقطاع عنه إن كان الانقطاع قريب العهد .

فمعنى (قالوا) : قالوا قولا عن اعتقاد ورأى ، وإنما قالوا : ﴿ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ احترازا لأنفسهم ؛ إذ لم يطيعوا فى بعض الأمر والذين كرهوا ما نزل الله هم الذين كرهوا القرآن وكفروا وهم : إما المشركون من أهل مكة قال تعالى فيهم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد] ، وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، اشتد تعهد أهل مكة لأصحابهم من أهل يثرب ليتطلعوا إلى أحوال المسلمين ، ولعلمهم بعد يوم بدر كانوا يكيدون للمسلمين ويتأهبون للثأر منهم ، والذى أنجزوه يوم أحد .

وأما اليهود فى قريظة والنضير فقد حكى الله عنهم فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ [الحشر : ١١]
 فالمراد فى ﴿ بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ على الوجه الأول من مجمل قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آزَنُوا
 عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ ﴾ [محمد : ٢٥] إفشاء بعض أحوال المسلمين إليهم ، وإشعارهم بفساد
 عدد المنافقين ، وإن كانوا لا يقاتلون لكرهتهم القتال .

والمراد بـ ﴿ بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ على الوجه الثانى بعض أمر القتال يعنون تلك المكيدة
 التى دبروها للانخدال عن جيش المسلمين ، والأمر هو شأن الشرك وما يلائم أهله
 أى نطيعكم فى بعض الكفر ، ولا نطيعكم فى جميع الشؤون ؛ لأن ذلك يفضح
 نفاقهم ، أو المراد فى بعض ما تأمر وتنهى به من إطلاق المصدر ، وإرادة اسم
 المفعول كالخلق على المخلوق ، وأيا ما كان ، فهم قالوا ذلك للمشركين سرا فأطلع
 الله نبيه ﷺ ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ ، وقرأ الجمهور :
 أسرارهم بفتح الهمزة جمع سر ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف
 بكسر الهمزة مصدر أسر (انتهى) .

٤٣- القرآن : المجيد

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١﴾ [ق] .

﴿ ق ﴾ من الأحرف النورانية ، ولم يذكر هذا الحرف إلا مرة واحدة فى القرآن الكريم ، وسميت السورة التى بدأ بها باسمه وعرفت باسم سورة ق ، وكأكثر الحروف النورانية لم يكن ق آية مستقلة كما كان شأن: حم فى سورة الزخرف ، وقد ورد الحديث فى كثير من هذا البحث عن ماهية الأحرف النورانية فيما سبق ويأتى مباشرة القسم معطوفا على ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ﴿١﴾ ويأتى هذا القسم والحرف النورانى مشابها تماما لما ورد فى افتتاح سورة: يس بقوله تعالى : ﴿ يَسَّ ﴾ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ وكانت يس آية منفصلة .

والقسم بالقرآن يتكرر كثيرا فى كتاب الله ، فهو أى القرآن آية محكمة من آيات الله ، ويعتبر من الأعاجيب التى وقف الإنسان عاجزا عن أن يأتى بمثله أو بسور منه ، وكذلك وقف الإنسان على تكرار زمانه ، وتنوع ثقافته وعلومه أن يقبل التحدى الذى ورد فى هذا القرآن . فالقسم به متكرر لعظمته ، ووصف - كما سيأتى - بأنه لو أنزل على جبل لرآيته خاشعا متصدعا من خشية الله : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ الآية [الحشر: ٢١] . وتكرار القسم به أيضا تذكير للناس ، وإنذار لهم ، وبشرى للمؤمنين لما احتوى هذا الكتاب من هذه الأمور التى تركزت فيه من أوله إلى آخره و ﴿ الْمَجِيدِ ﴾ كما الحكيم ؛ من أسماء الله تعالى ، وقد أعطاها الله تعالى للقرآن وغيرها من أسمائه جل وعلا ، تكريما وتعظيما وتمجيذا لهذا الكتاب المجيد .

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ﴿١﴾ مقدمة لإقرار حقيقة وموقف غير عادى ، ففى قوله تعالى : ﴿ يَسَّ ﴾ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ [يس] ، ليؤكد حقيقته نبوة محمد ورسالته بعد هذا القسم .

وهنا أيضا يؤكد موقف المعاندين المشركين بقوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ﴿ موقف الذين سمعوا هذا القرآن ، وعجزوا أمام بلاغته ، ومجده وحكمته وقوته ، وحاولوا اختراق جدار العظمة بقولهم عن الرسول ﷺ شاعر ، أو كاهن ، أو ساحر . لكنهم تصاغروا عندما نفيت هذه الصفات يقينا في أذهانهم وأفكارهم عن النبي ﷺ ، انتقلوا إلى موقف آخر ؛ إذ تغشاهم العجب أن يأتي نذير لهم منهم ، ربما كانت أفكارهم بعيدة عن أحوال الرسل ، الذين ظهروا في أماكن أخرى غير دارهم وقراهم ، فأتباع موسى قريبا منهم في يثرب ، وأتباع عيسى أيضا في نجران والحبشة وحتى الشام ، لكن أن يأتي منهم نذير فهذا ما كانوا ليتوقعوه ، وكأنهم نسوا أو تناسوا نبوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وكلاهما يعيشان في عمق العقل العربي قبل التحول إلى الوثنية بفعل عمرو بن لحي ، وتناسوا أو نسوا أنهم مرتبطون بخيوط متينة بأسس الديانة الحنيفية التي دعا إليها إبراهيم ﷺ وأبوهم إسماعيل .

﴿ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ﴿ شَيْءٌ لَا يمكن أن يقع بينهم وتكرار كلمة العجب بعجبوا وإن هذا شيء عجيب ، كان منطق الكفار وديندهم كلما أخذوا بأمر غير عادي في حياتهم الرتيبة من كفرهم بالله ، وخروجهم عن دين إبراهيم وإسماعيل ، ولما جاء محمد ليقومهم أخذهم العجب كل مأخذ ، وإقرار هذا الموقف في هذه السورة يبين مدى التخبط والفوضى التي سادت حياة الكفار في مكة ، أو في جزيرة العرب عموما عند ظهور الإسلام ؛ ولذلك كانت ردة العقل منهم قاسية وعنيفة يتخللها الكبر والعجب ، وكلاهما من ضعف المنذرين ، والذين كفروا وصدوا عن ذكر الله .

٤٤- القرآن المذكر

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ١٥ ﴾ [ق].

بدأت سورة ق بالقسم بالقرآن الكريم ، وعجب الكافرين من هذا الذي أنزل على محمد ﷺ وتدرج الإنذار في آيات السورة وكذلك ذكر جهاد الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ، وإنذار للكافرين مع ذكر عظمة الله تعالى في خلقه ، والتذكير بآيات الله تعالى المبدعة مما يقع تحت ناظرهم ، وعجز المخلوقات عن كشف كنه أسرارها ، حتى يأتوا بمثلها ، أو بجزء بسيط مما تحت أيديهم . والتذكير باليوم الآخر الذي أعده الله تعالى لتجزى كل نفس بما قدمت في الحياة الدنيا كقوله تعالى: ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ١١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ١٢ ﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ١٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ١٤ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ١٥ ﴾ [ق] . تلك الآيات التي سبقت الآية (٤٥) موضوع الحديث فالآية (١) استئناف بياني ناشئ عن قوله: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فهو إيغال في تسلية النبي ﷺ وتعريض بوعيدهم ، فالخبر مستعمل مجازا في وعد الرسول ﷺ بأن الله سيعاقب أعداءه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ تطمين للرسول ﷺ بأنه غير مسئول عن عدم اهتدائهم ؛ لأنه إنما بعث داعيا وهاديا ، وليس مبعوثا لإرغامهم على الإيمان ، والجبار مشتق من جبره على الأمر بمعنى إكراهه .

وفرع عليه أمره بالتذكير ؛ لأنه ناشئ عن نفى كونه جبارا عليهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ١٦ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ١٧ ﴾ [الغاشية] ، ولكن خص التذكير هنا بالمؤمنين ؛ لأنه أراد التذكير الذي ينفع المذكر ، فالمعنى ، فذكر بالقرآن فيتذكر من يخاف وعيد ، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ تَحْشَلْهَا ١٨ ﴾

[النازعات] وكتب في المصحف وعيد بدون ياء المتكلم ، فقرأه الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف على أنه من حذف التخفيف ، وقرأه ورش عن نافع : بإثبات الياء في الوصل ، وقرأه يعقوب : بإثبات الياء في الأصل والوقف انتهى .

وهكذا فقد ختمت السورة المباركة بالقرآن مذكرا به وتعجب الكافرين منه ومن عظمت وجلاله ، واختتم بتسليية الرسول ﷺ بأن رد الكافرين وأقوالهم وأفعالهم يعلمها الله ، وهى عليهم أذى فى نار جهنم ، ويا محمد ، لست عليهم بجبار ، لا تستطيع إكراههم على أن يؤمنوا ، هذه هداية من الله تعالى لمن اهتدى ، وعمى على الذين عطلوا حواسهم عن الحقائق الماثلة فى أنفسهم وما حولهم ، ودل الله تعالى نبيه على طريق ذى أثر بالغ ، لما يحويه القرآن من تأثير جبار فى نفوس الناس وليس فقط فى نفوس الكفار ، ولكن أيضا فى تثبيت إيمان المؤمن ، وتسليتهم عن نجاحهم الساحق فى هداية الناس ومحضهم على الصبر والثبات ، فهم الذين يخافون الوعيد . يخافون الله تعالى ، ويزدادون إيمانا كلما قرؤوا هذا القرآن ومن فهم آياته ومقاصده فهم الذين يخافون الوعيد .

٤٥- القرآن الميسر

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿٥﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٤﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴿١٥﴾ فَقَالُوا أَأَبْشَرُ مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿١٦﴾ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿١٧﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿١٨﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿١٩﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا صَاحِبُهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ﴿٢٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ حَظَيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢٦﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٠﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القمر] .

سورة القمر من مطالعها إلى ختامها حلة رعية مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر ، بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة ، وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة ، كل حلقة فيها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين ، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري ، فيضغطه ويهزه ويقول له: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

وَنُذِرِ ﴿٢٦٢﴾ ، ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿٢٦٣﴾ .

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى ، فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد في الختام ، وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح ، وعاد وثمرود ، وقوم لوط وفرعون وملئه ، وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضا خاصا . يحيلها جديدة كل الجدة ، فهي تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ، يفيض منها الهول ، ويتناثر لها الرعب ، ويظللها الدمار والفرع والانبهار ، وأخص ما يميزها في سياق السورة : أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبه سريعة لاهثة لاهفة .

مكروبة يشهدها المكذبون ، وكأنهم يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها ، فإذا انتهت الحلقة وبدؤوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة بما عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً ، وهكذا حتى تنتهى الحلقات السبع فى هذا الجو المفزع الخائق ، فيطل المشهد الأخير فى السورة ، وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى ، وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة ، إنه مشهد المتقين ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿١٦﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] فى وسط ذلك الهول الراجف والفرع المزلزل ، والعذاب المهين للمكذبين ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿١٨﴾ ﴾ [القمر] .

فأين ، وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟^(١) .

تبدأ السورة بقول الله تعالى: ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ [القمر] .

لقد ثبت فى الروايات الصحيحة انشقاق القمر فى عهد رسول الله ﷺ ، وفى رواية أنس بن مالك ؓ التى رواها الإمام أحمد ، وأخرجها الشيخان - البخارى ومسلم - من طرق أخرى عن قتادة عن أنس ، ومن رواية جبير بن مطعم ؓ رواها الإمام أحمد ، ورواها ابن جرير والبيهقى من طرق أخرى .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما - روى البخارى : حدثنا يحيى بن كثير حدثنا بكر عن جعفر ، عن عراك بن مالك ، عن عبيد الله عن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال: انشق القمر فى زمان النبى ﷺ ، ورواه البخارى أيضاً ومسلم من طريق أخرى: عن عراك بسنده : السابق إلى ابن عباس ، وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك . كأن

قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه ، وروى العوفى عن ابن عباس نحو هذا . وقال الطبرانى بسند آخر: عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا سحر القمر ، فنزلت : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۖ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ۖ ﴾ .

وقال البخارى ومسلم من حديث سفيان بن عيينة ، وعن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، قال ، انشق القمر على عهد رسول الله ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة . قال فقالوا: انظروا ما يأتيكم من الأسفار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . قال : فجاء السفار فقالوا ذلك .

وكل الروايات متواترة من طرق شتى كما أوضحها صاحب الظلال ^(١) عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه فى كلمة - باستثناء رواية عن ابن مسعود أنه كان فى منى - وتحديد زمانه فى عهد النبى ﷺ قبل الهجرة - وتحديد هيئته - فى معظم الروايات أنه انشق فلقين ، وفى رواية واحدة : أنه كسف (أى خسف) ، فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين فى حينه ، ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ، فلا بد أن يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذى كانوا يمارونه فى الآيات ، لوجدوا منفذا للتكذيب ، وكل ماروى عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر فعرفوا أنه ليس بسحر ، فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه وساق صاحب الظلال بعد ذلك كلمة فى الروايات يحسن الرجوع إليها ^(٢) .

وننتقل بعد ذلك إلى تلك الصور المخيفة التى ذكرها الله تعالى عن الأقوام السالفة ، وصور العذاب التى أصابت المكذبين للأنبياء ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۖ ﴾ ومثال ذلك ابتداء : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ

(١) الظلال ٦ / ٣٤٢٦ .

(٢) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٤٢٦ - ٣٤٢٩ .

نُوح ﴿ بِالرَّسَالَةِ وَبِالْآيَاتِ ﴾ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴿ .. نوحا ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ كما قالت قريش ظالمة عن محمد ﷺ وهددوه بالرجم ، وأذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ، ونهروه بعنف ﴿ وَأَزْدُجِرَ ﴾ ، بدلا من أن ينزجروا هم ويرعوا ه .

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلفه مهمة التبليغ ، عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه ، ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۝١ ﴾ .

انتهت طاقتي ، انتهى جهدي ، انتهت قوتي ، وغلبت على أمري ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۝١ ﴾ انتصر أنت ربى ، انتصر لدعوتك ، انتصر لحقك ، انتصر لمنهجك ، انتصر أنت فالأمر لك والأمر أمرك ، والدعوة دعوتك ، وقد انتهى دورى وجاء هذا الكلام بعد دهر طويل دام ألف سنة إلا خمسين عاما . ليس يوما أو بعض يوم ولا شهرا ولا سنة ولا قرنا ، بل قرونا طويلة جدا ، أمد الله تعالى بعمر نوح كما أمد بعمر القوم الذين أرسل إليهم .

ويأتى بعد ذلك المشهد العظيم حيث قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۝٢ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝٣ ﴾ ماء السماء وماء الينابيع ليغرق الأرض وينجو نوح ومعه ، ويستمد التصور الرائع لهذا المشهد وللهلاك الذى أصاب قوم نوح ومنهم امرأته وابنه ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ ﴾ [النوح : ١٠] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] .

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والمحق الحاسم الشامل يتوجه إلى القلوب التى شهدت المشهد كأنها تراه ، يتوجه إليها بلمسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿١﴾ هذه الواقعة بملاستها المعروفة ، تركناها آية للأجيال فهل من مدكر ؟ يتذكر ويعتبر .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ ﴿٢﴾ ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذابا مدمرا جبارا ، وكان نذيرا صادقا بهذا العذاب .

وهذا هو القرآن حاضرا ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر ، فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، وكلما تدبره القلب عاد منه بزاو جديد ، وكلما صحبتته النفس زادت له ألفة وبه أنسا .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿٣﴾

وهذا هو التعقيب الذى يتكرر ، بعد كل مشهد يصور ، ويقف السياق عنده بالقلب البشرى ، يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذى حل بالمكذبين ^(١) .

ثم يأتى خبر عاد : وهو الحلقة الثانية ، أو المشهد الثانى من مشاهد التعذيب العنيف ، والمصرع الذى يقف عليه بعد وقفته على مصرع قوم نوح ، أول المهلكين ويصور الدمار والعذاب التى أصاب قوم عاد ، مشهد مفزع مخيف ، وعاصف عنيف ، والريح الذى أرسله إلى عاد هى من جند الله ، وهى قوة من قوى هذا الكون من خلق الله ، تسير وفق الناموس الكونى الذى اختاره ويسلطها على من يشاء ، بينما هى ماضية فى طريقها مع ذلك الناموس - بلا تعارض بين خط سيرها الكونى ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله صاحب الأمر وصاحب الناموس .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ ﴿٤﴾ يكررها بعد عرض المشهد ، والمشهد هو الجواب . ثم يختتم الحلقة بالتعقيب المكرر فى السورة وفق نسقها الخاص

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿٥﴾ .

ثم يمضى السياق إلى المشهد الثالث فى تولى الزمن وفى التاريخ :

﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ ۝ ﴾ إلى آخر الآيات ؛ وبعد أن كذب القوم بينهم صالحا وعقروا الناقة التى أرسلت معجزة لنبيه وآية من آياته وفتنة للذين كفروا .

فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة . ففعلت بهم ما فعلت بما جعلهم ﴿ كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ ﴾ والمحظر صانع الحظيرة وهو يصنعها من أعواد جافة ، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيمًا أو أن المحظر يجمع لماشيته هشيمًا تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة ، وهو مشهد مفرع مفرع ، يعرض ردا على تعالى والتكبر ، فإذا المتعالون المتكبرون هشيم ، وهشيم مهين كهشيم المحظر .

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا ، وهو ميسر للتذكر والتدبر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝ ﴾ .

ويسدل الستار على الهشيم المهين ، وفى العين منه مشهد ، وفى القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر^(١) ويرفع الستار عن حلة جديدة تالية - كل سبق ذكره ، قوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم ثمود ، كانوا من قدماء الأمم التى هلكت ، وقبل أن يبعث إبراهيم عليه السلام هذه الصورة الجديدة كانت حديثة جدا نسبة إلى ما سبقتها ، فقد وقعت فى حياة إبراهيم عليه السلام ، فلو ط^ط ابن أخيه هاجر معه من أور وقد آمن معه ، فأرسله الله تعالى إلى قوم سدوم فى محيط البحر الميت فى فلسطين ، قريبا من مكان استقرار إبراهيم عليه السلام بين الخليل وبئر سبع حيث تركزت حياة إبراهيم عليه السلام منطلقا منها إلى مصر ومكة .

﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ حَتَّىٰ نُنَجِّيَّهِمْ بِسَحَابٍ ۝ نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۝ ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ

مُدَكِّرٍ ۝ ﴿

وقصة قوم لوط وردت مفصلة في مواضع أخرى ، والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها ، إنما هي العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد ، ولقد ربط الله تعالى بين لوط ونوح في سورة التحريم ، بزواجهما اللتين خانتاهما وأهلكتا مع هلاك قوم نوح وقوم لوط ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم] .

وقد جرى السياق مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذنين ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ فهذا هو العذاب الذي حذرتم منه ، وهذه هي النذر التي تماريتم فيها .

وكان طمس العيون في السماء . في انتظار الصباح الذي قدره الله لأخذهم جميعا . ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ وهو ذلك العذاب الذي عجل بذكره في السياق ، وهو الحاصب الذي يطهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد ، ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع ، وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ .

ثم يحىء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾

٤٦. علم القرآن

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ﴿[الرحمن]﴾ .

سورة الرحمن مكية ، وقد ورد عن أبي جعفر بن جرير ، حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، وعمرو بن مالك البصرى . قالوا : حدثنا يحيى بن سليم عن إسماعيل بن أمية ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ : فقال: ما أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال: ما أتيت على قوله تعالى أو قول الله ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالت الجن : لا بشيء من نعمة ربنا نكذب ورواه الحافظ البزار ، عن عمرو بن مالك به ، ثم قال : لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ^(١) .

ذكر الله تعالى من أسمائه الحسنى التسع و تسعون لفظ الرحمن ليبدأ به هذه السورة ، ولجلب انتباه القارئ إلى صفة الرحمة التى خص الله تعالى بها البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وبدا بها فاتحة الكتاب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وعلى هذا الاسم قد ورد فى القرآن بعد لفظ الجلالة: الله بالاتساع والإشارة والذكر والرحمن سميت السورة باسمه تعالى: سورة الرحمن ، والتى تعتبر من السور القوية الشديدة المنذرة المبشرة ، وهى أكثر سورة فى القرآن الكريم ترددت بها آية وهى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، وأجابت الجن عندما تليت عليها هذه الآية بالقول: لا بشيء من نعمة ربنا نكذب .

فالسورة فى عمومها تذكير وإنذار وبشرى ، وبدأت بما يشابه أو يقارب السور الأخرى التى افتتحت بالأحرف النورانية ، ولكنها هنا بدأت باسم من أسماء الله تعالى الحسنى الرحمن ، وذكر الرحمن لما يتناسب بما يليه من آيات ، وخاصة ذكر القرآن ، وخلق الإنسان وتعليمه البيان ، فمن رحمة الله تعالى بالمؤمنين - وهم من

تعلم القرآن - وهم من علم القرآن . وهم من حفظ القرآن ، وهم من يتلون القرآن في صلواتهم وفي مواقفهم الرحمن جل وعلا رحمة بعباده ، ورأفة بهم ، وحثوا عليهم ، وشفقة بهم من مصائب الدنيا وعذاب الآخرة أن علمهم القرآن ، القرآن الذى هو شفاء للناس ، القرآن الذى يوازى رحمة الله تعالى ، فيكون مؤنسا معلما مبشرا ، هدى ورحمة .

علم الله تعالى القرآن وحذف هنا المقصود من علم . لكن الآيات كلها التى ارتبطت بتعليم الله تعالى عباده ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [القلم] ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء] . وكثير من الآيات التى تشير وتوضح فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أن علمهم العلم ، وخير ما يتعلم الإنسان القرآن ، كما فى قوله ﷺ : خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، فيأتى تعلم القرآن من الرحمن إلى الإنسان الذى خلقه فى أحسن تقويم وفضله على خلقه ، وسواه بيده ونفخ فيه من روحه ، واستخلفه فى أرضه ، وكرمه - هذه صفات هذا المخلوق الذى خلقه الرحمن ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ففضل على فضل وكرم على كرم ، ومنة على منة من الله تعالى الذى خلق الإنسان وعلمه القرآن ، ويؤكد تاليا بقوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ . وتأتى صفة البيان هنا من صفات القرآن أيضا فهو البليغ المتحدى ، وهى تالية لذكر القرآن الكريم ، وتصل البلاغة بالعرض أوجها ، الرحمن خالق الإنسان ، علم القرآن ، وعلم الإنسان البيان ، وتدور كلها حول المؤمنين من الإنس والجن فى هذه الآيات القصار أربع آيات فى أربعة وثلاثين حرفا وصلت أوج البيان ، وبلاغة العرض ، وشد الإنسان القارئ لهذه الآيات إلى متابعة ما عرض الله تعالى فى هذه السورة الكريمة ، حيث ينتقل بعد هذه الآيات الأربع ، نقلة ملك بها فكر القارئ وعقله ، ليقول بعد ذلك بعرض بليغ مبدع ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن] هذا هو القرآن الذى رحم الله به عباده المؤمنين أن علمهم وفهمهم ، وسهل عليهم تعليم القرآن - صاحب البيان ، الذى تحدى ببيانه الإنس والجان ، فعجزوا صاغرين ، أمام عظمة وبيان هذا القرآن .

٤٧. القرآن. الكتاب المكنون

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة] .

قال جوير ، عن الضحاك: إن الله لا يقسم بشيء من خلقه ، ولكنه استفتح يستفتح به كلامه ، وهذا القول ضعيف ، والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله جل جلاله ، يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته . ثم قال بعض المفسرين : لا ها هنا زائدة . وتقديره : أقسم بمواقع النجوم ، ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبیر ، ويكون جوابه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٦) وقال آخرون : ليست لا زائدة ، لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم ، إذا كان مقسما به على منفي ، كقول عائشة رضى الله عنها: لا والله ، ما مست يد رسول الله ﷺ امرأة قط ، وهكذا هاهنا تقدير الكلام « لا » أقسم بمواقع ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أوكهانة ، بل هو قرآن كريم .

وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ : فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد قليل : أقسم . واختلفوا في معنى قوله : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، فقال حكيم بن جبیر عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، يعنى نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا في السنين بعد ، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية . وقال الضحاك عن ابن عباس : نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام البررة الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمته السفارة على جبريل عشرين ليلة .

ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة فهو قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥) ، نجوم القرآن ، وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والسدى ، وأبو خرزة . وقال

مجاهد أيضا ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ في السماء . ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة . مواقعها ، منازلها ، وعن الحسن أيضا أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة . وقال الضحاك : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ يعني بذلك : الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ﴾ أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمة المقسم به عليه ، ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أى أن هذا القرآن الذى نزل على محمد لكتاب عظيم : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أى معظم ، فى كتاب معظم محفوظ موقر .

قال ابن جرير : حدثني إسماعيل بن موسى : أخبرنا شريك . عن حكيم - هو ابن جبير - عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٦٧) قال : الكتاب الذى فى السماء . وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٦٨) يعنى الملائكة . وكذا قال أنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، وأبو نهيك ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

وقال ابن جرير : حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور عن معمر ، عن قتادة : ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٦٩) . قال : لا يمسّه عند الله إلا المطهرون . فأما فى الدنيا فإنه يمسّه الجوسى النجس . والمنافق الرجس . وقال : وهى فى قراءة ابن مسعود : ما يمسّه إلا المطهرون . وقال أبو العالية : ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٠) ليس أتم أصحاب الذنوب . وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧١) كما قال : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٧٢) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٧٤) [الشعراء] ، وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التى قبله .

وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، وقال آخرون : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا
 الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (١) أى من الجنابة والحدث : قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب
 قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف . كما روى مسلم عن ابن عمر . أن رسول
 الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو ، واحتجوا فى
 ذلك بما رواه الإمام مالك فى موطئه . عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرو بن
 حزم : أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم أن لا يمس القرآن
 إلا طاهر ، وروى أبو داود فى المراسيل . من حديث الزهري قال : قرأت فى
 صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمس
 القرآن إلا طاهر » وهذه وجادة جيدة . قد قرأها الزهري وغيره . ومثل هذا ينبغى
 الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان
 ابن أبى العاص ، وفى إسناد كل منهما نظر . والله أعلم .

وقوله: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) أى : هذا القرآن منزل من الله رب
 العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذى لا
 مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع . انتهى (١).

٤٨- أثر القرآن فى الكون ((مثال))

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر] .

تأتى هذه الآية الكريمة تتويجا لكل ما ذكر عن عظمة القرآن الكريم وفضله وسموه ، وبأنه الكتاب الأوحى فى الكون - السماوات والأرضين - مكتملا محفوظا ، مشتملا ، كل أوامر الله تعالى ونواهيه ، مبرءا من التحريف والتزوير والتغيير والتبديل . كما أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر إلى سماوات الدنيا ، ليتكفل جبريل بتنزيله على خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ ، ولنبقى القرون والسنون والليالى والأيام على شكله ، وعلى محتواه الذى نزل به ، وتكفل الله تعالى على حفظه من كل سوء ، وما مسه عند نزوله إلا المطهرون من الملائكة ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [التين] من المؤمنين الذين مهما وصل بهم حبه وتقبله ، وترتيله فلن يصل بحال إلى ماورد وصفه فى هذه الآية الكريمة .

لو أن الجبل قد وعى بعقل وقلب ، ولم يكن جامدا صلدا ثابتا أبدا ، لو أن الجبل الشامخ القوى المرتفع الذى هو وتد من الأوتاد التى تحافظ على توازن الأرض فى سرعتها ، وتنقلها فى أبراجها حول الشمس فى العام مرة ، هذا الذى نرى من علو وارتفاع ، وتحذ لهذا الجبل لو أنه أعطى ما أعطى الإنس والجن والملائكة من نعمة التعقل والتفكر والحركة والموت والحياة ، لو أن هذا حصل فى ظرف أو مكان أو زمان ، وانتظر الجبل أمرا يكلف به ليرى مبلغ ثباته وانغراسه فى الأرض كمثله ليبقى فى توازن وثبات .

لو أن هذا حصل وأنزل عليه هذا القرآن أنزل عيه كما أنزل على محمد للناس ، وكما سمع به الجن فقالوا: ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن] لرأيت هذا الجبل الصلد ، الثابت ، الشامخ ، العالى ، المعتر بتكوينه ووظيفته ، لرأيت هذا

الجلب خاشعا . والخشوع هو الانحناء وقهر التكبر ، والتواضع ، والشعور المطلق بالعجز أمام عظمة الخالق الذى خلق الجبل والشجر والحجر والوادي والنهر ، وكل ما فى الأرض ، وكل ما فى الكون .. خاشعا بانحناء المؤمن الذى يرى عظمتة لا شىء أمام عظمة الله تعالى وقوته . خاشعا .. ضعيفا .. منحيا ، خافضا رأسه ، مسبلا عينيه ، حانيا جسمه يهم بالسجود لعظمة الله تعالى .

والشعور المطلق بعظمة هذا الكتاب القرآن الكريم ، الذى أنزل من لدن عظيم السموات والأرض ، وليس هذا فقط ، بل تراه وقد تفككت أوصاله ، وتصدعت أحجاره ، وتفتت صخوره ، وتشققت مدارجه ومسالكه ، وظهر عليه التهلك والتضعف الذى فقد قوته وتماسكه وثباته ، وبدا وبأحسن تعبير ، وأبلغ مقال ، وأسمى كلام . ﴿ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا ﴾ .

القرآن ينزل على الجبل فيخشع الجبل ويتصدع من أى شىء ؟ هل لمجرد النزول وصل الجبل إلى هذا الحال . أم أن هناك أمرا آخر ؟ أوقع فى التماسك والثبات والشموخ ألا وهو خشية الله تعالى الذى يعلم أن الفارق بين المخلوق والخالق ، درجات لا يمكن عدها أو تمثلها أو حصرها ، إنما هى متشابهات ، ولكنها فى الواقع مخلوق تحركه يد الخالق ، هذا والخشية من الجبل الذى افترض به العقل والتدبر ، وبه النطفة العظيمة التى أودعها الله الإنسان « إن فى الجسد مضغه إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله .. ألا وهى القلب » كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه خاشعا متصدعا من خشية الله تعالى والخوف منه أو الرهبة أمامه مما أودع هذا القرآن من أسرار تتكشف أنباؤها بعد حين بإذن ربها .

وهذا مثل ليعى الإنسان ما بين يديه من كتاب الله ، ليعى الإنسان عظمة هذا الذى يتداوله يوميا ويقرأه فى صلاته ، ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار .. وهو لاه أو متناس أو غير معتبر لهذه العظمة ، وهذه الروعة التى فى ثايا هذا الكتاب العظيم ، أمثال يضربها الله للناس لعلهم يتفكرون ، ولعلهم يتدبرون ولعلهم يعون هذه النعمة العظيمة التى آثر الله تعالى بها المؤمنين من أتباع محمد ﷺ الذين يتدبرون القرآن - وليس على قلوب أقفالها .

ولكن تدبر الغير عالم بكل أسرار هذا الكتاب ، ولعل الإنسان لو اكتشف كل أسرار هذه المعجزة الخالق ، فى وقت واحد لوقع مغشيا عليه ، فاقدًا كل ما وهبه الله تعالى من مدارك ، وإمكانات ، وجبروت ، ولتقطعت أوصاله بعد أن خدمته كل عمره متماسكة ، ومتناسقة ، تؤدى كل واحدة فيها وظيفتها التى تكمل بها الأخرى ، فيكتمل الإنسان . لعل الإنسان يتفكر أكثر ، ويعى أكثر ، ويفهم أكثر من عظمة هذا القرآن العظيم ، الذى لو أنزل على جبل لرأته خاشعا متصدعا من خشية الله ، فاعتبروا يا أولى الألباب ، وافهموا يا حملة القرآن ، ماذا تحملون ؟ وماذا تحفظون ؟ وماذا تتلون ؟ فهذا مثل لعلكم تتفكرون .

٤٩- ورتل القرآن ترتيلاً

﴿ يَتَأْتِيَا الْمُزْمَلُ ۝ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ ﴾ [المزمل] .

تفاوتت الآراء حول أى السور نزلت بعد الفلق .. أسورة المدثر أم سورة المزمل ؟ لأن المعنيين أو الكلمتين: المدثر ، المزمل تشيران إلى حالة النبي ﷺ بعد تلقيه الوحي فى غار حراء ، ونزول الآيات الأولى ، عاد إلى بيته خائفا يرتجف وقال: دثرونى .. دثرونى..، أو قال: زملونى .. زملونى. ، أى غطوا جسدى بشيء يعطيه الدفء والهدوء نتيجة الخوف والرعشة التى أصيب بها بعد تلقيه أول آيات القرآن الكريم . والسورتان تشيران إلى حالة إنسان خائف قد تلحف بأغطية أو أردية تقيه البرد وتحفظ جسمه من الرجفات فخطوب فى الحالتين ﴿ يَتَأْتِيَا الْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾ ، وبـ ﴿ يَتَأْتِيَا الْمُزْمَلُ ۝ ﴾ .

وقع خطأ بين يوحى بأن المدثر هى التى نزلت قبل .. إذ حادثة التدثر جاءت بعد عودته من حراء مباشرة فنزلت : ﴿ يَتَأْتِيَا الْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾ ، وكذلك التكاليف التى تلت النداء : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ ﴾ تكاليف تعتبر من أول الطريق إلى الإسلام .. إنذار الناس ، تكبير الله تعالى والاعتراف بوحدانيته ابتداء ، ثم تطهير الثياب للمثول أمام الرحمن فى الصلاة ، أو لتلقى القرآن العظيم ، وترك الرجز الذى هو عبادة الأوثان أصلا وسيكون بعد ذلك محرما .

هذه التكاليف جاءت ابتداء بعد ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾ الآيات [العلق] .

ثبت فى صحيح البخارى من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة ، عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ﴿ يَتَأْتِيَا الْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾ [المدثر] ،

وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا هو : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق] وهذا يقطع أن : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ نزلت قبل ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ مع أن ترتيبها في القرآن بعدها .

أما سورة المزمل فهي مكية . قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ، حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطي ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن حدثنا شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : اجتمعت قریش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسما فصدوا الناس عنه ، فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر : قالوا : ليس بساحر . فيتفرق المسلمون على ذلك . فبلغ ذلك النبي ﷺ فترمل في ثيابه وتدثر فيها . فاتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ثم قال البزار : معلى بن عبد الرحمن ، قد حدث عنه جماعة من أهل العلم ، واحتملوا حديثه . لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها ^(١) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ ﴾ : يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو التغطى في الليل ، وينهض إلى القيام لربه - جل وعلا - كما قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [السجدة] . وكذلك كان ﷺ متمثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبا عليه وجوه . كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء]

وها هنا يبين له مقدار ما يقوم . فقال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ ﴾ . قال ابن عباس ، والضحاك والسدي ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ يعني يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل في ثيابه . وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو متمزمل بقطيفة وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾

(١) شيء من الفقرات - مع تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ص ١٩٢٨ - ١٩٤٠ سورتا المزمل والمدثر .

قال : يا محمد زملت القرآن .

وقوله : نصفه بدل من الليل . ﴿ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أى : أمرتك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة ، أو نقصان قليل . لا حرج عليك فى ذلك . وقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ﴿ أى اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره .

وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه قالت عائشة . كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها .

وفى صحيح البخارى : عن أنس . أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مدا ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم . وقال ابن جريج ، عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة . أنها سئلت عن قراءة النبى ﷺ فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ رواه أحمد ، وأبو داود والترمذى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زر عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ . قال : يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها . رواه أبو داود ، والترمذى والنسائى من حديث سفيان الثورى به ، وقال الترمذى . حسن صحيح^(١) .

حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، حدثنا عقيل ، عن ابن شهاب : قال أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة ؓ . أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : "لم يأذن الله لشيء ، ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن" ، وقال صاحب له : يريد أن يجهر به فرد من هذا الوجه . ثم رواه عن على بن عبد الله بن المدينى ، عن سفيان بن عيينة ، ومعناه ، أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبى يجهر

(١) تفسير القرآن العظيم ص ١٩٣٠ .

بقراءته ويحسنها . وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الحشية . وذلك هو الغاية في ذلك . وهو سبحانه وتعالى : يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم .

كما قالت عائشة رضى الله عنها : سبحان الله الذى وسع سمعه الأصوات ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [يونس : ٦١] ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم . ومنه من فسر الإذن ها هنا بالأمر . والأول أولى لقوله : ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن ، أى يجهر به . والإذن الاستماع لدلالة السياق عليه .

وجاء فى حديث رواه ابن ماجه بسنده جيد عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته . وقال سفيان بن عيينة : إن المراد بالتغنى : يستغنى به ، إذا أراد : أنه يستغنى عن الدنيا ، وهو الظاهر من كلامه الذى تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره ، بخلاف الظاهر من مراد الحديث : لأنه قد فسر بعض رواته بالجهر وهو تحسين القراءة والتحزين بها .

عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال : واقتنوه وتغنوا به ، ولم يشك وهكذا رواه أحمد والنسائي فى فضائل القرآن . من حديث موسى بن على ، عن أبيه قبل ذلك .

عن المهاجر بن حبيب قال : قال رسول الله ﷺ : يا أهل القرآن لاتوسدوا القرآن . واتلوه حتى تلاوته آناء الليل والنهار ، وتغنوه واقتنوه ، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون .

حدثنا السائب قال : قال لى سعد : يا بن أخى .. هل قرأت القرآن ؟ قلت : نعم قال : غن به ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : غنوا بالقرآن . ليس منا من

لم يتغنَّ بالقرآن ، وابتكروا فإن لم تقدروا على البكاء فتباكوا .. إلخ ^(١) .

هذه أحاديث عن معانى الترتيل وما ارتبط بها من أفكار ، ولعل التأكيد على الصوت الحسن والحزن والبكاء والتغنى موجبات للتأكيد على معانى الترتيل .

ولقد جاء فى الحديث: « زينوا القرآن بأصواتكم » ، « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ، لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود ، يعنى : أبا موسى ، فقال أبو موسى : لو كنت أعلم كنت تسمع قراءتى لحبته لك تحبيرا ، وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الدقل ، ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .. رواه البغوى .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال الحسن ، وقتادة .. أى العمل به . وقيل : ثقیل وقت نزوله من عظمتة ، كما قال زيد بن ثابت . أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى ، فكادت ترض فخذى : وقال الإمام أحمد : حدثنا قتبية .. عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : هل تحس بالوحى فقال ﷺ : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فما مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض ، تفرد به أحمد .

عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل الله ﷺ كيف يأتيك الوحى .. فقال : أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال : وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول ، وقالت عائشة . ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه . وعن عائشة قالت : إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته ، فتضرب بجرانها ، الجران : هو باطن العنق .. ^(٢) .

وتمضى سورة المزمل بأيتها التاسعة عشر قبل الأخيرة التى تعادل ما يوازى نصف السورة ، ولعلها من أطول الآيات القرآنية التى نزلت بمكة ، وبعض الآراء تذكر بأنها آية مدنية لطولها ولذكر الجهاد فيها ولم يكن الجهاد قد فرض فى مكة .

(١) تفسير القرآن العظيم - المقدمة ، ص ٣٤ - ٣٦ بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ، ص ١٩٣٠ .

وآخرون يذكرون أن ذكر الجهاد في سبيل الله هو من باب ذكر الغيب الذي ذكره الله تعالى وتحقق ، كمطلع سورة الروم الذي ذكر في مكة ووقع والرسول ﷺ قد انتقل إلى المدينة .

تنتهى السورة بما بدأت به بذكر قيام الليل ومدته وشكله والمكلفين فيه ، وذكر تلاوة القرآن وهى البداية من الأعمال الأخرى ، كالسعى فى الأرض والجهاد .. وغير ذلك ، فإنه يبدأ بذكر قراءة القرآن وتؤكد تلاوته فى جزء من الآية (٢٠) من سورة المزمل .

٥٠. اقرؤوا ما تيسر من القرآن

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّنْ حُصُوهَ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۖ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل] .

تبدأ الآية بذكر علم الله - تعالى - على ما عليه المؤمنون الأولون من قيام الليل حتى شق عليهم ، وعلم الله حال غير المستطيعين على هذا القيام فمنهم من قام نصفه ومن قام ثلثه ، ومن قام أدنى أو أكثر من ذلك وبذلك فإن الله - تعالى - علم أن الرسول والطائفة المختارة معه لن تحصى تلك المدد المتفاوتة من الليل ولا الليل كله ، فأما الذين قاموا في النصف أو الثلث أو هذا وذاك فإن الله يعلم أن لن يقدروا على أن يحصوه ، يتوجه الله بعد ذلك للأمر بقراءة القرآن الكريم - قراءة ما تيسر منه . وقد قيل : إن ما تيسر منه رؤية آية ، وهذا قول غريب .

والله تعالى أمر أن يقرأ المؤمنون القرآن - سواء في القيام أو في الصلاة المكتوبة ، ولقد يسرهم الله تعالى للحياة تدبون على الأرض وتتحركون وتشغلهم أمور السعي والدنيا عن قيام الليل كله أو أى جزء منه ، فالله يعلم أن هناك مرضى لا يستطيعون القيام وهناك من يضربون في الأرض يسعون وراء أرزاقهم ويبتغون الفضل من الله - جلّت قدرته - وآخرون يقاتلون في سبيل الله .

وهنا استدلل الذين يقولون : بأن الآية مدنية ، ولكن الآية مكية ، وهى علم الله تعالى بما سيكون من الغيب وأن جندا مؤمنين سيقومون بالقتال في سبيل الله تعالى كما حصل عند الفريضة ، وتأكيذا مرة أخرى على تلاوة القرآن ، وعدم ترك هذه القراءة ، وعدم ترك الصلاة ، وهنا يبدو أن قراءة القرآن هنا بغير الصلاة ، وذلك

لذكر فريضة الصلاة مباشرة بعد ذلك مقترنة بالزكاة ، وهنا أيضا من يستدل على أن فريضة الزكاة كانت فى مكة ، ولكن مصارفها وتوزيعها كان مما نزل فى المدينة بأنه: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة] .

ويتبع إيتاء الزكاة على أن ذلك فرض يفرضه المزون لله تعالى ، ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل : ٢٠] تقديم الأمور الصالحة تكون لكم - قراءة القرآن ، إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة ، إقراض الله قرضا حسنا إلى جميع الأعمال الصالحة التى يقوم بها المؤمن ، وأخيرا أيها المؤمنون : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ... ﴾ ، فإن عليكم من الذنوب الثقال الكثير ، تكفر الأعمال الصالحة ، ومع هذا فاستغفروا الله إن الله غفور رحيم .

٥١- استماع الجن للقرآن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَا ظَنَّنا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مُلِكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدَ اللَّسَمَعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ۝ وَأَنَا ظَنَّنا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۝ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا تَحَافُتْ خِشَا وَلَا رَهَقًا ۝ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ وَالْوِ اسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءٍ غَدَقًا ۝ لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۖ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ ﴾ [الجن]

متابعة وتوضيحا لما ورد عن قضية علاقة الجن بالقرآن العظيم كما وردت في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُحِب دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

وإن سورة الجن التي شغلت فيها ثمان عشرة آية قضية استماع الجن إلى القرآن الكريم ، والتأثير الهائل الذي أثر في نفوسهم عجيب وقوى .

كما يؤكد أن رسول الله ﷺ لم يقابل الجن وجها لوجه وإنما كلمهم ولم يرهم - كما ورد في موضوع جن نصيبين الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ - وهو عائد من هجرته إلى الطائف ، وإيمان هؤلاء الجن بمجرد سماعهم القرآن .

كما يؤكد أن هذا القرآن تنقل من اللوح المحفوظ إلى الملائكة البررة الأمناء عليه إلى السماء الدنيا ، ثم نقل جبريل له إلى النبي ﷺ ، واستبعد الجن من هذه المواقع ، أو يكون لهم أى تداخل أو تواجد أو تعارض ، لما يؤكد بعد هذا الدين عن الكهانة وعلم الغيب ، وبأنه تناوب على نقله الملائكة البررة الأطهار الذين يفعلون ما يؤمرون - فقد فطروا على هذا - ويؤكد أن استماع الجن للقرآن كان من النبي ﷺ إذا أوحى الله إلى نفر منهم أن يستمعوه بعد نزوله وتداول أجزاء وآيات منه بين المسلمين وسماع الكفار له ، والذين توالى قضايا إيمانهم وتأثرهم بهذا القرآن بعد ذلك ، فجاء إحياء الله تعالى إلى الجن متأخرا ولعله في أواخر العهد المكي . وقبل أن يتدخل إبليس اللعين بنصح قريش بقتل محمد ﷺ ليلة الهجرة - كما هو مبين واضح في كتب السيرة النبوية .

﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾ الحديث للرسول ﷺ فقد أوحى إليه من ربه أن نفرا من الجن قد استمع إلى القرآن الكريم ، بأمر الله تعالى الذى بيده ملكوت كل شىء ، وبيده مقادير المخلوقات على اختلافها الملائكة والجن والإنس والشجر والجمال والبحار والكواكب ، وما حوت السموات السبع والأرضون السبع وما كان وما هو كائن وما سيكون بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شىء قدير .

أوحى الله إلى رسوله أن نفرا من الجن قد استمعوا إليه . وكانت ردة فعلهم عالية كبيرة ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝٢ ﴾ بمجرد الاستماع استخدمت كلمة ﴿ عَجَبًا ﴾ وهى صيغة المبالغة من العجيب ، أى : أنه كان بسماعنا له من قبل .. ولا بد أنهم استمعوا إلى ما أنزل إلى موسى وعيسى وإبراهيم وداود فإن كان ذاك عجيبا

فالقرآن عجا.

ثم إنهم أفادوا بسبب هذا التعجب الذى جاء على صيغة منتهى التعجب فقالوا ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ﴿٢١﴾ مجرد الاستماع أعطوا أروع صفات هذا القرآن وآثاره وتأثيره فى النفوس ، وفى العقول والأرواح فقالوا : ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ .

هذه الشهادة العجيبة من مخلوقات الجن الذين خلقوا من نار ، وترفع كبيرهم إبليس أن يسجد لآدم لأنه خلقه من نار وخلق آدم من تراب ، ولكن هؤلاء الجن تجاوزوا العقبة الكأداء التى أصابت كبيرهم إبليس بل على العكس ، انكسرت نفوسهم ، وأقروا بأن هذا الذى استمعوه يهدى إلى الرشد وهم ربما يكونون قبل الاستماع يعيشون فى الأرض فسادا ، فهى مهمتهم وما فطروا عليه ، لكن ترك الله تعالى لهم منعظا يعودون إليه كما كان كبيرهم قبل أن ينقلب على عقبيه ويرفض أمر الله تعالى بالسجود لآدم فاستحق الخزى فى الحياة الدنيا التى هبط عليها وفى الآخرة من الملعونين الخاسرين .

تجاوز هؤلاء النفر من الجن هذه العقدة ورأوا وسمعوا القرآن يهدى إلى الرشد .. فآمنوا فوراً دون عناد ودون مماثلة ، ودون جدال ودون مدافعة ، آمنوا به فوراً لمجرد سماعه ، وأقروا بوحدانية الله - تعالى - فقالوا ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ﴿٢٢﴾ عادوا إلى وحدانية الله وهديه ، بعد أن كانوا فى ضلال ميين .

آمنوا بالله الذى نزل هذا القرآن العجيب وعرفوا أن لا طاقة لأحدهما بلغ من خلق الله أن يوازى هذا الكتاب أو يأتى بآية من مثله ، وآمنوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿٢٣﴾ فى هذا الآية دلالة على أن هؤلاء الجن ربما يكونون ممن أغوى النصارى وأضلّوهم بالزوجة والولد التى اتخذوها الله تعالى ، وساعدوهم على ضلالهم وغيهم فحرفوا الإنجيل ليوافق هذا الهوى وهذا التوجه إلا أن هؤلاء الجن اعترفوا بالوحدانية وبأن الله لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ﴿٢٤﴾ وهذا دليل آخر على السفهاء منهم كانوا

يتناولون على ذات الله ، ويشاطون عن الطريق المستقيم بكلام يتقولونه على الله بأن له صاحبه وولدا ؛ أما الآن فقد آمنّا بالله وحده ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ عجيب هذا التنزيل المبارك ، لقد غطى على عقول هؤلاء النفر من الجن قبل نزول القرآن ما شاء من المعتقدات عند اليهود وعند النصارى ، كانوا يعتقدون أن الإنس والجن لا تكذب على الله ، ولكنها كذبت الإنس والجن ، فما أن تمكن الفارون من الجن أن يغفوا الإنس ويضلّوهم حتى جاء الأتباع وظنوا بأن هذا هو الصدق ، وأن الإنس والجن لن تكذب على الله لإدراكهم بأن الغاوين الذين شطوا قد ضلّوا وأضلّوهم على طريق الجن جنّ ينههم هذا القرآن الذى استمعوه ووعوه وردداهم إلى رشدهم إلى طريق الهدى والإيمان والصلاح .

وتتوالى الآيات بعد ذلك وحتى الآية (١٨) تبين الأثر الفعال الذى حدا بهؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن فانقلبوا بنعمة من الله وفضل إلى مؤمنين هداة مهديين ، دعاة إلى الله فى أقوامهم فقد انقلبوا إليهم مباشرة ليدعوهم إلى اتباع هذا القرآن .

٥٢. عدم تحريك اللسان بالقرآن

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٤﴾ [القيامة] .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات ^(١) هذا تعليم من الله - جل جلاله - لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك . فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته . فأمره الله - جل وعلا - إذا جاء الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وإن يبينه له ويفسره ويوضحه .

فالحاله الأولى: جمعه في صدره ، والثانية : تلاوته ، والثالثة : تفسيره وإيضاح معناه ، ولهذا قال : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١١) أي القرآن ، كما قال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٢﴾ [طه] . ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أي : في صدرك ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي ، أن تقرأه ، وإذا قرأناه ، أي ، إذا تلاه عليك الملك ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٣) أي ، فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١٤) أي ، بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن ، عن أبي عوانة ، عن موسى بن أبي عائشة ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه ، وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢﴾ قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٣) فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١٤) فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل

قرأه كما قرأه .

وقد روى البخارى ومسلم من غير وجه ، عن موسى بن أبى عائشة به . ولفظ البخارى فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله - جل جلاله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى التيمي ، حدثنا موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة ، وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريك شفتيه يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

وهكذا قال الشعبي ، والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد والضحاك ، وغير واحد ، إن هذه الآية نزلت فى ذلك ، وقد روى ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس : ﴿ لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان لا يفر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴿ أى نجمعه لك ﴾ وَقَرَأْنَاهُ ﴿ أى نقرئك فلا تنسى ، وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ تبين حلاله وحرامه ، وكذا قال قتادة . انتهى .

٥٣- الله منزل القرآن

﴿إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان] .

يأتى ذكر القرآن الكريم باسمه فى هذه الآية : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝﴾ آخر ذكر له فى ترتيب المصحف الشريف وبذلك ينتهى هذا الذكر بعد هذا التجوال الطويل الذى بدأ بذكر زمان نزوله فى سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [البقرة] .

ويمكن أن نرى أن المناسبين الأولى والأخيرة ليؤكدان على أن الله تعالى قد أنزل القرآن فى رمضان وختم التأكيد بأنه - جل جلاله - قد نزل القرآن على محمد ﷺ تنزيلا وهذا التوافق من معجزات الترتيب وما ورد فى هذا الكتاب من آيات بينات ، وتوافق ، وتواصل وتناغم ، وليس فى كل القرآن من متشابه ومن متناسق ومن متكرر ما يعطى فرصة واحدة لوجود أى تنافر أو تضاد بين آية منه وأخرى بل إن التواصل والتوافق والتفسير ، والإيضاح مع تباعد ورود الآيات فى ترتيب المصحف يعتبر الدلالة القاطعة على أن التنزيل من الله - جل جلاله - وأنه أنزل هذا القرآن هدى للناس ، وأنه تحفظ بجمعه ، وتفهمه للنبي ﷺ كما ورد قبل ذلك وتكفل بحفظه من تلاعب البشر أو الجن ، إذ إن الكافرين من هذين المخلوقين قد غيروا وبدلوا فيما سبق ، حتى جاء القرآن ليصحح الأخطاء ، ويبين الحقائق ، ويبطل الأباطيل ، وينير القلوب والبصائر والأبصار ، للناس ومن ثم تكفل بحفظه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر] فأنزل فى رمضان وتحديدا فى ليلة القدر كما انتهى بعد فى نهاية ترتيب المصحف دون الذكر المحقق ،

ولكنه انتهى بذكر الاسم الأوفى بالتنزيل كما ورد فى أول ذكر بالتنزيل من الله تعالى على عبده الذى اصطفى محمد ﷺ .

سبق هذا الذكر آيات تبين للمؤمنين جزاء ربهم على أعمالهم الصالحة فى آيات بينات عن ذكر الجنة ونعيمها وما أعد الله تعالى للمؤمنين فيها ويختمها بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمُ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ ﴾ [الإنسان] .

ويأتى بعد ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ۝ ﴾ [الإنسان] ولما ذكر تعالى زينة الظاهر والخلى قال بعده : ﴿ وَسَقَنَهُمُ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ ﴾ أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الردية ، كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة ، وجدوا هنالك عينين فكأنهما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما فى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى فجلت عليهم نضرة النعيم .

وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ۝ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم كقوله: ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ ۝ ﴾ [الحاقة] وكقوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجَرَّيْ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِى لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ۝ ﴾ أى جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝ ﴾ يقول الله تعالى ممثنا على رسوله ﷺ بما نزل عليه من القرآن العظيم تنزيلاً^(١) أنزله عليه منجماً فى ثلاث وعشرين سنة

بعد أن أنزله الله تعالى جملة إلى السماء الدنيا بأيدي سفرة كرام بررة ، أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ في أحوال متفرقة ، وردت في آيات أخرى أن هذا التنزيل من الله تعالى ، وتحمل النبي لهذا التنزيل وأدائه على ما أمره الله تعالى به .

ارتبط هذا القرآن بالأمينين : الأمين جبريل الذي حمله إلى محمد من اللوح المحفوظ ، والأمين محمد الذي طبع الله في قلبه هذا الكتاب وعلمه كيف يحفظه ، ويقرؤه ، ويتلوه ، ويعلمه بأمانه وإخلاص ووفاء فكان من رب العزة إلى أمين .. إلى أمين لا يمسه إلا المطهرون .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءِاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۖ ﴾ والخطاب ما زال لمحمد ﷺ الذي أنزل عليه القرآن أن يصبر لما حكم الله وبلغه هذا الحكم والذي يخالف في كثير من عادات الجاهلية ، وهذا ما أثار حفيظة الكفار فتحولوا من محبين للصادق الأمين إلى خصوم ومعادين حتى من أهله وعشيرته ، فاصبر يا محمد لحكم الله تعالى لأنه هو الحق من ربك داحضا الضلال والكفر والمعتقد .

فعليك يا محمد بالصبر .. ، وإياك أن تتبع أهواءهم . ولا تطع منهم آثما أو كفورا .. من الذين لم يعجبهم حكم الله الذي أفسد عليهم رأيهم ومعتقداتهم وأضل أعمالهم .. ، كما قال تعالى في سورة محمد .. ، وبذلك يأتي إعلام النبي ﷺ بما أراده من أحكام .. وتوضيح دين الإسلام الذي هو الدين عند الله مسفها أحلامهم ومبطلا آراءهم ، ناهيا النبي ﷺ عن اتباع أهواءهم ، أو إطاعة الآثمين أو الكافرين .. وإنما عودة إلى ما سبق فاصبر لحكم ربك . أى البديل عن إثم هؤلاء وكفرهم اتباع أمر الله الذي ورد في القرآن الكريم الذي أنزله الله عليك تنزيلا .

٥٤. القرآن والسجود

﴿ فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿١﴾ ﴿

[الانشقاق] .

سميت سورة الانشقاق لقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ ﴿١﴾ أى تشققت ، وتصدعت ، مؤذنة بخراب العالم منذرة بهول يوم القيامة .

محور السورة كالسور المكية الأخرى ، شؤون العقيدة ، وتصوير أهوال القيامة ، وقد بدئت ببيان بعض التبدلات الكونية الخطيرة عند قيام الساعة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ ﴿١﴾ .

وختمت السورة بتوبيخ المشركين والكفار والملاحدة والوجوديين وأمثالهم على عدم إيمانهم بالله تعالى وبإنذارهم بالعقاب الأليم ، والعذاب الشديد ، والتنبيه على نجاة المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ومنحهم الثواب الدائم المستمر الذى لا ينقطع ولا ينقص : ﴿ فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢﴾ ﴿

والخلاصة: أن السورة اشتملت على مقصدين :

بيان ما يلاقيه الإنسان من نتائج أعماله يوم القيامة وانحصار المصير إما فى جنات النعيم وإما فى نيران الجحيم .

ارتباط قراءة القرآن الكريم بالسجود فى آخر السورة وتأکید هذا السجود .

أخرج مسلم والنسائى : أن أبا هريرة قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ ﴿١﴾ فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله سجد فيها .

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه عن أبى رافع قال: صليت مع أبى هريرة العتمة - العشاء - فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ ﴿١﴾

فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبى القاسم (العشاء) فقراً : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ
 أَنْشَقَّتْ ﴾ فسجد . فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه . وزاد النسائي عن أبى هريرة
 نفسه قال : سجدنا مع رسول الله : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ
 أَنْشَقَّتْ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (١) .

﴿ فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فى الآية السابقة (٢٠) أنكر الله تعالى على الكفار
 استبعادهم البعث فأكد فى هذه الآية أى : فأى شىء ، أو فماذا يمنعهم من الإيمان
 بصفة البعث ، وبالقيامة ، وبمحمد ﷺ ، وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات
 الإيمان بذلك ، من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شىء ،
 والمعجزات الدالة على صدق النبى ﷺ ، وصدق الوحي القرآنى المنزل عليه .
 وهذا استفهام إنكار ، وقيل : تعجب ، أى أعجبوا منهم فى ترك الإيمان مع
 هذه الآيات .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿ أى وأى مانع لهم من سجودهم
 وخضوعهم عند قراءة القرآن الذى دل إعجازه على كونه منزلاً من عند الله
 تعالى؟! ويكون سجودهم إعظاماً وإكراماً واحتراماً لدى القرآن بعد أن علموا كونه
 معجزاً ، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة .

وقد احتج الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - بالآية على وجوب السجود فإنه ذم لمن
 سمعه ، ولم يسجد (٢) .

(١) التفسير المنير ، ٣٠ / ١٣٦ - ١٣٨ بتصرف .

(٢) التفسير المنير ، ٣٠ / ١٤٧ .

٥٥- القرآن المجيد : فى اللوح المحفوظ

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ ﴿ [البروج] .

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ أى يقدر على أن ينزل ربهم ما أنزل بفرعون ، والمحاط به كالحصور . وقيل : أى والله عالم بهم فهو يجازيهم .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ : أى متناه وفى الشرف والكرم والبركة ، وهو بيان ما بالناس حاجة إليه من أحكام الدين والدنيا ، لا كما زعم المشركون ، وقيل : مجيد أى غير مخلوق . ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أى مكتوب فى لوح ، وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه ، وقيل : هو أم الكتاب ومنه انتسخ القرآن والكتب .

وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال اللوح فى ياقوتة حمراء أعلاه معقود بالعرش ، وأسفله فى حجر فلك يقال له : (ما طريون) كتابه نور ، وقلمه نور ، ينظر الله - عز وجل - فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء يرفع وضيعاً ، ويضع ربيعاً ، ويغنى فقيراً ، ويفقر غنياً ، يحيى ويميت ويفعل ما يشاء ، لا إله إلا هو .

وقال أنس بن مالك ومجاهد : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى فى جبهة إسرافيل . وقال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش ، وقيل : اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخلقة وبيان أمورهم ، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، والأقضية النافذة فيهم ، ومآل عقوب أمورهم وهو أم الكتاب . وقال ابن عباس ، أول شيء كتبه الله تعالى فى اللوح المحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسولى واستسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر نعمائى ، كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، فليتخذ إلهاً سواى .

وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية عليه السلام يتوعده ، فكتب إليه ابن الحنفية " بلغنى أن الله تعالى فى كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة فى اللوح المحفوظ ، يعز ويذل ، ويبتلى ويفرج ، ويفعل ما يريد ، فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك ، فتتشغل بها ولا تتفرغ .

وقال بعض المفسرين: اللوح شىء يلوح للملائكة فيقرءونه .

وقرأ ابن السميع وأبو حيوه ﴿ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ على الإضافة . أى : قرآن رب مجيد .

وقرأ نافع : فى (لوح محفوظ) بالرفع نعتا للقرآن : أى بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح . الباقون (بالجر) نعتا للوح . والقراء متفقون على فتح اللام من (لوح) إلا ما روى عن يحيى بن يعمر ؛ فإنه قرآن " لوح " بضم اللام ؛ أى : إنه يلوح ، وهو ذو نور وعلو وشرف . قال الزمخشري ، اللوح الهواء ، يعنى اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح . وفى الصحاح : لاح الشىء يلوح لوحا أى : لمح . ولاحه السفر : غيرهِ : ولاح لوحا ولواحا : عطش ، والتاح مثله ، واللوح : الكتف ، وكل عظم عريض . واللوح الذى يكتب فيه .

واللوح (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض .. والحمد لله تعالى ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القدر

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ [القدر]

انظر: مبحث المدخل والمقدمة من هذا الكتاب ، مبحث رقم ٤ ، الزمان ٣ .

فصل الكتاب

١- هدى للمتقين

﴿ اَلَمْ ۙ ذٰلِكَ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيْهِ ۚ هٰدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ۝ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُوْنَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُوْنَ ۝ وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ ۝ اُولٰٓئِكَ عَلٰى هٰدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ ۚ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ۝ ﴾ [البقرة] .

قدمنا هذه الآية الكريمة في فضل القرآن الكريم ؛ وذلك للأسباب التي سقناها هناك فهي أولا: وردت في بداية القرآن الكريم بعد سورة الفاتحة وهي فاتحة سورة البقرة واسترسلنا في الحديث عن البداية ، عن الهدى ، عن المتقين ، الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة وبالأخرة هم يوقنون. والذين يؤمنون بهذا الكتاب المنزل على محمد وأيضاً طلب أن يؤمنوا بما أنزل على الرسل السابقين لرسالة الإسلام ونبوة محمد ﷺ فآمنوا ولم يترددوا ، ولم يشكوا ساعة ، وأصبح الإيمان بالرسول والكتب ركناً من أركان الإيمان عند المسلمين ، الذين وعوا حقائق الإيمان وأبعاده ، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره، فوعوا الإيمان المطلق حيث غاب عن أتباع الأنبياء السابقين بعد الجيل الأول من تحول النبي صاحب الرسالة إلى الملائكة الأعلى فغيروا وبدلوا ، وحرّفوا ، وزادوا وحذفوا ، وقدموا وأخروا ، وكتبوا كتبهم بأيديهم وعلى هواهم ، وعلى ما حوته نفوسهم من قضايا المصالح في الدنيا ، مبتعدين عن تعاليم الرسل وأوامر الله تعالى لهؤلاء الرسل ومن تبعهم ومع استمرار نهج الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ اَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَاَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ ۝ ﴾ [آل عمران] .

فالذين آمنوا من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم ومن تبعهم إلى يوم الدين ﴿ اُولٰٓئِكَ عَلٰى هٰدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ ۚ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ۝ ﴾ ^(١) ، وهم قبل هذا على هدى من الله تعالى ساروا على هذا الهدى فأفلحوا ، وأقر الله تعالى لهم هذا بقوله: ﴿ اُولٰٓئِكَ عَلٰى هٰدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ ۚ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ۝ ﴾ ^(٢)

(١) انظر : كتابنا : كتتم خير أمة أخرجت للناس .

(٢) انظر : بحث: هدى للمتقين ، من هذا الكتاب في مبحث القرآن .

٢- الذين يكتبون الكتاب

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة] فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ أَلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة] .

الكتاب هنا يعني الكتب المقدسة التي أنزلت على الأنبياء السابقين : التوراة على موسى ، والزبور على داود ، والإنجيل على عيسى عليهم السلام ، نوّمن - نحن المسلمين - بهؤلاء الرسل وجميع رسل الله الذين بعثهم للناس هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ونوّمن - نحن المسلمين - أيضاً - بالكتب التي أنزلت على هؤلاء الأنبياء ، أو على من لم يقصص الله تعالى علينا خبرهم ، وهم في علمه تعالى .

الكتب التي عنيت في هذه الآية ، أو في الآيتين معاً ؛ وفي مواقع كثيرة وغير هذه نوعان :

نوع أنزل من الله تعالى بأصله وهو كلام الله تعالى .

ونوع محرف غيره الأتباع على مر الزمان ، وهو المتداول بين الناس الآن في أية صيغة أو شكل أو مسمى ، إيماننا بالأصل قائم تماماً كإيماننا بالرسول الذين أنزلت عليهم هذه الكتب ، أمّا المتداول الآن بين أيدي الأتباع في مختلف أصقاع المعمورة فهو المعني في هذه الآيات ، محرف ، مبدل ، صلته بالأصل الاسم وبعضه لم نتأكد ما هو؟ ؛ لأن التحريف طاله كله - عدا ما يمكن أن يتوافق مع ما ورد عنه في القرآن الكريم .

والله تعالى ما تكفل بحفظ هذه الكتب وتكفل بحفظ القرآن ، فعُيّرت الكتب وبُذِلت ، وثبت القرآن في موقعه في اللوح المحفوظ - كما سبقت دلالاته في الفصل السابق ، وسيأتي إثبات دلائله أيضاً في اللاحق ، ولدينا الرغبة في أن نسوق الحديث عن هذه الكتب في بعض المواقع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم لنميزها عن القرآن الكريم لتوافق الاسم في هذا الباب ، ففي القرآن نجد لذكر القرآن تميزاً

واضحاً واسماً مخصصاً ، لكن الكتاب - وهو من أسماء القرآن الكريم - يشاركه الإنجيل والتوراة والزبور ، وابتداء فإن فهم القارئ العزيز كفيل بالتمييز في أي موضع يرد ذكر كتب السابقين ، أو ذكر كتاب الله تعالى " القرآن ، الفرقان ، الكتاب .

وتندرج في هذه الآيات:

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ﴾ أي ومن أهل الكتاب . قال مجاهد : والأميون : جمع أمي ، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة ، قال أبو العالية ، والربيع ، وقتادة ، وإبراهيم النخعي ، وغير واحد وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي : لا يدرون ما فيه . ولهذا في صفات النبي ﷺ أنه الأمي ؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَاَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت] وقال عليه الصلاة والسلام: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا » الحديث، أي: لا نفتقر في عبادتنا ومواقفتها إلى كتاب ولا حساب ، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه من جهله بالكتابة دون أبيه ، قال : وقد روي عن ابن عباس رضى الله عنهما قول خلاف هذا ، وهو ما حدثنا به أبو كريب : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمار ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزل الله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله ، وقال : قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ، ثم قال ابن جرير : وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم وذلك أن الأمي عند العرب : الذي لا يكتب ، قلت: ثم في صحة إسناد هذا عن ابن عباس بهذا الإسناد نظر ، والله تعالى أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة : ٧٨] يقول :
إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً ، وقال مجاهد : إلّا كذباً . وقال سنيّد عن حجاج
عن ابن جريح عن مجاهد : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة :
٧٨] ، قال : أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً ، وكانوا يتكلمون
بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ، أمانى يتمنونها ، وعن الحسن
البصري نحوه .

قال مجاهد : إن الأُميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب
الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون
الأباطيل كذباً وزوراً ، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ، ومنه
الخبر المروي عن عثمان بن عفان ؓ : (ما تغنيت ولا تمنيت) ، يعني : ما تحرصت
الباطل ولا اختلقت الكذب ، وقيل المراد بقوله : ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة : ٧٨] بالتشديد
والتخفيف أيضاً أي : إلّا تلاوة ، فعلى هذا يكون استثناء منقطعاً ، واستشهدوا
على ذلك بقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي تلا ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾
[الحج : ٥٢] .

وقال ابن إسحاق عن ابن عباس : ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يُظُنُّونَ﴾ [البقرة : ٧٨] أي : ولا يدرون ما فيه وهم يجحدون نبوتك بالظن ، وقال مجاهد :
﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة : ٧٨] يكذبون ، وقال قتادة وأبو العالية والربيع :
يظنون بالله الظنون بغير الحق .

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
لَيْشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [البقرة : ٧٩] . هؤلاء صنف آخر من اليهود ، وهم
الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل ،
والويل : الهلاك والدمار ، وهي كلمة مشهورة في اللغة .

وقال سفيان الثوري عن زيد بن فياض : سمعت أبا عياض يقول : ويل :
صديد في أصل جهنم ، وقال عطاء بن يسار : الويل واد في جهنم لو سيرت فيه

الجلال لماعت. وقال ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره » رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن حميد ، وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، (راجع معاني الويل) في نفس المصدر .. إلخ ^(١) .

قال الزهري : أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : (يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرأونه غصاً لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه - المنزل على أنبيائهم - وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عند مسألتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم) . رواه البخاري من طريق عند الزهري وقال الحسن بن أبي الحسن البصري . والتمني القليل : الدنيا مجذافيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة] أي : ويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ، وويل مما أكلوا به من السحت . كما قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ ﴾ [البقرة: ٧٩] يقول : فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب . ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة] يقول مما يأكل به الناس السفلة وغيرهم ^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير القرشي ، مؤسسة الريان ، مؤسسة ابن حزم ٥٦/١ فما بعدها ببعض التصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير القرشي ، مؤسسة الريان ، مؤسسة ابن حزم ٥٦/١ .

٣- كتاب الله المصدق لما سبقه

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] بِئْسَمَا آسَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقُولُوا نَحْنُ نَزَّلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ [البقرة: ٩٢] .

استكمالاً وتوثيقاً بما سبق من إشارة إلى ما سبق القرآن الكريم من كتب ، حرفها أتباعها ، وكتبوها بأيديهم ، مخالفة لكل ما أنزل الله تعالى من تعليمات ، جاء القرآن الكريم ليبين هذه الأباطيل والأكاذيب التي انطلت على أتباع الكتب (أهل الكتاب) ومن جاورهم أو عاش معهم من العرب وغير العرب ، جاء القرآن الكريم ليدحض هذه الافتراءات ويبطلها ، ويمحوها ، ويظهر لمن صدقها أو تعامل معها بطلانها ودجلها ، وفي الآيات هذه تبيان واضح لما كان بين هذه الأحداث من تظاهر وتطابق أو تنافر .

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ٨٩] يعني : اليهود .

﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وهو القرآن الكريم الذي أنزل على محمد ﷺ .

﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٨٩] يعني : من التوراة .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩] أي : وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم

من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ؛ كما قال ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري ، عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩] قالوا: كنا قد علوناهم. قهراً دهرأ في الجاهلية . ونحن أهل الشرك ، وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به .

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩] . قال : يستنصرون ، يقولون : نحن نعين محمداً عليهم ، وليسوا كذلك بل يكذبون .

قال ابن إسحاق عن ابن عباس : إن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله تعالى من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، ما هو والذي كنا نذكر لكم ، فينزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ .

وقال الصوفي عن ابن عباس: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا ﴾ يقول : يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب ، يعني بذلك : أهل الكتاب ، فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه .

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٨] . وقال قتادة : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ ﴾ [البقرة : ٨٩] قال : وكانوا يقولون : إنه سيأتي نبي . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ ﴾ [البقرة : ٨٩] وقال مجاهد : إنهم اليهود .

قال مجاهد : ﴿ بِئْسَمَا آسَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩٠] يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ما جاء به محمد ﷺ . وقال السدي : ﴿ بِئْسَمَا آسَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩٠] يقول : باعوا به أنفسهم ، يقول : بأن يبينوه بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية : ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾ [البقرة : ٩٠] ولا حسد أعظم من هذا ، قال ابن إسحاق في رواية عن ابن عباس ﴿ بِئْسَمَا آسَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾ [البقرة : ٩٠] أي : إن الله جعله من غيرهم ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ [البقرة : ٩٠] ، قال ابن عباس : في الغضب على الغضب . فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة ، وهي معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم .

(قلت) معنى ﴿ فَبَاءُوا ﴾ : استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب . وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [البقرة : ٩١] لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، كما

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [١] .
 [غافر] أي : صاغرين حقيرين ذليلين راغمين ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، عن النبي ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء ، من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له : بولس تعلموهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة : ٩١] أي : لليهود ولأمثالهم من أهل الكتاب . ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ٩١] على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه .

﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة : ٩١] أي : يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة : ٩١] يعني : بما بعده . ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة : ٩١] أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ . ﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة : ٩١] منصوباً على الحال . أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

ثم قال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٢] . أي : إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فليستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي . كما قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقال السدي : في هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ١٧٧] قال أبو جعفر بن جرير : قل يا محمد : لليهود بني إسرائيل إذا قلت لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، لم تقتلوا - إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله - أنبياء الله - يا معشر اليهود ، وقد حرم الله

في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم ، بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم ، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم ﴿ تَوَمَّنْ يُمَآ أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة: ٩١] .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِآلَيِّنَاتٍ ﴾ [البقرة: ٩٢] أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، والآيات البينات هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد ، وفرق البحر ، وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ثم اتخذتم العجل معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه ، وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [البقرة: ٩٢] أي : من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ [البقرة: ٩٢] ﴿ وَاتَّخَذُوا ظُلُمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٩٢] أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ^(١) .

٤- كتاب الله ، وأهل الكتاب

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ [البقرة : ٩٩] أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ [البقرة : ١٠١] .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي نزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك ، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبارهم وأوائلهم من بني إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماءهم ، وما حرفة أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، فاطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي ، إذا كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي ، كما قال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [البقرة : ٩٩] يقول : فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به ، غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً ، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، يقول الله تعالى في ذلك عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون .

وقال محمد بن إسحاق .. عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا الفطويني لرسول الله ﷺ : يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبتلع ، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ [البقرة : ١٠١] . وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ : وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمد ﷺ ، والله ما عهد إلينا

في محمد ، وما أخذ علينا ميثاقاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوْكُلْ مَا عَنْهُدُوا عَنْهُ نَبْدُهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة] .

وقال الحسن البصري: في قوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة] قال : نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه ، يعاهدون اليوم وينقضون غداً .

قال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ، . قال قتادة : نبذه فريق منهم ، أي نقضه فريق منهم ، وقال ابن جرير : أصل النبذ : الطرح والإلقاء ، ومنه سمي اللقيط منبذاً ، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء .

قال أبو الأسود الدؤلي :

نظرت إلى عنوانه فنبدته كنبدك نعلأً أخلقت من نعالكا

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحققها ، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذي في كتبهم نعتة وصفته وأخباره ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] ، وقال ههنا : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٠١] . أي: اطراح طائفة منهم كتاب الله بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها ، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت رعوفه في بئر ذروان . وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له: لييد بن الأعصم - لعنه الله وقبحه - فأطلع الله على ذلك رسول الله ﷺ وشفاه منه وأنقذه ، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

قال السدي: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٠١] قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة ، فخاصموه بها ، فاتفقت

التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن ، فذلك قوله : ﴿ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ . وقال قتادة في قوله : ﴿ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ [البقرة : ١٥١] قال : « إن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم نبذوا علمهم وكنموه وجحدوا به »^(١) .

تكرر في كتاب الله هذه المواقف لتحدد علاقة اليهود بالمسلمين الذين اتخذوا عداوة الإسلام منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وسبق ذلك فترة انتظار واختبار لهم وهو في مكة ، ولكن بعد أن لامس المسلمون أهل يثرب وهم من العرب الذي أسلموا أو من بقي على وثنيهم واليهود ظهرت عداوة اليهود رغم علمهم بأنه الرسول الذي ينتظرونه ، والذي ورد تفصيلاً في السيرة عند صفية بنت حيي رضى الله عنها بحديثها وهي طفلة وما جرى بين أبيها حيي بن أخطب وعمها أبي ياسر ابن أخطب من الإقرار بالتصديق ، وبأنه ﷺ هو المعني والموصوف في كتبهم ، ولكن قال حيي عندما سأله أخوه : وما العمل ؟ قال : العداوة ما حييت ، وهكذا استمر حيي بن أخطب بعداوة الإسلام ورسول الإسلام حتى قتل مع بني قريظة بعد غزوة الأحزاب .

وكشف كتاب الله ما عند اليهود من خبث وكذب ، وحسد ، وأنانية ، وكفر في كثير من آياته ، ولما ورد أو ما سبق أو ما سيلحق في آيات بينات في كتاب الله تعالى عن موقف هؤلاء اليهود والذين استمر ما بهم من حقد وكراهية ، حتى يومنا هذا والله ورسوله أعلم .

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، دار ابن حزم ١٧٦/١ ، ١٧٧ .

٥- الكتاب الحكيم : دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة] .

في رحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام من بلده: أرو في جنوب العراق وتجوّاله وبث دعوته في كل مكان حل به من بلاد الهلال الخصيب إلى أن استقر تقريباً في فلسطين - في الخليل وبئر السبع ، وهي الحد الأخير من طرف الهلال ، أراد الله تعالى في زمان التجوال ومكانه أن يرفع القواعد من البيت الحرام في مكة المكرمة حيث بناه آدم ، وأقام قواعده وشيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فكان البيت الحرام الذي أراده الله تعالى وفي تلك البقعة المباركة ، وكان عليه السلام قد أودع زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل في تلك البقعة .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ ۖ وَمَا تُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم] .

وهكذا أودع إبراهيم من ذريته مكاناً آمناً يأتيه الرزق من كل مكان إلا منه - فهو واد غير ذي زرع - وتفجر به زمزم ولم يسيل نهراً أو جدولاً ، ولكنه استقر في مكانه يسقي العطاش والحجيج منذ ذلك الوقت وحتى اليوم ، ويقدر الزمن بأربعة آلاف سنة ونيف .

واستمر إبراهيم عليه السلام بالدعاء لهذه الذرية فمنها سيكون خير خلق الله محمد ﷺ وكتاب الله الخالد: القرآن الكريم ، والأمة المسلمة وهي بكل تأكيد ويقين خير أمة

أخرجت للناس ، ففي هذه المعالم الثلاثة - الرسول والقرآن والأمة المسلمة - يبقى الخير في الدنيا مصارعاً الشر والشیطان إلى أن يورث الله تعالى الأرض عباده المتقين - وهم من المسلمين - فقد ضل الآخرون وكتب لهم الضلال والغضب من الله والفسوق الذي لازم وصفهم في القرآن الكريم في مواقع كثيرة ، ومنها وصفهم بالشقاء للحديث عن: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران] .

وفي سياق هذا الدعاء الذي رفعه إبراهيم إلى ربه وردت الآية السابقة ومجمل الدعاء ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [١١٤] وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [١١٥] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [١١٦] وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [١١٧] وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [١١٨] رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١١٩] وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [١٢٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٢١] وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٢٢] ﴿

[البقرة] .

في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٢٩] . يقول

تعالى : إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أي من ذرية إبراهيم ، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن ، كما قال الإمام أحمد : أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي ، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي ، عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » ، وقال الإمام أحمد ، وعن لقمان بن عامر ، قال : سمعت أبا أمامة قال : قلت : يا رسول الله ، ما كان أول بدء أمرك قال : دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام .

والمراد أن أول من نوه بذكره ، وشهده بين الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً مذكوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم الأنبياء لبني إسرائيل نسباً وهو عيسى عليه السلام ، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، ولهذا قال في هذا الحديث : « دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم » . وقوله : « ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . قيل : كان مناماً رآته حين حلمت به ، وقصته على قومها ، فشاع منهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة تخصيصاً للشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشريفة البيضاء منها .

ولهذا جاء في الصحيحين : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وفي صحيح البخاري : « وهم بالشام » قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] يعني : أمة محمد ﷺ فقيل له : قد استجيب لك ، وهو كائن في آخر الزمان . وكذا قال السدي

وقتادة ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ^(١) ، والحكمة يعني السنة ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني : طاعة الله . وقال محمد بن إسحاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ قال الخير فيفعلونه والشر فيتقونه ، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ، ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله ^(٢) .

(١) دعا إبراهيم ﷺ لرسول الله ﷺ أن يبعثه الله تعالى من سكان البيت ومن ذرية إسماعيل ابنه عليهما السلام ، وهذا أقصى ما دعا به إبراهيم ﷺ ، ودعا أن يرى الرسول ﷺ ويتلو على أتباعه آيات الله ومعجزاته ويعلمهم الكتاب ، هذا الكتاب الذي ذكر هنا قبل نزوله بألفين وخمسمائة سنة متجاوزاً نزول التوراة والإنجيل حيث إنهما نزلا بعد إبراهيم وقبل القرآن ، فلم يكن الدعاء لهما كما لم يكن الدعاء لمن نزلا عليهما موسى وعيسى ، ولكن المعنى محمد ﷺ ، والقرآن الكريم ويعلمهم السنة (الحكمة) ويزكيهم ليفعلوا الخير ويجتنبوا الشر .

وهذا ما تحقق برسالة محمد ونزول القرآن عليه وسن سته ، وتركى أنفسهم بالخير واجتناب الشر ، إن هذه الآية الكريمة تبين روعة ما سيكون من بعث محمد والكتاب المنزل عليه وتشكل تلك الأمة ﴿ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ولعل هذه الآية أول إشارة إلى أن القرآن الكريم محفوظ في اللوح المحفوظ قبل نزوله على النبي ﷺ ، وعلم به إبراهيم حيث أوحى الله إليه بذكره ، وذكر الرسول ﷺ بقرون طوال مما يدل على عظمة النبي ، وعظمة هذا الكتاب وما سيكون عند بعثة محمد ونزول القرآن عليه وتشكيل أمة المختارة بين الأمم . والله أعلم .

٦- المؤمنون بالكتاب

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ؕ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة] .

سبق هذه الآية خطاب للنبي ﷺ بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۚ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة] .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « أنزلت علي ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قال : بشيراً بالجنة ونذيراً من النار » .

﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ قراءة أكثرهم بضم التاء وقرأها بعضهم ﴿ تُسْأَلُ ﴾ على صفة النبي ، أي لا تسأل عن حالهم ، كما قال عبد الرزاق ، أخبرنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي ، قال: قال رسول الله ﷺ : « ليت شعري ما فعل أبواي؟ ليت شعري ما فعل أبواي؟ ليت شعري ما فعل أبواي؟ » فنزلت: ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل ، وروى بوجه كثيرة .

قال القرطبي: وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ، أي بلغ فوق ما تحسب ، وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحى له أبويه حتى آمنا به وأجبنا عن قوله: « إن أبي وأباك في النار » . قلت : والحديث المروى في حياة أبويه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها ، وإسناده ضعيف والله أعلم .

ثم قال ابن جرير.. إن النبي ﷺ قال ذات يوم : « أين أبواي ؟ » فنزلت: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ وهذا مرسل

كالذي قبله ، وقد ردّ ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب القرظي وغيره في ذلك ، لاستحالة الشك من رسول الله في أمر أبويه واختار القراءة الأولى وهذا الذي سلكه ها هنا فيه نظر لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما ، فلما علم ذلك تبرأ منهما ، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت هذا في الصحيح ، ولهذا أشياء كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة ، فقال : أجل والله إنه لموصوف بالتوراة بصفته في القرآن : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين . وأنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً) . انفراد بإخراجه البخاري ، وروي هذا الحديث في كثير من الكتب والروايات ، قال عطاء : ثم لقيت كعب الأخبار فسألته . فما اختلفا في حرف إلا أن كعباً قال بلغته : أعيناً عمومي ، وآذاناً صمومي ، وقلوباً غلوفاً^(١) .

وفي تفسير الآية الثانية : قال ابن جرير : يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ [البقرة : ١٢٠] أي : قل يا محمد : إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ [البقرة : ١٢٠] قال : خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة ، وبلغنا - ما

قال قتادة - أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » هذا الحديث مخرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو .

﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة] فيه تهديد ووعد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة ، عياداً بالله من ذلك ، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمرته ؛ وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله : ﴿ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة ، كقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكافرون وكل منهم يرث قريبه سواء كان من أهل دينه أم لا ؛ لأنهم كلهم ملة واحدة ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه . وقال في الرواية الأخرى كقول مالك ، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى ، كما جاء في الحديث والله أعلم .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] . قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : هم اليهود والنصارى ، وهو قول عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ، واختاره ابن جرير . وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله ﷺ ، وهذا القول هو الأرجح : أي أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين حفظوا كتاب الله وفهموه حق فهمه ويتبعونه حق الاتباع ، ويعملون به ويقرؤونه آناء الليل وأطراف النهار ؛ وذلك ما لم يكن لدى اليهود والنصارى الذين حرفوا كتبهم وغيروها وكتبوها بأيديهم مما لم ينزل به الله ، والكلام ينطبق على أصحاب رسول الله ﷺ الذين أخلصوا إخلاصاً شديداً لهذا الكتاب القرآن الكريم ، وهم الذين آمنوا به إيماناً لا حدود له ، مما هيأهم الله لنقل هذا الكتاب بعد ذلك إلى الأتباع حتى يومنا هذا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، أما الذين كفروا - وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم من الكافرين الخاسرين ، ومن الأقوال في هذا : عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود ، وفيه قال القرطبي وعن ابن

عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه» وقال أبو موسى الأشعري: ومن يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، وعن عمر بن الخطاب، وهم إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا بها، وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ.

يقول ابن كثير^(١): وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونهم حق تلاوته. أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين، حق إقامته، آمن بما أرسلناك به يا محمد كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]. الآية: ﴿يَتَأْهَلَّ الْكِتَابَ لَسُمُّ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: إذا أقمتوها حق الإقامة وآمنت بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، فادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة... إلخ.

٧- كتاب الله وما أنزل الله به من نعمة

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ۚ وَادْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة] .

يأتي ذكر كتاب الله تعالى في هذه الآية مدلاً على احتوائه الأحكام العامة للمسلمين ، وعلى أنه أصل عقيدة المسلمين وشريعتهم ، هو سنة النبي ﷺ في ترتيب وتوافق وتكامل ، وذكره هنا على أن هذا الكتاب مصدر التشريع الإسلامي وفيه كل ما يحتاج المسلم في حياته ، وبه إبطال العادات الجاهلية ، تثبيتاً لشرعية الإسلام ، وذكر قضايا الطلاق ، ويحسن إيراد تفسير الآية كلها للربط بين أخطاء الجاهلية ، وعقوبة العادة ، وبعض العادات التي تأصلت في حياة الناس ، وأمر الله تعالى ورسوله بترك هذه العادات ، وهجر هذه الأقوال ، وهذا حكم الإسلام الذي أنزل على محمد ﷺ محفوظاً في كتاب الله ومتداولاً في سنة الرسول ﷺ .

هذا أمر من الله عز وجل للرجال ، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة ، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه في رجعتها ، فإذا أن أمسكها ، أي يرتجعها إلى عصمة نكاحها ، بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها ، وينوي عشرتها بالمعروف ، أو يسرحها ، أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن ، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣١] قال ابن عباس ، ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد ، كان الرجل يطلق المرأة ، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ، ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة . فنهاهم الله عن ذلك ، وتوعدهم عليه فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣١] أي مخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ [البقرة: ٢٣١] قال ابن جرير عند هذه الآية، أخبرنا أبو كريب .. عن أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين ، فأناه أبو موسى قال : يا رسول الله أغضبت على الأشعريين؟ فقال : « يقول أحدكم قد طلقت ، قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين ، طلقوا المرأة قبل عدتها » ثم رواه من وجه آخر . وقال مسروق : هو الذي يطلق في غير كنهه ، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة ، وقال الحسن ، وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان ، هو الرجل يطلق ، ويقول : كنت لاعبا ، أو يعتق أو ينكح ويقول : كنت لاعبا فأنزل الله : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ فالزم الله بذلك .

وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد وعن مجاهد .. عن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ فالزم الله بذلك ، وقال ابن مردويه : حدثنا إبراهيم بن محمد .. عن ابن عباس ، قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ [البقرة: ٢٣١] . وقال رسول الله ﷺ : « من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح جادا أو لاعبا ، فقد جاز عليه » ، وهذا مرسل .

وفي رواية أخرى موقوفاً عن أبي الدرداء وعن عبادة بن الصامت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ قال : كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي ، ثم يقول : لاعبا ، ويقول : قد أعتقت ويقول : كنت لاعبا ، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من قاهن لاعبا أو غير لاعب ، فهن جائزات عليه : الطلاق والعناق والنكاح » ، والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن حبيب ابن أدرك عن عطاء عن ابن ماهيم عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة » وقال الترمذي : حسن غريب .

وقوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : في إرساله الرسول بالهدى والبيانات إليكم ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ ^(١) وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أي : يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : فيما تأكلون وفيما تذكرون ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣١] أي : فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك ^(٢) .

(١) أي ما أنزل إليكم الله تعالى في القرآن الكريم من الأحكام والتشريع ، والتوجيه الذي ارتضاه الله لكم من القضايا العامة في حياتكم ، وخاصة " القضايا الاجتماعية " .. من طلاق وزواج وعتاق وغير ذلك مما يقع تحت العلاقات العامة .

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

٨- الكتاب المنزل بالحق

﴿ التَّمَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مَن قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝ ﴾ [آل عمران] .

ورد في هذه الآيات الكريمة اسمان للقرآن .. الكتاب .. والفرقان ، وصفة من صفاته وهو كونه هدى للناس ، وقد بدأت سورة آل عمران بهذا التعبير الرباني السامي الرائع بالآية الأولى بالأحرف النورانية ﴿ التَّمَّ ﴾ آية مستقلة ثم كرر الله تعالى تعريف الخلق بذاته بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو .. وردت هذه الآية في صدر آية الكرسي . ولقد وردت أحاديث كثيرة عن فضل آية الكرسي في كتب الصحاح والسنن بأسانيدھا .. وابتداء آية الكرسي بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ ﴾ .

عن أسماء بنت يزيد بن السكن ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ ﴾ و ﴿ التَّمَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ ﴾ أن فيهما اسم الله الأعظم .. وكذا رواه أبو داود عن مسدد ، والترمذي عن علي بن خشرم ، وابن ماجه ثلاثهم عن عيسى بن يونس عن عبد الله بن أبي زياد به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وعن أبي أمامة مرفوعاً ، قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور : سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وقال هشام بن عمار خطيب دمشق أما البقرة : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وفي آل عمران ﴿ التَّمَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ ﴾ وفي طه : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۝ ﴾ [طه : ١١١] .

فقلوه: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بأن المنفرد بـ الإلهية لجميع الخلائق ﴿ الْحَيُّ

أَلْقِيَوْمُ ﴿ [آل عمران : ٢] أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره ، وكان عمر يقرأ (القيّام) فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها لا قوام لها بدون أمره ، كقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ ^(١) [الروم : ٢٥] .

وقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [آل عمران : ٣] يعني : نزل عليك القرآن يا محمد بالحق ، أي لا شك فيه ولا ريب بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ، وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء ، فهي مصدقة بما أخبرت به ، وبشرت في قديم الزمان . وهو يصدقها ، لأنه طابق ما أخبرت به ، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وأنزل القرآن العظيم عليه .

وقوله: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ ﴾ أي : على موسى بن عمران ﴿ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ أي : على عيسى ابن مريم عليهما السلام . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ أي : في زمانهما . ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال . والحق والباطل ، والغى والرشاد ، وبما يذكره الله تعالى من الحجج والبيّنات والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك .

وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان هاهنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ها هنا لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [آل عمران : ٣] وهو القرآن . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ٤] أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [آل عمران : ٤] أي يوم القيامة . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ [آل عمران : ٤] أي : منيع الجناح عظيم السلطان . ﴿ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ٤] أي: ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام ^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٩٨/١ وما بعدها بتصرف شديد .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٤٩/١ .

٩- آيات الكتاب المحكمات ((أم الكتاب))

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران] .

ذكر اسم الكتاب هنا للدلالة على ما سيأتي بعدها .. هن أم الكتاب - فذكر الكتاب للتناسق والتوافق مع ذكر الآيات اللواتي هن أم الكتاب .. ويتطرق المفسرون إلى ذلك توضيحاً وتسهيلاً وتفهيماً معاني ذكر كتاب الله تعالى بأسمائه الثلاثة القرآن والفرقان والكتاب ، وبصفاته الأخرى المتعلقة بهذا الكتاب الكريم الذي أعطاه الله تعالى صفات من أسمائه جلا وعلا ، فالقرآن الكريم . والقرآن العظيم .. وصفات متعلقة بأسماء الذات الإلهية من الهدى والرحمة والشفاء ... وغير هذا .

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات .. هن أم الكتاب ، أي : بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحُكم مُحْكَمِهِ على متشابهه عنده فقد اهتدى . ومن عكس العكس ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ أي تحتل دلائلها موافقة المحكم ، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة ، فقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ، المحكمات : ناسخه ، وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به ، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : والمحكمات قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا

بِهِ شَيْئًا ﴿ [الأنعام : ١٥١] والآيات بعدها وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] إلا ثلاث آيات بعدها ، وقيل إن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعاً في هذه الآية وهي ﴿ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] فقال أبو فاختة : فواتح السور . وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام . وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير : هن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب ، وقال مقاتل بن حيان ، لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن .

وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور . قاله مقاتل بن حيان . وعن مجاهد المتشابهات يصدق بعضها بعضاً ، وهذا إنما هو في تفسير قوله : ﴿ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَّثَانِ ﴾ [الزمر : ٢٣] هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد ، والمثاني هي الكلام في شيئين متقابلين . كصفة الجنة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك ، وأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم . وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا ، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق رحمه الله حيث قال : منه آيات محكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لهن تصريح عما وضعن عليه ، قال : والمتشابهات في الصدق ، وليس لهن تعريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل وينحرفن عن الحق ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران : ٧] أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ﴾ أي : إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم وحجة عليهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ [آل عمران : ٧] أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لأنهم لأنهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته

القاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩] وبقوله : ﴿ إِبْرَئِيلَ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصراحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلَهُ ﴾ [آل عمران: ٧] أي : تحريفه على ما يريدون . وقال مقاتل بن حيان والسدي يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن ، وقد قال الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧] إلى قوله : ﴿ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧] فقال : « فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عني الله فاحذروهم » ، رواه ابن ماجه ، ورواه محمد بن يحيى العبدى في مسنده ورواه ابن حبان في صحيحه ، وقد روى هذا الحديث البخارى عند تفسير هذه الآية ، ومسلم فى كتاب القدر من صحيحه ، قال : قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم » لفظ البخاري ، وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت : نزع رسول الله ﷺ بهذه الآية ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « قد حذرکم الله فإذا رأيتموهم فاعرفوهم » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد عن أبي غالب ، قال : سمعت أبا أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٧] قال : « هم الخوارج » وفي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال : هم الخوارج ، وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبي غالب ، عن أبي أمامة مرفوعاً فذكره .

وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين ، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة

ففاجؤوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة - بقر الله خاصرته : اعدل فإنك لم تعدل . فقال رسول الله ﷺ : « لقد خبت وخسرت ، إن لم أكن أعدل ، أيأمني على أهل الأرض ، ولا تأمنوني » فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد رسول الله ﷺ في قتله ، فقال : « دعه فإنه يخرج من ضئضى هذا - أي من جنسه قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم » .

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب ﷺ وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء ، وأهواء ومقالات ، ونحل كثيرة منتشرة ، ثم نبعت القدرية ثم المعتزلة ، ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « من كان على ما أنا عليه وأصحابي » أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة وقال الحافظ أبو يعلى أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه عنه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر : « إن في أمتي قوماً يقرؤون القرآن يشرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله . ولم يخرجوه » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] اختلف القراء في الوقف ها هنا ، ف قيل : على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء ؛ فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله . ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم .

وقال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير بسنده ، عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا أخاف على أمتى إلا ثلاث : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذوه المؤمن يتغي تأويله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنًا بِهِ ﴾ الآية ، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون » . غريب جداً .

وقال ابن مردويه بسنده عن ابن العاص رضي الله عنه . عن رسول الله ﷺ قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابهه فآمنوا به » وعن أصحاب النبي ﷺ - أنس وأبى أمامة وأبى الدرداء - أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال : « من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم » .

وقال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف والمرء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » ذكره أبو يعلى الموصلي في مسنده .

ويقال : الراسخون في العلم المتواضعون لله المتذللون لله في مرضاته ، ولا يتعاضمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من دونهم ، ثم قال الله تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران : ٨] أي : لا تعمها عن الهدى بعد إذ أقمته عليها . ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ [آل عمران : ٨] تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ١٠] .^(١)

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير - طبعة دار المعرفة - بيروت لبنان ط ١ - ١٩٨٦ - ١ / ٣٥٢ -

١٠- الذين أوتوا نصيباً من الكتاب

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران] .

ذكر الكتاب هنا ليس القرآن الكريم.. ولكن كتب من سبق التوراة والإنجيل ، وإدراجه هنا تصديقاً لما ورد في القرآن الكريم من ذكر هؤلاء الذين حرفوا كتبهم وحذفوا وأضافوا ، وحفظ الله تعالى القرآن من أن تمتد إليه يد التحريف أو الحذف أو الإضافة ، في تحد لكل الإنس وكل الجن ، وأن يأتوا بمثله أو سور منه ، أو آيات ، واشتمال ذكر لفظ الكتاب على الكتب السماوية دون غيرها من الكتب ككتب البراهمة ، أو البوذية أو غيرها ... دلالة أن الديانات السماوية مصدرها واحد ، وحكمها واحد ، ولذلك فإن القرطبي قد أجمل القول في هذا فقال ^(١) : في هذه الآية ثلاث مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: هذه الآيات نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ دخل بيت المدراس ^(٢) على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله ، فقال نعيم بن عمرو والحارث ابن زيد: على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال النبي ﷺ : إني على ملة إبراهيم فقالا: إن إبراهيم كان يهودياً ، فقال النبي ﷺ : هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه فزلت الآية . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوءة محمد ﷺ : فقال لهم النبي ﷺ : « هلموا إلى التوراة ففيها صفتي » فأبوا .

الثانية: في هذه الآية دليل على وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم لأنه دُعي إلى كتاب الله ، فإن لم يفعل كان مخالفاً يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالف والمخالف ^(٣) ، وهذا الحكم الذي ذكرناه بين في التنزيل في سورة النور في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور] إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن - ٤/ ٤٩-٥١ بتصرف .

(٢) المدراس : أماكن التعليم عند اليهود .

(٣) يقول القرطبي : إن هذا الحكم جارٍ في المغرب والأندلس وقتها وغير جارٍ في مصر .

قوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور] . وأسند الزهري عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال : « من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له » قال ابن العربي : وهذا حديث باطل ، أما قوله : فهو ظالم ، فكلام صحيح ، وأما قوله : فلا حق له ، فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه غير الحق قال ابن خويز مندان المالكي : واجب على كل من دُعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو يُعلم عداؤه من المدعي والمدعى عليه .

الثالثة : وفيها دليلٌ على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء وقبلنا على ما يأتي بيانه ، وإنما لا تقرأ التوراة ولا تعمل بما فيها ؛ لأن من هي في يده غير أمين عليها ، وقد غيرها وبدلها ، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغير ، ولم يتبدل جاز لنا قراءته ، وغير ذلك رُوي عن عمر حيث قال لكعب : إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى بن عمران ، فاقرأها ، وكان عليه السلام عالماً لما لم يتغير منها ، فلذلك دعاهم إليها وإلى الحكم بها ، وسيأتي بيان هذا في سورة أخرى (المائدة) والأخبار الواردة في ذلك إن شاء الله تعالى ، وقد قيل : إن هذه الآية نزلت في ذلك والله أعلم .

١١- من أوتي الكتاب والحكم والنبوة

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۚ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] .

الأمر عام للمرسل - عليهم السلام - الذين أنزل الله تعالى عليهم الكتاب من لدنه ليكون هدى للناس ، ونوراً وينطبق ذلك على رسولنا ﷺ وعلى القرآن الكريم ، إذ إن الأمر لأي من بني البشر أنزل الله عليه كتاباً أو صحفاً أو ما ينطبق عليه لفظ الكتاب .

قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال أبو رافع القرظي : حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام ، قالوا : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله ، أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله . وما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني » ، أو كما قال ﷺ ، فأنزل الله من ذلك : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٩] والنبوة إلى قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، فقوله : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٩] أي : ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله ، أي : مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لني ولا لمرسل ، فلئن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى ، ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا المؤمن أن يأمر الناس بعبادته قال : ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

وفي المسند والترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال : يا رسول الله ما عبدوهم ! ، قال : « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » ، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا المقام والتوبيخ ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه رسله الكرام ، وإنما ينهونهم عما ينهاهم الله عنه ، وبلغته إياه رسله الكرام ، فالرسل عليهم السلام هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك أتم القيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق .

وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران] أي : ولكن يقول الرسول للناس : كونوا ربانيين . قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد : أي حكماء ، علماء ، حلماء . وقال الحسن وغير واحد : فقهاء . وكذا روى عن ابن عباس وغيره كثير ومنهم الحسن البصري يعني أهل عبادة وأهل تقوى ^(١) .

والربانيون واحدتهم رباني منسوب إلى الرب ، والرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره ، وكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور - روى معناه عن ابن عباس ، قال بعضهم : الأصل ربي ، فأدخلت الألف والنون للمبالغة ؛ كما يقال للعظيم اللحية : لحياني ، والعظيم الجمعة جماني ، ولغليظ الرقبة « رقباني » .

قال المبرد : الربانيون أرباب العلم ، واحدتهم : ربّان من قولهم : ربّه يُربّه فهو ربان إذا دبره ، وأصلحه فمعناه على هذا يدبرون أمور الناس ويصلحونها ، والألف والنون للمبالغة كما قالوا : ريان وعطشان ، ثم ضمت إليها النسبة كما قيل : لحياني ورقباني وجماني قال الشاعر :

لو كنت مُرثَهاً في الجوّ أنزلني منه الحديث ورباني أحباري

فمعنى الرباني العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه ؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقال الضحاك : لا ينبغي لأحد أن يدع حفظ القرآن جهده ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ وقال ابن زيد : الربانيون : الولاة والأخبار العلماء ؛ وقال مجاهد : الربانيون فوق الأخبار قال النحاس : هو قول حسن ، لأن الأخبار هم العلماء ، والرباني الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة ، مأخوذ من قول العرب : رب أمر الناس يرثه إذا أصلحه وقام به . فهو رابٌّ ورباني على التكثير . قال أبو عبيدة : سمعت عالماً يقول : الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي ، العارف بأبناء الأمة . وما كان وما يكون . وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس : اليوم مات رباني هذه الأمة ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مؤمن ذكر أو أنثى حرٌّ أو مملوك إلا والله عز وجل عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه » - ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ رواه ابن عباس ^(١) .

وقال الضحاك في قوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً : ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ أي تفهمون معناه ، وقرئ : ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ بالتشديد من التعليم . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾ وتحفظون ألفاظه ، ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ أي : ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿ ٨٠ ﴾ [آل عمران] أي : لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿ ١٦٠ ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِئْهُمْ بِأَعْبَادُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، الآية . وقال : ﴿ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ ﴿ ١٦٠ ﴾ [الزخرف] ، وقال إخباراً عن الملائكة : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ [الأنبياء] .

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ٤/ ١٢٣، ١٢٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .

١٢- الإيمان بالكتاب كله

﴿ هَتَأْتُمْ أَولَاءَ نَحْبُونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران] .

اختلف المفسرون في تحديد أولئك الذين يحبهم المسلمون ، ولا يحبون المسلمين ، فقليل بأنهم المنافقون ، قاله أبو العالية ومقاتل ، والحجة هنا يعني المصافة : أي : أنتم - أيها المسلمون - تصافونهم ولا يصافونكم لنفاقهم ، وقيل : المعنى : تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر ^(١) . فهم لا يؤمنون بالكتاب أى : القرآن كله ، وإنما يؤمنون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض ، وهذه صفات المنافقين التي تكررت وتنوعت أوصافهم في القرآن الكريم يعملون ببعض الآيات من القرآن ، وينكرون آيات أخرى ، وأنتم أيها المسلمون تؤمنون بكتاب الله (القرآن الكريم) كله ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ ﴾ : أي إذا حضروا مجالسكم وهم يعايشونكم ويعيشون بينكم ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ : أي آمنّا بالإسلام وبالكتاب وبما جاء به محمد ﷺ ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عمران : ١١٩] وذلك تصديقاً لقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ تُخَذِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تُخَذِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

يَوْمَ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ [البقرة] .

وجاءت صورة أخرى لهم ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ صورة رائعة لحال هؤلاء الناس الذين يعاشونكم ، قد امتلأت قلوبهم بالكفر والحق ، فيغتاظون لأنكم آمنتم ويغتاظون لأنكم انتصرت ، ويغتاظون حين يرونكم تكثرون وهم يقلون . ويؤيد هذا الرأي أيضاً الآية التي سبقت هذه الآية وقد فسرهما ابن كثير بأنها تدل على المنافقين ^(١) ، وخلص إلى القول في ربط الآية السابقة باللاحقة ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي : قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى : ﴿ هَتَانَتْكُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا تُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي : أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً ، وتؤمنون بالكتاب كله ، أي : ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والخيرة ، قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أي : بكتابكم (القرآن الكريم) وكتابهم بما مضى من الكتب - هنا يكون المقصود وهم اليهود - كما يحكي الرأي الآخر - قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم ، رواه ابن جرير .

ويتابع الحديث كله على أن المنافقين هم المقصودون في هذه الآية الكريمة وقيل : المراد اليهود قاله الأكثر - وهو الرأي الثاني أو الآخر - والكتاب اسم جنس ، قال ابن عباس : يعنى بالكتب واليهود يؤمنون ببعض .

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٠٦ فما بعدها .

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامِنَّا﴾ أي: بمحمد ﷺ ، وأنه رسول الله ﷺ ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ يعني: أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ والحق عليكم ، فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهوروا وكثروا . والعض عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه ؛ ومنه قول أبي طالب:

يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل

وقال آخر :

إذا رأوني - أطال الله غيظهم عضوا من الغيظ أطراف الأباهيم
وواحد الأنامل (أُنْمَلَة) ويقال : بفتحها والضم أشهر .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران]
إن قيل : كيف لم يموتوا ، والله تعالى إذا قال لشيء كن فيكون ، قيل: عنه جوابان :
أحدهما: قال فيه الطبري وكثير من المفسرين هو دعاء عليهم، أي : قل يا محمد : أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا ، فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة بخلاف اللعنة .

الثاني: إن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن مات دون ذلك ، فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة ، ويجري هذا المعنى قول مسافر بن أبي عمرو :

ويتمنى في أرومتنا ونفقاً عين من حسدا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ^(١) [الحج : ١٥] .

١٣- وجوب الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذي أنزل على رسوله

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتٰبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلٰى رَسُولِهِ ءَالْكِتٰبِ الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرُسُلِهٖ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰلًا بَعِيْدًا﴾ [النساء] .

تتجلى عناصر الإيمان في هذه الآية الكريمة بأسلوب مبدع معجز ، مرتب مسترسل ، متناسق متوازن ، وإن كان واحدة من الإيمان - وهي الإيمان بالقدر خيره وشره - لم ترد هنا ، لكنها مفهومة من السياق العام للآية .

وخصص الإيمان بالله تعالى بعد ندائه للمؤمنين ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا﴾ لتحقيق إيمانكم كمخاطبين به أن تؤمنوا بالله تعالى - رأس الإيمان ثم رسوله - من الرسل - والذي سيتكرر معهم بعد إفراده هنا ، وكذلك الكتاب الكريم - القرآن العظيم - والذي أفرده أيضاً ثم كرره مجملاً مع الكتاب الذي أنزل من قبل على أنبيائه السابقين ، ثم يهيم النفوس المؤمنة مذكراً بإياها بأن من كفر بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر - وكتبه التي سبقت فقد ضل ضلالاً بعيداً .

إنه الأسلوب القرآني المعجز المبدع الذى انفرد دون كلام آخر سبقه أو لحقه بهذا البيان العجيب البديع ، والدعوة إلى عناصر الإيمان هذه هي ما أجاب بها نبي الله تعالى جبريل عليه السلام عندما سأله عن الإسلام فأجاب وصدق جبريل - وعجب الصحابة رضوان الله عليهم - يسأله ويصدق . ثم عن الإيمان ، فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . فقال : «صدق» صدق رسول الله ﷺ وصدق الله العظيم في هذا النداء لعباده المؤمنين ، حيث خصهم بالنداء وخصهم بالإيمان بهذه العناصر الهامة . نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين ، والمعنى : يا أيها الذين صدقوا ، أقيموا على تصديقكم واثبتوا عليه ﴿وَالْكِتٰبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلٰى رَسُولِهِ﴾ أي القرآن ﴿وَالْكِتٰبِ الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾

أي: كل كتاب أنزل على النبيين .

وقيل: نزلت فيمن آمن بمن تقدم محمداً ﷺ من الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : إنه خطاب للمنافقين ؛ والمعنى على هذا يا أيها الذين آمنوا في الظاهر أخلصوا لله ، وقيل : يراد المشركون ؛ والمعنى : يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى والطاغوت آمنوا بالله . أي صدقوا بالله وبكتبه ^(١) .

إن نداء يا أيها الذين آمنوا : خصص الله تعالى المؤمنين من المسلمين وفي الخمسة وثمانين نداء في القرآن ، والتي أنزلت جميعاً في المدينة كانت الغاية منهم خطاب الجماعة المؤمنة التي تميزت عن غيرها من الجماعات والفئات وقد ذكر الله تعالى تلك الفئات ، بأسمائها التي عرفت بها وتكررت في كثير من الآيات مثل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤] ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون] . ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] . ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] . ﴿يَبْنَىءَ إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠] . فإن ما ورد أنها نزلت في المنافقين والمشركين فيها كثير من تحميل الآية الكريمة ما لا تحتمل ولكنها تؤخذ على لفظها المتكرر نيفاً وثمانين مرة كما ذكرت للمؤمنين من أتباع النبي ﷺ الذين خصهم الله تعالى بهذه الصفة وهذه النداءات ، ولو رجعنا إليها جميعاً لكانت نداء لهؤلاء - وليست هذه وحدها تشد عليهم ، وتحتمل أن تكون قد انفردت بهذا اللفظ - والله تعالى أعلم .

١٤- موقف المؤمنين من المستهزين بآيات الله

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء] .

نهى الله المؤمنين جميعاً سواء كانوا صادقي الإيمان أو متظاهرين به وهم المنافقون عن الجلوس في مجالس الكافرين الذين يستهزؤون بآيات الله . فلا تسمعوا لهؤلاء ولا تقعدوا معهم حتى يتكلموا في حديث آخر ، فإنكم إن قعدتم معهم كنتم شركاء لهم في الكفر ، لرضاكم بكلامهم ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨] .

وسبب النهي أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزؤون به ، فنهى المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه ، وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين فنهوا أن يقعدوا معهم ، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ، وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون فقليل لهم: إنكم إذا مثلُ الأحبار في الكفر ، وفي هذا إيماء إلى أن الساكت عن المنكر شريك في الإثم .

ثم أوضح الله تعالى عاقبة الجميع ، فقرر أن الله تعالى جامع المنافقين والكافرين جميعاً في جهنم ، يعني القاعدين والمقعود معهم ، فإنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا ، سيجمعون في العقاب يوم القيامة ؛ لأن من رضى بالشئ حكمه حكم المرتكب له تماماً .

ثم بين الله تعالى بعض أحوال المنافقين ، وهى أنهم ينتظرون ما يحدث للمؤمنين من خير أو شر^(١) أنزل الله تعالى هذا الحكم في كتابه العزيز في القرآن الكريم تبياناً لأحكام المؤمنين الذين يجلسون مع من يستهزئ بآيات الله ، بذلك حرم الله

(١) التفسير المنير : د . وهبة الزحيلي ٣٢١/٥ .

الجلوس في مجالس الكفرة الذين يستهزؤون بآيات الله (القرآن) ، والخطاب في قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [النساء : ١٤٠] عام لجميع من أظهر الإيمان من محق ومنافق ؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله ، وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود ، فيسخرّون من القرآن .

ودل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أى الكفر ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر ؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضي مقامهم . والرضا بالكفر كفر ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء ، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم ، فينبغي أن يقوم عنهم ، حتى يكونوا من أهل هذه الآية .

وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي ، فتجنب أهل البدع والأهواء أولى^(١) .

١٥- أهل الكتاب - يسألون النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء] .

سألت اليهود محمداً ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة ؛ كما أتى موسى بالتوراة تعنتاً له ﷺ ؛ فأعلم الله عز وجل أن آباءهم قد عتوا موسى ﷺ بأكبر من هذا ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي عياناً ، وجهرة نعت لمصدر محذوف أي: رؤية جهرة فعوقبوا بالصاعقة لعظم ما جاؤوا به من السؤال ، والظلم بعد ما رأوا من المعجزات .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾ في الكلام حذف تقديره : فأحسناهم فلم يبرحوا فاتخذوا العجل ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي البراهين والدلائل والمعجزات الظاهرات من اليد والعصا ، وخلق البحر وغيرها ، بأنه لا معبود إلا الله عز وجل ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ﴾ ، أي عما كان منهم من العنت ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ أي حجة بينة ، وهي الآيات التي جاء بها ، وسميت سلطاناً ؛ لأن من جاء بها قاهر بالحجة ، وهي قاهرة للقلوب ، بأن تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا بمثلها ^(١) .

أخرج ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح حتى نصدقك ، فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُبْنًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ فَجِئْنَا رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَلَا عَلَى مُوسَى وَلَا عَلَى عِيسَى وَلَا عَلَى

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/٧٠٦ .

أحد شيئاً فأُنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وروي أن كعب بن الأشرف ، وفنحاص بن عازوراء وغيرهما قالوا لرسول الله ﷺ : إن كنت نبياً صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى ، فنزلت ، وقال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به .

ومن المعلوم عند المفسرين أن اليهود سألت محمداً ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه ، فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى بالتوراة ، تعنتا له ﷺ ، فأعلم الله عز وجل أن آباءهم قد عنتوا موسى ﷺ بأكبر وأعظم من هذا ؛ فقالوا : ﴿ أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي : عياناً .

والآية مرتبطة بما قبلها ، فموضوعها أهل الكتاب . وكانت الآيات السابقة تبياناً لكفرهم ، إذ قالوا : نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض ، وهذه الآيات تدل على تعنتهم ومطالبتهم بأشياء على سبيل العناد والإلحاد^(١) ، ومن دلالة الآية وما سبقها:

١- إن أخلاق اليهود وطباعهم وعرة صعبة غريبة ، فهم لا يذعنون للحق ، وإنما يجادلون فيه . وينحازون عنه إلى المطالبة بأمور على سبيل التعجيز والإلحاد والعناد والمراوغة والتعنت ، فقد سألو النبي ﷺ إنزال الكتاب مكتوباً من السماء دفعة واحدة إلى فلان وفلان يؤيد ما يدعيه ويصدقه فيما يقول ، تعنتاً كما أتى به موسى ، وطلبوا من موسى أن يريهم الله تعالى رؤية جهرية عياناً .

واتخذوا العجل إلهاً بالرغم من الأدلة القاطعة التي أيد الله تعالى بها موسى ﷺ من اليد والعصا وخلق البحر وغيرها التي تدل على أنه لا معبود إلا الله عز وجل .

٢- لا يخضع اليهود إلا إلى المادة ، لذا ألزمهم الله تعالى إطاعة التوراة وإطاعة موسى برفع الجبل فوقهم كأنه ظلة لتخويفهم .

٣- إنهم محتالون مخادعون ماكرون ، فقد أمرهم باحترام يوم السبت وعدم

العمل فيه ، فاحتالوا على صيد السمك بوضع حواجز على سواحل البحار يوم الجمعة ، يبقى فيها السمك الآتي بالمد البحري حينما - ينحسر عنه الجزر .

٤- إنهم ينقضون العهود ويخالفون المواثيق ، فقد أخذ الله عليهم العهد المؤكد على العمل بالتوراة ، ثم نقضوا الميثاق ، وخالفوا مقتضى العهد بجرأة نادرة ^(١) .. والكثير ... والكثير من الصفات المتسمة بالظلم والكفر وقتل الأنبياء والخروج عن أوامر الله .

١٦- مقاصد القرآن الكريم: كتاب الله تعالى العظيم

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾﴾ [المائدة].

سبب نزول هذه الآيات: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥] أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال: إن نبي الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم ، فقال: أيكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن سوريا ، فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى ، والذي رفع الطور ، والمواثيق التي أخذت عليهم ، حتى أخذت (أفكل) رعدة من الخوف ، فقال : لما كثر فينا جلدنا مائة ، وحلقنا الرؤوس ، فحكم عليهم بالرجم ، فأنزل الله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥] إلى قوله: ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة] بعد أن حكى الله تعالى عن اليهود والنصارى نقضهم العهد وتركهم ما أمروا به . دعاهم عقيب ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ . وهذا من دلائل نبوته ﷺ وهو من معجزات القرآن المتعددة في نواحيه .

والبيان ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥] وهم اليهود والنصارى ووجد الكتاب لأنه خرج مخرج الجنس. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض ، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل ووصف الهول هنا بصفتين :

الأولى: أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون ، قال ابن عباس ، أخفوا صفة محمد ﷺ ، وأخفوا أمر الرجم ، وعفا عن كثير مما أخفوه ، فلم يفضحهم بيانه . ثم إن الرسول ﷺ بين ذلك لهم ، وهذا معجز ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً من أحد . فلما أخبرهم بأسرار ما في كتابهم كان ذلك إخباراً عن الغيب - فيكون معجزاً .

الصفة الثانية: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي لا يظهر كثيراً مما تكتُمونه أنتم ، وإنما لم يظهره ؛ لأنه لا حاجة لإظهاره في الدين . وهذا يدعوهم إلى ترك الإخفاء لئلا تفتضحوا ، ولقد كان بيان القرآن لما كتموه سبباً في إسلام كثير من أحبارهم .

فالصفة الأولى: أنه يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه واقتروا على الله فيه

والصفة الثانية: أنه يسكت عن كثير مما غيروا ، ولا فائدة في بيانه . وروي الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب .

قوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه ثم قال : صحيح الإخراج ولم يخرجاه أى الشيخان (البخارى ومسلم) .

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم بأنه كتاب واضح وأن محمداً ﷺ نور ، أو الإسلام نور ، فالمراد بالنور محمد ، وبالكتاب : القرآن ، وقيل: إن المراد بالنور الإسلام ، وبالكتاب القرآن ، والقول بين في نفسه ، مبين لما يحتاج إليه الناس لهدايتهم ^(١) .

ثم قال تعالى فيما معناه: يهدي بالكتاب من أراد اتباع الدين الذى يرضى الله تعالى يهديهم طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ، وينجيهم من المهالك بإذنه ، أي بتوفيقه ، فيخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ويرشداهم إلى أوضح الطرق . وهو الدين الحق ؛ لأن الحق هو واحد لذاته ، وطريقه مستقيم واحد ، أما الباطل فله شعاب كثيرة وكلها معوجة .

أي أنه تعالى ذكر للقرآن ثلاث فوائد أو مقاصد :

- ١- أن المتبع لما يرضى الله يهديه إلى الطريق المؤدى إلى النجاة والسلامة من الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة ؛ لأنه دين الحق والعدل والإخلاص والمساواة .
- ٢- أنه يخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والشرك والوثنية والوهم والخرافة إلى

نور التوحيد الخالص .

٣- أنه يهدي إلى الطريق الموصل إلى الهدف الصحيح من الدين وإلى خيري الدنيا والآخرة . النبي محمد ﷺ نور كشف زيف أهل الأديان الأخرى ، فهو يبين لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ما يخفونه من كتبهم من الإيمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة ، فإنهم كانوا يخفونها ، وهو ﴿ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي : يتركه ولا يبينه ، وإنما يبين ما فيه حجة على نبوته . ودلالة على صدقه وشهادة برسالته ، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبيينه ، فهو مترفع لا فائدة منه .

والقرآن الكريم يبين الأحكام وما رضىه الله من طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة ، والمؤمن من كل مخافة ، وهي الجنة ، ويخرج المؤمنين به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإسلام والهدايات بتوفيقه وإرادته ويرشد إلى الدين الحق ^(١) .

١٧- الحكم بما أنزل الله في الكتاب

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۚ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ ﴾ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

أسباب نزول الآيات (الآية ٤٩)

روي ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسيد ، وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فجاؤوه فقالوا : يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم ، وإننا إن اتبعناك اتبعتنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة ، فنحاكمهم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ، فأبى ذلك ، وأنزل الله فيهم ﴿ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَقَوْمٌ يُوفُونَ ﴾ ۝ .

﴿ أَفْحُكُمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

فيه كما قال الزمخشري وجهان :

أحدهما: أن بني قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى ، وروى أن رسول الله ﷺ قال لهم: القتلى سواء فقال بنو النضير : نحن لا نرضى بذلك . فنزلت الآية .

الثاني: أن يكون تعييرا لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم ، وهم ييغون حكم الملة

الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ، ولا يرجع إلى وحى من الله تعالى .

وعن الحسن : هو عام في كل من يبغى غير حكم الله ، والحكم حكمان : حكم بعلم فهو حكم الله ، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان . وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض ، فقرأ هذه الآية .

أما المناسبة .. فبعد أن ذكر الله تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه والإنجيل الذي أنزله على عيسى كلمته ، وذكر ما فيهما .. من هدى ونور ، وأمر باتباعهما حيث كانا سائغى الاتباع ، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، وأبان منزلته من الكتب المتقدمة قبله ، وأن الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر بحسب الأحوال والأزمان ^(١) .

وتفسير الآيات : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ أيها النبي القرآن الكريم الذي أكملنا به الدين مشتملاً على الحق والصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : ٤٢] مصداقاً ومؤيداً للكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل ، المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وإنما تلك الكتب من عند الله ، وأن موسى وعيسى رسولان من عند الله لم يفتريا على الله كذباً وإنما أنتم وآباؤكم حرفتم ونسيتم كثيراً مما أوتيتم ، والقرآن أيضاً جاء مهيمناً ، أي حاكماً على ما قبله من الكتب ، وشاهداً عليها بما نزل فيها وشاهداً لها بالصحة والثبات في أصلها ، ومبيناً حقيقة أمرها وما طرأ عليها من نسيان وتحريف وتبديل .

قال ابن عباس وابن جريج وآخرون : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ القرآن أمين مؤتمن على ما تقدمه من الكتب ، فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر إن كان في القرآن فصديقوا ، وإلا فكذبوا ^(٢) .

(١) التفسير المنير ٦/ ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٧٢ .

وإذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته ، فاحكم يا محمد وكذا كل حاكم ، بين أهل الكتاب وبين الناس قاطبة ، احكم بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام ، دون ما أنزله إليهم ، إن شريعتك ناسخة لشريعتهم ، احكم بما في هذا الكتاب العظيم وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخ في شرعك ، ولا تتبع أهواءهم أي آراءهم التي اصطلحوا عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ، ولا تنصرف ولا تمل ولا تعدل عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء ، وما أحدثوا من تحريف وتبديل لحكم الرجم والقصاص في القتل والبخسة بالبشارة بمحمد رسول الله ﷺ وغيرها .

ثم استأنف الله تعالى الكلام فقال : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، أي : لكل أمة من الأمم جعلنا شريعة أوجبنا عليها إقامتها أحكامها ، ومنهاجاً وطريقاً واضحاً فرضنا عليها سلوكه ، حسبما تقتضي أحوال المجتمعات وطبائع البشر واستعداداتهم وتطور الأزمان ، وإن كانت تلك الشرائع متفقة في أصول الدين وهي توحيد الله وعبادته وحده ، وفي أصول الأخلاق والفضائل .

قال الألوسي عن آية : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ استئناف جيء به لحمل أهل الكتاب من معاصريه ﷺ بما أنزل الله تعالى إليه من الحق ببيان أنه هو الذي كلفوا العمل به دون غيره مما في كتابهم ، وإنما الذي كلفوا العمل به : من مضى قبل النسخ . والخطاب - كما قال جماعة المفسرين - للناس كافة . الموجودين والمارين بطريق التقلب .

فلكل أمة من الأمم الباقية والخالية وضعنا شريعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة ، لا تكاد أمة تتخطى شرعتها . والأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام ، شرعتهم . ما في التوراة . والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث أحمد عليهما السلام ، شرعتهم ما في الإنجيل ؛ وجميع أمم أهل الأرض من مبعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة شرعتهم الوحيدة المقبولة عند الله : ما في القرآن ، ليس إلا فآمنوا به واعملوا بما فيه ^(١) ، لأن محمداً ﷺ خاتم النبيين وهو رسول الله إلى الناس كافة . وشريعته أكمل الشرائع وأوفاهما ، وقرآنه هو الكتاب الوحيد الباقي للبشرية

دون تغيير ولا تبديل ، وثابت ثبوتاً قطعياً يقينياً لا شك ولا ريب فيه ، والشرعة أو الشريعة عرف ثابت ثبوتاً قطعياً يقينياً لا شك ولا ريب فيه ، والشرعة أو الشريعة عرفاً ، هي الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل ، وينسخ اللاحق منها السابق . والدين ، هو: الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء .

ثم خاطب الله تعالى جميع الأمم ، وأخبر عن قدرته الفائقة أنه لو شاء لجعل الناس كلهم على دين واحد وشرعة واحدة لا يُنسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ؛ إذ لا تصلح شريعة واحدة لكل الأزمان والشعوب بسبب تفاوتهم في الرقي والنضج العقلي ، فلما تقاربت البشرية شرع لها شريعة واحدة ، وأن الهدف من تشريعه شرائع مختلفة ، هو اختبار عباده فيما شرع لهم ، لينظر الطائع فيثيبه والعاصي فيعاقبه .

ثم ندب الله تعالى الناس إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها ، فقال: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي ابتدروها وتسابقوا نحو الطاعات ، وتنافسوا في طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله ، وصدقوا تصديقاً يقينياً بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ، وذلك كله لخيركم وصلاحكم ، ولإحراز الفضل والرضا الإلهي ، فإلى الله معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ، فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزي الصادقين بصدقهم ، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق ، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان .

ثم أكد الله تعالى ما تقدم من الأمر بالحكم بما أنزل الله ، فقال: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أي ألزمتك الحكم . بالمنزل عليك ولا تتبع أهواء المعاندين ، واحذر أعدائك اليهود أن يضلوك عن الحق ، ويدلسوا عليك فيما يخبرونك من أمور ، فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرّة خونة ومعنى ﴿ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] عن كل ما أنزل الله إليك ، والبعض يستعمل بمعنى الكل ، وقال ابن العربي : والصحيح أن ﴿ بَعْضِ ﴾ على حالها في هذه الآية . وأن المراد به الرجم .

فإن أعرضوا عما تحكم به بينهم من الحق ، وخالفوا شرع الله ، فلا تبال بهم ، واعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى ، بسبب ما

لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت اختلافهم ونكالمهم ويريد الله أن يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة ببعض ذنوبهم ، وهو التولي والإعراض عن حكم الله وشرعه وعمّا تحكم به ، وقد تحقق ذلك العذاب بسبب عذر اليهود ، فأجلّى النبي ﷺ بني النضير عن المدينة ، وقتل بني قريظة . أما بقية ذنوبهم الكثيرة فيعاقبون عليها بعذاب أليم في الدار الآخرة .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [١١] أي متمرّدون في الكفر مخالفون للحق وحائدون عنه . وخارجون عن حدود الشرع والدين والعقل . وفي هذا مواساة وتسليّة للنبي ﷺ على عدم قبولهم الحق الذي جاء به .

ثم ندد الله تعالى باليهود الذين يريدون التمييز بين القتلى بحسب نوع القبيلة ويريدون تحكيم أهواء الجاهلية مع أنهم أهل كتاب ، فوجه هذا الاستفهام الاستنكاري لهم ولأمثالهم بقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] أي أيتولون عن قبول حكمك بما أنزل الله ، وهو الحق والعدل والصواب ، ثم يطلبون حكم الجاهلية القائم على الجور والظلم والهوى ، فهذا توبيخ وتعجب من حالهم ، وإنكار على كل من خرج عن حكم الله المشتمل على الخير وكل الخير ، إلى ما سواه من الآراء والأهواء ، كما أن أهل الجاهلية يحكمون به الضلالات والجهالات التي يضعونها بأرائهم المعوجة وأهوائهم الطائشة .

هذا الخطاب في الآية ، وهذا الاستفهام والتعجب والإنكار إنما هو موجه لقوم يوقنون بحقيقة الدين ويذعنون لشرع الله ، ويدركون أنه لا عدل من الله ولا أحسن حكماً منه ، وفسره القرطبي فقال : لا أحد أحسن من الله حكماً (نصب على البيان والتمييز) عند قوم يوقنون .

ودلت الآيات بتميز القرآن الكريم على سائر الكتب ، وبما بين هذه الكتب من أصل واحد وهي منزلة من الله تعالى ، والآيات تشير إلى دلالات :

أولاً: هناك جو التقاء واضح بين القرآن وما تقدمه من الكتب كالطورا والإنجيل لأن هذه الكتب وصفت كلها بأنها هدى ونور ، ونواحي الالتقاء هي في أصول الاعتقاد كتوحيد الإله وربوبيته وإثبات النبوة والمعاد . وفي أصول الأحكام

التشريعية كعبادة الله تعالى والصوم والصلاة والزكاة ، وأصول الأخلاق والفضائل كالأمانة والصدق وتحريم الزنا والسرقة وجرائم العرض ، وذلك كله في التوراة والإنجيل الأصليين المنزلين على موسى وعيسى عليهما السلام .

إلا أن القرآن وإن جاء مصداقاً ومؤيداً لتلك الكتب في أصول الشرع والدين المذكورة ، إلا أنه حكم عليها ومهيمن على ما جاء بها ، فلا يعمل بحكم فيهما عارض القرآن .

ثانياً: إذا ترفع أهل الذمة إلينا وجب الحكم بينهم بشريعة الإسلام ، لا بشرع سابق ، للآية: ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨] قيل : هذا نسخ للتخيير السابق في قوله تعالى : ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٢] . وهذا رأي الجمهور ، وقال الشافعية لا تعارض بين الآيتين . ولا حاجة للنسخ : لأن الآية الأولى في المعاهدين ، والثانية في الذميين .

ثالثاً: النبي ﷺ وكل مسلم منهى ومحرم عليه أن يترك الحكم بما بين الله تعالى من القرآن من بيان الحق وبيان الأحكام .

رابعاً: الله قادر على توحيد الشعوب والأمم والجماعات ، وجعلهم على ملة واحدة وعقيدة واحدة ، وشريعة واحدة ، فكانوا على الحق ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت جعل الشرائع مختلفة للاختيار .

خامساً: المبادرة إلى الطاعات والتنافس في فعل الخيرات سمة الاتقياء الصالحين ، ودل قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [المائدة: ٤٨] على أن تقديم الواجبات أفضل من تأخيرها ، وذلك لا اختلاف فيه في العبادات كلها ؛ إلا في الصلاة في أول الوقت ، فإن أبا حنيفة يرى أن الأولى تأخيرها ، وعموم الآية دليل عليه . وفيه دليل أيضاً على أن الصوم في السفر أولى من الفطر .

سادساً: في قوله تعالى : ﴿ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ ﴾ دليل على جواز النسيان على النبي ﷺ ؛ لأنه قال : ﴿ أَنْ يَفْتِنُوكَ ﴾ وإنما ذلك يكون عن نسيان لا عن تعمد .

سابعاً: إن إباء حكم النبي ﷺ والإعراض عنه سبب للمصائب في الدنيا ؛ لأن

الله تعالى قال فى اليهود : ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : يعذبهم بالجلاء والقتل وفرض الجزية ، وإنما قال : ﴿ بِبَعْضِ ﴾ لأن المجازاة بالبعض كانت كافية فى التدمير عليهم ^(١) .

(١) التفسير المنير ٢١٦/٦ ، فما بعدها بتصرف .

١٨- الكتاب المنزل والملائكة

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ فَتْرَةٍ لَّفَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ ٧ ﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ ٨ ﴾ [الأنعام] .

أسباب نزول الآية :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ . . . ﴾ قال الكلبي : إن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله ، وأنتك رسول الله ، فنزلت هذه الآية ، وقال في رواية أخرى : نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ، ونوفل بن خويلد ، قالوا : ﴿ لَنْ نُوْمنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝ ١ ﴾ [الإسراء] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق ، قال : دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وعبد بن عبد يغوث ، وأبي ابن خلف ، والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ، ويرى معك ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٨] وإذا كانت قد أنزلت سور من القرآن تتضمن اقتراح المشركين إنزال ملك أو كتاب أو إنزال القرآن جملة واحدة قبل هذه الآية ، فلا مانع يمنع من تأكيد بيان هذا الاقتراح في مناسبة أخرى إظهاراً لعنادهم وتعتهم .

ولقد ذكرت الآيات السابقة بعض المواقف من عناد المشركين ، وتستمر الآيات هنا في ذكر شبهات جحودهم وعنادهم الموجهة إلى الوحي وبعثة الرسول ﷺ فصاروا منكروا أصول الدين الثلاث ، التوحيد والبعث ونبوة محمد ﷺ (١) .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧] . المعنى لو نزلنا يا محمد برأي منكم كما زعموا وطلبوا كلاماً مكتوباً في ﴿قِرْطَاسٍ﴾ ، وعن ابن عباس : كتاباً معلقاً بين السماء والأرض ؛ وهذا يبين لك أن التنزيل على وجهين : أحدهما : على معنى : نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به ، والآخر ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ يمسه الله بين السماء والأرض . وقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على المبالغة بطول الكتاب بين السماء والأرض ، والكتاب مصدر بمعنى الكتابة ؛ فبين أن الكتاب في قرطاس ؛ لأنه غير معقول كتابة إلا في قرطاس أي صحيفة ، والقرطاس : الصحيفة ؛ ويقال : قرطاس بالضم . وقرطس فلان إذا رمى فأصاب الصحيفة الملقاة بالهدف .

﴿فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: فعانوا ذلك ومسوه باليد ، كما اقترحوا وبالغوا في ميزه وتقليبه جسا بأيديهم ، ليرفع كل ارتياب ، ويزول عنهم كل إشكال ، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم ، وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ إنما سكرت أبصارنا وسحرنا ، وهذه الآية جواب لقولهم: ﴿حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذبوا به ، قال الكلبي: نزلت في النضر بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية ، ونوفل بن خويلد قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٨﴾ [الإسراء: ٩٠] ^(١).

١٩- هذا الكتاب المنزل المبارك

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام] .

جاءت هذه الآية الكريمة بعد الآية (٩١) من قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِثْلَ شَيْءٍ ۚ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام] .

وفي سبب نزول هذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر قال : جاء رجل من يهود يقال له : مالك بن الصيف . فخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة أن الله ييغض الخبر السمين ؟ » وكان حبراً سميناً . فغضب ، وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه ويحك ! ولا على موسى ، فأنزل الله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٩١] الآية ، وهو خبر مرسل ، وأخرج ابن جرير الطبري نحوه عن عكرمة .

وقال ابن عباس في رواية الوالي : قالت اليهود : يا محمد ، أنزل الله عليك كتاباً؟ قال : نعم ، قالوا : والله ، ما أنزل من السماء كتاباً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ ، ويؤيده قول الحسن وسعيد بن جبیر : الذي قال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ ﴾ وهو أحد اليهود ، قال : لم ينزل الله كتاباً من السماء ، وقال السدي : اسمه فنحاص ، وعن سعيد بن جبیر أيضاً قال : هو مالك بن الصيف .

وقال محمد بن كعب القرظي : أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن

أمره ، وكيف يجدونه في كتبهم ، فحملهم حسدُ محمدٍ أن كفروا بكتاب الله ورسوله . وقالوا ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ^(١) وذكر ابن عباس في رواية أخرى أن آية ﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ يعني: مشركي قريش ، وهذا هو الراجح .

إن مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، ولما حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد ، وإبطال الشرك ، وأبان الله تعالى ذلك الدليل بالوجوه الواضحة ، شرع بعده في تقرير أمر النبوة ، فقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حيث أنكروا النبوة والرسالة ، فهذا بيان نظم هذه الآيات ^(٢) .

ثم إن الله تعالى قد حدد مهمة القرآن الكريم فقال: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي : وهذا القرآن كتاب أنزلناه : يهدي إلى الحق وإلى سواء السبيل ، كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى ، وقد جعلناه كثير البركة والخير ، ومؤيداً لما تقدمه من الكتب ومهيماً عليها ، ويبشر بالجنة والثواب والمغفرة لمن أطاع الله ، وينذر بالنار والعقاب لمن عصى الله ، ولينذر أهل أم القرى : مكة ومن حولها من سائر الناس ، أي من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقال: ﴿ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقال: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسْلَمْتُمْ ؕ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ؕ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ ؕ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢] ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ((أعطيت خمساً لم يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي)) وذكر منهم ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة)) .

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) تفسير الرازي ١٢ / ٧٢ ، التفسير المنير ٧ / ٢٨٨ .

ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام : ٩٢] أي : كل من آمن بالبعث والمعاد وقيام الساعة أو اليوم الآخر يؤمن ويصدق بصحة هذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن ، وهؤلاء المؤمنون هم الذين يحافظون على صلواتهم ، أي يقيمون ما فرض عليهم من أداء الصلاة في أوقاتها ويهرعون إلى كل أمر آخر أمروا به ^(١) .

والقرآن الكريم كتاب مبارك كثير الخير والعطاء مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية في صورتها الأصلية الصحيحة ومهيمن عليها ، وناسخ لما خالفه منها ، ومبشر المحسنين بالجنة والمغفرة ، ومنذر الكافرين والفاسقين بالنار والعذاب فيها .

ولقد أفادت الآية كغيرها مما ذكر عموم بعثة النبي ﷺ للجن والإنس جميع أجناس البشر والطوائف والأقوام . دون تفرقة ولا تمييز بين جنس وآخر أو عنصر وآخر ، أو زمن أو مكان دون غيره . والإيمان بالآخرة أصل الدين ، ومن آمن بها آمن بالقرآن ، والصلاة عماد الدين ، ومن أقامها أقام الدين كله .. ومن هدمها هدم الدين كله ^(٢) .

(١) التفسير المنير ٧/ ٢٩٢ .

(٢) التفسير المنير ٧/ ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

٢٠- الكتاب المفصل دليل صدق نبوة محمد ﷺ

﴿ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٣﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام] .

بعد أن ندد الله تعالى بالكفار الذين أقسموا بالله ليؤمنن بالآيات إذا جاءتهم ، وأبان أنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات ؛ لأنه تعالى لو أظهرها لبقوا مصرين على كفرهم ، أبان هنا أن الدليل الدال على نبوة محمد ﷺ قد حصل من وجهين :

الأول : أنه أنزل إليه الكتاب المفصل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة ، وقد عجز الخلق عن معارضته ، مما يدل على صدق نبوته .

الثاني : اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على أن محمداً ﷺ رسول حق ، وعلى أن القرآن كتاب حق من عند الله تعالى ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤]

والوجهان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد] ، وبعد أن بين الله تعالى أن القرآن معجز . ذكر أنه ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ ، أي القرآن . والمراد : تم القرآن في كونه معجزاً دالاً على صدق محمد ﷺ (١) .

ومعنى الآيات : أفغير الله أطلب لكم حكماً وهو الذي كفاكم مؤونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصل ، أي المبين ، ثم قيل : الحكم أبلغ من الحاكم ؛ إذ لا يستحق التسمية بحكم إلا من يحكم بالحق ؛ لأنها صفة تعظيم في مدح ، والحاكم صفة جارية على الفعل ، فقد يسمى بها من يحكم بغير الحق

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ويريد اليهود والنصارى ، وقيل: من أسلم منهم كسلمان وصهيب وعبد الله بن سلام ، ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أي : القرآن ﴿ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي: إن كل ما فيه من الوعد والوعيد لحق ، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي: من الشاكِّين في أنهم يعلمون أنه منزل من عند الله ، وقال عطاء : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهم رؤساء أصحاب محمد ﷺ ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ قراءة أهل الكوفة بالتوحيد ، والباقون بالجمع ، قال ابن عباس : مواعيد ربك ، فلا مغير لها ، والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما .

قال قتادة : الكلمات هي القرآن لا مبدل له ، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون ﴿ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي فيما وعد وحكم ، ولا رادّ لقضائه ولا خلف في وعده ، وحكى الرماني عن قتادة: لا مبدل لها فيما حكم به ، أي : إنه وإن أمكنه التغير والتبديل في الألفاظ كما غير أهل الكتاب التوراة والإنجيل فإنه لا يعتد بذلك ، ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن ؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه ؛ لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها ^(١) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ٧٠ / ٧ .

٢١- الكتاب المبارك

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٥٠] أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ الْحِكْمَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [١٥١] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ آلِهَتِنَا الْكِتَابَ لَفُكِّنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [١٥٢] [الأنفال] بعد أن ذكر الله تعالى الوصايا العشر في آيات سابقة وهي:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾

١- ﴿ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ .

٢- ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ .

٣- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

٤- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَوْاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ .

٥- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [١٥٣] .

٦- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

٧- ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ بِالنَّفْسِ لَا يَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وَشَعَهَا ﴾ .

٨- ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ .

٩- ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [١٥٤] .

١٠- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَلْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام] .

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام] . أخبر الله تعالى عن الغاية من إنزال التوراة على موسى عليه السلام . لاشتهارها عند مشركي العرب وسماعهم أخبارها ثم ذكر مكانة القرآن ، وكونه كتاب هداية ، وأعلم بوجوب اتباعه ، ورد على عذراً المشركين بعدم الانقياد له ، مما لا يصلح عذراً بعد جعل القرآن مباركاً كثير الخير والفضل ^(١) .

وبعد الوصايا العشر ، وذكر التوراة .. انتقل الله تعالى إلى وصف القرآن الكريم فقال : ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن كثير الخير والنفع في الدين والدنيا ، ثابت لا ينسخ ، جامع لأسباب الهداية الدائمة والنجاة والفلاح ، فاتبعوا ما هداكم إليه .. واتقوا النار والكفر بما نهاكم عنه ومنعكموه ، لتظفروا برحمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة . وفي هذا دعوة صريحة إلى اتباع القرآن . من طريق التدبر بآياته ، والعمل به .

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ لثلاثا تقولوا - وهو خطاب لأهل مكة : إنما اقتصر إنزال الكتاب على من قبلنا من اليهود والنصارى ، أي ليقطع عذرهم ، ولثلاثا تقولوا : إنا كنا عن معرفة الكتب السابقة غافلين لا ندري ما هي ؛ لأنها ليست بلغتنا ، ولأننا قوم أميون لا نعرف ما يعرفه ويدرسه غيرنا .

ولثلاثا تقولوا أيضاً : لو أنزل علينا ما أنزل عليهم ، لكننا أهدى منهم فيما أوتوه ؛ لأننا أكثر ذكاء منهم ، وأعمق بصيرة ، وأمضى عزيمة : كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنِ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر : ٤٢] أي : أهدى من إحدى الأمم المجاورة من أهل الكتاب فرد الله عليهم بما يقطع كل تعلل واعتذار بقوله : ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام : ١٥٧] أي : فقد

جاءكم على لسان رسولنا العربي محمد ﷺ قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى لما في القلوب ، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ، ويقتفون ما فيه ، وهو يشتمل على الحق المؤيد بالحجج والبراهين في العقيدة والآداب والأحكام .

ثم أبان الله تعالى سوء عاقبة من كذب بالقرآن ، فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] أي لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله ، بعد ما عرف صحتها وصدقها ، أو تمكن من معرفة ذلك ، وأعرض عنها ، ومنع الناس عن التفكير فيها كما كان يفعل زعماء مكة ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .

ثم أتبع الله ذلك بالتهديد والوعيد والعقاب لكل معرض عن القرآن ، كما هو الشأن الغالب بعد بيان أسباب الهداية ، فقال : ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] أي سيجازي المعرضين عن آياتنا أشد العذاب بسبب حجب عقولهم ونفوسهم وغيرهم عن هداية الله ، والإعراض عنها ؛ لأنهم يتحملون وزرهم ووزر من منعوهم عن الحق ، وحالوا بينهم وبين هداية الله ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ١٢٥] أي زدناهم عذاباً غير عذابهم بسبب إفسادهم وصدهم عن سبيل الحق .

وقد دلت الآيات على أن القرآن الكريم مثل التوراة في أصولها الصحيحة الأولى التي فقدت وضاعت ، ثم كُتِبَ عنها بديل مُحَرَّف مشوه ، مما لم يُبق منهجاً للبشرية وكتاباً للإنسانية غير القرآن الكريم ، ففيه الهداية الكاملة والبيان الواضح المؤيد بالبراهين والأدلة العقلية ، والثقيلة : السمعية ولم يبق لأحد عذر بعد مجيء محمد ﷺ وتأييده بالمعجزة الخالدة الباقية من غير تبديل ولا تحريف ، فإن كذب به أحد ، فلا أظلم منه ، وسيلقي جزاء إعراضه وتكذبه ، ودل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ على تعظيم كفر من كذب بآيات الله ، ومنع عنها نفسه وغيره من الإيمان بها لأن الأول ضلال ، والثاني منع عن الحق والإضلال^(١) .

٢٢- الكتاب المنزل .. لتنذربه يا محمد ، وذكرى للمؤمنين

﴿الْمَصِّ ۝ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الأعراف] .

الأعراف: سميت بسورة الأعراف لورود اسم الأعراف فيها . وهو سور بين الجنة والنار . قال ابن جرير الطبري: الأعراف: جمع عرف . وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً ، وإنما قيل لعرف الديك : عرفاً لارتفاعه . روى ابن جرير الطبري عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

السورة مكية إلا ثمانى آيات . وهي قوله تعالى : ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ۝﴾ بدأت مواضيعها المتنوعة والمختلفة بأن القرآن الكريم كلام الله المعجز ، وبأنه معجزة الرسول ﷺ الخالدة ، وأنه نعمة من نعم الله تعالى ، وأنه يجب اتباع تعاليمه ، ولا يخلو معاودة ذكر القرآن الكريم في هذه السورة بأساليب أخرى .

بدأ الله تعالى هذه السورة المكية بالحروف الأبجدية (النورانية) المقطعة (ا ل م ص) كغيرها من السور التي نزلت بمكة لإثبات النبوة والوحي .

هذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، أنزل إليك يا محمد من عند ربك بقصد الهداية والخير ، ووصفه بالإنزال للدلالة على عظيم قدره وقدر من أنزل عليه ، فلا يكن في صدرك ضيق من الإنذار به وتبليغه للناس وتذكير أهل الإيمان به ذكرى تنفعهم وتؤثر فيهم .

ومن المعلوم أن كل نبي ومصلح يلقي عادة إيذاء ومقاومة لدعوته ، وصدوداً وإعراضاً عن رسالته ، وما على الداعية إلا الصبر والمثابرة ومتابعة الطريق:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف ٣٥] ؛ لذا كان المراد من هذا النهي شد العزيمة والاجتهاد في مقاومة الصعاب ، وتحمل الشدائد ، انتظاراً لما عند الله على ذلك من وعد بالخير والفضل .

وبما أن هذا الكتاب ذو مهام خطيرة ؛ فقد خاطب الله تعالى العالم بقوله: اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم رب كل شيء ، ومليكه وخالقه ومدبره وراعيه فهو وحده صاحب الحق في التشريع وفرض العبادات والتحليل والتحريم ؛ لأنه العليم بما هو مصلحة ، الخير بما هو مضرة لكم ، فلا يشرع إلا الخير والسداد .

ولا تتبعوا من دون الله أولياء كأنفسكم ، أو الشياطين التي توسوس لكم بما فيه الضرر والخطر ، والضلال والفساد ، والشر والسوء والإيهام بأن الأصنام شركاء ذات تأثير عند الله ، مع أنها أحجار لا تضر ولا تنفع ، أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره . فتكونوا قد عدلتم عن الحق إلى الضلال ، وعن حكم الله إلى حكم الشيطان والأهواء ، ولكنكم تذكرون قليلاً وتسون الواجب عليكم نحو ربكم ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف] .

دلت الآيات على ما يأتي:

١- القرآن كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، والعقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الوحي من عند الله تعالى ؛ لأن الرسول ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ؛ ولأنه كلام معجز لا يصدر عن بشر ؛ ولأن الأحداث ومرور الأزمنة تثبت تفوقه لكل الأوقات . وهذا لا يمكن أن يتصف به التشريع الوضعي - أي تشريع وضعي .

٢- واجب النبي ﷺ وسائر الأنبياء تبليغ الوحي المنزل ، وأما النتائج والآثار ، وانتصار الدعوات الإلهية فمردها إلى الله تعالى . وقد سرَّ الله عن نبيه فنهاء أن يضيق صدره لعدم الإيمان به ، فإنما عليه البلاغ ، وليس عليه سوى الإنذار به ، من شيء من إيمانهم أو كفرهم ، كقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ﴾ [الكهف] . وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء] .

٣- المقصود بالقرآن إنذار الكافرين والعصاة بسبب إعراضهم عنه ، وتذكير المؤمنين به ؛ لأنهم المتفعون به .

٤- الأمر العام لجميع الناس باتباع ملة الإسلام والقرآن ، وإحلال حلاله ، وتحريم حرامه ، وامتنال أمره ، واجتناب نهيه . واتباع الرسول ﷺ داخل في ذلك ؛ لأن الله تعالى أمرنا باتباعه وطاعته بقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] . فدللت الآية على وجوب اتباع الكتاب والسنة .

٥- تحريم اتباع أحد من الخلق في الدين ، كما فعل أهل الكتاب في طاعة رهبانهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

٦- ترك اتباع الآراء الشخصية أو الاجتهادية مع وجود النص الشرعي

٧- المنع من عبادة أحد مع الله ، واتخاذ من عدل عن دين الله ولياً ؛ علماً بأن كل من رضى مذهباً ، فأهل ذلك المذهب أولياؤه ^(١) .

(١) التفسير المنير ١٣٧/٨ فما بعدها .

٢٣- فضل القرآن الكريم على البشر

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٢] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود: ١] ، وقوله : ﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ منا بما فصلناه به كقوله : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦] قال ابن جرير ، وهذه الآية مردودة على قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ٢] الآية : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ الآية . وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أراح عليلهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١] ، ولهذا قال ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أي ما وعدوا به من العذاب ، والنكال ، والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد .

وقال مالك : ثوابه ، وقال الربيع : لا يزال يحىء ؛ من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب ، حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار ، فيأتي تأويله يومئذ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أي يوم القيامة . قاله ابن عباس ، ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي : تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا . ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ أي : في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ، ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ [الأعراف: ٥٣] إلى الدار الدنيا . ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ

الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿ [الأعراف : ٥٣] كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِغَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢٧ بَلْ بَدَأَ هُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ٢٨ [الأنعام] .
كما قال ها هنا : ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه ^(١) .

فالقرآن العظيم أعظم نعمة على الإنسان ، لأنه بيان للإيمان الصحيح والحق الثابت ، والعبادة المرضية لله تعالى ؛ ولأنه أهدى ورحمة للمؤمنين ، كقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

وتظهر في كل حين في الدنيا عاقبة ما أنذر به وحذر ، وما أعلم به وأخبر لقوله تعالى : ﴿ سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكذا في الآخرة : لقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أي : عاقبة ما فيه ، وعاقبة القرآن : ما وعد الله فيه من البعث والحساب وجزاء التكذيب به .

وتبدو عواقبه يوم القيامة ، فيعترف منكروه بأنه الحق الثابت والصدق الأبلج ، ويتمنون الخلاص بأية وسيلة ممكنة إما بشفاعة الشفعاء ، أو الرد إلى الدنيا لتصحيح الأعمال بما يتفق مع مرضاة الله . ولكن لا يجابون إلى مطلبهم فيندمون ولات حين مندم .

ولكن هؤلاء الكفار المنكرين قد خسروا أنفسهم بتعريضها للعقاب والعذاب في النار ، وبطل ما كانوا يقولون من أن مع الله إلهاً آخر ، ولم ينتفعوا بالأصنام التي عبدوها في الدنيا ، ولم ينتفعوا أيضاً بنصرة الأديان الباطلة التي بالغوا في نصرتها ^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٢٩/٨ .

(٢) التفسير المنير ٢٢٩/٧ ، ٢٣٠ .

٢٤- الذين ورثوا الكتاب

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۚ وَالْأَفْرَافُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٧٠].

أجمع المفسرون على أن الكتاب الوارد في الآيتين هو التوراة الذي أنزل على موسى^(١)؛ إذ إن الحديث يتعلق بالاتباع الذين حملوا التوراة، وحرفوها وأحدثوا فيها الكثير من التغير والتبديل، والحديث عن الوارثين للكتاب لا يفي بأي حال المسلمين الذين ورثوا القرآن وحافظوا عليه وأكدوا حفظ الله تعالى له. حفظوه في الصدور وفي الكتب وفي جميع الوسائل التي تحفظ القرآن الآن.

والذي دعا إلى ذكر هذه الآيات هنا هي الآية (١٧٠) التي ربطت مقيمي الصلاة مع كتاب الله تعالى، والتي توحى للوهلة الأولى أن مقيمي الصلاة هم المسلمون أتباع محمد، والكتاب هو القرآن الكريم. وقد أكد المفسرون كما سبق على أن هؤلاء الذين يتمسكون بالكتاب - مقيمي الصلاة - هم طائفة من اليهود مؤمنة بالتوراة ويتمسكون له ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ١٧٠] قرأ الجمهور ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] بالتشديد من مسك وتمسك، وروى عن أبي بن كعب أنه قرأ (مسكوا)، والمعنى أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكرهم، وطائفة يتمسكون بالكتاب أي التوراة، ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمور دينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله، والموصول مبتدأ، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٢٩٦/٩، تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٢٧٠/٩ وغيرهما من التفاسير.

أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ [الأعراف: ١٧٠] خبره ، أي لا يضيع أجر المصلحين منهم ، وربما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة ؛ لأنها رأس العبادات وأعظمها .

ودفعاً لأي مفهوم آخر بارتباط مقيمي الصلاة بالتمسك بالكتاب ، وحتى لا يظن أن هؤلاء المقيمي الصلاة هم من المسلمين ، والكتاب هو القرآن الكريم .
سقنا هذه الأدلة ، والله أعلم .

٢٥- لولا كتاب من الله سبق

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُدَّ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٩﴾ [الأنفال : ١١] .

وردت الآية (٦٨) بين آيتين ، آية الأسرى قبلها ، وآية إحلال الغنيمة بعدها ، وهما أمران في الفقه متلازمان ، وقد أخذت قضية الأسرى - لعدم وجود الحكم - قبل بدر أخذت اتجاهات مختلفة ، وقد بسط المفسرون في تفسيرها كثيراً ، وكذلك المؤرخون ، كما أن إحلال الغنائم للرسول ﷺ وحده من دون الرسل كافة أمر آخر له في الشرع الإسلامي أحكامه وضوابطه ، وورود اسم الكتاب بين الآيتين أبعد المعنى عن كون الكتاب هو القرآن الكريم ولكن المفسرين قد أفاضوا في تفسيره واحتمالات ثبوت المعنى عليه قول الله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧٨﴾ ﴿ اختلف المفسرون - كما يقول الشوكاني ^(١) . في هذا الكتاب الذي سبق (ما هو ؟) على أقوال :

الأول : ما سبق في علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم ، بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم .

والثاني : أنه مغفرة الله لأهل بدر ، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، كما في الحديث الصحيح : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

القول الثالث : هو أنه لا يعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٧٩﴾ [الأنفال : ٣٣] .

(١) فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ٣٧٢/١٠ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، والكلم الطيب ط ١ ، ١٩٩٤ م .

القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بذنب فعله جاهلاً لكونه ذنباً .

القول الخامس: أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر .

القول السادس: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة ، وتقديم النهي ، ولم يتقدم نهى عن ذلك .

وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ أي : حل بكم ﴿ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ أي لأجل ما أخذتم من الفداء ، ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ والفاء في ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف : أي قد أجمت لكم الغنائم ، فكلوا مما غنمتم ، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف ، أي : اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره ؛ وقيل : إن « ما » عبارة عن الفداء ، أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فإنه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم و ﴿ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ متصبان على الحال ، أو صفة المصدر المحذوف ، أي أكلا حلالاً طيباً ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأت الله لكم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما فرط منكم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بكم ؛ فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان . انتهى^(١) .

راجع موضوع الأسرى مفصلاً في المرجع المذكور وفي بقية التفاسير لهذه الآيات الكريمات .

(١) راجع : موضوع الأسرى مفصلاً في المرجع المذكور ، وفي بقية التفاسير لهذه الآيات الكريمات .

٢٦-٢٩ الكتاب الحكيم الحق

٢٦- ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٢﴾ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٣﴾﴾ [يونس] .

٢٧- ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [هود] .

٢٨- ﴿الْمَرْ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [الرعد] .

٢٩- ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم] .

تلكم سور خمس من سور القرآن الكريم متتاليات ، وهى من السور الطويلة وكلها من السور المكية إلا سورة الرعد فهى مدنية ، والسورة التى لم ترد هنا هى بداية سورة يوسف وهو قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف] . ووردت فى فضل (القرآن) تحت عنوان (القرآن العربى) .

هذه السور الخمس المتتاليات تشارك بداياتها بالأحرف المقطعة النورانية وتحديدًا ب: ال ر ، آلر ، إلا السورة المدنية الرعد فتبدأ ب: ال م ر ﴿المر﴾ . ثم يذكر القرآن الكريم مباشرة باسم الكتاب ، وتنفرد سورة يوسف بتعريف الكتاب بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾﴾

أما السور الأربع الأخرى فيأتى بعد ذكر الكتاب مع صفة الحكيم فى يونس

﴿ أَحْكَمْتَ ءَايَتُهُ ﴾ في هود ﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ بسورة الرعد ، والكتاب المبين في يوسف وأخيراً ﴿ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ في إبراهيم ، ثم انفردت كل سورة بعد ذلك في موضوع يتناسب وما أراده الله تعالى من أمور أحكمها على البشر وأخبرهم ، وأمرهم بها لإرادته ومشئته جل وعلا .

٢٦- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر ذلك منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فأنزل الله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ والآية . وأنزل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا ﴾ الآية [يوسف: ١٠٩] ومواضع أخرى ، فلما كرر الله عليهم الحجج ، قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف] ، يكون أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] .

وتفسير الآيات: ﴿ الر ﴾ [يونس] تقرأ هذه الحروف الثلاثة هكذا : ألف ، لام ، را ، والقصد منها التنبيه إلى ما يتلى بعدها ليعتني المرء بفهم ما يسمع أو يقرأ ، وتمديد الحروف على طريق التحدي ، كما مر في أول سورة البقرة . تلك آيات القرآن المحكم ، أو ذات الحكمة لاشتماله عليها ، أو تلك آيات السورة الحكيمة التي أحكمها الله وبينها لعباده ، كما قال تعالى: ﴿ الرَّ كَيْتُبُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ، أي أحكمت معانيه ومبانيه ، والأولى بالصواب - كما ذكر القرطبي أن المراد القرآن ؛ لأن الحكيم من نعت القرآن كما دل قوله تعالى: ﴿ كِتَابُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ﴾ . والحكيم: المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ ينكر الله تعالى على من تعجب من الكفار على إرسال المرسلين من البشر ، كان الاشتراك في البشرية تحول دون الإرسال ، وكأنهم يريدون رسولاً من غير جنسهم كما قال تعالى في آيات أخرى

حكاية عنهم ﴿أَبَشِّرْهُدُونَا﴾ [التغابن: ٦] ، ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ، ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] . وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] .

قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم . فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد فأنزل الله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ - أما معايير البشر فهي خطأ مثل كون محمد ﷺ يتيم أبي طالب . إذ قال القرشيون : العجيب أن الله لم يجد رسولاً إلا يتيم أبي طالب ، أو أنه فقير ، وهم يريدون كونه غنياً مترفاً وزعيماً مرموقاً .

﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف] وهم يعنون إما الوليد بن المغيرة من مكة ، أو مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف .

ومهمة هذا النبي الموحى إليه هي الإنذار من النار: ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾ ، أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس وخوفهم من عذاب النار يوم البعث ، إذا ظلوا كافرين ضالين عاصين ، كما قال تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ١١] إلخ .^(١)

ومن هنا فإننا نقول: بأن القرآن الكريم كتاب محكم واضح بين فيما اشتمل عليه من حلال وحرام وحدود وأحكام ، والإيحاء إلى رجل من البشر ؛ ليؤدي رسالة الله إلى الناس أمرٌ طبعي منطقي ، ليس محل تعجب واستغراب ، وإنما هو موافق للحكمة والعقل والواقع .

وليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة ، وإنما المعيار هو ما في علم الله جل وعلا من كون النبي المصطفى هو الأهل الكفاء الأجدر بتحمل أعباء الرسالة ، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس .

(١) التفسير المنير ٩٩/١١ ، ١٠٠ ، بتصرف .

وأخيراً فإن مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير ، إنذار من عصاه بالنار ، وتبشير من أطاعه بالجنة ... إلخ ^(١).

٢٧- ﴿الر﴾ تقرأ بأسمائها ساكنة - كما ذكر في أول سورة يونس فيقال : ألف لام ، را ، وهي للتحدي والإلزام للعرب الفصحاء ، لإثبات إعجاز القرآن الكريم وكونه من عند الله . أو هي حروف تنبيه مثل ، ألا ، لما سيلقى بعدها . والصور المفتحة بمثل تلك الحروف مكية إلا سورتي البقرة وآل عمران ^(٢) ، والصور المكية تعني بإثبات التوحيد والبعث والوحي ، وإعجاز القرآن ، وفيها غالباً قصص الأنبياء عليهم السلام ^(٣).

إن موضوع هذه الآيات تقرير أصول الدين ، وهي إحكام القرآن وتفصيله ، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والإنابة إليه ، والإيمان بالبعث والجزاء في عالم الآخرة .

والمعنى: هذا كتاب عظيم الشأن جليل القدر ، محكم النظم والمعنى ، لا خلل فيه ولا نقص ، فهو كامل الصورة ، والمعنى : لأنه صادر من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه ، والخير بجوائج عباده ، وبعواقب الأمور .

ففي هذه السورة كغيرها من السور تبيان حقائق الاعتقاد ، وتفنيذ أباطيل الكافرين ، وتوضيح أسلم الأحكام الشرعية للحياة ، وأقوم المناهج والفضائل والمواعظ من خلال القصص القرآني والتنبيه إلى غرر الشمائل والأخلاق . ﴿أَلَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن هذا الكتاب المحكم نزل بألا تعبدوا غير الله ، ولا تشركوا به شيئاً أو أنه نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، أو لئلا تعبدوا إلا الله ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

(١) التفسير المنير ١١/١٠١ .

(٢) سورة الرعد أيضاً مدنية كما سيرد من تفسيرها .

(٣) التفسير المنير ١١/١٢ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ﴾ أي : وقل للناس : إنني كائن لكم من جهة الله ، نذير من العذاب ، إن خالفتموه وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء في الحديث الصحيح . أن رسول الله ﷺ صعد الصفا ، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا فقال : « يا معشر قريش ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم أستم مصدقي؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذباً قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ».

وهذا بيان مهمة الرسول ﷺ ووظيفته وهي الإنذار لمن عصاه بالنار ، والبشير لمن أطاعه بالجنة ، ولقد أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- أي القرآن الكريم محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، منظمة بنظم محكم اللفظ ، والمعنى ، لا تناقض فيها ولا اضطراب مفصلة تفصيلاً تاماً شاملاً جميع الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها ، فهي كاملة الصورة والمعنى ، محققة للمصالح البشرية في الدنيا والآخرة ، وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١] دليل على وجود الصانع الخالق .

٢- دعوة القرآن صريحة تتجه نحو تحقيق العبودية للخالق المنعم المتفضل وتخصيصه وإفراده بالعبادة دون أحد سواه ، فالآية مشتملة على الأمر بعبادة الله ، ومنع عبادة غير الله .

٣- وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف لمن عصاه بالعذاب ، والتبشير بالرضوان والجنة لمن أطاعه ^(١) .

٢٨ - قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرْسُلْنَاكَ ءَايَاتٍ ءَالِكْتَبِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد] .

أما الكلام عن الحروف المقطعة في أوائل السورة فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وقدمنا أن كل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ، ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾

أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن ، ومثل التوراة والإنجيل – قال مجاهد وقتادة وفيه نظر ؛ بل هو بعيد ، ثم عطف على ذلك عطف صفات .

فقال : ﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أي : يا محمد .

﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله : ﴿ وَالَّذِي لَأَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة .

واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة .

واستشهد بقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف] أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق^(١) .

﴿ أَلَمْ ﴾ البدء بهذه الحروف الهجائية المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم وبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ، بالرغم من كونه بلغة العرب .

ويتكون من حروف الكلمات التي ينطقون بها ، فبعد أن وصف الله تعالى القرآن في آخر سورة يوسف^(٢) بخمس صفات أضاف هنا صفة أخرى وهي كونه حقاً من

(١) تفسير القرآن العظيم ١٣ / ١٦ / ٢ .

(٢) انظر: التفسير المنير ١٣ / ١٤ .

عند الله تعالى .

والصفات الخمس هي: ما كان القرآن حديثاً يفترى ويختلق ويكذب من دون الله ، فهو كلام معجز ولا يستطيع بشر ولو كان نبياً أن يأتي بمثله، وكذلك ما كانت قصة يوسف حديثاً يفترى من دون الله تعالى .

القرآن الكريم مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ومهيمن عليها وحارس لها.

والقرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء ، مما يحتاج إليه العباد من الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام .

وهو أيضاً هداية ورحمة من الله لعباده وللمؤمنين بالغيب ، وإنقاذ للبشرية من الضلالة والنور ومن الفساد إلى النظام والصلاح ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة] انتهى .

إن آيات هذه السورة - سورة الرعد - آيات القرآن البالغ حد الكمال ، أو تلك الآيات العظام القدر والشأن آيات الكتاب وهو القرآن الكريم .

وكل القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك حق لا شك فيه ، وهو على التفسير الأول بأن الآيات هي السور إجمال بعد تفصيل ، أو عموم بعد خصوص .

فبعد أن أثبت تعالى لهذه السورة وصف الكمال والرفعة عمم هذا الحكم على القرآن كله جميعه .

ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالمنزل إليك من ربك ، ولا يقدرّون ما في القرآن من سمو التشريع والأحكام ورعاية المصالح المناسبة لكل عصر وزمان .

وهذا كقوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف] ، أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والنفاق والعناد .

وإذا كان واقع البشرية اليوم أن أكثر سكان العالم لا يؤمنون بالقرآن الكريم ، وأن المسلمين بالنسبة لغيرهم هم الخمس .

فيكون ذلك معجزة للقرآن الكريم الذي أخبر عن حال أكثر الناس في الماضي كأهل مكة وفي مسيرة التاريخ ، وفي الوقت الحاضر والمستقبل .

وقد دلت الآية على أن آيات القرآن بالغة حد الكمال في الإعجاز والبيان ، وأن القرآن الكريم حق منزل من عند الله تعالى لا شك فيه ولا ريب ، باق على وجه الدهر .

ولكن مع الأسف حجب العناد والكفر كثيراً من الناس عن الإيمان بما جاء فيه من حكم بالغة ، وأحكام رصينة ، وتشريعات محكمة .

وهذا ليس إقراراً لهم ، وإنما هو على سبيل الزجر والتهديد ^(١) .

٢٩- قوله تعالى : ﴿ الر ﴾

قد تقدم الكلام في أمثال هذا ، وبيان قول من الله قال : إنه متشابه ، وبيان قول من قال : إنه غير متشابه ، وهو إما مبتدأ خبره كتاب أو خبر مبتدأ محذوف ، ويكون ﴿ كَتَبَ ﴾ خبراً لمحذوف مقدر أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ .

أو يكون ﴿الر﴾ مردوداً على نمط التعديد فلا محل له .

﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ صفة لكتاب ، أي: أنزلنا الكتاب إليك يا محمد ، ومعنى ﴿لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية.

جعل الكفر بمنزلة الظلمات ، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة ، واللام في لتخرج للفرض والغاية ، والتعريف في الناس للجنس.

والمعنى أنه ﷺ يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور.

وقيل : إن الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة.

وقيل : من الشك إلى اليقين ، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور .

والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بتخرج ، وأسند الفعل إلى النبي ﷺ ؛ لأنه الداعي والهادي والمنذر.

قال الزجاج: بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو بدل من إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً . أي: لتخرج الناس من الظلمات ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها ويجوز أن يكون مستأنفاً بتقدير سؤال كأنه قيل : ما هذا النور الذي أخرجهم إليه !

فقل : صراط العزيز الحميد .

والعزيز هو القادر الغالب ، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض .

وقرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به ؛ لأن العلم لا يوصف به .

وقيل : يجوز أن يوصف به من حيث المعنى .

وقال أبو عمرو: إن قراءة الجر مجموعة على التقديم والتأخير ، والتقدير : إلى صراط الله العزيز الحميد ، وكان يعقوب إذا وقف على ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ رفع، وإذا وصل خفض .

قال ابن الأنباري: من خفض وقف على ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم تواعد من لا يعترف بربوبيته ، فقال: ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قد تقدم بيان معنى الويل ، وأصله النصب كسائر المصادر، ثم رفع للدلالة على الثبات .

قال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة ، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ متعلق بويل على معنى

يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه ^(١) .

وبعد أن بين تعالى مقاصد القرآن وأثره في الهداية ، وبين أنه سبيل ميسر للاهتداء به ، لكونه بلغة قوم الرسول فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم] .

هذا من لطفه تعالى أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه » .

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي أنه بعد البيان وإقامة الحجة على الناس يكون الناس فريقين ، فريقاً يضلّه الله عن وجه الهدى ، لإيغاله في الكفر ، واجترأحه السيئات والآثام وعناده .

وفريقاً يهديه الله إلى الحق ، ويشرح صدره للإسلام فيتبع سبيل الرشاد .

وهذا كلام مستأنف وليس بمعطوف على ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين ، لا للإضلال ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

والله سبحانه القوي الذي لا يغلب ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن والحكيم

في صنعه وأفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، فلا يفعل شيئاً إلا على وفق الحكمة والعلم^(١) .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

| الرقم | العنوان | الآية | الصفحة |
|-------|---|-------|--------|
| | الإهداء | | ٥ |
| | المقدمة | | ٧ |
| | المدخل | | ٩ |
| | القرآن : المكان والزمان | | ١١ |
| | معنى لفظ القرآن | | ٣٠ |
| | كتاب الله والقلم | | ٣٤ |
| | لا يمسه إلا المطهرون | | ٤٠ |
| | القرآن - الأحرف النورانية - معجزة النطق | | ٤٥ |
| | القرآن الكريم فى القرآن الكريم | | ٥٦ |
| | أسماء القرآن الكريم وذكرها فى القرآن الكريم | | ٥٨ |
| | معنى السورة والآية والكلمة والحرف | | ٦٠ |

فصل: القرآن الكريم

| | | | |
|----|-------------------|---|-----|
| ١ | هدى للمتقين | ذلك الكتاب لا ريب فيه | ٦٥ |
| ٢ | تدبر القرآن | أفلا يتدبرون القرآن | |
| ٣ | القرآن البيان | يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا | ٧٧ |
| ٤ | القرآن النذير | قل أى شىء أكبر شهادة | ٨١ |
| ٥ | القرآن والرحمة | وإذا لم تأتهم بآية قالوا | ٨٥ |
| ٦ | القرآن الوعد الحق | إن الله اشترى من المؤمنين | ٩٣ |
| ٧ | القرآن الخالد | وإذا تتلى عليهم آياتنا | ٩٨ |
| ٨ | القرآن المعجز | وما كان هذا القرآن أن يفترى | ١٠٥ |
| ٩ | القرآن الشامل | وما تكون فى شأن | ١١٤ |
| ١٠ | القرآن العربى | الر تلك آيات الكتاب المبين | ١١٧ |
| ١١ | القرآن الخارق | كذلك أرسلنا فى أمة قد خلت | ١٢١ |
| ١٢ | القرآن المبين | الر تلك آيات الكتاب | ١٢٥ |
| ١٣ | القرآن العظيم | وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا | ١٢٨ |
| | | بالحق | |
| ١٤ | القرآن المحفوظ | من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى | ١٣٣ |

| | | | |
|----|------------------------------------|-----|--|
| ١٥ | أهداف القرآن الكريم | ١٤٢ | إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم |
| ١٦ | القرآن المذكر | ١٤٦ | ولقد صرفنا في هذا القرآن |
| ١٧ | القرآن الحاجب السائر | ١٥٠ | وإذا قرأت القرآن |
| ١٨ | الشجرة ملعونة في القرآن | ١٥٥ | وإذ قلنا لك إن ربك أحاط |
| ١٩ | قرآن الفجر المشهود | ١٥٧ | أقم الصلاة لدلوك الشمس |
| ٢٠ | القرآن الشافي | ١٦٢ | وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة |
| ٢١ | عجز المخلوقات عن الإتيان بمثله | ١٦٥ | قل لئن اجتمعت الإنس والجن |
| ٢٢ | القرآن المحفوظ المحروس | ١٧٥ | وبالحق أنزلناه وبحق نزل |
| ٢٣ | القرآن المتصرف به من كل مثل | ١٨١ | ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل |
| ٢٤ | القرآن تذكرة لمن يخشى (أ) | ١٨٤ | طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى |
| ٢٥ | القرآن العربي (ب) | ١٨٨ | وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا |
| ٢٦ | القرآن .. وأعداء النبي من المجرمين | ١٩٣ | وقال الرسول يا رب |
| ٢٧ | القرآن المبين | ١٩٦ | طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين |

| | | | |
|----|--------------------------------|-----|---|
| ٢٨ | القرآن : هدى ورحمة | ١٩٩ | إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل |
| ٢٩ | تلاوة القرآن | ٢٠٢ | وأن أتلو القرآن |
| ٣٠ | القرآن المفروض | ٢٠٥ | إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد |
| ٣١ | القرآن مجمع الأمثال | ٢٠٨ | ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل |
| ٣٢ | القرآن الحكيم | ٢١٠ | يس . والقرآن الحكيم |
| ٣٣ | القرآن ذى الذكر | ٢١٥ | ص والقرآن ذى الذكر |
| ٣٤ | القرآن مجمع الأمثال | ٢١٨ | ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل |
| ٣٥ | القرآن العربى البشير النذير | ٢٢٢ | حم . تنزيل من الرحمن الرحيم |
| ٣٦ | القرآن الغالب | ٢٢٦ | وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن |
| ٣٧ | القرآن العربى (١) | ٢٢٨ | ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك |
| ٣٨ | القرآن العربى (٢) | ٢٣٦ | وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا |
| ٣٩ | القرآن العلى الحكيم | ٢٣٩ | حم . والكتاب المبين |
| ٤٠ | صاحب الأحقية فى القرآن | ٢٤٢ | بل متعت هؤلاء وآباءهم |

| | | | |
|-----|--------------------------------------|-----------------------------------|----|
| ٢٤٧ | وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن | القرآن هدى للجن كما للإنس | ٤١ |
| ٢٥٣ | أفلا يتدبرون القرآن | تدبر القرآن الكريم | ٤٢ |
| ٢٥٧ | ق والقرآن المجيد | القرآن المجيد | ٤٣ |
| ٢٥٩ | نحن أعلم بما يقولون | القرآن المذكر | ٤٤ |
| ٢٦١ | كذبت قبلهم قوم نوح | القرآن الميسر | ٤٥ |
| ٢٦٩ | الرحمن . علم القرآن | علم القرآن | ٤٦ |
| ٢٧١ | فلا أقسم بمواقع النجوم | القرآن : الكتاب المكنون | ٤٧ |
| ٢٧٤ | لو أنزلنا هذا القرآن على جبل | أثر القرآن فى الكون | ٤٨ |
| ٢٧٧ | يا أيها المزمّل | ورتل القرآن ترتيلا | ٤٩ |
| ٢٨٣ | إن ربك يعلم أنك تقوم | اقرأوا ما تيسر من القرآن | ٥٠ |
| ٢٨٥ | قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن | استماع الجن للقرآن | ٥١ |
| ٢٨٩ | لا تحرك به لسانك لتعجل به | عدم تحريك اللسان بالقرآن | ٥٢ |
| ٢٩١ | إن هذا كان لكم جزاءً | الله منزل القرآن | ٥٣ |
| ٢٩٤ | فما لهم لا يؤمنون | القرآن والسجود | ٥٤ |
| ٢٩٦ | والله من وراءهم محيط | القرآن المجيد فى اللوح المحفوظ | ٥٥ |

فصل : الكتاب

- | | | | |
|----|--|---|-----|
| ١ | هدى للمتقين | الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه | ٣٠١ |
| ٢ | الذين يكتبون الكتاب | ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب | ٣٠٢ |
| ٣ | كتاب الله المصدق لما سبقه | ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق | ٣٠٦ |
| ٤ | كتاب الله وأهل الكتاب | ولقد أنزلنا إليك آيات بينات | ٣١١ |
| ٥ | الكتاب الحكيم : دعاء إبراهيم عليه السلام | ربنا وابعث فيهم رسولا منهم | ٣١٤ |
| ٦ | المؤمنون بالكتاب | الذين آتيناهم الكتاب يتلونه | ٣١٨ |
| ٧ | كتاب الله وما أنزل الله به من نعمة | وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن | ٣٢٢ |
| ٨ | الكتاب المنزل بالحق | الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم | ٣٢٥ |
| ٩ | آيات الكتاب المحكمات | هو الذى أنزل عليك الكتاب | ٣٢٧ |
| ١٠ | الذين أوتوا نصيبا من الكتاب | ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا | ٣٣٢ |
| ١١ | من أوتى الكتاب والحكم والنبوة | ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم | ٣٣٤ |
| ١٢ | الإيمان بالكتاب كله | ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم | ٣٣٧ |

| | | | |
|----|---|-----|---|
| ١٣ | وجوب الإيمان بالله ورسوله والكتاب | ٣٤٠ | يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله |
| ١٤ | موقف المؤمنين المستهزئين بآيات الله | ٣٤٢ | وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم |
| ١٥ | أهل الكتاب يسألون النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء | ٣٤٤ | يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا |
| ١٦ | مقاصد القرآن الكريم | ٣٤٧ | يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا |
| ١٧ | الحكم بما أنزل الله في الكتاب | ٣٥٠ | وأنزلنا إليك الكتاب بالحق |
| ١٨ | الكتاب المنزل والملائكة | ٣٥٧ | لو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس |
| ١٩ | هذا الكتاب المنزل المبارك | ٣٥٩ | وهذا كتاب أنزلناه مبارك |
| ٢٠ | الكتاب المفصل دليل صدق نبوة محمد ﷺ | ٣٦٢ | أفغير الله أبتغى حكما |
| ٢١ | الكتاب المبارك | ٣٦٤ | وهذا كتاب أنزلناه مبارك |
| ٢٢ | الكتاب المنزل | ٣٦٧ | المص . كتاب أنزل إليك |
| ٢٣ | فضل القرآن الكريم على البشر | ٣٧٠ | ولقد جنناهم بكتاب فصلناه |
| ٢٤ | الذين ورثوا الكتاب | ٣٧٢ | فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب |

٢٥ لولا كتاب من الله سبق ما كان لنبي أن يكون له
أسرى حتى يثخن في
الأرض ٣٧٤

٢٩-٢٦ الكتاب الحكيم الحق الر تلك آيات الكتاب الحكيم ٣٧٦
فهرس الموضوعات ٣٩١

رقم الإيداع : ٢٢٤٦٠ / ٢٠٠٥ م

I.S.B.N. : 977 - 15 - 0536 -X

صِفَتِ كِتَابِ اللَّهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ

تأليف

الدكتور / ياسين غضبان

المجلد الثاني

دار الوفاء



صَفِيَّ كِتَابِ اللَّهِ
فِي كِتَابِ اللَّهِ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب ١٣٠
ت / ٢٢٥٦٢٣ فاكس ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠.٥٠ / ١٧٠٥٦٥٨ / ١٠
E-MAIL: darelwafa@HOTMAIL.COM
WWW.EL-WAFAA.COM



٣٠- الكتاب وأمر الكتاب

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ ۚ ﴾
 وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۚ ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً
 وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۚ ﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۚ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۚ ﴾ [الرعد].

اختلف المفسرون في تفسير الكتاب المذكور ، ف قيل : هو التوراة والإنجيل والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما في كتبهم مصداقاً له ، فعلى الأول يكون المراد بقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ۚ ﴾ من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الثاني يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم ، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين ، أي : من أحزابهما ، فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم ، فيتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما في الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما ، وقيل : المراد بالكتاب القرآن الكريم ، والمراد بمن يفرح به المسلمون ، والمراد بالأحزاب المتحزون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذي أنكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقاداتهم .

واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة من ذكره ، وأجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار ، وقال كثير من المفسرين : إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ آدْعُوا اللَّهَ أَوْ آدْعُوا الرَّحْمَنَ ۚ ﴾ [الإسراء : ١١٠] ففرحوا بذلك ، ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يقول لهم ذلك فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ [الرعد] أي: لا أشرك به بوجه من الوجوه ؛ أي: قل لهم يا محمد - إلزاماً للحجة ورداً للإنكار: إنما أمرت فيما أنزل إلى عبادة الله وتوحيده ، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع ، وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسول .

وقد اتفق القراء على نصب ﴿ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ عطفاً على ﴿ أَعْبُدَ ﴾ قرأ أبو خلود بالرفع على الاستثناف ، وروى هذه القراءة عن نافع ، ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا ﴾ أي: إلى الله لا إلى غيره ، أو إلى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده ، والأول أولى لقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ فإن الضمير لله - سبحانه وتعالى ، أي : إليه وحده لا إلى غيره مرجعى ، ثم ذكر بعض فضائل القرآن ، وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم ، فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها ، وقيل المعنى: وكما أنزلنا الكتاب على الرسل بلغاتهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصاب حكماً على الحال ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التي يطلبون منك موافقتهم عليها ، كالاتمرار منك على التوجه إلى قبلتهم ، وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه .

﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الذي علمك الله إياه ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي : من جنبه ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يلى أمرك وينصرك ﴿ وَلَا وَاكِ ﴾ يقيك من عذابه . والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأتمته واللام في : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ ﴾ وهي الموطئة للقسم . و ﴿ مَا لَكَ ﴾ سد مسد جواب القسم والشرط .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر ، لهم أزواج من النساء ، ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم . ولم ترسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية ، وفي هذا رد على من كان ينكر على رسوله ﷺ تزوجه بالنساء ؛ أي : إن

هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول ، فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ سبحانه .. أي لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات . ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله ، وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم .

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد] أي : لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله - سبحانه : ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام: ٦٧] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره ^(١) .

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ أي : يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ، ويأتي به ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ ما يشاء ، أي يؤخره لوقته ، يقال : محوت الكتاب محوًا ، أي : أذهبت أثره ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ أي : يثبت .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم : ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقر بالتشديد وهي قراءة ابن عباس واختيار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها ؛ لقوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . وقال ابن عمر : سمعت النبي ﷺ يقول : ((يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت)) ، وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء الخلق والخلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة ، وعنه : هما كتابان سوى أم الكتاب ، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ والذي لا يتغير منه شيء ، قال القشيري : وقيل : السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق أشياء لا تتغير ؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء وفي هذا القول نوع تحكم .

وعن ابن عباس ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء فلا يبدله ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول : جملة ذلك عنده في أم الكتاب - الناسخ والمنسوخ ، وقال سعيد بن جبير أيضاً : يغفر ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره ، وقال عكرمة ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني : بالتوبة - جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب ، حسنات . قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وقال الحسن : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من جاء أجله .. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ من لم يأت أجله .

وقال الحسن : يمحو الله الآباء ويثبت الأبناء .

وقال السدي : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني ، القمر ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يعني : الشمس ، بيانه قوله : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء : ١١٢] .

وقيل : ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير ، ولقد قيل : إنه يجري فيه التبديل . وقيل : إنما يجري في الجرائد الآخر ، وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، ولا تبديل في علم الله ، وعنه أنه الذكر دليله قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] . وهذا يرجع معناه إلى الأول ؛ وهو معنى قول كعب قال كعب الأحبار : ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ عِلْمُ اللَّهِ تعالى بما خلق وبما هو خالق ^(١) .

٣١- كتاب الله تبيان لكل شيء

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

خصص الله - تعالى - بالذكر شهادة محمد ﷺ على أمته ، وهو نوع آخر من التهديد المانع من المعاصي فقال مخاطباً رسوله : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ الآية [النحل : ٨٩] . أي واذكر أيها الرسول يوم نبعث في كل أمة (أي قرن وجماعة) نبيا يشهد عليها ، قطعاً للحجة والمعذرة ، وجئنا بك شاهداً على هؤلاء : أي أمتك بما أجابوك به عن رسالتك ، فيظهر له الشرف الرفيع والمقام العظيم .

وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء] فقال له رسول الله ﷺ : « حسبك » فقال ابن مسعود ﷺ : فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

ثم أبان الله - تعالى - بمناسبة بيان شهادة النبي على أمته أنه أزاح علتهم فيما كلفوا ، فلم يبق لهم حجة ولا معذرة ، فقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا ﴾ الآية . أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبياناً لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية ، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم ، وهدى للضالين ورحمة لمن صدق به ، وبشري لمن أسلم لله وجهه ، فأطاعه وأتاب إليه ، بجنان الخلد والثواب العظيم ، وبيان القرآن لأحكام التشريع حلاله وحرامه إما بالوحي نصاً ومعنى مباشرة ، وإما بالوحي معنى وهو السنة التي فيها بيان آخر لمجمل القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] . وقال ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي عن المقدم بن معد : « إني أوتيت القرآن ومثله معه » ثم يأتي دور الاجتهاد في نطاق النصوص الشرعية ، وفي ضوء مبادئ التشريع ، وروح الشريعة

العامه ، وضمن مقاصدها وأهدافها العامة ، والاجتهاد يشمل كل مصادر التشريع الأخرى غير النصية من إجماع وقياس واستصلاح واستحسان وعرف وسد ذريعة واستصحاب وغير ذلك ^(١) .

إن الأنبياء شهود على أمهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة ، ودعوهم إلى الإيمان ، وفي كل زمان شهيد ، وإن لم يكن نبياً ، وهم أئمة الهدى خلفاء الأنبياء ، والعلماء حفظة شرائع الأنبياء .

والنبي ﷺ شاهد على أمته والأمم الأخرى ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] . وقال : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨] .

قال القرطبي ^(٢) : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال فيه النبي ﷺ ((يبعث أمة وحده)) وورقة بن نوفل الذي قال فيه النبي ﷺ : ((رأيته ينغمس في أنهار الجنة)) ، فهؤلاء - ومن كان مثلهم - حجة على أهل زمانهم ، وشهداء عليهم ، والقرآن الكريم تبيان لكل شيء ، من أصول التشريع والحلال والحرام والشرائع والأحكام ، ومبادئ الحياة الإنسانية ، قال تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله - تعالى - إلا ما ورد في هذا القرآن . أي: إما جملة وتفصيلاً ، وإما جملة فقط ، أما الأدلة الأخرى كالإجماع وخبر الواحد والقياس . فقد دل القرآن الكريم ذاته على حجيتها ، كما هو معروف في علم أصول الفقه . وكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبياناً لكل شيء ، كما قال الزمخشري ^(٣) .

(١) التفسير المنير ١٤/٢٠٧، ٢٠٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٦٤ .

(٣) التفسير المنير ١٤/٢٠٩، ٢١٠ .

٣٢- الكتاب المنزل المقروء

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٢﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء] .

سبق هذه الآية آيات متتاليات تم بعضهن بعضاً في توافق المعنى ، واستكمالاً لما كان يجري بين الرسول ﷺ والمشركون ، والذين كانوا يسألون النبي أموراً خارقة للطبيعة ، بعيدة عن قدرة الإنسان واستكمالاً لم علموه من طلب سابقهم من أنبيائهم أن يفعلوا المعجزات التي حصلت على أيدي أولئك الأنبياء فلما قضيت عادوا لكفرهم وضلالهم .

قال - تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٣٤﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٣٥﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكُوتًا ۚ قُلْ عَلَّمْتُ الْغَيْبَ لَوْلَا إِلَهُ مَعَهُ لَكُمُ الْيَقِينُ ﴾ [الإسراء] .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ ﴾ أي يكون لك بيت من ذهب يختلف عن بيوتهم المبنية بالحجارة والطين والتراب ليميز محمد ﷺ عنهم ، فيكون الأغنى ، ويكون الأقوى كما سمعوا عن صنع فراغة مصر أو ملوك كسرى أو قياصرة الروم الذين استذلوا الناس واسترهبوهم واستأثروا بكل غال وثمين .

فإن المشركون يريدون أن يكون محمدٌ مثلهم مثل طغاة البشر الذين استعبدوا الناس وادعوا الألوهية ، وبذلك أرادوا أن يقوم ﷺ ببناء بيت من ذهب مُحلّى بالجواهر .. يحاكي قصور أولئك وبيوتهم ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي ترتفع في السماء وتعلو وترتفع عن الأرض بقدرة خارقة لا يستطيع أحد غيرك أن يفعلها ، وإن فعلت ذلك: أي ارتفعت في السماء ﴿ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ ﴾ ، فإننا لن نؤمن لك فقط أن ترتقي وتعود إلينا خالي الوفاض ، ولكن - قد نؤمن - إذا أنزلت علينا من رقيق هذا كتاباً نقرؤه .

وهنا ورود الكتاب لا يعني القرآن الكريم الذي أنزل منجماً متفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ولكن لا يريدون أن يأتي بهذا الكتاب المدون المجموع كما أنزلت التوراة جملة واحدة - ويريدون ليؤمنوا - أن يُعطى كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب وحتى تستطيعوا قراءته وفهمه ، إنه أسلوب المشركين في كل مكان - فبعد أن أرادوا الجنان والأنهار أن تتفجر في واديهم - الذي هو غير ذي زرع من أيام إبراهيم عليه السلام - عندما قال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أرادوا الآن أكبر من هذا ، وهو أن يرقى ﷺ في السماء وينزل من صعوده بكتاب يقرؤونه . وفي إسراء ومعراج النبي ﷺ الذي أخبرهم به وحمل معه الصلاة التي هي عماد الدين ، وقوامه ، والتي هي الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، ولم يصدقوه بل كفروا وعتوا عتواً كبيراً . وأجابهم الرسول ﷺ بما يستطيعه ويقدر عليه ، فهو بشرٌ وقدرته محدودة - جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى وهو بشر مثلهم ، ولكنه رسول الله - تعالى - ليحقق رسالته بهدي الناس وكشف ظلمات عقولهم وقلوبهم .

وينذرهم من عذاب يوم عظيم ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] هذا هو رد النبي ﷺ فما هو إلا بشر - يملك طاقات البشر - ويتميز عنهم أنه رسول من الله جلّت قدرته .

ويأتي البيان التالي لهذه الآية بقوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى ﴾ فهم لم يصدقوا بما جاء به محمد ﷺ من الهدى ، ومن القرآن الكريم الذي هو المعجزة الدائمة الباقية إلى يوم الدين محفوظاً من الله قد هيأ الله سبل حفظه ، في صدور الحفاظ المؤمنين على مختلف العصور والدهور بعيداً عن التحريف والتأويل والتغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ، وبعد أن جاءهم الهدى فلم يؤمنوا بل تساءلوا.. وبكل استخفاف وكفر ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ أضافوا إلى كل طلباتهم عندما أخبرهم الرسول ﷺ بمهمته ورسالته وطاقته ، وبين لهم من الهدى بسلوكه وبما أنزل الله عليه ، قالوا : هل يرسل الله رسولاً من البشر ، فقد وردت في آيات أخرى أنهم يريدون أن يكون ملكاً ، وإن كان بشراً فليس فقير أبي

طالب، ولكنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف] وبذلك فقد اختلطت عليهم الأفكار واختلطت عليهم المطالب ، ويسوقون في كل موقف أمراً يبعدهم عن الإيمان ، ويبعدهم عن التصديق برسالة المصطفى ﷺ ، ومنهم من آمن ومنهم من كفر - فلعنة الله على الكافرين .

٣٣- الكتاب المستقيم غير ذي عوج

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝٢ مَّا كَثُِبَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ۝٤ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ۝٥ ﴾ [الكهف] .

تسميتها: سميت سورة الكهف: لبيان قصة أصحاب الكهف العجيبة الغريبة فيها في الآيات (٩ إلى ٢٦) مما هو دليل حاسم ملموس على قدرة الله الباهرة .

وهي إحدى سور خمس بدئت بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الكهف] وهي الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وهو استهلال يوحي بعبودية الإنسان لله تعالى ، وإقراره بنعمه وأفضاله ، وتمجيد الله - عز وجل ، والاعتراف بعظمته وجلاله وكماله .

مناسبتها لما قبلها: تظهر مناسبة وضع هذه السورة بعد سورة الإسراء من نواح : هي افتتاح الإسراء بالتسبيح . وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان في القرآن الكريم وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد ، نحو ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [الحجر : ٩٨] . وفي الحديث : « سبحان الله وبجمده » . كما أن الإسراء اختتمت بالتحميد - أيضاً - فتشابهت الأطراف أيضاً .

ولما أمر اليهود المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء : عن الروح وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين . أجاب - تعالى - في آخر سورة بني إسرائيل عن السؤال الأول ، وقد أفرد فيها الجواب عن الروح ، ثم أجاب - تعالى - في سورة الكهف عن السؤالين الآخرين ، فناسب اتصالهما ببعضهما .

ولما ذكر الله تعالى في الإسراء: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ناسب ذكر قصة موسى مع العبد الصالح - الخضر - كالدليل على ما تقدم ؛ وقد ورد في الحديث ، أنه لما نزل : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قالت اليهود : قد

أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ، فنزل : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ [الكهف: ١٠٩] ولما قال تعالى في الإسراء : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝ ﴾ [الإسراء] أعقبه في سورة الكهف بالتفصيل والبيان بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۖ ﴾ (١) .

والخلاصة: أنه - تعالى - لما قال في آخر الإسراء ﴿ وَيَا حَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وذكر المؤمنين به وأنه يزيدهم خشوعاً ، وأنه تعالى أمر بالحمد له وأنه لم يتخذ ولداً ، أمره - تعالى - بحمده على إنزال هذا الكتاب السالم من العوج القيم على كل الكتب المنذر من قال اتخذ الله ولداً ، المبشر المؤمنين بالأجر الحسن . ثم استطرد إلى حديث كفار قريش . والتفت من الخطاب في قوله : ﴿ وَكَبُرَتْ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء] إلى الغيبة في قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ لما في عبده من الإضافة المقتضية تشريفه (٢) .

وأيضاً ، فإن القرآن لم يذكر بلفظه القرآن في أية سورة كما ذكر في الإسراء ، وافتتح الله تعالى الكهف بذكره القرآن بلفظ الكتاب المستقيم ، وفي منتصف السورة بذكر القرآن الذي اشتمل جميع العلوم والأمثال .

وفي بداية سورة الكهف استهلّت ببيان وصف القرآن بأنه قيم مستقيم لا اختلاف فيه ولا تناقض في لفظه ومعناه ، وأنه جاء للتبشير والإنذار ، ومن آيات السورة : بيان عناية القرآن بضرب الأمثال للناس للعظة والذكرى ، وإيضاح مهام الرسل للتبشير والإنذار ، والتحذير من الإعراض عن آيات الله (٥٤ إلى ٥٧) . وأن سياسة الشريعة اقتران الرحمة بالعدل . فليست الرحمة فوق العدل . ولا العدل فوق الرحمة : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨] .

فضل هذه السورة: ورد في فضائل سورة الكهف أحاديث صحاح ثابتة .

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ٦٤ وما بعدها ، طبع دار الكتاب العربي ، دمشق .

(٢) التفسير المنير ١٥/١٩٦ ، ١٩٧ .

منها : ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » .

ومنها : ما رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي : عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، عصم من فتنة الدجال » ، وفي لفظ النسائي : « من قرأ عشر آيات من الكهف » الحديث .

ومنها : ما أخرجه النسائي في سننه عن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، فإنه عصمة له من الدجال » .

دلت هذه الأحاديث على أن قراءة الآيات العشر الأوائل أو الأواخر أو أي عشر آيات من سورة الكهف عصمة من فتنة الدجال ، والسنة أن يقرأ الشخص الكهف يوم الجمعة وليلتها لما رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد عن النبي ﷺ : « من قرأ الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له من النور ما بين الجمعتين » ، وروى الدارمي والبيهقي : « من قرأ ليلة الجمعة ، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق » ^(١) .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بسورة ملاء عظمتها بين السماء والأرض ، لكتابها من الأجر مثل ذلك . ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء » ، قالوا : بلى يا رسول الله - قال : « سورة أصحاب الكهف » ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل ، قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله الشيطان تلك الليلة » ، وفي الباب أحاديث وآثار كثيرة ويأتى شرحها بعد ذلك .

علم عباده كيف يحمده على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما فى حيز الصلاة لما قبله ، ووجه كون إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد وأحوال الملائكة والأنبياء وعلى كيفية الأحكام الشرعية التى تعبد الله وتعبده أمتة بها ، وكذلك العباد كان

(١) التفسير المنير ١٥/٢٠٠، ١٩٩، والرحيق المختوم ص ٣١٨ .

إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرنا ، وفى النبى : ﴿ وَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : ١] أى : شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى اللفظ والمعنى .

والعوج بالكسر فى المعاني ، وبالفتح فى الأعيان كذا قيل : ويرد عليه قوله سبحانه : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه] . يعنى الجبال ، وهى من الأعيان قال الزجاج : المعنى فى الآية لم يجعل فيها اختلافاً كما قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء] ، والقيم : المستقيم الذى لا ميل فيه أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها . وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج ، فربّ مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة .

وانتصاب ﴿ قِيمًا ﴾ [الكهف] بمضمر ، أى جعله قيماً ، ومنع صاحب الكشف أن يكون حالاً من الكتاب ، فاصلاً بين الحال وذو الحال ببعض الصلة ، وقال الأصهباني : هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثاني مفرد ، وهذا صواب ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَجْعَلْ عِوَجًا ﴾ لم يكن معطوفاً على ما قبله بل الواو للحال فلا فصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة ، وقيل : إن ﴿ قِيمًا ﴾ حال من ضمير ﴿ وَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً .

ثم أراد سبحانه - وتعالى - أن يفصل ما أجمله فى قوله ﴿ قِيمًا ﴾ فقال : ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى لينذر الكافرين ، والبأس : العذاب ، ومعنى ﴿ مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ صادراً من لدنه نازلاً من عنده .

روي أبو بكر عن عاصم أنه قرأ ﴿ مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ بإشمام الدال الضمة ، وبكسر النون والهاء ، وهى لغة الكلابيين وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ قرئ يشر

بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ؛ لأن مدار قبول الأعمال ، هو الإيمان ﴿ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهو الجنة حال كونهم ﴿ مَكِينِينَ ﴾ فيه . أي في ذلك الأجر ﴿ أَبَدًا ﴾ أي : مكثاً دائماً لا انقطاع له ، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الإنذار ، وذكر المنذر لخصومه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد لتقدم ذكره فقال : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض الكفار من قريش القائلون بأن الملائكة بنات الله .

فذكر - سبحانه - أولاً قضية كلية ، وهي : إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هي : بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية ، فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله - سبحانه - أقبح أنواع الكفر ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : بالولد ، أو اتخاذه الله إياه ، ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة لتأكيد النفي ، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة والمعنى : ما لهم بذلك علم أصلاً ﴿ وَلَا لِأَبَائِهِمْ ﴾ علم : بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة . وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعاً ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ انتصاب ﴿ كَلِمَةً ﴾ على التمييز ، وقرئت بالرفع على الفاعلية .

قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة ، قال الزجاج : كبرت مقالتهن كلمة . والمراد بهذه الكلمة هي قولهم : اتخذ الله ولداً ، ثم وصف الكلمة بقوله : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها ، والخارج من الفم ، وإن كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن الحل ، ثم أراد تقييح ما وقع منهم فقال : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي : ما يقولون إلا كذباً لا مجال للصدق فيه مجال . انتهى .

وقد أوضحت الآيات أن أعظم نعمة من الله على عباده إنزال القرآن الكريم الدواء الناجع لمشكلات البشرية ، والمنقذ من الظلمات إلى النور ، والحق والعدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء ، ومهمته أيضاً إنذار الكافرين وتخويفهم

بالعذاب الشديد في نار جهنم والنكال في الدنيا ، وخصوصاً المشركين الذين جعلوا لله ولداً وهم كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، واليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، ولا دليل لهم ولا لأسلافهم على ما يقولون ، وتلك كلمة كبيرة الإثم ، شديدة الشناعة ، عظيمة الجرم .

وللقرآن مهمة أخرى هي تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات من التصديق بما جاء به النبي ﷺ ، والتزام الأوامر واجتناب النواهي بالأجر الحسن ، وهو الجنة التي يخلد فيها أهلها ، فهي دار الخلد التي لا يموتون فيها ^(١) .

٣٤- كتاب الله الذي لا مبدل لكلماته

﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف].

﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من القرآن الكريم ، ولا تسمع لقولهم: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا مغير لأحكامه ، فلا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ تعدل إليه إذا هممت به .

وبعدها يأتي قول الله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿ وسبب نزول هذه الآية (عن سلمان الفارسي ، قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ : عينة ابن حصن ، والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله : إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين - وكانت عليهم جباب الصوف - ولم يكن عليهم غيرها ، جلسنا إليك ، وحادثناك ، وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ إلى أواخر الآية (٢٧) إلى قوله : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ يتهدهم بالنار ، فقام النبي ﷺ يلتسمهم ، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : « الحمد لله الذي لم يمتني ، حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم الحيا ومعكم الممات » (١) .

﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ، قائلاً له: واتل الكتاب الموحى به إليك ، واتبع ما جاء

فيه من أمر ونهي ، فإنه لا مغير لكلمات ربك من وعد الطائعين ، ووعد للعصاة ، ولا محرف ولا مزيل لها ، فإن لم تعمل به فوقع بالوعيد فلن تجد ملجأ ولا ولياً ناصرًا من دون الله تعالى .

هذا هو التوجيه الأول: تلاوة القرآن والعمل بمقتضاه .

والتوجيه الثاني: هو مجالسة الفقراء والمستضعفين فقال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي جالس الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه في الغداة (صباحاً) والعشي (مساءً) أي في كل وقت ، سواء أكانوا فقراء أو أغنياء ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته ورضاه .

تضمنت الآية الإرشادات التالية :

١- وجوب اتباع القرآن وما جاء به ؛ لأنه لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه ، ووعد أهل طاعته المتبعين ما أمر به ، المتبعدين عما نهى عنه .

٢- الإسلام دين المساواة ، فلا فرق في نظامه بين شريف ووضيع ، وغني وفقير ورئيس ومرؤوس ولا تفرقة في أموره الاجتماعية بين الطبقات ، الكل سواء في المجالس والمعاملة والحقوق والواجبات ، وقد قضى القرآن بآية: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ على الامتيازات في المجالس والخطاب أو الكلام بين أشراف قريش وساداتها وبين فقراء المسلمين وضعفائهم ^(١) .

٣٥- ذكر الصالحين (١)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ [مريم] .

في الآية السابقة والآيات اللاحقة ٤١، ٥١، ٥٣، ٥٦ ، ذكر بعض الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلا الآية السابقة التي يدور الحديث فيها كلية عن مريم ابنة عمران والدة عيسى عليه السلام.

والباقى يدور حول أنبياء متفاوتي الظهور ، وجاءت مريم آخر حلقة النساء اللواتي كان لهن علاقة بالنبوة (١) .

ثم توالى أخبار الأنبياء بتقديم وتأخير ، وذكر الكتاب هنا يعنى أن يذكر هؤلاء في القرآن الكريم عموماً أو تخصيصاً في سورة من سور القرآن الكريم هي سورة مريم ، وربما هذا الذي عزز تسمية السورة باسم سورة مريم ، فذكر هؤلاء في كتاب الله المعجزة الخالدة تكريماً لهم ، والأهم هو تقويم حياة الأنبياء عليهم السلام، بعد أن أفقدتهم كتب السابقين - وخاصة التوراة المحرفة - كل قدسية وعصمة ، وإخلاص ، وسمو ، وترفع ، فأسقطوا - وبكل بذاءة - هؤلاء الذين هم رأس المخلصين من عباد الله بين البشر في مواقف من الكذب والزنا ، والانحراف وبناء الأصنام ، وغيرها وغيرها مما تحفل به تلك الكتب .

وبما أنهم تناولوا على الذات الإلهية: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة ٦٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ﴾ [آل عمران ١٨١] ﴿عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة ٣٠] إلى آخر هذه التخرصات ، فإن القرآن الكريم قد أوضح إفك ما ألصق أولئك من أمور مشينة بالأنبياء ، لنظهرهم كحملة رسالة ، وهداة البشرية ، وبناء الحضارة ومنارات الخير ، وأصحاب العصمة ، وبين القرآن الكريم استخلاص هؤلاء واصطفائهم من بني البشر باعتبارهم هداة ، منذرين ، مبشرين ، مؤمنين ، صادقين .

(١) انظر كتابنا : نساء في حياة الأنبياء - طبع دار الوفاء ، ط ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ص ٢٢٦ .

وهذا ما نشير إليه عند ذكر الأنبياء ، عن هذه الصفات التي لم ينلها غيرهم ، ولحق بهم الصالحون من عباد الله فالشهداء . فإن صورة الأنبياء في القرآن الكريم صورة الطهارة والإيمان والإسلام والإخلاص والتبليغ ، والتحمل الغير محدود في سبيل الدعوة ، وفي سبيل هداية الناس ، وترافق ذكر هؤلاء كل المعاني السامية الرائعة التي ولدت في نفوس المؤمنين وخاصة من المسلمين تلك الصورة المضيئة الصافية للأنبياء عليهم السلام من سمو ورفعة وبلاغة ، وإعجاز ذكر هؤلاء الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

ومريم هنا قد ذكرت في تسلسل بليغ من حملها إلى أن رفع ولدها إلى الله عز وجل ، وحملها في بطن أمها أي وهي جنين في بطن أمها إلى أن حملت من روح الله ووضعت عيسى عليه السلام بشراً نبياً عبداً لله ورسولاً ، ولكن في هذه الآية من سورة مريم ذكر الله موقفاً واحداً لها وهو أنها: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ وارتباط ذكرها بالقرآن بعد ذلك ، وفي جميع الآيات التالية التي تحكي قصتها عليها السلام ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ واذكر في القرآن الكريم خبر مريم ﴿ إِذِ اتَّيَبَتْ ﴾ حين اعتزلت . ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أي اعتزلت في مكان نحو الشرق من الدار .

أي واذكر أيها الرسول الكريم للناس في هذه السورة (الكتاب) قصة مريم البتول بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، حين تنحت واعتزلت من أهلها وتباعدت عنهم إلى مكان شرقي في بيت المقدس . أو المسجد المقدس لتقطع إلى العبادة . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء ، اتخذت النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله تعالى: ﴿ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة .. إلخ ^(١) .

لقد ذكرت مريم مجردة باسمها أو اسم أبيها مريم ابنة عمران إحدى عشرة مرة في القرآن أكثرها في سورتي آل عمران ومريم . وذكرت مريم مقترنة بابنها عيسى عليه السلام ابن مريم ثلاثاً وعشرين مرة . وكل ما ذكرت به هو تفضيل وعفاف ورفعة وختم ذكرها فقال تعالى بعد أن ذكر الصالحات من النساء :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتَيْنِ ﴾ [التحریم] . هذه هي مريم العذراء بعيداً عن افتراء المفتريين ، معجزة من الله - تعالى - كانت تأتيها من الله - تعالى - قبل أن يهب الله - تعالى - لها غلاماً زكياً ، وكانت معجزة بحملها وولادتها وكل خطوة في حياتها ، وقد أدت أمانتها التي أودعها الله تعالى خير أداء ، فكانت خير النساء ، بحكم الله تعالى وتصديق نبيه ﷺ محمد بن عبد الله ^(١) .

٣٦- ذكر الصالحين (٢)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم].

هذه القصة الثالثة في سورة مريم بعد قصتي زكريا ويحيى ، وعيسى ومريم وهي قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن المعلوم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنسبة والحشر ، والمنكرون للتوحيد اتخذوا معبوداً سوى الله - تعالى ، وهؤلاء فريقان :

منهم من أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلاً فاهماً وهم النصارى ، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً ، ليس بحى ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان ، والفريقان وإن اشتركا في الضلال ، إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم ، فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان ^(١) .

وأوضح وصف إبراهيم عليه السلام في القرآن عظمة وسمو ورفعة هذا النبي ورسالته التي جاء بها ، وذكر ذلك متفرقاً في مواضع كثيرة ، وكل ما ذكر كان تركية ومدمحاً : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] وغير ذلك من الأوصاف التي تليق بهذا النبي الذي يعتبر بحق أب الأنبياء الذين جاؤوا بعده . ولقد ذكر في القرآن ثمان وستين مرة مكرراً في أكثر السور ، وكل ذكر كان جزءاً من حياته عليه السلام ، وتبيان فضائله وعظمته ورسالته الحنيفة المسلمة ، والتي كانت أساساً لرسالة الإسلام الحنيف ، ولم ينح إبراهيم عليه السلام من افتراء المفترين الذين ثبتوا الافتراء عليه في كتبهم المحرفة واتهموه بالكذب والمراوغة وغيرها من الصفات التي لا تليق بإنسان عدل عادي فكيف تجرؤوا على نبي هو أبو الأنبياء ، وصاحب رسالة غراء وحمل دعوته إلى جميع المنطقة المأهولة في ذلك الوقت من جنح الهلال الخصيب - البصرة - إلى الجنح الآخر مكة .. ووصل إلى مصر مروراً بصحراء سيناء حيث ستنزل رسالة موسى عليه السلام عليه فيها .

٣٧- ذكر الصالحين (٣)

٣٧- ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم].

موسى عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم ، فقد ذكر مائة وستا وثلاثين مرة ، وفي أكثر سور القرآن المائة والأربع عشرة ، وهو من أولى العزم من الرسل . أنزلت عليه التوراة تشريعاً لبني إسرائيل الذين جهد حتى أخرجهم من ظلم فرعون وأيده الله - تعالى - بآيات تسع - معجزات - لفرعون وحاشيته وسحرته ، وأن يكسب من حاشية فرعون سحرته الذين آمنوا برب موسى عليه السلام . ذكره الله في القرآن ، وأمر النبي ﷺ أن يذكره ، وقد ذكره النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ويأتي هنا : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ .

والمناسبة : هذه هي القصة الرابعة لأخبار العرب وغيرهم أن موسى عليه السلام مثل إبراهيم عليه السلام أخلص ^(١) العبادة لله تعالى من الشرك والرياء ، وأسلم وجهه لله تعالى ، وقبله أيضاً أخوه هارون ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليه السلام ، وإنما وهب الله له نبوته لا لشخصه واخوته ، وإنما استجابة لدعاء موسى في قوله : ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿فَإِشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه] ، فأجابه الله تعالى - إليه بقوله : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه] ، وقوله : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص] .

ومعنى هذه الآية : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ لما ذكر الله تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه عطف بذكر موسى الكليم ، فقال : واذكر يا محمد في الكتاب ، واتل على قومك أوصاف موسى التي سأخبرك عنها وهي خمس صفات .

١- ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي جعلناه مختاراً مصطفى ، وأخلصناه مطهراً من الآثام والذنوب ، كما قال تعالى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾

(١) مخلصاً : مختاراً مصطفى مخلصاً من الدنس ، وقرئ بكسر اللام : أي مخلصاً في عبادته من الشرك والرياء ، موحداً أسلم وجهه لله .

[الأعراف] وقرئ بالكسر ، ومعناه: أخلص الله تعالى في التوحيد والعبادة ، والإخلاص : هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده ، قال الثوري عن أبي لبابة قال : قال الحواريون : يا روح الله ، أخبرنا عن المخلص لله ، قال : الذي يعمل لله ولا يحب أن يحمده الناس .

٢- ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمد عليهم صلوات الله تعالى وسلامه ، أرسله الله إلى عباده داعياً ومبشراً ونذيراً فأنبأهم عن الله بشرائه .

والرسول: هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وكان معه كتاب فيه شريعته كموسى عليه السلام سواء أنزل عليه كتاب مستقل أم كتاب من سبقه .
والنبي : هو من أوحى إليه بشرع يخبر به عن الله ويخبر به قومه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

٣- ﴿وَتَدَيَّنْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] أي : كلمناه من جانب الطور عن يمين موسى أو عن يمين الجبل نفسه حين جاء من مدين متجهاً إلى مصر فهو كليم الله بعدئذ ، وأصبح رسولاً ، وواعدناه بعد إغراق آل فرعون ، وأنزلنا عليه كتاب التوراة ، والمناداة عن يمين موسى أصح ؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال .

٤- ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَحِيًّا﴾ أي : أدنياه إدناء تشريف وتقريب منزلة ، حتى كلمناه ، أو حين مناجاته لنا فقوله : ﴿نَحِيًّا﴾ من المناجاة في المخاطبة ، أي : إنه أصبح في العالم الروحي قريب المنزلة من الله تعالى .

٥- ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً أي: منحناه من فضلنا ، ونعمتنا ، فجعلنا أخاه نبياً حين سأل ربه قائلاً : ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِيْءَ أَزْرَى﴾ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿طه﴾ . فحقق له طلبه ، وأجاب دعاءه وسؤاله وشفاعته بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيَْتَ سُلُوكَ يَمُوسَى﴾ ﴿طه﴾ ، وقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص] . وذلك في الآيتين (٥٢) و (٥٣) من سورة مريم (١) .

٣٨ - ذكر الصالحين (٤)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿١١٤﴾﴾
 ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿١١٥﴾﴾ [مريم] .

إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام نبي ابن نبي الجد الأبعد لسيدنا رسول الله ﷺ ، ولد إسماعيل من أكادي جاء من أور من جنوب العراق وأم (أميرة أسيرة) من طيبة في جنوب مصر . ونشأ وترعرع وكبر في قبيلة عربية هي قبيلة جرهم . أول من نطق بالعربية ، وأول من روض الحصان ، وكان يصيد الوحوش وذكر في القرآن الكريم اثني عشرة مرة .

وهذه هي القصة الخامسة في سورة مريم ، وهي قصة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وكان على شريعة أبيه في توحيد الله ومحاربة الوثنية وعبادة الأصنام ، وإبراهيم كما عرفنا أبو العرب يمينها ومضريها .

قال الزمخشري : كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاة والعبادة ، لجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى من سائر الناس .

أضواء على قصة إسماعيل الذبيح

رأى إبراهيم عليه السلام في منامه - رؤيا الأنبياء حق - أنه يذبح ولده قرباناً لله تعالى : وكان ذلك الولد - على الأصح الراجح اليقين - إسماعيل : فعرض الأمر على ولده ، فتقبل القضاء بالرضا وقال : ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصفات ١٠٢] : فلما بدأ بتحقيق الأمر وأهوى بالمدية إلى ذبح ولده ناداه الله بالكف . وأن هذا العمل منه يكفي تصديقاً للرؤيا ، ورأى إبراهيم كبشاً قريباً منه فذبحه فدية عن ولده ، ولم تعين الآيات اسم ذلك الولد ، ولكن سياق الآيات ، وتبشير إبراهيم بإسحاق بعدها ، يدل على أن الذبيح إسماعيل وذلك في الآيات من سورة الصفات (٩٩ - ١١٣) ، وفيها : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١١﴾﴾ [الصفات] ثم قال : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الصفات] والضمير يعود إلى

الذبيح ، ثم قال : ﴿ وَشَرَّئْنَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات] ، فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر قصة الذبيح صريح في أن إسحاق غير الغلام المأمور بذبحه ، وعودة الضمير إلى الغلام الذبيح ، وذكر اسم إسحاق معه صريحاً يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق .

ويرى اليهود أن إسحاق هو الذبيح ليفتخروا بأن أباهم هو الذي جاد بنفسه في طاعة ربه ، وهو في حال صغره .

والدليل على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها ، أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد ، والإقدام على ذبح الولد الوحيد هو الإسلام بعينه أي الطاعة والامتثال ، ولم يكن إسحاق وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام ؛ لأن إسحاق ولد ، ولإسماعيل أربع عشرة سنة ، كما هو صريح في التوراة وبقى إسماعيل إلى أن مات إبراهيم ، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه ، وذبح إسحاق يناقض وعد الله لإبراهيم أن سيكون له ابن هو يعقوب ، ثم إن مسألة الذبيح وقعت في مكة ، وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إليها رضيعاً كما في حديث البخاري (١) .

وعند الزمخشري في الكشف حديث : « أنا ابن الذبيحين » رواه الحاكم في المناقب .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ واذكر أيها الرسول في القرآن خبر وصفات إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم وهي صفات أربع :

١ - ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ مشهوراً بالوفاء ، مبالغاً بإنجاز ما وعد ، فما وعد وعداً مع الله أو مع الناس إلا وفى به : فكان لا يخالف شيئاً مما يأمر به من طاعة ربه ، وإذا وعد الناس بشئ أنجز وعده ، وناهيك من صدق وعده أنه وعد أباه أن يصبر على الذبح ، ، فوفى بذلك ، قائلاً : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات] .

وصدق الوعد من الصفات الحميدة في كل زمان ومكان ، وخلفه من الصفات الذميمة ، قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ [الصف] .

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » وإذا كانت هذه وصفات المنافقين فضدها صفات المؤمنين ، ومما يؤسف له أن خلف الوعد شائع بين المسلمين ، وبخاصة التجار والعمال وأصحاب الحرف .

٢- ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الوصفين كأبيه ، وكموسى عليه السلام فكان رسولاً إلى جرحهم في مكة لتبليغهم شريعة إبراهيم ، وإخبارهم بما أنزل الله تعالى . وهذا دليل على أنه لا يشترط إنزال كتاب مستقل على الرسول ، وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وأخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » .

٣- ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أي وكان يأمر أمته وعشيرته وأهله بهاتين العبادتين الشرعيتين المهمتين جداً ، فكان صابراً على طاعة ربه قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء] (١) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] . وقال سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] ، وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجه زوجها الماء » ، وأخرج أبو داود النسائي وابن ماجه - واللفظ له - عن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبنا من الذاكرين عند الله والذاكرات » .

٤- ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي رضا زاكياً صالحاً ، رضي العمل غير مقصر في طاعة ربه فعلى المؤمنين الاقتداء به ^(١) .

(١) التفسير المنير ١٦ / ١١٦ . بتصرف .

٣٩- ذكر الصالحين (٥)

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۚ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۚ ﴾

[مريم] .

(إدريس) هو سبط شيث ، وجد أبي نوح ، واسم « أخنوخ » لقب إدريس لكثرة درسه ؛ إذ روى أن الله تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وأنه أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل ، وأول مرسل بعد آدم .

هذه قصة إدريس وهي السادسة من سورة مريم ، ذكرت للعبارة لأنه دعا إلى دين الله والتوحيد وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا ، وحض على الزهد في الدنيا ، والعمل بالعدل ، وأمر بالصلاة والصيام أياماً من كل شهر ، وحث على جهاد الأعداء ، وأمر بالزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ في الطهارة من الجنابة والكلب والحمار ، وحرّم المسكر من كل شيء . وهو أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام ، فهو من ذرية آدم لقربه منه ، لأنه جد أبي نوح وإبراهيم من ذرية من حُمِلَ مع نوح ، لأنه من ولد سام بن نوح . وجاء في حديث مسلم حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرّ به في السماء الرابعة . وهذا هو الصحيح ، وأما ما ذكر في البخاري من أنه في السماء الثانية فهو وهم .

ولد بمنف في مصر ، وسموه (هرمس الهرامسة) وقيل : ولد ببابل ، وأخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه ، وأقام بمصر يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وطاعة الله عز وجل . وكان يعلمهم كيفية تخطيط المدن .

أقام في الأرض اثنتين وثمانين سنة ، وكان على فص خاتمه : إن الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر ، وعلى المنطقة التي يلبسها : الأعياد في حفظ الفروض ، والشرعية من تمام الدين ، وتمام الدين من كمال المروءة وعلى المنطقة التي يلبسها

وقت الصلاة على الميت : « السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة » وكانت له مواعظ وآداب . ذكر في القرآن الكريم مرتين فقط .
وصف الله إدريس الذي أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط بصفات ثلاث هي :

- ١- إنه كان صديقاً ، أو كثير الصدق ، قوي التصديق بآيات الله تعالى .
- ٢- وكان رسولاً نبياً ، أي موحى إليه بشرع ، مأموراً بتبليغه إلى قومه وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر .
ورفعه الله مكاناً علياً .. أي على قدره وشرفه بالنبوة ، وجعله ذا منزلة عالية ، كما قال الله تعالى لنبيه : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح] .

وروى مسلم في صحيحه : أن رسول الله ﷺ مرَّ به ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة ، وجرت العادة ألا يرفع إلى السماء إلا من كان عظيم القدر والمنزلة .
والأولى في رأي الرازي أن المراد بالصفة الثالثة الرفعة في المكان إلى موضع عال ، لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان ، لا في الدرجة والظاهر في ذلك أن المراد الرفعة في الدرجة ، إذ لا فرق في التعبير بين المكان والمكانة ، فيقال : فلان ذو مكان عال عند السلطان .

وسبب رفع مكانته أنه كان كثير العبادة ، يصوم النهار ، ويتعبد في الليل . قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس عليه السلام كل يوم من العبادة مثلما يرفع لأهل الأرض في زمانه ، وأصحاب هذه الخصال هم قدوة يقتدي بها المؤمن ، ويتحلى بها المخلص ، وقد بدأ الله نبيه بالأمر بها والخطاب معه ؛ لأنه قدوة أمته والمثل الأعلى للمؤمنين على الدوام مشيراً لذلك في الآية التالية ^(١) :
وبعد أن ذكر الله - تعالى - قصص هؤلاء الأنبياء ختم أخبارهم ، وقد فصل من جملة الأنبياء فقال :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم] .

٤٠- كتاب فيه ذكركم

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء] .

في هذه الآية الكريمة نبه الله - تعالى - عباده المؤمنين على عظيم النعمة التي أنعمها عليهم ، والفضل العظيم التي تفضل به عليهم ، والقرآن الذي جعله نورا يهتدي به الضالون ، حيث يقودهم إلى النعيم في الدنيا والخلد والنعيم الدائم في الآخرة ، يقول: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا ﴾ يا محمد ﷺ يعني: القرآن الكريم ، هذا الكتاب الذي حوى ذكر من قبلكم مفصلاً ومختصراً ، حسب اقتضاء العبرة التي أرادها الله - تعالى - لعباده . وليس فقط ذكر من مضى ولكن - أيضاً : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ صفة لـ ﴿ كِتَابًا ﴾ والمراد بالذكر هنا : الشرف . أي فيه شرفكم ، كقوله - تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] ، وقيل : فيه ذكركم ، أي : ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم ، وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب .

وقيل: فيه حديثكم ؛ قاله مجاهد . وقيل : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم .

وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم . قاله سهل بن عبد الله .

وقيل: فيه موعظتكم .

والاستفهام في: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ للتوبيخ والتقريع ، أي : أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر .

ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة بقوله - تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء^(١)] .

ثم إن القرآن الكريم سبب لرفعة شأن العرب ؛ لأنه نزل بلغتهم ، وفيه أحكام الشرع ، وبيان مصير الناس في الآخرة ، وما يلقونه من ثواب وعقاب .

وهو - أيضاً - عظة وعبرة يرغب ويبشر ، ويحذر وينفر ، ويأمر وينهى ، ويرشد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويوضح ما فيه سعادة الدارين ، ويرشد

البشرية كافة إلى اتباع النظام الأصلح ، ويحث القرآن الكريم - دائماً - على تدبر ما جاء به من أحكام ، وتفهم ما تضمنته من نظام سديد في الدين والدنيا والآخرة^(١) .

٤١ ، ٤٢ - الكتاب المبين

٤١- ﴿ طسّم ١ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ نَشَأْ نُثَرِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ ﴾ [الشعراء] .

﴿ طس ٦ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ٧ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٨ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٩ ﴾ [النمل] .

٤٢- ﴿ طسّم ١ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ ﴾ [القصاص] .

تلك سور ثلاث من أوسط سور القرآن الكريم ، وجاءت كلها في الثلث الثاني من القرآن الكريم من الجزء السابع عشر ، اشتركت هذه السور بالأحرف النورانية المختلفة عن كل الأحرف التي وردت أو ستلحق ، اشتركت سورتا (الشعراء والقصص) بنفس الأحرف (ط س م) ، وفضل بينهما سورة النمل بـ (ط س) فقط ، كما أن السورتين اللتين اشتركتا بـ (ط س م) اشتركتا أيضاً بالآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴾ ، كما أن الأحرف النورانية اعتبرت آية في كلتا السورتين ، أما سورة النمل فقد اعتبرت (ط س) جزءاً من آية وذكر الله تعالى بعد ذلك القرآن إضافة إلى الكتاب في هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ طس ٦ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ٧ ﴾ .

الابتداء بحرف (ط) شاركت هذه السور بابتدائها سورة طه ، أما سورة النمل فقد استبدل الطاء بـ (ي) في سورة (يس) ، والميم في سورتي الشعراء والقصص شاركتا أربع سور بـ (ألم) وهي (البقرة ، وآل عمران) ، (ولقمان والسجدة) ، وجاءت كل سورتين متتاليتين ، وجاء ذكر كتاب الله بعد كل هذه الأحرف - عدا سور مريم (كه ي ع ص) والروم (ألم) والعنكبوت (ألم) ، حيث ابتدأت السور الثلاث بالأحرف النورانية ، ولم يذكر كتاب الله تعالى بعد أي سورة بأحد أسمائه (القرآن ، الكتاب ، الفرقان) أو بإحدى صفاته الكثيرة .

هذا الترتيب المتناسق المتوازن في هذه السور إنما هو ترتيبٌ عجيبٌ جاء به القرآن الكريم ليؤكد إعجازه في كل سورة من سوره ، بل في كل آية من آياته ، وسور معجزات وآيات بينات محكمات ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومهما قدّم المفسرون من توضيحات لهذه الأحرف ؛ فإنها معجزة من معجزات هذا القرآن ، فنحن الآن لم نقف على توضيح أو تفسير لورود هذه الأحرف المتفرقة والتي تشكل في كل المصحف آية أو جزءاً من آية ، إنها في علم الله وهو علام الغيوب .

٤١- الكتاب المبين

٤١ ﴿ طَسَمَ ۚ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ ﴾ [الشعراء] .

﴿ طَسَمَ ۚ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ ﴾ (ط . سين . ميم) الأحرف المقطعة للتنبيه إلى أن آيات الكتاب المبين - ومنها هذه السورة مؤلفة من مثل هذه الأحرف ، وهي في تناول المكذبين بالوحي ، وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب المبين ، والحديث عن هذا الكتاب متداول في السورة وفي مقدمتها ونهايتها ، كما هو الشأن في السور المبدوءة بالأحرف المقطعة في القرآن .

وبعد هذا التنبيه يبدأ في مخاطبة رسول الله ﷺ الذي يهمله أمر المشركين ويؤذيه تكذيبهم له وللقرآن الكريم ، فيسليه ، ويهون عليه الأمر . ويستكثر ما يعانيه من أجلهم ، ولقد كان الله قادراً على أن يلوي أعناقهم كرهاً إلى الإيمان ، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسراً .

﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ﴾ وفي التعبير ما يشبه العتاب له على شدة ضيقه ﷺ وهمه بعدم إيمانهم : ﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وبنج النفس : قتلها ، وهذا يصور مدى ما كان رسول الله ﷺ يعاني من تكذيبهم ، وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب ، فتذوب نفسه عليهم - وهم أهله وعشيرته وقومه - ويضيق صدره ، فربه يرأف به ، وينهه على هذا المم القاتل ، ويهون عليه الأمر ، ويقول له : إن إيمانهم ليس مما كلفت ؛ ولو شئنا أن نكرهم عليه لأكرهناهم ، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالاً ، ولا انصرافاً عن الإيمان .

ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ملوية ، محنية ، حتى لكان هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون ! ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة ، لقد جعل آيتها القرآن منهاج حياة كاملة معجزاً في كل ناحية . ومعجزاً في بنائه التعبيري ، وتنسيقه الفني ، باستقامته على خصائص واحدة ، في مستوى واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ، كما هي الحال في أعمال البشر ، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات ، بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، فهو ثابت لا يتخلف ، يدل على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال .

معجزاً في بنائه الفكري ، وتناسق أجزائه وتكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة ، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتناسق وتتكامل ، وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتلييها وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلييتها ، وكلها مشدودة إلى محور واحد ، وإلى عروة واحدة في اتساق لا يمكن أن تظن إليه خبرة الإنسان المحدودة ، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمكان ، وهي التي أحاطت به هذه الإحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثير والاستجابة فيها ، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين ، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم - ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها وللأجيال كلها ، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان ، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من

يشاهدونها ، ثم بعد ذلك تبقى قصة تروى ، لا واقعا يشهد .

فأما القرآن فما هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، كتاب مفتوح ، ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدوا إلى اتخاذه إماماً - ويلبي حاجاتهم كاملة ، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل وسيجد فيه من بعدنا كثيراً مما لم نجده نحن ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ويبقى رصيده لا ينفد ؛ بل يتجدد ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى فكانوا يعرضون عما ينتزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين ^(١) .

٤٢- آيات الكتاب المبين

٤٢- ﴿ طَسَمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبِّ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [القصص] .

﴿ طَسَمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ ﴾ الآيتان هما ما وردتا في سورة الشعراء ، وتم الحديث المستفيض عن هاتين الآيتين المعنيتين من كتابنا هذا ، والمراد التنبيه والتوجيه ، وذكر صفات كتاب الله تعالى وفضائله وعظمته ، والذي أوردها الله تعالى باختلاف بين سورة وسورة ، خاصة فيما ورد من هذه الآيات بعد الأحرف النورانية وذكر كتاب الله بأسمائه أو صفاته ، ثم الانتقال إلى مواضيع مختلفة من مواضيع القرآن الكريم .

(ط . س . م) ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ ﴾ : تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف في لغة البشر الفانين .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ ﴾ فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر وهم لا يستطيعونه ، إنما هو الوحي الذي يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصفة في الكبير والصغير .

﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ .

فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ؛ يريهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق ، وهذا القصص المتلو في السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به يتفعلون .

وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ؛ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة ، وكيف .. ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؛ بصفاتهم هذه التي تؤهلهم لتلك

العناية الكريمة : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض نبأ موسى وفرعون ، يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها ، ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى والظروف القاسية التي ولد فيها . وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ، وضعف قومه واستذلهم في يد فرعون ، ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي ، ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ، وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر ، وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ، وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية ، وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته ؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيفائه .

ولقد كانت قصة موسى عليه السلام - تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة - لا من حلقة الميلاد - حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ، ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية ، فأما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود ؛ إنما المقصود أن الشر حين يتمخض يحمل سبب هلاكه في ذاته ، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر ، بل تتدخل يد القدرة وتأخذ المستضعفين المعتدى عليهم فتقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم ، وتربيههم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوراثين .

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة ؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التي تؤدي هذا الغرض ، وتبرزه ، والقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض ، فهي أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ ، وهي تتناسق في هذا السياق الذي تعرض فيه ، وتتعاون في بناء القلوب وبناء الحقائق التي تعمر هذه القلوب .

والحلقات المعروضة في القصة هنا هي : حلقة مولد موسى عليه السلام وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته ، وحلقة فتوته وما أتاه الله من الحكم والعلم وما وقع فيها من قتل القبطي ، وتآمر فرعون وملئه

عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة فيها ، وحلقة النداء والتكليف بالرسالة ، ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون والعاقبة الأخيرة - الغرق - مختصرة سريعة (١).

٤٣- اتل ما أوحى إليك من الكتاب

﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت] .

سورة العنكبوت إحدى سور ثلاث في القرآن الكريم ابتدأت بالأحرف النورانية المقطعة ولم يلحق بها اسم كتاب الله تعالى أو صفة من صفات هذا الكتاب ، وقبلها مريم ، وبعدها الروم ، ولم يمنع أن يعاد ذكر كتاب الله في هذه الآية الكريمة .

﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي: اقرأ يا محمد - ومثلك كل مسلم - وأدم التلاوة .. تلاوة هذا القرآن وتبليغه للناس ؛ فإنه إمام ونور وهدى ورحمة ، ودليل خير ونجاة ، وعلاج ما استعصى من الأزمت والحزن ، وتخطي مراحل اليأس والقنوط ، وهذا أمر الله تعالى لرسوله وللمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو بقراءته وإبلاغه للناس للاستزادة من المعرفة الدالة على وجود الله تعالى ، ووحدانيته وقدرته وحكمته .

كذلك أمر الله تعالى بالصلاة - قرعة عين المؤمن - فقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ أي: وأد أيها النبي - وكل مؤمن - فريضة الصلاة ونافلتها تامة الأركان والشروط ، مع الخشوع والخضوع لله ، واستحضار خشية الله في جميع مراحلها ، فهي تشتمل بمواظبتها على شيئين ترك الفواحش والمنكرات ، وهي عماد الدين ، وصلة بين العبد وربّه ، ودليل الإيمان واليقين ، وفرجة المكروب والمحزون ، وسبب لتطهير العبد من آثار الذنوب والمعاصي ، جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وغيره من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلاّ بعداً » .

وروي أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال : « حُب إلى من ديناكم النساء ، والطيب ، وجعلت قرعة عيني في الصلاة » .

وكان ذلك مشروطاً بأدائها بخشوع وخضوع وإخلاص كما ذكر ، حتى تكون

ذات مدلول وروح ، وذات إشعاع يملأ النفس استحضاراً لعظمة الله والخوف منه ، وإلا كانت مجرد حركات وأفعال مادية فاقدة الأثر المقصود منها ، ثم أكد أن الصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وذكر الله وتفقدته الناس العابدين برحمته أكبر من ذكرهم إياه بطاعته ، والله عليهم بما تصنعون من خير أو شر ، وعليهم بذات الصدور .

فعلى المسلم مواظبة التلاوة لأي القرآن الكريم ، وتبليغ أحكامها المستفادة منها فإن القرآن كتاب هداية ودستور حياة فاضلة .

وعلى المسلم المؤمن استدامة إقامة الصلاة : وهى أداؤها في وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها ، وعودها وتشهدها ، وجميع شروطها .

إن الصلوات الخمس لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعدة عن الفواحش والمنكرات ، وتكفر ما بها من الذنوب إذا أديت بحققها ، وكانت مع استحضار عظمة الله وبأسه . أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات . هل يبقى من درنه شيء ؟ » قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » وروى أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه . فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « إن الصلاة ستنهاه » فما لبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم أقل لكم ؟ ! »

ويؤكد الحديث المتقدم الذي رواه الطبراني وغيره : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً ، ولم يزد بها من الله إلا مقتاً »

قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ : إن الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء ، من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله : القرآن يأمره وينهاه .

دل قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ على أن الصلاة - أكبر من سائر الطاعات

وأفضل من كل العبادات وأن ذكر الله لعباده بالثواب والثناء عليهم ، ورحمته إياهم أكبر من ذكرهم له في عباداتهم وصلواتهم ، وكذلك تلاوة القرآن وإقامة الصلاة تنبغي أن يكون الإتيان بها على أبلغ وجوه التعظيم . روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في قوله - عز وجل : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه» .

وفي حديث آخر : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » ^(١) .

الذكر النافع: هو الذكر الذي يكون مع العلم وإقبال القلب ، وتفرغه إلا من الله ، وأما ما لا يتجاوز اللسان فله رتبة أخرى .

وذكر الله - تعالى - للعبد : هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه ، قال الله - عز وجل : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ نوع من الوعد والوعيد وحث على مراقبة الله - تعالى - في السر والعلن ^(٢) .

(١) روى الطبراني عن معاذ عن أنس حديثاً بلفظ : « لا يذكرني عبدٌ في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الملأ الأعلى » .

(٢) التفسير المنير ٢٤٨/٢٠ فما بعدها بتصرف .

٤٤- آيات الكتاب الحكيم

﴿ اَلَمْ يَكُنْ اَنتَ الْكِتٰبَ الْحَكِيْمَ ﴿١﴾ هٰدِيَ وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِيْنَ ﴿٢﴾ الَّذِيْنَ يَّقِيْمُوْنَ الصَّلٰوةَ وَيُوْتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ ﴿٣﴾ اُوْلٰئِكَ عَلٰى هٰدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَاُوْلٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴿٤﴾ ﴾ [لقمان] .

﴿ اَلَمْ تَنْزِلْ الْكِتٰبَ لَا رَيْبَ فِيْهِ مِّن رَّبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴿١﴾ اَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرٰهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اَتٰهُمْ مِّنْ نَّذِيْرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُوْنَ ﴿٢﴾ ﴾ [السجدة] .

(أ ل م) ابتداء الله - تعالى - بها القرآن بعد الفاتحة وابتداء بها الله - تعالى - في أول سورة البقرة ، وذكرها الله - تعالى - في مطلع سورة آل عمران .. وهاتان السورتان أطول سور القرآن الكريم وجاءتا متتاليتين (٢ ، ٣) ، وجاء ذكر كتاب الله تعالى بعد (أ ل م) ومع الجدل الطويل والآراء المختلفة لتفسير هذه الأحرف وأشباهاها ، لكن جميع القائلين ما زالوا عاجزين عن فك ألغاز هذه الأحرف المقطعة .

ثم وردت (أ ل م) في بداية أربع سور متتالية في نهاية الثلث الثاني من القرآن في الجزء العشرين وبداية الثلث الثالث من أقسام القرآن الكريم .. في أربع سور متتاليات ... لكنها اختلفت عن بعضها ففي سورتي العنكبوت والروم ابتدأتا بـ (أ ل م) ولم يذكر بعدهن كتاب الله تعالى ، حتى ولا إشارة له ، وابتدأت بـ (أ ل م) سورتا لقمان والسجدة ، وجاءتا مباشرة في ترتيب كتاب الله بعد العنكبوت والروم ، وجاء ذكر كتاب الله تعالى بعدها ، ثم آيات مرتبطة أيضاً بكتاب الله تعالى وتوجيهات تتعلق بالقرآن الكريم .

(آ . ل . م) وردت في السور الست آية منفصلة ، ولم ترد جزءاً من آية . ويفيد التذكير بأن الأحرف النورانية التي كثر الحديث حولها استخدم فقط فيها أربعة عشر حرفاً من الأبجدية العربية المؤلفة من ثمانية وعشرين حرفاً وفواتح السور التي

وردت فيها (آ. ل. م) هي :

١- ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَآخِرَةٌ هُمُ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة] .

٢- ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِّن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران] .

٣- ﴿الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٣﴾ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت] .

٤- ﴿الْم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾﴾ [الروم] .

٤٤- الكتاب الحكيم

﴿ اَلَمْ تَرَ اَنَّكَ اَنْتَ الْكِتَابُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِيْنَ يُقِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ اُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۗ وَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ ﴾ الآيات [لقمان] .

الافتتاح بالأحرف المقطعة (ألف . لام . ميم) والإخبار عنها بأنها :
﴿ تَلَكَّ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ للتنبيه أن آيات الكتاب من جنس تلك
الأحرف . على نحو السور المبدوءة بالأحرف - واختيار وصف الكتاب هنا
بالحكمة ؛ لأن موضوع الحكمة مكرر في هذه السورة ، فناسب أن يختار هذا
الوصف من أوصاف الكتاب في جوه المناسب على طريقة القرآن الكريم .

ووصف الكتاب بالحكمة يلقي عليه ظلال الحياة والإرادة ، فكأنما هو كائن حي
متصف بالحكمة في قوله وتوجيهه ، قاصداً لما يقول ، مريد لما يهدف إليه ، وإنه
لكذلك في صميمه ، فيه روح ، وفيه حياة ، وفيه حركة وله شخصية ذاتية مميزة ،
وفيه إنسان ، وله صحبة يحس بها من يعيشون معه ويحيون في ظلاله ، ويشعرون له
بجنين ، وتجاوب ، كالتجاوب بين الحي والحي ، وبين الصديق والصديق !

هذا الكتاب الحكيم ، أو آياته ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ فهذه حاله
الأصيلة الدائمة ، أن يكون هدى ورحمة للمحسنين . هدى يهديهم إلى الطريق
الواصل الذي لا يضل سالكوه ، ورحمة بما يسكبه الهدى في القلب من راحة
وطمأنينة وقرار ، وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ، وبما يعقده من الصلات
والروابط بين قلوب المهتدين به ، ثم بين هذه القلوب ، ونواميس الكون الذي
نعيش فيه ، والقيم والأحوال والأحداث التي تتعارف عليها القلوب المهتدية ،
وتتعارف الفطر التي لا تزيف .

والحسنون هم : ﴿ الَّذِيْنَ يُقِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفي وقتها أداء كاملاً تتحقق به حكمتها

وأثرها في الشعور والسلوك ، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هذا الأنس بالله ، وتذوق حلاوته التي تعلق القلوب بالصلاة ، وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطري ، وإقامة نظام حياة الجماعة يرتكن إلى التكامل والتعاون ، ويجد الواجدون فيه والمحرمون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التي لم يفسدها الترف ولا الحرمان ، واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ، ومراقبة الله في السر والعلن ، وفي الدقيق والجليل ، والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) .

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة ؛ لأنهم بما في قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون في صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة ويتصلون بما في طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميهِ وأهدافه الحكيمة وتصلح نفوسهم عليه وتحس بالتوافق والتناسق ووحدانية الاتجاه ، ووضوح الطريق ، وإن هذا القرآن ليعطي كل قلب بمقدار ما في هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ويقدر ما يقبل عليه في حب وتطلع وإعزاز .

إنه كائنٌ حيٌّ يعاطف القلوب الصديقة ، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفقة والحنين ! وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة .. ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢) ومن هُدي فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل إلى الغاية ، ناج من الضلال في الدنيا ، ومن عواقب الضلال في الآخرة ، وهو مطمئن في رحلته على هذا الكوكب ، تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود فيحس بالأنس والراحة ، والتجاوب مع كل كائن في الوجود .

أولئك المهتدون بالكتاب وآياته ، المحسنون ، المقيمون للصلاة ، المؤتون للزكاة ، الموقنون بالآخرة ، المفلحون في الدنيا والآخرة . أولئك هم فريق الخير والفلاح^(٣) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٨٣ ، ٢٧٨٤ .

٤٥- الكتاب الحق

﴿الْم ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ ﴾ [السجدة] .

سورة السجدة: هذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقتها في الفطرة ، ويركزها في القلوب عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد ، خالق الكون والناس ، ومدبر السموات والأرض وما بينهما من خلائق لا يعلمها إلا الله ، والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء .

(ألف ، لام ، ميم) هذه الأحرف التي يعرفها العرب المخاطبون بهذا الكتاب ، ويعرفون ما يملكون أن يصوغوا منها ، ومن نظائرها من كلام ، ويدركون الفارق الهائل بين ما يملكون أن يصوغوه منه وبين هذا القرآن وهو فارق يدركه كل خبير بالقول ، وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعاني والأفكار ، كما يدرك أن في النصوص القرآنية قوة خفية ، وعنصراً مستكناً يجعل لها سلطاناً وإيقاعاً في القلب والحس ليس لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة ، مما يقول البشر في جميع الأعصار ، وهي ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدل فيها ؛ لأن السامع يدركها ، ويميزها ، ويهتز لها من بين سائر القول . ولو لم يعلم سلفاً أن هذا قرآن ! والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة في شتى أوساط الناس .

والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الحروف من كلام ، هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر في سائر الأشياء ، صنعة الله واضحة مميزة ، لا تبلغ إليها صنعة البشر في أصغر الأشياء ، وأن توزيع الألوان في زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين في جميع العصور ، وكذلك صنع الله في القرآن ، وصنع البشر فيما يصوغون من هذه الحروف من كلام .

(ألف . لام . ميم) ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ﴾ قضية

مقطوع بها ، لا سبيل إلى الشك فيها ، قضية تنزيل الكتاب من رب العالمين ، ويعجل السياق بنفي الريب في منتصف الآية بين المبتدأ فيها والخبر ؛ لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة في النص ، والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتابين الشاكين وجهاً لوجه أمام واقع الأمر الذي لا سبيل إلى الجدل فيه . فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التي يعرفون ؛ وغطه هو هذا النمط المعجز الذي لا يمارون في إعجازه ، أمام التجربة الواقعة ، وأمام موازين القول التي يقر بها الجميع .

إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن ؛ وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام ، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزائل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة ، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه ، فليست هي مجرد وهلة تأثيرية وجدانية غامضة ، فهي متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطاباً مباشراً ، وهي متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب والعقل المثقف ، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات ، وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة ، ما دامت الفطرة مستقيمة لم تنحرف ولم تطمس عليها الأهواء ، مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين ، وأنه تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْثَرْنُهُ ﴾ ولقد قالوها فيما زعموه متعنتين . ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول في صيغة المستنكر ؛ لأن يقال هذا القول أصلاً ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْثَرْنُهُ ﴾ هذه القولة لا ينبغي أن يقال ؛ فتاريخ محمد ﷺ - فيهم ينفي هذه الكلمة الظالمة من جهة ؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلاً ولا تدع مجالاً للريب والتشكك:

﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

﴿ الْحَقُّ ﴾ بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت ، المستقر في كيانه ، الملحوظ في تناسقه ، واطراد نظامه ، وثبات هذا النظام وشموله ، وعدم تصادم أجزائه ، أو تناثرها ، وتعارف الأجزاء وتلاقيها .

﴿ الْحَقُّ ﴾ بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة ، وكأنما هو الصورة اللفظية المعنوية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة في هذا الوجود .

﴿ الْحَقُّ ﴾ بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه ، وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلية ، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق . حيث يجدون أنفسهم في صداقة مع كل ما حولهم من هذا الكون الكبير .

﴿ الْحَقُّ ﴾ الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه ، في يسر وسهولة ، وفي غير مشقة ولا عنت لأنه يلتقي بما فيها من حق أزلي قديم .

﴿ الْحَقُّ ﴾ الذي لا يتفرق ولا يتعارض وهو يرسم منهاج الحياة البشرية كاملاً ، ويلحظ في هذا المنهاج كل قواها وكل طاقاتها ، وكل نزعاتها ، وكل حاجاتها ، وكل ما يعتورها من مرضٍ أو ضعفٍ أو نقص أو آفة تدرك النفوس وتفسد القلوب .

﴿ الْحَقُّ ﴾ الذي لا يظلم أحداً في دنيا أو آخرة ، ولا يظلم قوة ولا طاقة ولا يظلم فكرة في القلب ، أو حركة في الحياة ، فيكفها عن الوجود والنشاط ، ما دامت متفقة مع الحق الكبير الأصيل في صلب الوجود .

﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فما هو من عندك ، إنما هو من عند ربك ، وهو رب العالمين كما قال في الآية السابقة ، إنما هذه الإضافة هنا للتكريم تكريم الرسول الذي يتهمونه بالافتراء ، وإلقاء ظلال القربى بينه وبين ربه رب العالمين ، رداً على الاتهام الأثيم ، وتقريراً للصلة الوثيقة التي تحمل مع معنى التكريم معنى وثاقة المصدر ، وصحة التلقي ، وأمانة النقل والتبليغ .

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والعرب الذين أرسل إليهم محمد ﷺ لم يرسل إليهم أحد قبله ، ولا يعرف التاريخ رسولاً بين إسماعيل عليه السلام جد العرب الأول وبين محمد ﷺ (١) ، وقد نزل الله عليه هذا الكتاب الحق ، لينذرهم به ، ولعلهم يهتدون ، فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب ، لما فيه من الحق الذي يخاطب الفطره والقلوب (٢).

(١) أورد الكثير من المؤرخين أن نبي الله شعيباً أرسل إلى قوم من العرب في مدين من سلالة إسماعيل عليه السلام وشعيب من هؤلاء القوم - نص على ذلك الحسن البصري ومالك بن أنس . وآخرون ، راجع قصة نبي الله شعيب في كتب التفاسير ، وكتابنا : نساء في حياة الأنبياء ص ١٦٨ بنات شعيب ، ومحمد رسول الله : عبد الحميد السحار .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٠٤ وما بعدها .

٤٦- الكتاب المتلو والموحى إلى الرسول المورث

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَنُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ ﴾ [فاطر] .

تكرر ذكر كتاب الله في كل آية .. لكنه في كل واحدة منها التزم بمعنى غير الذي كان فيما سبق ، ففي الآية الأولى (٢٩) ذكر الذين يتلون الكتاب وصفاتهم وما أعطاهم الله تعالى من نعيم يتسم بالريح الدائم ، وفي الآية الثانية (٣١) يتوجه إلى النبي ﷺ بالحديث بأن الكتاب الموحى إليك يا محمد إنما هو الحق مصدقاً لما سبقه من الكتب .

وفي الآية الثالثة: (٣٢) إشارة إلى أن هذا الكتاب حوى كل شىء من علوم الدنيا ومن علائم الإيمان ومن تاريخ الأقدمين ومن خبر الحاضرين ، وعن أنباء الآتين ، وبعد ذلك فقد حفظ من الله تعالى ، أورثه الله تعالى للمسلمين فضلاً منه ورضواناً ، مرتباً ، محفوظاً ، لا تمتد إليه يد التحريف والتأويل يتساقط أمامه المبتلون - رغم محاولاتهم - ويولون الدبر منهزمين أمام تحدياته ، فضلاً من الله تعالى إلى الذين أورثوا هذا الكتاب ، الذي لم يدانه ولم يشابهه ، ولم ولن يتمكن البشر من الإتيان بآيات أو سور أو ما شابه مهما حاولوا - ورغم محاولاتهم المتكررة - فضل الله المؤمنين الذين يحملون هذا الدين إلى يوم الدين ، وهذه صور أخرى مستقاة من ظلال هذا القرآن^(١) .

إن تلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت تعني تلاوته عن تدبر ، ينتهي إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك ، ومن

(١) في ظلال القرآن ٢٩٤٣/٥ فما بعدها.

ثم يتبعها بإقامة الصلاة بالإنفاق سرّاً وعلانية من رزق الله ، ثم رجاؤهم بكل هذا ﴿تجارة لن تبور﴾ ، فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون .. ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح ، يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة ويتاجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة ... تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم وزيادتهم من فضل الله .

﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر التقصير ، ويشكر الأداء ، وشكره تعالى كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء ، ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم ، تشبهاً واستحياءً فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟! . ثم إشارة إلى طبيعة الكتاب ، وما فيه من الحق ، تمهيداً للحديث عن ورثة هذا الكتاب .

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ودلائل الحق في هذا الكتاب واضحة في صلبه ، فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون في حقيقته ، أو هو الصفحة المقروءة والكون هو الصفحة الصامته ، وهو مصدق لما قبله من الكتب الصادرة من مصدره ، والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه ، ومُنَزَّلُهُ نزلهُ للناس وهو على علم بهم ، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ .

هذا هو الكتاب في ذاته ، وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة ، اصطفاه لهذه الوراثة ، كما يقول هنا في كتابه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهي كلمات جديرة بأن توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله ، كما توحى إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة ، وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف ، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب؟

إن الله - سبحانه - قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة ، ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهَ﴾ .

فالفريق الأول - ولعله ذكر أولاً لأنه الأكثر عدداً - ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ تربى سيئاته في العمل على حسناته ، والفريق الثاني وسط ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ تتعادل سيئاته مع حسناته ، والفريق الثالث ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تربى حسناته على سيئاته ، ولكن فضل الله - تعالى - شمل الثلاثة جميعاً ، فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية على تفاوت الدرجات

ولا ندخل هنا في تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه في هذا الموضوع من كرامة هذه الأمة باصطفائها وكرم الله - سبحانه - في جزائها ، فهذا هو الظل الذي تلقيه النصوص هنا ، وهي النهاية التي تنتهي إليها هذه الأمة جميعاً - بفضل الله - ونطوي ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر في علم الله .

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٥﴾ انتهى .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ هذه الآية آية القراء العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه ، الذين يقيمون الصلاة - صلاة الفرض والنفل ، وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلاية . هؤلاء هم الذين يبتغون تحصيل الثواب من الله على طاعاتهم ، ويزيدهم الله من فضله ، والزيادة هي الشفاعة في الآخرة ، إن الله - غير إعطاء الأجور - غفور للذنوب ، وعند إعطاء الزيادة شكور يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب بالجزيل من الثواب ، وقوله: ﴿يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص أي ينفقون لا ليقال: إنه كريم ، ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله ^(١) .

٤٧- الكتاب المنزل بالحق

أ- ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴿ [الزمر] .

ب - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴿٣﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ مَا تَجَدَّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ﴿٥﴾ ﴿ [غافر] .

ج - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴿ [فصلت] .

د - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ عَسَى ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴿ [الشورى] .

هـ - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴿ [الدخان] .

و - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴿ [الزخرف] .

ز - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴿ [الجاثية] .

ح - ﴿ حَمِّ ﴾ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٤﴾ ﴿ [الأحقاف] .

تلكم سور ثمان من سور القرآن الكريم وردت متتابعة في ربع الجزء الثاني من الجزء الثالث والعشرين وشملت كل الجزئين الرابع والعشرين والخامس والعشرين . ونصف الحزب الأول من الجزء السادس والعشرين ^(١) .

ابتدأت كلها عدا سورة الزمر بالحرفين المقطعين النورانيين (ح . م) وتلاها ذكر كتاب الله تعالى بأسمية الكتاب والقرآن وبالوحي في سورة الشورى . وكذلك قد وردت أحرف نورانية أخرى هي (ع . س . ق) في بداية السورة بعد (ح . م) وهذه الأحرف لم ترد في غير هذه السور (ح . م) وردت آية في كل الفواتح و (وعسق) أيضاً وردت آية .

إن سورة الزمر التي بدأت فواتحها بذكر كتاب الله تعالى لم ترد بافتتاحها تلك الأحرف لكنها ابتدأت فوراً بذكر كتاب الله المنزل من الله العزيز الحكيم ، وهذا التتابع والتناسق وتوافق البداية من الأحرف المقطعة المعجزة أولاً ، ومن ثم ورود اسم كتاب الله تعالى فقد عزز ذكره باسمية الكتاب والقرآن مرتين ، وصفة الوحي مرة واحدة ، وتكرار الآيات أحياناً بذاتها ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ثلاث مرات ﴿ والعليم والرحيم ﴾ كلها معجزات متكررة في كل آية وسورة وما زال سر الأحرف لم يكشف .

(١) هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (ح . م) منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف أخرى (ع . س . ق) وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور ، وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها . وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهي أحرف لغتهم التي يتحدثونها ويكتبونها وتليها الإشارة إلى تنزيل الكتاب . إحدى الحقائق التي يتكرر الحديث عنها في السور المكية بوجه خاص في معرض بناء العقيدة . في ظلال القرآن ٥/ص ٣٠٦٨ .

٤٧- الكتاب المنزل بالحق

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ [الزمر] .

سورة الزمر: تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد ، وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متتابعة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ، وتهزه هزاً عميقاً متواصلًا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها ، وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة ، ومن ثم فهي آيات ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها ؛ يعرض في صور شتى ^(١) .

عظم الله - تعالى سبحانه - أمر القرآن الكريم ، وحث المكلفين على القيام بما فيه واتباع أوامره ونواهيه بأن قال: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ المتعال عن المثل والشبه ؛ ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ في أفعاله وأقواله فوصف هنا نفسه بالعزة تحذيراً من مخالفة كتابه بالحكمة إعلاماً بأنه يحفظه حتى يصل إلى المكلفين من غير تغيير لشيء منه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي لم ننزله باطلاً بغير غرض ، ومثل معناه بالأمر الحق أي بالدين الصحيح ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ﴾ أي توجه بعبادتك إلى الله وحده ﴿ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ من شرك الأوثان والأصنام والإخلاص أن يقصد العبد بنيته وعمله إلى خالقه لا يجعل ذلك لغرض الدنيا ^(٢) .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٣ .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن : أبو الفضل بن حسن الطبري ٨ / ٤٨٨ ، دار إحياء التراث العربي ،

تَحْتَلِفُونَ^١ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٦﴾

تبدأ السورة بهذا التقرير الحاسم ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .
العزیز القادر على تنزيله ، الحكيم الذي يعلم فيم أنزله ، ويفعل ذلك بحكمة
وتقدير وتدبير .

ولا يلبث السياق عند هذه الحقيقة طويلاً ؛ فهي مقدمة للقضية الأصلية التي
تكاد السورة تكون وقفاً عليها ، والتي نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها قضية
توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك في كل
صورة من صوره والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ وأساس الحق الذي أنزل به الكتاب :
والوحدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود ، وفي الآية الخامسة من السور يجيء
﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ فهو الحق الواحد الذي قامت به السموات
والأرض وأنزل به هذا الكتاب . الحق الواحد الذي تشهد به وحدة النظام الذي
يصرف السموات والأرض والذي ينطق به هذا الكتاب . الحق الذي يتسم به كل
ما خرج من يد الصانع المبدع في هذا الوجود ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾
والخطاب لرسول الله ﷺ الذي أنزل إليه الكتاب بالحق .

وهو منهجه الذي يدعو إليه الناس كافة . عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له
ليس كلمة تقال باللسان إنما هو منهاج حياة كلي كامل . يبدأ من تصور واعتقاد في
الضمير ، وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة والقلب الذي يوحد الله
بدين الله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، لا يطلب شيئاً من غيره ، ولا يعتمد
على أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده ، وهو القاهر فوق عباده ، والعباد
كلهم ضعاف مهازيل لا يملكون له نفعاً ولا ضرراً ، فلا حاجة به إلى أن يحني هامته
لواحد منهم ، وهو مثله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، والله وحده هو المانع
المانع ، فلا حاجة إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء^(١) .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ يعلنها هكذا مدوية عالية في ذلك التعبير المجلجل بأداة الافتتاح ﴿ أَلَا ﴾ وفي أسلوب القصر ﴿ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ فيؤكد معناها بالبناء اللفظي للعبارة ، فهي القاعدة التي يقوم عليها الحياة كلها بل التي يقوم عليها الوجود كله . ومن ثم ينبغي أن ترسخ وتتضح وتعلن في هذا الأسلوب الجازم الحاسم ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ، ثم تعالج الأسطورة المعقدة التي كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۖ ﴾

فلقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السموات والأرض ، ولكنهم لم يكونوا يسرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة ، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك ، إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه ، ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها ، ثم يزعمون أن عبادتهم التماثيل الملائكة - وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ليست عبادة لها في ذاتها إنما هي زلفى وقربى لله ، كي تشفع لهم عنده ، وتقربهم منه .

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها ، إلى هذا التعقيد والتخريف فلا الملائكة بنات الله ولا الأصنام تماثيل للملائكة ، وإلا الله - سبحانه - يرضى بهذا الانحراف ، ولا هو يقبل بهذه الشفاعة ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق ^(١) .

٤٨- الكتاب المتشابه

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ ﴾ [الزمر].

لاستكمال الصورة والمقصد من هذه الآية نذكر الآية التي قبلها وهي قوله تعالى:
﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر].

وسبب نزول الآية (٢٣) المقصودة ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ ﴾ .

روي الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال : نزل على النبي ﷺ القرآن ، فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا: يا رسول الله ، لو حدثتنا ؟ فنزل: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ .

وعن ابن عباس : أن قوماً من الصحابة قالوا : يا رسول الله ... حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزل : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ .

وبعد أن بين الله تعالى ما يوجب الإقبال على الآخرة بطاعة الله تعالى ، وما يوجب الإعراض عن الدنيا ، أوضح أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب ثم أوضح أن من أضله الله فلا هادي له ، وأن من يلقي في النار ليس كمن آمن وأمن ، فدخل الجنة وأن مكذبي الرسل لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة ^(١) .

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أي : وسعه لقبول الحق وفتحه للاهتمام إلى سبيل الخير. قال السدي : وسع صدره للإسلام للفرح به ، والطمأنينة إليه ،

والكلام في الهمزة والفاء كما تقدم في ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ [الزمر: ١٩]
ومن: مبتدأ ، وخبرها : محذوف تقديره كمن قسا قلبه وشرح صدره . ودل على
هذا الخبر المحذوف قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ ﴾ والمعنى : أفمن وسع الله صدره
للإسلام فقبله واهتدى بهديه ﴿ فَهُوَ ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾
يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره فصار في ظلمات الضلالة ، وبليات
الجهالة . قال قتادة: النور كتاب الله يؤخذ وإليه ينتهي .

قال الزجاج: تقدير الآية ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ﴾ كمن طبع قلبه فلم يهتد
لقسوته . ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال الفراء والزجاج: أي عن ذكر
الله كما تقول أتخمت عن طعام ومن طعام أكلته . والمعنى : أنه غلظ قلبه وجفا عن
قبول ذكر الله ، يقال : قسا القلب إذا صلب وقلب قاس ؛ أي: صلب لا يرق ولا
يلين ، وقيل : معنى من ذكر الله من أجل ذكره الذي حقه أن تشرح له الصدور ،
وتطمئن به القلوب ، والمعنى : أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده
قراءة من قرأ عن ذكر الله ، والإشارة بقوله ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إلى القاسية قلوبهم ، وهو
مبتدأ وخبره ﴿ فِي صَلَواتٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : ظاهر واضح ^(١) .

أخرج الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكثروا الكلام بغير
ذكر الله ؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله
القلب القاسي » .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تعالى : اطلبوا الحوائج
من السُّمَحَاءِ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فَإِنِّي
جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي » .

وقال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب
الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

ثم وصف الله القرآن الذي يشرح الصدر ، فقال: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أَيُّ اللَّهِ ^(١) .

نزل أحسن الأحاديث وهو القرآن ، لما فيه من الخيرات والبركات ، والمنافع العامة والخاصة ، وهو كتاب يشبه بعضه بعضاً في جمال النظم وحسن الإحكام والإعجاز ، وصحة المعاني ، وقوة المباني ، وبلوغه أعلى درجات البلاغة ، وتثنى فيه القصص وتردد ، وتكرر فيه المواعظ والأحكام من أوامر ونواهٍ ووعدٍ ووعدٍ ، ويشئى في التلاوة فلا يمل سامعه ولا يسأم قارئه .

إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ، كما قال الزجاج ، وتضطرب النفس ويرتعد بالخوف مما فيه من الوعيد ، ثم تسكن وتطمئن الجلود والقلوب عند سماع آيات الرحمة ، قال قتادة : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم بأنها تقشع جلودهم ، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما ذلك في أهل البدع ، وهو من الشيطان .

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق ؓ قالت : كان أصحاب النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن ، كما نعتهم الله ، تدمع أعينهم وتقشع جلودهم ، وقيل لها : فإن أناساً إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

﴿ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ ﴾ أي : ذلك الكتاب أو القرآن هو هداية الله يهدي به من يشاء هدايته ويوفقه للإيمان ، وهذه صفة من هداه الله ، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۚ ﴾ أي من يخذله الله عن الإيمان بالقرآن من الفساق والفجرة فلا مرشد له ^(٢) .

فالقرآن الكريم هو أحسن الحديث : أي إن أحسن ما يسمع هو ما أنزله الله وهو القرآن ، وهذه هي الصفة الأولى للقرآن ، ومن خصائصه وصفاته أنه متشابه بعضه

(١) الابتداء باسم الله ، وإسناد ضمير ﴿ نَزَّلَ ﴾ [الزمر : ٢٣] إليه ، فيه تفخيم للمنزل ورفع منه ، كما تقول : الملك أكرم فلاناً .

(٢) التفسير المنير ٢٣ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

مع بعض في الحسن والحكمة والإحكام أي في العظم والمعنى ، ويصدق بعضه بعضاً ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف ، وأنه مثاني أي تثني فيه القصص والمواعظ والأحكام ، وتثني تلاوته فلا يمل منه ، وأنه يجمع بين الترهيب والترغيب ، فالنفس المؤمنة به تضطرب وتتحاف ما فيه من الوعيد ، ثم تطمئن وتسكن عند سماع آيات الرحمة ، وأنه هدى الله الذي يهدي به من يشاء من هدايته ، وأما من يضلله الله ويخذله من الفساق والفجار المعرضين عنه ، فلا مرشد له ، فهذه صفات خمس للقرآن المجيد .

وابتداءً لا يستوي المهتدي الذي شرح الله صدره للإسلام فهو على هدى من ربه ، ومن طبع على قلبه وحرّم الهداية ، فالويل ثم الويل لقساة القلوب المعرضين عن ذكر الله فهم في ضلال واضح^(١) .

٤٩- الكتاب المنزل من الله للناس بالحق

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴾ [الزمر] .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ . . . إلخ الآية .

الحق في طبيعته ، والحق في منهجه ، والحق في شريعته ، الحق الذي تقوم عليه السموات والأرض ؛ ويلتقي عليه نظام البشرية في هذا الكتاب ونظام الكون كله في تناسق ، هذا الحق نزل ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ ليهتدوا به ويعيشوا معه ويقوموا عليه ، وأنت مبلغ ، وهم بعد ذلك وما يشاؤون لأنفسهم من هدي أو ضلال ، ومن نعيم أو عذاب ، فكل مورد نفسه ما يشاء ؛ وما أنت بمسيطر عليهم ولا بمسؤول عنهم .
﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴾ .

إنما الوكيل عليهم هو الله ، وهم في قبضته في صحوهم ونومهم ، وفي كل حالة من حالاتهم ، وهو يتصرف بهم كما يشاء^(١) ، يخاطب الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي : إنا نحن رب العزة وإله الكون نزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم لأجل الناس ، أي والجن ، وليبان ما كلفوا به ، وإنذارهم به ، أنزله ربك مقروناً مصحوباً بالحق ملتبساً به وهو دين الإسلام، قال الزمخشري: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليسيروا وينذروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ، ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغني فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ومن اختار الضلالة فقد ضرها^(٢) .

قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴾ أي فمن عرف طريق الحق وسلوكها فاهتداه لنفسه ، ويعود نفع

(١) في ظلال القرآن ٣٠٥٤/٥ .

(٢) الكشف ٣٣/٣ .

ذلك إلى نفسه ، ومن حاد عن طريق الحق ، فضلاله على نفسه ويرجع وبال ذلك على نفسه ، وما أنت - أيها الرسول - بموكل أن يهتدوا ولا بمكلف في حملهم على الهداية بل عليك البلاغ ، وقد فعلت ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد] . وقوله عز وجل : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿ [الغاشية] ^(١) .

٥٠- الكتاب المنزل من الله العزيز العليم

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ مَا تَجَدَّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ ﴾ [غافر].

تسميتها: تسمى هذه السورة سورة (غافر) ؛ لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله غافر الذنب وقابل التوب ، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنی ، وتسمى أيضاً سورة (المؤمن) ؛ لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون .

مناسبتها لما قبلها: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من ناحيتين :

الأولى: التشابه في الموضوع : فقد ذكر في كل من السورتين أحوال يوم القيامة ، وأحوال الكفار في يوم الحشر .

الثانية: الترابط بين خاتمة السورة السابقة ومطلع هذه السورة . فقد ذكر في نهاية سورة الزمر أحوال الكفار الأشقياء ، والمتقين السعداء ، وافتتحت سورة غافر بأن الله غافر الذنب لحث الكافر على الإيمان وترك الكفر .

ومناسبة الحواميم السبع لسورة الزمر: تشابه الافتتاح بـ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ ورتبت الحواميم إثر بعضها لاشتراكها بفاتحة ﴿ حَمَّ ﴾ وبذكر الكتاب بعد ﴿ حَمَّ ﴾ وأنها مكية ، بل ورد في حديث أنها نزلت جملة واحدة ، وفيها شبه من ترتيب ذوات (الراء) الست ^(١) ذكر السيوطي عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب السور : أن الحواميم نزلت بعد الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف ، المؤمن ثم السجدة ثم الشورى ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ولم يتخللها نزول غيرها وذلك مناسبة واضحة لوصفها هكذا .

(١) ذوات الراء الست هي على التوالي : سورة يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر . تبدأ كلها بأحرف ﴿ الر ﴾ ، عدا سورة الرعد فإنها تبدأ بالأحرف ﴿ التمر ﴾ . وقد جرى الحديث عنها في أماكنها .

ويقال لها أيضاً: آل حم ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : آل حم ديباج القرآن ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن لكل شيء لباباً ، وللباب القرآن آل حم ، أو قال : الحواميم ، وقال النبي ﷺ : « لكل شيء ثمرة ، وإن ثمرة القرآن ذوات حم ، هن روضات حسان مخضبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم » .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات - فيما رواه أبو عبيدة « إن يتم الليلة ، فقولوا : حم لا ينصرون - أو لا ينتصرون » .

وروي الحافظ أبو بكر البزار والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسي ، وأول حم (المؤمن) عصم ذلك من سوء » .

مشمولاتها: سورة غافر والحواميم السبع مكية ، فهي تُعني بأصول العقيدة كسائر السور المكية لذا جاءت آياتها عنيقة شديدة التأثير لإثبات وحدانية الله ، وتنزيل القرآن ، والبعث .

ووصف ملائكة العرش ، وإنهاء الصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل ، أو فريق الهدى وفريق الضلال وقد ابتدأت بإعلان تنزيل القرآن الكتاب الكريم من الله المتصف بالصفات الحسنى ، وهاجمت الكفار الذين يجادلون بالباطل ، ثم وصفت مهام ملائكة العرش .

وأخبرت عن طلب أهل النار الخروج منها لشدة العذاب ورفض هذا الطلب ، وأقامت الأدلة على وجود الله القادر ، وخوفت من أهوال يوم القيامة وأنذرت الكفار من شدائد ذلك اليوم .

ثم لفت الأنظار لموضع العبرة من إهلاك الأمم الغابرة ، وهو كفرهم بالآيات البينات التي جاءوا بها ، وخصت بالذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون ، وما دار من حوار بين فرعون وقومه ، وبين رجل من آل فرعون يكتُم إيمانه ، وما فعله فرعون الطاغية من قتل أبناء بني إسرائيل وقومه واستحياء نسائهم وخشية انتشار الإيمان في قومه ، وانتهاء القصة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده ، ونجاة موسى وقومه جند الإيمان في ذلك العصر ، وتلك هي قصة الإيمان والطغيان .

وقد أردف ذلك بإعلان خذلان الكافرين ، ونصر الرسل والمؤمنين نصراً مؤزراً في الدنيا والآخرة .

وختمت القصة بأمر النبي ﷺ وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر موسى وغيره من أولى العزم ، ثم أوردت السورة الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته ، وضربت المثل للمؤمن البصير وللكافر بالأعمى ، فالؤمن نير القلب والبصيرة بنور الله . والكافر مظلم النفس يعيش في ظلمة الكفر وأتبع ذلك بيان نعم الله على عباده من الأنعام والفلك وغيرها .

وختمت السورة بما يؤكد الغرض المهم منها : وهو الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين ، وما يلقونه من أصناف العذاب ، ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب ، ولكن لا ينفعهم ذلك ، فإن سنة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس ^(١) .

﴿ حَمَّ ﴾ - هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (ح . ميم) منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف آخر : (عين . سين ، قاف) .

وتليها الإشارة إلى تنزيل الكتاب ، إحدى الحقائق التي يتكرر الحديث عنها في السور المكية بوجه خاص في معرض بناء العقيدة ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ، وهي مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذي نزل هذا الكتاب ، وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها .

﴿ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ غَايِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ . العزة والعلم ، غفران الذنب ، وقبول التوبة ، وشدة العقاب ، والفضل والإنعام ، ووحدانية الألوهية ووحدانية المرجع والمصير .

وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعاني ، التي جاءت في مطلع السورة ،

والتي سبقت في إيقاعات ثابتة الجرس ، قوية التركيب ، توحى بالاستقرار والثبات والرسوخ.

والله - سبحانه - يعرف نفسه لعباده بصفاته ، ذات الأثر في حياتهم ووجودهم ويلمس بها مشاعرهم وقلوبهم ، فيثير رجاءهم وطمعهم ، كما يثير خوفهم وخشيتهم ، ويشعرهم بأنهم في قبضته لا مهرب لهم من تصريفه . ومنها هذه الصفات .

﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القوي القادر الذي يغلب ولا يغلب ، والذي يصرف الأمر لا يقدر عليه أحد ، ولا يعقب عليه أحد .

﴿ الْعَلِيمِ ﴾ الذي يصرف الوجود عن علم وعن خبرة ، فلا يخفى عليه شيء ، ولا يند عن علمه شيء ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ الذي يعفو عن ذنوب العباد بما يعلمه - سبحانه - من استحقاقهم للغفران ، ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ الذي يتوب على العصاة ، ويتقبلهم في حماه ، ويفتح لهم بابه بلا حجاب .

﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ الذي يدمر على المستكبرين ويعاقب المعاندين ، الذين لا يتوبون ولا يستغفرون . ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ الذي يتفضل بالإنعام ، ويضاعف الحسنات ، ويعطي بغير حساب .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فله الألوهية وحده لا شريك له فيها ولا شبيه . ﴿ إِلَهِي الْمَصِيرِ ﴾ فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه ، وإليه الأوبة والميعاد .

وهكذا تتضح صلته بعباده وصلة عباده به ، وتتضح في مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ، فيعرفون كيف يعاملونه في يقظة وفي حساسية ، وفي إدراك لما يغضبه ولما يرضيه .

وقد كان أصحاب العقائد الأسطورية يعيشون من آلهتهم في حيرة ، ولا يعرفون عنها شيئاً مضبوطاً ، ولا يتبينون ماذا يسخطها وماذا يرضيها ، ويصورونها متقلبة الأهواء ، غامضة الاتجاهات شديدة الانفعالات ، ويعيشون معها في قلق دائم

يتحسسون مواضع رضاها بالرقى والتمائم والضحايا والذبائح ، ولا يدرون
سخطت أم رضيت إلا بالوهم والتخمين

فجاء الإسلام واضحاً ناصعاً ، يصل الناس بإلههم الحق ، يعرفهم بصفاته ،
ويبصرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه ، وكيف يرجون رحمته ، ويخشون
عذابه ، على طريق واضح قاصد مستقيم ^(١) .

﴿ مَا تَجِدُلُ فِيْ ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: ما يخاصم في دفع آيات الله
وتكذيبها إلا الذين كفروا ، والمراد الجدال : بالباطل ، والقصد إلى دحض الحق كما
في قوله : ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] فأما الجدال لاستيضاح
الحق ، ورفع اللبس ، والبحث عن الراجح والرجوح ، وعن المحكم والمتشابه ،
ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، وردهم بالجدال إلى المحكم فهو
من أعظم ما يتقرب المتقربون ، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب
فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾
[آل عمران : ١٨٧] . قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى مِنْ بَعْدِ مَا
بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .
وقال : ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ﴿ فَلَا
يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ [غافر: ٤] لما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله
بالكفر ، نهى رسول الله ﷺ أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية ، فقال : « فلا
يغورك ما يفعلونه من التجارة في البلاد ، وما يحصلونه من الأرباح ويجمعونه من
الأموال ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وإن أمهلوا فإنهم لا يهتملون ، قال الزجاج :
لا يغورك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك » ^(٢) .

(١) في ظلال القرآن ٣٠٦٨/٥ .

(٢) فتح القدير ٥٥٢/٢٤ .

٥١- المكذبون بالكتاب

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴾ [٦٩] الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ [غافر] .

وردت آيتان في هذه السورة عن حال المجادلين في آيات الله ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٦٩] ، ثم الآية (٦٩) موضوع البحث .

إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة ، ينسى أنه كائنٌ صغيرٌ ضعيفٌ ، يستمد القوة لا من ذاته ، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول . من الله فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ ، ويورم ويتشامخ ، ويتعالى ، يحيك في صدره الكبر ، يستمد من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ، ثم سلط على الإنسان فاتاه من قبله .

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر ، وهي ظاهرةٌ ناطقةٌ معبرةٌ للفترة بلسان الفترة ، وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش ؛ لأنه لم يقتنع ويجادل لأنه غير مستيقن . والله العليم بعباده ، السميع البصير المطلع على السرائر يقرر أنه الكبر ، والكبر وحده . هو الذي يحيك في الصدور ، وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدل فيما لا جدال فيه . الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته ، ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته ، وليست له حجة يجادل بها ، ولا برهان يصدع به إنما هو ذلك الكبر وحده ^(١) .

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ

﴿ ٦٩ ﴾ أي : لا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين المشركين المجادلين بالباطل في

آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها ، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ؟ مع قيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها في نفسها موجبة للتوحيد .

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٧) أي : إنهم هم الذين كذبوا بالقرآن وبالذي أرسلنا به الرسل من التوحيد وإخلاص العبادة لله والشرائع الصالحة لحياة الإنسان في الدنيا والتبرؤ من الشرك والوثنية والإيمان بالبعث ، ثم هددهم وأوعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم ووبال كفرهم .

ثم ذكر مضمون التهديد الشديد والوعيد الأكيد بقوله : ﴿ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (٧٨) في الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر] . فمن العجب العجاب أن المشركين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ويكذبون بما يصرفون به عن الهدى إلى الضلال وعن الحق إلى الباطل .

سيعلمون عما قريب بطلان ما هم فيه إذا أدخلوا النار ، وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم ، وسحبوا بالسلاسل في الحميم أي الماء الساخن المسخن بنار جهنم ، وأحاطت بهم النار إحاطة تامة . تقول لهم الملائكة بعد دخولهم النار تقيعاً وتوبيخاً: أين أصنامكم التي كنتم تعبدونها من دون الله ، ما لكم لا تتصرون بها اليوم ^(١) .

٥٢- الكتاب المفصل آياته

﴿ حَمْدٌ ١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ ﴾ [فصلت] .

ورد فى فصل القرآن تحت عنوان: القرآن العربى البشير النذير ، وتحت رقم (٣٥) يحسن الرجوع إليه .

﴿ حَمْدٌ ١ عَسَقَ ٢ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ ﴾ [الشورى] .

سيرد فى فصل الوحي بعون الله تعالى .

﴿ حَمْدٌ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ ﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلًى حَكِيمٌ ٤ ﴾ [الزخرف] .

ورد فى فصل القرآن الكريم تحت عنوان : القرآن العلى الحكيم ، وتحت رقم (٣٩) يحسن الرجوع إليه .

﴿ حَمْدٌ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٣ ﴾ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤ ﴾ [الدخان] .

ورد فى بداية الكتاب بعنوان : القرآن - الزمان والمكان .

٥٣- الإيمان بما أنزل الله من الكتاب

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۖ اللَّهُ تَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ تَحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ۖ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٥٤﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٥٥﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۖ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الشورى] .

في كل آية من كتاب الله ، كما في عدد من الآيات أحكام منفردة أو مجموعة أحكام ، عدا عن ارتباط الكثير من السور بعضها ببعض ، وعموماً فإن كتاب الله هو المعجزة الخالدة الباقية على مدى الدهر ، تستنبط منه الأحكام وتحد الحدود ، وتكشف المخبات التي وعد الله تعالى بها عباده بإخبارهم بها بعد حين ، ففي كل زمان ، وفي سيادة كل علم ، وفي الاكتشافات التي تطلع علينا كثيرة - مفاجئة في كل حين ، فملاذنا كتاب الله تعالى يعطينا الحلول ، ويعطينا التصورات ، ويعطينا ما لم نعلم ، وكأنه منزل الآن ، فإن الله أيضاً قد هيا لخدمة دينه من يحفظ القرآن ، ويعلم تفسيره ، ومن يحفظ الحديث ويعلم مراتبه ومن يجد في ظل كتاب الله تعالى الملاذ الآمن دائماً ، وتفتح العقول والأذهان والأفئدة ليبقى القرآن مثارنا ، وظلنا الذي نستظل به ، ومرجعنا الحق لكل ما يمكن أن يعترى حياتنا من تقلبات وهو ثابت باق خالد ، الحق فيه وفي كل آياته وأحكامه ، ووصفه منزله جل وعلا شأنه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢] .

في كتابتنا عن جزئية صفة كتاب الله تعالى في كتاب الله ، نجد أنفسنا مكتفين أحياناً بآية ، ولكن في الكثير من الصفات يجب أن نكتب فيما سبق وفيما لاحق ،

وفيما انحصر بين آيتين ، فالجواب يكون متتالياً ويكون متأخراً ، ويكون في آية سبقت ، أو سورة سبقت لنقف بعد ذلك خاشعين أمام عظمة هذا الكتاب - كتاب الله تعالى الذي ارتضاه لخلق له ليسود الحق والعدل والسلام - ولعل الآيات السابقات دليل على هذا الارتباط ، فلا يمكن أن نقطع بآية دون معرفة سببها ومسببها وقد يكون فيما سبق ، أو ما قد يلحق ، فعلياً للوصول إلى مبتغانا من عرض مستفيض متكامل ألا نقطع الواقع عن السابق أو اللاحق .

ففي الآية (١٥) من الشورى ذكر كتاب الله وقد سبق في بداية السورة ، وأعيد ذكره في الآية (١٧) وجاء أمر ارتباط بالآية (١٨) - قضية الساعة - حيث ورد الإخبار عنها في الآية (١٧) ؛ ليكتمل الحديث عن هذه القضية في الآية (١٨) وهكذا في كثير من الحالات .

وبعد هذا التقديم نعود لنربط الآية (١٥) بما سبقها فهي لاحقة لمعان كثيرة وردت في الآيات السابقات حتى في الآيات التي تصدرت هذه السورة ، ولا ننسى مشاركة السورة مع السور سبقتها والتي ستلحق بها - والله نرجو أن يهدينا سبلنا ويكشف عن بصائرنا ويعلمنا ما ينفعنا ويزيدنا علماً .

ويربط صاحب الظلال - رحمه الله - بين هذه الآيات وما سبقها ويوضح صورة الارتباط بالانقياد الإيماني فيقول ^(١) : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۖ ﴾ .

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء ، والقيادة الحازمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت ، تدعو إلى الله على بصيرة ، وتستقيم على أمر الله دون انحراف ، وتناهى عن الأهواء المضطربة المتناوحة من هنا وهناك .

القيادة التي تعلن وحدة الرسالة ، ووحدة الكتاب ، ووحدة النهج والطريق ،

والتي ترد الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك الأصل الواحد ﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَّاهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل .

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ فهي قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل في الأرض بين الجميع . (هذا والدعوة بعد في مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هي وأصحابها ، ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة) وتعلن الربوبية الواحدة ﴿ إِلَهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ وتعلن فردية التبعة ﴿ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ .

وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة الأخيرة ، في مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الدقيق ، فهي رسالة جاءت لتمضي في طريقها لا تتأثر بأهواء البشر ، وجاءت لتهمين فتحقق العدالة في الأرض ، وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو في حقيقته موحد على مدى الرسالات .

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبية المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين في الله مُستكراً لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب ، فتنتهي هذه الفقرة بالفصل في أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد .

﴿ وَالَّذِينَ تَحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولا سلطان . ووراء الهزيمة والبطلان في الأرض الغضب والعذاب الشديد في الآخرة ، وهو الجزء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح .

ثم تبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿٨﴾ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٩﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٠﴾﴾ .

فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ، وجعله حكماً فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ، وأقام شرائعه على العدل في الحكم ، العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات .

ويتنقل من هذه الحقيقة ، حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل إلى ذكر الساعة ، والمناسبة بين هذه وهذه حاضرة ، فالساعة هي موعد الحكم العدل والقول الفصل والساعة غيب ، فمن ذا يدري إن كانت على وشك ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ والناس عنها غافلون ، وهي منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ .

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها فلا عجب يستعجلون بها مستهترين لأنهم محجوبون لا يدركون ، وأما الذين آمنوا منهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون: وإنها لحق ، وإنهم ليعلمون أنها الحق ، وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

﴿ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ ، فقد أوغلوا الضلال وأبعدوا ، ففسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ .

وتبدو المناسبة بعيدة في ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك ، ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى] فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء ، يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر ، فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً ، وقد وهبهم الله الحياة . وكفل لهم أسبابها الأولية ، ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ، ولما اتوا جوعاً وعرياً وعطشاً ، وعجزاً عن أسباب الحياة الأولى ولما تحققت كلمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو عليهم .

ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة ، وجعله فتنة وابتلاء يجزي عليهما الناس يوم الجزاء .

٥٤- مصدر كتاب الله (١)

﴿ حَمَّ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ [الجاثية] .

﴿ حَمَّ ﴾ قد بينا ما قيل فيه ، وأجود الأقوال أنه اسم للسورة ، قال على بن عيسى : وفي تسمية السورة بـ ﴿ حَمَّ ﴾ دلالة على أن هذا القرآن المعجز كله من حروف المعجم ؛ لأنه سمي به ليدل عليه بأوصافه ؛ ومن أوصافه أنه معجز وأنه مفصل قد فصلت كل سورة من أختها ، وأنه هدى ونور ؛ فكأنه قيل هذا اسمه الدال عليه بأوصافه .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أضاف التنزيل إلى نفسه في مواضع من السور استفتاحاً بتعظيم شأنه ، وتفخيم قدره بإضافته إلى نفسه ؛ من أكرم الوجوه وأجلها وما اقتضى هذا المعنى لم يكن تكريراً ، فقد يقول القائل : اللهم اغفر لي ، اللهم ارحمني ، اللهم وسع على في رزقي ، فيأتي بما يؤذن أن تعظيمه لربه منعقد بكل ما يدعوه به ؛ وقوله: ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ يدل على أن ابتداءه من الله تعالى .

﴿ الْعَزِيزِ ﴾ أي القادر الذي لا يغالب . ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ العالم الذي أفعاله كلها حكمة وصواب . ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١﴾ الذين يصدقون بالله وبأنبيائه ؛ لأنهم المتفعون بالآيات وهي الدلالات والحجج الدالة على أن لها مدبراً ، صانعاً ، قادراً ، عالماً^(١) .

ثم إن هذا القرآن منزل من عند الله القوي الغالب الذي لا يقهر ، الحكيم في كل شيء تدبيره ووصفه في المكان المناسب له ، وتحقيقه المصلحة لعباده ، ويقتضي إثبات هاتين الصفتين لله عز وجل ، كونه قادراً على جميع الممكنات ، عالماً بجميع المعلومات ، غنياً عن كل الحاجات ، فلا يصدر منه العبث والباطل .

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٧٢/٩ .

ثم ذكر ما تقتضيه العزة والحكمة ، فقال: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: إن في خلق السموات وخلق الأرض لدلائل قاطعة على وجوده ووحدانيته ، وقدرته العظيمة ، وهذا دليل من الكون ، ثم ذكر تعالى دليلاً من الأنفس ^(١) .

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- كون مصدر القرآن الكريم هو الله عز وجل ، وليس له أي مصدر آخر سواه .

٢- إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ، وقدرته بأدلة ستة في ثلاث آيات

الدليل الأول من الكون : خلق السموات والأرض فهو يدل على وجود الإله كما ذكر الرازي من ستة وجوه ^(٢) .

أولاً: إنها أجسام حادثة ، وكل حادث له محدث .

ثانياً: إنها مركبة من أجزاء متماثلة في مواضع متفاوتة عمقاً وسطحاً مما يدل على أن وقوع كل جزء في موضعه لا بد له من مرجح ومخصص .

ثالثاً: إن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في ماهيتها الجسمية ، اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة ، واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية ، وذلك لا بد له من مرجح .

رابعاً: إن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مثل : كمودة زُحل ، وبياض المشتري ، وحمرة المريخ والضوء الباهر للشمس ، ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد ، ونور القمر ونحوه ، واختلافها في تلك الصفات دليل على أن الإله القادر المختار هو الذي خصص كل واحد منها بصفته المعينة .

خامساً: إن كل فلك مختص بحركة إلى جهة معينة ، ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء . وذلك دليل على مخصص . فاعل مختار وهو الله وحده .

(١) التفسير المنير ٢٥ / ٢٥١ . .

(٢) تفسير الرازي ٣٧ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

سادساً: إن كل فلك مختص بمهمة معينة ، فلا بد من مخصص فاعل مختار .

الدليل الثاني والثالث: من الأنفس ، وهما خلق الإنسان والدواب بتركيب عضوي عجيب ، وخواص وطاقات مادية ومعنوية مذهلة ، يدلنا ذلك على أن هناك خالقاً مبدعاً لتلك الأنفس وهو الله تعالى .

الدليل الرابع والخامس والسادس من الظواهر الكونية: وهي تعاقب الليل والنهار بنحو دائم وتفاوتهما وإنزال الأمطار والثلوج لإحياء الأرض بالنبات ، وتغذية الينابيع والأنهار ، وتقليب الرياح وتغيرها . كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر القاهر ، الحكيم الصنع البديع الخلق والإتقان ^(١) .

إن ما ذكرناه هو أيضاً بيان وشرح لما بدأت به أيضاً سورة الأحقاف كما سيأتي في العنوان التالي .

٥٥- مصدر كتاب الله (٢)

﴿ حَمِّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾ [الأحقاف] .

سميت (سورة الأحقاف) للحديث فيها عن الأحقاف ، وهي مساكن عاد في اليمن الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية بسبب كفرهم وطغيانهم في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف] .

مناسبتها لما قبلها: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي :

١- تطابق مطلع السورتين في ﴿ حَمِّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾ .

٢- تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد .

٣- ختمت السورة السابقة بتوبيخ المشركين على الشرك ، وبدأت هذه السورة بتوبيخهم على شركهم ومطالبتهم بالدليل عليه ، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاءه ، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعائها إلى يوم القيامة ^(١) .

﴿ حَمِّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾ أي إنه تعالى كما بدأ سورة الجاثية هو الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وليس من عند محمد ﷺ كما يزعم المشركون ، وهو مع هذا التنزيل موصوف بالعزة التي لا يفوقها شيء ، فهو القوي القاهر الذي لا يغلب ، وهو الحكيم في تدبيره وصنعه وأقواله وأفعاله يضع كل أمر في موضعه ، وإذا كان الأمر كذلك فما على الناس إلا الإيمان بالقرآن والتصديق بما جاء فيه والإيمان بصدق محمد ﷺ في نبوته ، وفيما دعاكم إليه من التوحيد الخالص .

وإثبات البعث والجزاء ، ودعوة الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة والأخلاق
النافعة الكاملة ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ أي: ما أوجدنا وأبدعنا السموات العلا ،
والأراضى السفلى وما بينهما من سائر المخلوقات إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذي
تقتضيه المشيئة الإلهية ، وليس على وجه العبث والباطل ، فليس خلقها عبثاً ولا
باطلاً .

وقد خلقناها إلى مدة معينة محددة لا تزيد ولا تنقص ، وهي يوم القيامة ، فإن
السموات والأرضين والمخلوقات تنتهي ، وتبديل السموات والأرض بغيرها .

أما الذين جحدوا بالله ، بالرغم من هذه الأدلة ، ومن إنزال الكتب ، وإرسال
الرسل ، فهم لاهون عما يراد بهم ، مولون عما خوفوا به في القرآن من البعث
والحساب والجزاء ، غير مستعدين له وسيعلمون غب ذلك وعاقبته ^(١) .

٥٦- الكتاب المسطور

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴾ [الطور] .

إن ورود ﴿ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴾ في جملة هذه الأمور التي يقسم بها الله تعالى في سورة الطور ، يجعلنا نعود إلى تركيبة السورة ، وهي ليست الوحيدة التي أقسم الله تعالى بها ، مثل : ﴿ وَالضُّحَى ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ ﴾ [الضحى] ، ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١ ﴾ [الطارق] وكثير غير هذا فإن الحديث عن تركيبة السورة ضروري للوقوف على هذا الكتاب الذي أقسم الله به والذي هو : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ ﴾ .

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري ، ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره ، وتندس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه ودحض كل حجة وكل عذر قد يتخذ للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهي تلاحقه حتى تلجؤه إلى الإذعان والاستسلام ^(١) .

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء ، بعضها مكشوف معلوم ، وبعضها مغيب مجهول : ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ ﴾ .

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجاً ، ويرعب الحس رعباً في تعبير يناسب لفظه ومدلوله الرهيب ، وفي مشهد كذلك ترجف له القلوب ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ ﴾ [الطور] ^(٢) .

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٩١ .

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٩١ .

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنعمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة في مطلعها ، وهي تبدأ كلمة واحدة ، ثم تصبح كلمتين ، ثم تطول شيئاً فشيئاً حتى تبلغ في نهاية المقطع اثني عشرة كلمة مع المحافظة الكاملة على الإيقاع .

والطور: الجبل فيه شجر ، والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن . المذكور في قصة موسى ﷺ والذي نزلت فوقه الألواح ، فالجو جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذي سيجيء .

والكتاب المسطور في رق منشور الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذي كتب له في الألواح للمناسبة بينه وبين الطور وقيل هو اللوح المحفوظ تمشياً ما بعده : البيت المعمور ، والسقف المرفوع ، ولا يمنع أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت المعمور يكون الكعبة ، ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة في السماء لما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء .. ثم رفع إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم « يعني تتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم .. إلخ » ^(١) .

وفي رأي آخر ^(٢) : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ أقسم به الله سبحانه بالجبل الذي كلم عليه موسى ﷺ ، الأرض المقدسة - عن جماعة من المفسرين وقيل هو الجبل ؛ أقسم به لما أودع فيه من أنواع نعمه - عن مجاهد والكلبي .

﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ أي مكتوب وهو الكتاب الذي كتبه الله لملائكته في السماء يقرؤون فيه ما كان وما يكون ، وقيل : هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ وهو الرق المنشور .

وقيل: هو صحائف الأعمال التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة فمنهم آخذ كتابه بيمينه وآخذ بشماله وهذا كقوله: ﴿ وَخُذْ لَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء] عن الفراء .

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٣ بتصرف .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ٢٧/ ١٦٣ .

وقيل: هي التوراة كتبها الله لموسى فخص الطور بالذكر لبركتها وكثرة منافعها في الدنيا وذكر الكتاب لعظم موقعها من الدين ، عن الكلبي .

وقيل: إنه القرآن يكتبه المؤمنون ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ أي وينشرونه لقراءته والرق ما يكتب فيه ، وقيل : الرق هو الورق عن أبي عبيدة .

وقيل: إنما ذكر الرق لأنه من أحسن ما يكتب فيه ، وإذا كتب الحكمة فيما هو على هذه الصفة كان أبهى والمنشور المبسوط .

والبيت المعمور - كما ذكر عند الرأي الأول^(١) .

إلى هنا يقف الحديث عما ذكر في كتاب الله من لفظ الكتاب . وهو الاسم الثاني الذي خص الله تعالى به القرآن الكريم .. توخيت أن أحصى كل ما ورد في ذلك ، وسعيت لأقف على جميع التفسيرات المتاحة لكلمة الكتاب (القرآن الكريم) ، وذلك لارتباط هذا الاسم مع كثير من المفاهيم والأحكام والمعجزات كما مكنى الله تعالى من الحديث عنها .

لا أدعي الكمال بحال فالكمال لله وحده ، ونحن مخطئون ، تائبون إن شاء الله .
لندخل فيما ورد أيضاً من صفات هذا الكتاب الجليل . الذي أرجو الله تعالى أن يجعله شافعاً مشفعاً لي يوم القيامة وأن يثيبني الله تعالى على كل حرف مما كتبت توخيا لمرضاته جل وعلا ، واعترافاً بعظمة هذا الكتاب الكريم الذي هو رحمة للعالمين .

فصل الفرقان

١- منزل الفرقان: ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ [آل عمران].

٢- التقي والفرقان: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ ﴿١﴾ [الأنفال].

٣- تبارك الذي نزل الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي

نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴿١﴾ [الفرقان].

١- منزل الفرقان

﴿الْم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝﴾ [آل عمران] .

سمي القرآن الكريم بأسماء ثلاثة: وهي القرآن ، والكتاب ، والفرقان وله الكثير من الصفات التي تدل عليه وهو ما سيكون موضوع هذا البحث وفيها الهدي ، والتنزيل ، والآيات ، والذكر ، والبيان . وغيرها كما سيرد لاحقاً .

وذكر القرآن باسمه الفرقان في ثلاثة مواضع تحدثنا عن الأولى فيها وهي تسمية الفرقان باسمه في مطلع سورة آل عمران وتأتي الاثنان في موضعهما إن شاء الله تعالى وقد درسنا هذه التسمية في بحث الكتاب لورود هذه التسمية في بحث الكتاب لورود هذا الاسم مقدماً على اسم الفرقان في بحث : « الكتاب المنزل بالحق وتحت رقم ٨ » .

٢- التقي والفرقان

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال] .

أجمع المفسرون أن كلمة الفرقان هنا تعني: ما يفرق بين الحق والباطل ، وفي أن إضفاء هذا اللفظ على القرآن الكريم في آيتين: لا يبعد المعنى كثيراً ؛ لأن الفرقان (القرآن) أيضاً يفرق بين الحق والباطل . ولكن التفريق بين الحق والباطل سواء أكان في القرآن الكريم أو في طاعة الله تعالى فإنها تبقى بذات المعنى . وفي الآية تأكيد للتقوى التي تمتلئ بها القلوب وتطبع بها النفوس ، وتهادى بها القلوب المؤمنة يجعل الله للمتقين فرقاناً .

وفي هذا المعنى يقول الإمام الشوكاني^(١) : جعل - سبحانه - التقوى شرطاً في الجعل المذكور ، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون ، جرياً على ما يخاطب الناس بعضهم بعضاً . والتقوى : اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في نواهيه . والفرقان : ما يفرق بين الحق والباطل . والمعنى : أن يجعل لهم من ثبات القلوب ، وتقوية البصائر ؛ وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس .

وقيل : الفرقان : المخرج من الشبهات ، والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجي الخلد والموت طلي ومالي من كأس المنية فرقان

وقال الفراء: المراد بالفرقان : الفتح والنصر ، قال ابن إسحاق : الفرقان : الفصل بين الحق والباطل . ومثله قال ابن زيد .

وقال السدي : الفرقان : النجاة ، ويؤيده تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] وبه قال مجاهد ومالك بن أنس .

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما اقترعتم من الذنوب . وقد قيل : إن المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التي تغفر : الكبائر وقيل : المعنى : إنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله ، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو النصر .

٣- تبارك الذي نزل الفرقان

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝۱ ﴾ الَّذِي لَهُ
 مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ
 شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝۲ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
 وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا ۝۳
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا
 ظُلْمًا وَزُورًا ۝۴ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
 ۝۵ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝۶ ﴾
 [الفرقان] .

﴿ الْفُرْقَانِ ﴾ اسم ثالث للقرآن الكريم مع (القرآن و الكتاب) وافتتاح هذه
 السورة المباركة التي سميت به « سورة الفرقان » دليل عظمة هذا الاسم وعلو
 رفعته وعمق معانيه .

وردت كلمة « الفرقان » في القرآن بمعنيين : الأول : اسم للقرآن الكريم مرتين
 في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ
 وَالْإِنجِيلَ ۝۲۰ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران] والمرة الثانية في هذه
 الآية وتحديدًا في الآية رقم (١) من سورة الفرقان .

ورد أيضاً بمعنى الكتاب في آيتين ذكر بهما موسى ﷺ وما نزل عليه بقوله
 تعالى :

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝۲۰ ﴾ [البقرة] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝۲۱ ﴾ [الأنبياء] .

وردت الكلمة أيضاً بمعنى الذي يفرق الحق من الباطل بقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] .

وورد مرة واحدة بذكر يوم بدر بيوم الفرقان - وهو ابتداء الصدام بين الحق والباطل في معركة فاصلة وهي غزوة بدر بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١] ^(١) .

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآيات ^(٢) : تكلم - سبحانه - في هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ، ثم في النبوة لأنها الواسطة ، ثم في المعاد ، لأنه الخاتمة ، وأصل تبارك مأخوذ من البركة ، وهي النماء والزيادة ، حسية كانت أو عقلية . قال الزجاج : تبارك تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة : الكثرة من كل ذي خير ، قال الفراء : إن تبارك وتقدس في العربية واحد ومعناها العظمة . وقيل المعنى تبارك عطؤه ، أي زاد وكثر ، وقيل المعنى : دام وثبت . قال النحاس : وهذا أولها في اللغة ، والاشتقاق من برك الشيء : إذا ثبت ، ومنه : برك الجمل أي : دام وثبت . واعترض ما قاله الفراء بأن التقديس : إنما هو من الطهارة ، وليس من ذا في شيء . قال العلماء : هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي . والفرقان : القرآن ، وسمى فرقانا لأنه يفرق بين الحق والباطل ، أو بين الحق والمبطل .

والمراد بعبده نبينا محمد ﷺ ، ثم علل التنزيل : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ . فإن النذارة هي الفرض المقصود من الإنزال ، والمراد : محمد ﷺ أو الفرقان : والمراد بالعالمين هنا : الإنس والجن ؛ لأن النبي ﷺ مرسل إليهما ، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلًا إلى الثقلين ، والنذير والمنذر ، أي : ليكون محمد منذرًا ، أو ليكون إنزال القرآن منذرًا ، ويجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة أي : ليكون

(١) معجم كلمات القرآن العظيم - محمد عدنان ، دار الفكر ، دمشق كلمة (فرقان) .

(٢) فتح القدير : ١٨ / ٧٠ - ٧٢ بتصرف .

إنزاله إنذاراً . وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى ؛ لأن صدور الإنذار منه حقيقة ، ومن القرآن مجازاً ، والحمل على الحقيقة أولى ولكونه أقرب مذكور ، وقيل : إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الاسراء : ٩] . . ثم إنه - سبحانه - وصف نفسه بصفات أربع :

الأولى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ دون غيره فهو المتصرف فيهما ، ويحتمل أن يكون الموصول الآخر بدلاً أو بياناً للموصول الأول والوصف أولى ، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود وتوابعه من البقاء وغيره .

والصفة الثانية : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ وفيه رد على النصارى واليهود .

والصفة الثالثة : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ ﴾ ، وفيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنية وأهل الشرك الخفي .

والصفة الرابعة : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الموجودات : ﴿ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أي : كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد وهيأه لما يصلح له . قال الواحدي : قال المفسرون : قدر له تقديراً من الأجل والرزق . فجرت المقادير على ما خلق وقيل : أريد بالخلق هنا مجرد الإحداث ، والإيجاد - مجازاً - من غير ملاحظة معنى التقدير ، وإن لم يخلُ عنه في نفس الأمر فيكون المعنى : أوجد كل شيء فقدره لئلا يلزم التكرار ، ثم صرح - سبحانه - بتزييف مذاهب عبدة الأوثان فقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ والضمير في اتخذوا للمشركين وإن لم يتقدم لهم ذكر لدلالة نفي الشريك عنهم ؛ أي اتخذ المشركون لأنفسهم - متجاوزين الله - آلهة : ﴿ لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ والجملة في محل نصب : صفة لآلهة أي : لا يقدرُونَ على خلق شيء من الأشياء ، وغلب العقلاء على غيرهم ؛ لأن في معبودات الكفار : الملائكة وعزيراً ، والمسيح : ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ أي يخلقهم الله - سبحانه - وقيل : عبّر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع .

وقيل : معنى ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ أن عبدتهم يصورونهم . ثم لما وصف -

سبحانه - نفسه بالقدرة الباهرة ، وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ فقال: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي لا يقدرُونَ على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً ولا يدفعوا عنها ضرراً ، وقدم ذكر الضر لأن دفعه أهم من جلب النفع ، وإذا كانوا بحيث لا يقدرُونَ على الدفع والنفع ، فيما يتعلق بأنفسهم ، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم .

ثم زاد في بيان عجزهم قصصاً على هذه الأمور فقال: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أي لا يقدرُونَ على إماتة الأحياء ، ولا إحياء الموتى ولا بعثهم من القبور ؛ لأن النشور : الإحياء بعد الموت ، يقال: أنشر الله الموتى فنشروا ، ومنه قول الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت للميت الناشر

ولما فرغ من بيان التوحيد ، وتزييف مذاهب المشركين ، شرع في ذكر شبه منكري النبوة :

فالشبهة الأولى: ما حكاه عنهم بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ ﴾ أي : كذب ﴿ أَفْتَرَنَاهُ ﴾ أي اختلقه محمد ﷺ ، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن الكريم ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي : على الاختلاق ﴿ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعنون اليهود .

قيل وهم: أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى ابن عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود . ثم رد الله - سبحانه - عليهم فقال : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أي : فقد قالوا : ظلماً هائلاً عظيماً وكذباً ظاهراً . وانتصاب ظلماً بجأؤوا ؛ فإن جاء : قد يستعمل استعمال أتى ويعدى تعديته . وقال الزجاج: إنه منصوب بنزع الخافض ، والأصل جاؤوا بظلم .

وقيل : هو منتصب على الحال وإنما كان منهم ظلماً لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه . فقد وضعوا الشيء في غير موضعه ، وهذا هو الظلم ، وأما كون ذلك منهم زوراً فظاهر : لأنهم كذبوا في هذه المقالة .

ثم ذكر الشبهة الثانية فقال: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي : أحاديث الأولين ، وما سطوروا من الأخبار قال الزجاج: واحد الأساطير : أسطورة مثل أحاديث ، وأحدوثة . وقال غيره : أساطير : جمع أسطار مثل أقاويل ﴿أَكْتَتَبَهَا﴾ أي : استكتبها أو كتبها لنفسه ، ومحل اكتتبها : النصب على أنه حال من أساطير . ولها مواقع إعرابية أخرى .

﴿فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ﴾ أي : تلقى عليه تلك الأساطير بعدما كتبها ليحفظها من أفواه من يملها من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه . ويجوز أن يكون المعنى اكتتبها : أراد كتابتها ﴿فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ﴾ لأنه يقال : أملت عليه فهو يكتب ﴿بُكَرَّةً وَأَصِيلاً﴾ غدوة وعشياً كأنهم قالوا : إن هؤلاء يعلمون محمداً طرفي النهار ، وقيل : معنى بكرة وأصيلا : دائماً في جميع الأوقات فأجاب - سبحانه - عن هذه الشبهة بقوله : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ أي : ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم ، وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة ، وأخبار الأولين ، بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء .

فلهذا عجزتم عن معارضته ، ولم تأتوا بسورة من مثله . وخص السر للإشارة إلى انطواء ما أنزله - سبحانه - على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر ، والسر : الغيب ، أي يعلم الغيب الكائن فيهما جملة : ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تعليل لتأخير العقوبة . أي إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله والظلم له ، فإنه لا يعجل عليكم بذلك ؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة قوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ هو القرآن فيه حلاله وحرامه ، وشرائعه ودينه ، وفرق الله به بين الحق والباطل .

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ قال : بعث الله محمداً ﷺ نذيراً من الله لينذر الناس بأمر الله ووقائعه بمن ضل مثلكم : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ قال : بين لكل شيء من خلقه صلاحه وجعل ذلك بقدر معلوم ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ قال : هي الأوثان التي تعبد من دون الله : ﴿ لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلُقُونَ ﴾ وهو الله الخالق الرازق :

وهذه الأوثان تُخلق ولا تخلق شيئاً ولا تضر ولا تنفع ، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً : يعنى بعثا : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هذا قول مشركي العرب : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ ﴾ هو الكذب : ﴿ أَفْتَرَنُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي : على حديثه هذا وأمره : ﴿ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ ، ﴿ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ كذب الأولين وأحاديثهم .

فصل الآيات

١- الآيات البينات

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ [١] أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ [البقرة] مكرر بمعرض آخر.

والآية: العلاقة .. وزنها فعلة في قول الخليل ، وذهب غيره إلى أن أصلها أَيْة فعلة فقلبت الياء ألفا لانفتاح ما قبلها - وهذا قلب شاذ .

وقوله عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت] .

وقال الزجاج: معناه نريهم آياتنا التي تدل على التوحيد في الآفاق ، أى آثار من قبلهم من خلق الله- عز وجل- فى كل البلاد وفى أنفسهم من أنهم كانوا نطفاً ثم علقه ، ثم مضغاً . ثم عظاما كسيت لحما ، ثم نقلوا إلى التمييز والعقل وذلك كله دليل على أن الذى فعله واحد ليس كمثله شىء ، تبارك وتقدس.

والآية من التنزيل . ومن آيات القرآن العزيز .

قال أبو بكر: سميت الآية من القرآن لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام . ويقال: سميت الآية آية لأنها جماعة من حرف القرآن ، وآيات الله عجائبه .

وقال ابن حمزة: الآية من القرآن : كأنها العلامة التى يفضى منها إلى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية كما قال :

إذا مضى علم منها بدا علم

والآية: العلامة . وفى حديث عثمان : أحلتها آية ، وحرمتها آية .

قال ابن الأثير: الآية المحلة قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]

والآية المحرمة قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء].

والآية: العبرة ، وجمعها آى قال الفراء فى كتاب المصادر : الآية من آى الآيات والعبر . سميت آية . كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِينَ ﴾ [يوسف]: أى أمور وعبر مختلفة ، وإنما تركت العرب همزتها كما يهمزون كلما جاءت بعد ألف ساكنة ؛ لأنها كانت - فيما يرى - فى الأصل آية . فنقل عنهم التشديد فأبدلوه ألفا لانفتاح ما قبل التشديد .

وقوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠] واحدة ، قال ابن عرفة: لأن قصتهما واحدة ، وقال ابن منصور: لأن الآية فيهما معا آية واحدة . وجمع الآية : آى وآياى وآيات ؛ وأنشد أبو زيد: لم يبق هذا الدهر من آيايه... إلخ^(١) .

لقد وردت حوالى ست وعشرون من آيات القرآن الكريم تعنيه : أو تعنى أجزاء منه ، أو تعنى صفته المعجزة ، أو تعنى كما ورد فى معناها عجائب أو محرمات ، أو تحليل أو تحريم أمر من أمور الشريعة . وسنقف إن شاء الله على المعانى التى تربطنا بالقرآن من أى جملة كانت . قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْآفُسِقُونَ ﴾ [البقرة] .

اللفظة: الآية: العلامة التى فيها عبرة ؛ وقيل : العلامة التى فيها الحجة والبينة الدلالة الفاصلة الواضحة بين القضية الصادقة والكاذبة مأخوذة من إبانة أحد

الشيئين من الآخر ليزول التباسه به .

النزول: قال ابن عباس : إن ابن سوريا قال لرسول الله ﷺ : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتتبعك لها فأنزل الله هذه الآية .

المعنى: يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى سائر المعجزات التى أعطاها النبي ﷺ . وقيل: القرآن وما فيها من الدلالات عن أبى مسلم وأبى على .

وقيل: هى التوراة ، والإنجيل والإخبار عما غمض مما فى كتب الله السالفة من الأمم ؛ كقوله تعالى: ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة] .

﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى: واضحات تفصل بين الحق والباطل ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ ، ومعناه الكافرون ، إنما سُمى الكفر فسقا ؛ لأن الفسق خروج من شيء إلى شيء ، واليهود خرجوا من دينهم وهو دين موسى بتكذيب النبي ﷺ وإنما لم يقل الكافرون ، وإن كان الكفر أعظم من الفسق لأحد أمرين :

أحدهما: إن المراد أنهم خرجوا عن أمر الله إلى ما يعظم من معاصيه .

والثانى: إن المراد به أنهم الفاسقون المتمردون فى كفرهم ؛ لأن الفسق لا يكون إلا أعظم الكبائر ، فإن كان فى الكفر فهو أعظم الكفر ، وإن كان فيما دون الكفر فهو أعظم المعاصى ^(١) . وأوردت كتب التفسير فى شرح هذه الآيات الكثير من تاريخ بنى إسرائيل وشروهم ، ونقض عهودهم وتحريفهم لكتبهم نستخلص منه ما يلى ^(٢) :

هذا سجل من قبائح اليهود أوضحه الله تعالى وهو من أخبار الغيب التى لا يعلمها إلا علام الغيوب ، وقد رصد فيه عيوباً أربعة هى :

(١) البيان فى تفسير القرآن ١ / ١٦٨ .

(٢) التفسير المنير ١ / ٢٤٠ .

١- التكذيب بآيات الله وبياناته وأدلتها الواضحة القاطعة على وجوده ووحدانيته وربوبيته ولزوم عبادته وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه .

٢- عدم الثقة بهم في أى شىء ؛ لأنهم دأبوا على نقص العهود والغدر بالمعاهدين في كل زمان .

٣- انقطاع الأمل وسد باب الرجاء في إيمان أكثرهم ؛ لأن الضلال قد استحوذ عليهم .

٤- لم ينبذ فريق منهم كتاب الله ((التوراة)) جملة وتفصيلا ، بل نبذوا منهم ما يبشر بالنبى ﷺ وبيّن صفاته وما يأمرهم بالإيمان به ، فإن ما فى كتابهم من البشارة بنبى يحىء من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على النبى الكريم .

٢- آية خير من آية

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦ ﴾ [البقرة] .

المعنى اللغوي: ﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾ : النسخ في اللغة : الإزالة . يقال : نسخت الشمس الظل : أى إزالته .

الإنساء: إذهاب الآية من ذاكرة النبي ﷺ بعد تبليغه إياها . فمعنى ﴿ نُنسِهَا ﴾ نبيح لكم تركها ، من نسي : إذا ترك : ثم تعدى بالالف .

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الأجر .

﴿ أَوْ مِثْلَهَا ﴾ فى التكليف والثواب .

﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦ ﴾ ومنه النسخ والتبديل .

سبب النزول :

قال المفسرون: إن المشركين قالوا: أترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه . ويقول اليوم قولاً ، ويرجع عنه غداً . ما فى هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً مثل: تغيير حد الزانى بالتعبير باللسان ﴿ فَكَادُوهُمَا ﴾ والزانية بالإمساك فى البيوت ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٥] إلى الجلد ، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٦ ﴾ [النحل] .

وأنزل أيضاً: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦ ﴾ [البقرة] .

التفسير: نزل القرآن منجما مفرقا لا على وفق المناسبات والحوادث والوقائع أخذا بمبدأ تربوى ناجح ألا وهو التدرج فى التشريع لإصلاح المجتمع العربى الجاهلى تدريجيا ، ومراعاة للمصالح وتمكيننا من التخلص من العادات والتقاليد الموروثة شيئا فشيئا ، وإعدادا للحكم الشرعى المستقر بتقبل النفوس له وتربيتها على وفق الغاية الشرعية بنحو بطيء ، واقتناع عقلى ذاتى بأفق التشريع ومراميه البعيدة ، فإذا توافرت المصلحة العامة للأمة بقى الحكم وإن لم تتوافر بأفق عدل أو بدل ونسخ .

والنسخ الذى هو رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر يكون إما بنسخ لفظ الآية ومعناها أو أحدهما ، أو بانتهاء الحكم المستفاد منها مع بقاء نصها ، كل ذلك بحسب المصلحة أو الحاجة ، كالطبيب الذى ينوع الأدوية والأغذية ، واختلاف الأزمنة ، والأمزجة والأحوال الصحية والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أطباء الأمة ، ومصلحو النفوس ، يوحى إليهم بتبديل الحكم الشرعى لمراعاة الأحوال الحاضرة أو المستقبلية ، فما قد يصلح علاجا فى الماضى قد لا يصلح فى المستقبل ، وذلك كله يدل على مرونة الإسلام .

وليس النسخ لظهور أو إبداء المصالح الجديدة المقتضية لتغيير الحكم . فالله - سبحانه - الناسخ يعلم الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو يتدرج فى معالجة الأوضاع تبعا للظروف والأحوال منعا من المفاجأة وأحكام الطفرة ؛ كالتدرج فى تحريم الخمر أو الربا ، الذى مر بمراحل أربع ، والتدرج فى تقرير أحكام الجهاد من مسلم مطلق إلى إعداد النفوس ، إلى فرضية القتال بحسب الضعف ، ثم بحسب القوة وكثرة العدد .

ومعنى الآية: ما نغير حكم آية ، أو نجعلك تنساها فلا تذكرها ، أو تأمر بتركها أو تؤجلها إلا أتينا بما هو خير منها للعباد بكثرة الثواب إن كان الناسخ أثقل أو تحقيق المصلحة إن كان الناسخ أخف . أو مثلها على الأقل فى التكليف والثواب .

قال الفخر الرازى: وقد جاء النسيان بمعنى الترك فى قوله تعالى: ﴿ فَنَسِىَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزَمًا ﴾ [طه] ، أى فنزل ، وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا

نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٦٠﴾ [الجاثية] ، وقال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [طه] .

ونسخ الحكم يكون ببدل أخف وأيسر ، كنسخ عدة المتوفى عنها زوجها فى الحول إلى أربعة أشهر وعشر أو ببدل مساو كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة ، أو بأشق منه وثوابه أكثر كنسخ ترك القتال بإجابه على المسلمين ، ونسخ حبس الزناة فى البيوت إلى الجلد ، ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان لأنه كان فى الحديث الثبت : ((أفضل الأعمال أحزها)) أى: أشقها ، وقد تكون الخيرية بإسقاط التكليف لا إلى بدل فى رأى الجمهور (جمهور الأصوليين) مثل : نسخ وجوب تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ، ونسخ ادخار لحوم الأضاحى ، ونسخ تحريم المباشرة فى ليلالى رمضان ، بقوله: ﴿ أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۚ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ ۚ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة] ، ونسخ وجوب الإمساك بعد النوم فى ليلالى رمضان ، ونسخ قيام الليل فى حقه ﷺ .

أليس الله على كل شىء قدير؟ فالله القادر على كل شىء لا يصعب عليه نسخ الأحكام .

وأليس الله مالك السموات والأرض؟ فهو يملك كل ما فى الكون أرضه وسماؤه ، ويتصرف بحسب إرادته ومشئته . ويدبر الأمور حسبما يرى من المصلحة فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام ، وليس لكم ولى سواه يتولى أموركم ، ولا ناصر ولا معين ينصركم ويعينكم وعلى هذا فيصح للمسلمين أن يعجلوا بما يأمرهم به رسولهم ، وينتهوا عما نهاهم عنه ^(١) .

(١) التفسير المنير ١ / ٢٦٠ فما بعدها بتصرف .

بحث ضرورى فى أحكام النسخ:

كتب الدكتور وهبة الزحيلي فى كتابه : التفسير المنير بحثا مستفيضا حول النسخ وبمناسبة ورود هذه الآية ، ودرءا للأقاويل التى تريد إثارة الفتن نسوق هذه الدراسة ^(١) .

وقوع النسخ: النسخ جائز عقلا بإجماع أهل الشرائع ما عدا اليهود والنصارى وواقع شرعا بإجماع المسلمين ، ما عدا أبا مسلم الأصفهاني .

ودليل الجواز العقلى: أنه لا يترتب على فرض وقوعه محال . وهو معنى الجواز ؛ لأن أحكام الله تعالى إن لم يراع فى شرعيتها مصالح العباد ، فذلك تابع لمشيئة الله ، والنسخ فعل الله والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . فقد يأمر بالفعل فى وقت ، وينهى عنه فى وقت ، كما أمر بالصيام فى نهار رمضان ، ونهى عنه يوم العيد .

أما لو راعينا فى أحكام الله مصالح العباد ، وأن التشريع قائم على أساس المصالح ، كما تقول المعتزلة ، فالمصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان ، فما قد يكون مصلحة لشخص أو فى زمن قد لا يكون مصلحة لشخص آخر وفى زمن آخر .

وما دامت المصالح تتغير ، والأحكام يراعى فى تشريعها مصالح الناس ، فإن النسخ أمر ممكن غير محال ، ويكون جائزاً عقلا .

وأدلة وقوع النسخ عقلا كثيرة:

منها: إجماع الصحابة والسلف على أن شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة ، أى فى غير أصول العقيدة والأخلاق ، مثل : تحريم الشحوم وكل ذى ظفر على اليهود بسبب ظلمهم ، وأكلهم أموال الناس بالباطل بالربا وغيره .

ومنها: الإجماع على نسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس ، باستقبال الكعبة وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بأية الموارث . ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان ، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدى مناجاة النبي ﷺ بالعفو عنه .

أما أبو مسلم الأصفهاني من علماء التفسير المتوفى سنة ٣٢٢هـ فإنه أجاز النسخ مطلقا بين الشرائع كما هو المشهور عنه . ولكنه منع وقوعه في الشريعة الواحدة . مستدلا بقول الله تعالى في صفة القرآن: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت] . فلو وقع النسخ في القرآن لأتاه الباطل . وأجيب بأن النسخ إبطال ، لا باطل ؛ لأن النسخ حق وصدق ، والباطل ضد الحق . كل ما في الأمر أن يصبح حكم المنسوخ غير معمول به ، فلا دلالة في الآية على مطلوب الأصفهاني . ثم إن كل آية قيل فيها : إنها منسوخة ، فإنه يؤولها تأويلا ، إما بالتخصيص ، أو بإنهاء أمر الحكم الشرعي أو بالتقييد ببعض الأحوال ، أو الأشخاص ، ونحو ذلك كما فعل في آيات العدة وآيات القتال وغيرها .. الآتية .

أنواع النسخ: للنسخ أحوال أهمها ثلاث:

١- نسخ التلاوة والحكم معا ؛ مثل نسخ صحف إبراهيم وموسى والرسائل السابقين ، ومثل نسخ عدد الرضعات من عشر إلى خمس . قالت عائشة رضي الله عنها : كما في صحيح مسلم وغيره : « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن ، فنسخ بخمس رضعات . فتوفى رسول الله ﷺ ، وهن فيما يتلى من القرآن والقسم الأول منسوخ الحكم والتلاوة ، والقسم الثاني وهو الخمس منسوخ في التلاوة باقى الحكم عند الشافعية .

٢- نسخ التلاوة دون الحكم ، مثل قول عمر رضي الله عنه : « كان فيما أنزل : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة : نكالا من الله ورسوله » ثبت في الصحيح : أن هذا كان قرآنا يتلى ، ثم نسخ لفظه ، وبقي حكمه .

وأضاف الحنفية أمثلة أخرى في القراءات الشاذة ؛ مثل قراءة ابن مسعود في صوم كفارة اليمين : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » ، وقراءة ابن عباس : « فأفطر فعلة من أيام آخر » وقراءة سعد بن أبي وقاص : « وله أخ أو أخت لأم فلكل واحد منهما السدس » .

٣- نسخ الحكم دون التلاوة ، وهو كثير . مثل نسخ حكم آية الوصية للوالدين

وللأقرين . ونسخ آية الاعتداد بحول كامل ، ونسخ آية الحبس للمرأة فى البيوت ، وإيذاء الرجل باللسان فى حد الزنا ، ونسخ آية تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ . ويجوز بالاتفاق نسخ نص القرآن بالقرآن ، والسنة المتواترة بمثلها وخبر الأحاد بمثله وبالتواتر .

ويجوز عند الأكثرين نسخ التواتر بالآحاد ، أى نسخ القرآن بغير القرآن ، والمتواتر بغير المتواتر . ونفى الشافعية وقوعه وقال : لا ينسخ القرآن بالسنة ، ولا السنة بالقرآن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ ﴾ [البقرة: ١٠٦] دلت الآية على أن الآتى بالبدل هو الله سبحانه ، وهو القرآن . فكان الناسخ للقرآن هو القرآن ، لا السنة ، وأيضا فإن الله جعل البدل خيرا من المنسوخ أو مثالا له والسنة ليست خيرا من الكتاب ولا مثالا له . فلا تكون ناسخة له ، ثم إن الآية ذيلت ببيان اختصاص ذلك التبديل بمن له القدرة الكاملة وهو الله تعالى ، ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١] حيث أسند التبديل إلى نفسه وجعله فى الآيات .

وأجيب : إن السنة من عند الله كالقرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾ [النجم] . إلا أن القرآن معجز ومتعبد بتلاوته ، والسنة ليست كذلك والمراد بالخيرية والمثلية هو فى الأحكام بحسب مصلحة الناس لا فى اللفظ ، فيكون الحكم الناسخ خير من الحكم المنسوخ لاشتماله على تحقيق مصالح العباد . وقد تأتى السنة بما هو أنفع للمكلف كما يدل على أن هذه الآية ليست دالة على أن القرآن لا ينسخ بالسنة وقد وقع نسخ القرآن بالسنة فى آية الوصية بالحديث المتواتر : « لا وصية لوارث » .

وقال الشافعى أيضا : لا يجوز نسخ السنة بالقرآن ، ويتطلب كون الناسخ سنة أيضا ، لأن الله تعالى فى قوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] جعل السنة بيانا فلو نسخت قرآنا ، خرجت عن كونها بيانا . وذلك غير جائز .

وأجيب : بأن المراد بالبيان هو التبليغ ، سواء بالقرآن أو غيره .

المراد بالآية فى قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة: ١٠٦] .

ذهب الإمام محمد عبده إلى أن الآية لا يراد منها الآية القرآنية : بل المراد المعجزات الدالة على صدق الرسل . حيث يبدل الله معجزة الرسول السابقة بالمعجزة التى يأتى بها الرسول الذى بعده . استدلالا بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة] . وأجيب بأن هذه الآية جاءت للتمهيد فى تحويل القبلة ، ونسخ التوجه إليها بالتوجه إلى الكعبة ، فهى فى نسخ الأحكام المقررة بالآيات ، والمراد بالآية إذا أطلقت : القطعة من السورة المتضمنة أمراً أو نهياً أو غير ذلك .

فقه الحياة أو الأحكام :

أجمع السلف على وقوع النسخ فى الشريعة ، ودلت وقائع ثابتة على وقوعه بغض النظر عن التعسف فى تأويل الآيات المنسوخة ، وليس النسخ جهلاً بالحكم الأخير ، أو من باب البداء ، بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة ، وحكم إلى حكم ، لنوع من المصلحة التشريعية الملائمة لحاجات الناس إظهاراً لحكمة الله وكمال ملكه ، ولا خلاف بين العقلاء أو شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية ، وإنما كان يلزم البداء ((الظهور بعد الخفاء ، أو ظهور مصلحة لم تكن ظاهرة للمشرع)) لو لم يكن عالماً بمآل الأمور وأما العالم بذلك ، فإنما تبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح ، كالطبيب المراعى أحوال العليل ، فراعى ذلك فى خليقته بمشيئته وإرادته لا إله إلا هو ، فخطابه يتبدل ، وعلمه وإرادته لا تتغير ، فإن ذلك محال على الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئاً واحداً ، والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شىء إلى شىء قد كان حلالاً فيحرم أو كان حرماً فيحلل وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه ، وهذا يلحق البشر لنقصانهم .

والناسخ فى الحقيقة هو الله تعالى ، والنسخ إزالة ما قد استقر من الحكم

الشرعى بخطاب متراخ عنه والمنسوخ هو الحكم الثابت نفسه ، لا مثله ، كما تقول المعتزلة : بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل . وقادهم إلى ذلك مذهبهم فى أن الحسن صفة ذاتية للحسن لا تفارقه ، ومراد الله حسن ، والفرق بين التخصيص والنسخ أن الأول قصر للحكم على بعض الأفراد والثانى قصر له على بعض الأزمان .

وجمهور العلماء على أن النسخ يختص بالأوامر والنواهي ، وأما الأخبار فلا يدخلها النسخ لاشتماله الكذب على الله تعالى . وقد يرد فى الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق ، ثم تقيد فى موقع آخر فيرفع ذلك الإطلاق فليس هو من قبيل نسخ الأخبار ، وإنما هو من باب الإطلاق والتقييد .. مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال لكنه قيد فى موضع آخر . وهو قوله تعالى: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾ [الأنعام: ٤١] انتهى .

٣- الرسول ﷺ الذي يتلو الآيات

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ وعلى آله وسلم إليهم ، يتلو عليهم آيات الله بينات ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، أى يطهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] وهو القرآن الكريم والحكمة وهى السنة النبوية المطهرة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء ؛ فانتقلوا ببركة رسالته ، وبمن سفارته إلى حال الأولياء ، وسجاياء العلماء ، فصاروا أعمق الناس علما ، وأبهرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة . فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] . وذلك من لم يعرف قدر هذه السنة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] . قال ابن عباس : يعنى بنعمة الله محمدا ﷺ . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره .

وقال : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٢٩] . قال مجاهد : فى قوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ ﴾ يقول : كما فعلت فاذكرونى .

قال عبد الله بن وهب ، عن هشام بن سعيد ، عن زيد بن أسلم : إن موسى عليه السلام قال : يا رب ، كيف أشكرك ؟ قال له ربه : تذكرنى ولا تنسانى ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى .

قال الحسن البصرى ، وأبو العالية ، والسدى ، والربيع بن أنس : إن الله يذكر

من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره .

وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] وقال: هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقال ابن أبي حاتم: عن مكحول الأزدي قال : قلت لابن عمر : أرأيت قاتل النفس ، وشارب الخمر والشارق ، والزاني يذكر الله . وقد قال الله تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت .

وقال الحسن البصري: في قوله: ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ . قال : اذكروني فيما أوجب لكم على نفسي . وعن سعيد بن جبیر : اذكروني بطاعتكم ، أذكركم بمغفرتي ، وفي رواية برحمتي^(١) .

٤- الآيات والذكر الحكيم

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران] .

تسبق هذه الآية الآية الدالة على خلق عيسى عليه السلام من غير أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران] .

ولحقت هذه الآية آيتان من سورة آل عمران الحديث بهما الأولى من حال الكافرين ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴾ [آل عمران] والثانية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران] .

وتعنى الآية بين ما لحق وما سبق: إن الله تعالى يتلو عليك يا محمد ﷺ من الآيات المعجزات الدالة على نبوتك ، والتي تقنع كل ذى عقل رشيد فيؤمن بك ، وتلين لها القلوب . وأما الذين جحدوا وكفروا وعموا وصموا . وأغلقوا قلوبهم وعقولهم أمام هذه الآيات التى يلمسونها ويحسونها ويرونها بأمر أعينهم ويتحسسونها بأيديهم . فتطرق عقولهم وتودى لهم القناعات بما يخالج عقولهم وما يوسوس لهم الشيطان - فيتساءلون كيف ولد عيسى من غير أب إن هذا شئء يحير؛ لأنهم لم يروا ولم يسمعوا أن يولد مولود من غير أب أو من غير أم وكل مولود يجب أن تتوفر فيه الشروط حتى يكون مولودا .. وأما إن كان غير هذا فهو فى حدود اللامعقول . أو أن أمرا جرى سدى فجاء المولود ، إنها وساوس الشيطان .. وتفاعلات الكفر والجحود بآيات الله تعالى .

فجاء الجواب المخبر عن الكافرين ومصيرهم ، والمؤمنين ومصيرهم . ثم ذكر الآيات والذكر الحكيم ليقول: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ هَلْ خَلَقَ عِيسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ ءَادَمَ ؟ فَإِنَّ ءَادَمَ خَلَقَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمَ - قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ -

من سلالة من حمأ مسنون ، من تراب . أو لم يعلموا أنهم خلقوا من تراب ﴿ وَمِنْ
ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم] فتحقيق
الآيات يا محمد التى أيدك الله تعالى بها ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ نقرؤه عليك
ونكلمك به .

وقيل: نأمر جبريل أن يتلوه عليك ﴿ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ أى من جملة الآيات والحجج
الدالة على صدق نبوتك إذا علمتم بما لا يعلمه إلا قارئ كتاب ، أو معلم ، ولست
بواحد منهما فلم يبق إلا أنك قد عرفته عن طريق الوحي ﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾
القرآن المحكم ، وإنما وصفه بأنه حكيم ؛ لأنه بما فيه من الحكمة كأنه ينطق
بالحكمة . كما تسمى الدلالة دليلا ، لأنها بما فيها من البيان كأنها تنطق بالبيان
والبرهان ، وإن الدليل فى الحقيقة هو الدال^(١) .

٥- آيات الله

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [آل عمران] .

اللفظة: الطاعة: موافقة الإرادة الجاذبة للفعل بالترغيب فيه والإجابة موافقة الإرادة الواعية إلى الفعل ، ولذلك يجوز أن يكون الله مجيباً إلى عبده إذا فعل ما دعا العبد به ، ولم يجوز أن يكون مطيعاً له وأصل الاعتصام الامتناع ، وعصمه لبصره .. إذا منعه . و ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] : أى ولا مانع ، والعصام : الحبل لأنه يعتصم به .

المناسبة: نزلت فى الأوس والخزرج ، لما أغرى قوم من اليهود بينهم بذكر حروبهم فى الجاهلية ليفتنوهم عن دينهم - عن زيد بن أسلم والسدى .
وقيل نزل قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ فى مشركى العرب عن الحسن .

المعنى: ثم حذر المؤمنين عن قبول قولهم فقال: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ : أى صدقوا الله ورسوله ، وهو كتاب للأوس والخزرج ، ويدخل غيرهم من المؤمنين فى عموم اللفظ. ﴿ إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ومعناه: إن تطيعوا هؤلاء اليهود فى قبول قولهم ، وإحياء الضغائن التى كانت بينكم فى الجاهلية ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾ أى يرجعونكم كفاراً بعد إيمانكم ثم أكد تعالى الأمر وعظم الشأن فقال: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ ، أى وعلى أى حال يقع منكم الكفر ﴿ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ ﴾ وهذا استبعاد أن يقع منهم الكفر مع معرفتهم بآيات الله ، وفيهم داع يدعوهم إلى الإيمان . وقيل: هو على التعجب ، أى لا ينبغي لكم أن تكفروا ما يقرأ عليكم فى القرآن المجيد من الآيات الدالة على وحدانية الله ، ونبوة نبيه محمد ﷺ ، ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يعنى محمداً ﷺ وترون معجزاته .

والكفر وإن كان فظيعة في كل حال فهو في مثل هذه الحالة أقطع ، ويجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ القوم الذين كان النبي ﷺ بين أظهرهم خاصة ، ويجوز أن يكون المراد به جميع أمته لأن أثاره وعلاماته من القرآن الكريم وغيره فينا قائمة باقية ، وذلك بمنزلة وجوده فينا حيا .

﴿ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ ﴾ وأى يتمسك بكتابه وآياته وبدينه ، وقيل من يمتنع بالله عمن سواه بأن يعبد ، ولا يشرك به شيئا . وقيل : ومن يمتنع عن الكفر والهلاك بالإيمان بالله ورسوله ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ : أى إلى طريق واضح . قال قتادة : وفى هذه الآية علمان بينان : كتاب الله ونبي الله ؛ فأما نبي الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهرهم ، رحمة منه ونعمة ، فيه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

وقيل : إنهم قد شاهدوا فى نفسه ﷺ معجزات كثيرة ، منها أنه كان ينام بعينه ولا ينام قلبه ، ومنها أن كان لا يطوله أحد وإن طال . ومنها أنه كان بين كتفيه خاتم النبوة ، ومنها أنه كان إذا مر بموضع يعلمه الناس لطيبه ، ومنها أنه كان يسطع نور من جبهته فى الليلة المظلمة ، ومنها أنه ولد مختونا .. إلى غير ذلك من الآيات^(١).

ثم إن معجزة الرسول ﷺ على مختلف العصور والأزمان هيأها لهذه الأمة من سجل حياة النبي ﷺ بكل جزئياتها ، وبكل دقائقها وما زال علماء السيرة والحديث دائبين على هذا المنوال ، وفى هذا الطريق حتى أصبحت كل صغيرة أو كبيرة معروفة للناس فى حياته ﷺ . وكذلك فقد هيأ الله تعالى علماء صدق فأظهروا الحق من الباطل ، وأبعدوا عن هذا العلم والدين كل ضعيف ومرفوض ومتأول عليه ﷺ فلم يقتصر الأمر على ما قاله ولكن شمل الحديث الشريف كل ما قاله أو فعله أو أقره . وشملت السيرة النبوية كل حركة وفعل وصفات وشمائل وأخلاق .

وبذلك فقد تحقق فى هذه الآية - حفظ كتاب الله تعالى المعجزة الخالدة إلى يوم الدين - وكذلك معجزة حياة النبي ﷺ كأنه حى بين أظهرنا ، ونصلى ونسلم عليه

فى كل لحظة وآن ، وفى كل نبضة قلب أو طرفة عين - فالصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله .

ويأتى بعد ذلك قضية هامة فى هذا المضمار وهى قضية الاعتصام بالله ، الاعتصام بكتاب الله ، الاعتصام بسنة رسول الله ﷺ ، وهذا الاعتصام بمجموعه هو الهادى إلى الصراط المستقيم الذى هو عزنا فى الدنيا ودرينا إلى الجنة بثقة ويقين بوعد الله تعالى للمؤمنين .

٦- آيات الله المتلوة بالحق

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران ١٨] .

الآية مرتبطة بما قبلها ، وبما بعدها ، وهى فى سياق الآيات التى تتحدث عن أهل الكتاب وتعاملهم فى الدنيا ومصيرهم فى الآخرة . وعن مواقفهم من الرسول ﷺ والمؤمنين . واتخاذهم العداوة ديدنا ومبدءا ، وتحريضا على الإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا .. ولعل الصراع القائم الآن على أشده فى أماكن ، واسترخاء فى أماكن أخرى ، إنما هو ما امتلأت به القلوب والأحقاد من اليهود خاصة ، ومن تمكن اليهود أن يجندوهم فى عالم الأقوياء ، وسوقهم للدخول فى حروب مكشوفة مع المسلمين ، والهيمنة الطاغية الظالمة على مقدرات المسلمين وأرضهم ، واتخاذ الحجاج والأسباب التى تؤدى إلى إذلال المسلمين وعزة أعدائهم فى الدنيا .

والآية تضع الخط الواضح للمسلمين متمثلا فى الخطاب إلى الرسول ﷺ والمسلمين معه من الذين صدقوه وآمنوا معه ونصروه ، فحقق الله تعالى لهم النصر والفوز فى الحياة الدنيا ، والجنة فى الآخرة إن هم أحسنوا التعامل والجهاد فى سبيل الله . تلك الفريضة الإسلامية الصادقة التى يحاولون إنهاءها من نفوس المسلمين بحجة الإرهاب اليوم ومحاربة الإرهاب.

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ، وما أنزل على

محمد كان لأتباعه على مر العصور والأزمان ﴿ ءَايَاتُ اللَّهِ ﴾ معجزاته التى أيد بها النبي ﷺ ، ولكننا نعود ونؤكد أن المعجزة التى أيد الله تعالى بها الأنبياء ومن صلح من الناس ، إنما هى فعل مختلف آتى . ذهب ولم يعد .. فلم تبق عصاه موسى بعده ولا ناقة صالح بعده ، ولا إحياء الموتى بعد عيسى ، ومعجزة لوط وهود وصالح وموسى دمر الله بها الكافرين كل بأسلوب غير الآخر . وقد شاهد الناس تلك

المعجزات واعترفوا بها سواء أكانت لنبي أم صالح من الناس ، كأصحاب الفيل الذى استشهد به النبي ﷺ على ولادته حيث ولد فى ذات العام وأنزل فيه قرآنا فلم يجد من يكذبه بعد نيف وأربعين عاما ، عندما ذكر بها الأحياء الذين عاصروا الحدث وشاهدوه ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ ﴾ وآيات الله - قرآنه الذى اختص به الرسول ﷺ طاهرا مطهرا محفوظا ثابتا شاملا تكشف معجزاته يوما من يوم فهو معجزة النبي ﷺ الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يشير الله تعالى إلى هذه الآيات ويتبعها بقوله: ﴿ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ فهى - أى آيات القرآن الكريم ، والمعجزات المادية التى سرت على يدى رسوله أنها هى بالحق ؛ لا يأتيها الباطل ولا يأتيها سحر أو كهانة أو لعب بعقول الناس ، إنها آيات يتلوها الله على رسوله بالحق الناصع المبين الباقي الخالد المحفوظ من رب العالمين ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران] .

كيف يجرى الظلم على يد الله وهو الخالق البارئ المصور ؟ كيف يظلم الله هؤلاء العباد الذين خلقهم ليعبدوه؟! فإن فعلوا فقد استحقوا الرحمة والغفران ، وإن كفروا فأولئك هم الظالمون : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ [الشورى : ١٩] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان] وهنا نفى قاطع لمن يظن أن الله يجرى على يديه شئ من الظلم مهما صغر ، إنما هو إقرار من الله تعالى بأنه لا يريد ظلما للعالمين إن لم يكونوا هم الذى يقودون أنفسهم إلى الظلمة بكفرهم بالله تعالى أو تعديهم على حدود ما خلقوا له فى الأرض ، ويقاثلون المؤمنين ويمنعون نشر هذا الدين فى أى زمان ومكان .

إن الله لا يظلم مثقال حبة ، فله ملكوت السموات وكل ما فيها من مراتب ومجموعات ونجوم وكواكب وكل ما دس الله تعالى فيها من خلقه فله كل ما فى السموات وكل ما فى الأرض .. وبعد هذا كله فى الله ترجع الأمور ، إن رجوع الأمور إلى الله يعطى كل مخلوق حقه الذى كلف به ، ويثيبه على الإحسان إحسانا مضاعفا وعلى الإساءة مثلها ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

الخلاصة: إن آيات الله - تعالى - من القرآن الكريم . والمعجزات التى ساقها

على يد محمد ﷺ ، وذكر الآيات التي استحقها الأنبياء ، إنما هي تذكر بوحدانية الله تعالى ومقدرته ، وضعف المخلوقات مهما عظمت وكبرت ، فإنما هي خلق من خلق الله وتبارك الله أحسن الخالقين .

٧- إن الله قادر على أن ينزل آية

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [١] وَقَالُوا
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] [الأنعام]

الآية هنا هي: الآية المادية المعجزة المخالفة لسنن الله في خلقه ؛ كناقاة صالح ،
وعصا موسى ومائدة عيسى . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣] إن نزولها بلاء عليهم
لأنهم سيهلكون إن جحدوها .

والآية: هي القرآن المعجز كله أو جزء منه سورة أو آية التي تحدى الله تعالى بها
المشركين الذين لا يكتفوا بهذه الآيات المعجزات ، ولكنهم يريدون أن تكون
معجزات مادية .

مناسبة هذه الآيات:

نزلت بعد غزوة (أو وقعة) حمراء الأسود بعد وقعة أحد ، ولما بين الله تعالى في
الآيات السابقة أن الناس صنفان متفاوتان في الاستعداد بقبول الهداية الإلهية:
صنف يختار الهدى على الضلال ، وصنف بالعكس .

بين هنا أن الصنف الأول : هم الذين يسمعون الدلائل والبيانات سماع تدبر
وفهم .

والصنف الثاني: لا يفقهون ولا يسمعون ، وإنما هم كالأموات ^(١) .

لقد كان هذا من كفار قريش تعنتا ومكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله الله على
رسوله والآيات البينات التي من جملتها القرآن وقد علموا أنهم قد عجزوا على أن
يأتوا بسورة مثله ، ومرادهم بالآية هنا : هي التي تضطرهم إلى الإيمان ؛ كنزول الملائكة
بمرأى منهم ومسمع ، أو تنق الجبل كما وقع لبنى إسرائيل ، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم

بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان ، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان وأيضا لو أنزل آية كما طلبوا لم يهملهم بعد نزولها ؛ بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا .

قال الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى ، يعنى جمع إلقاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله قادر على ذلك ، وأن تركه حكمة بالغة لا تبلغها عقولهم ^(١) .

ويعنى أن طلبهم آية مادية مع وجود هذه الآيات البينات القرآنية إنما هو محاولة تعجيز الرسول ، فلو فرض حدوثها لما آمنوا ولقالوا : إنها سحر . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام] ، : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر] ، ومن ثم فإن الاستجابة لدعوة النبي ﷺ تتطلب سماع القرآن سماع إصغاء وفهم وإرادة الحق ، وهذا منهج المسلمين الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون .

وأما مطالبتهم تنزيل آية مادية محسوسة من ربهم فليس إلا تعنتا بعد ظهور البراهين ، وإقامة الحجة بالقرآن الذى عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله ، لما فيه من الإخبار بالغيبات ، وسلامته من التناقض وسمو نظمه .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، ولا ينزل آية بسبب الطلب المتعنت المتعصب ، أو تعجيز الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لا يقدر على شىء من إنزال الآيات أو غيرها إلا بمشيئة الله وإرادته ^(٢) .

(١) فتح القدير ٧ / ١٢٩ .

(٢) التفسير المنير ٧ / ١٩٢ .

٨- الخائضون بآيات الله

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام] .

﴿يَخُوضُونَ﴾: المراد بها هنا الاسترسال بالحديث ، وقد استعمله القرآن أيضا في المشاركة في الباطل مع أهله ، وأصل الخوض : الدخول في الماء سيرا أو سباحة .

﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾: يتكلمون في القرآن استهزاء .

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: انصرف عنهم ولا تجالسهم .

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ : أى ينسينك وجوب الإعراض عنهم فقعدت معهم .

﴿بَعْدَ الذِّكْرَىٰ﴾: المراد هنا التذكر .

سبب النزول:

روى الطبرى عن السدى فى آية ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ قال: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى النبی ﷺ والقرآن ، فسبوه واستهزؤوا به ، فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

وروى مثل ذلك عن جبير وابن جرير وقتادة ومقاتل .

وروى الطبرى أيضا عن سعيد بن جبير ومجاهد أنهما قالوا فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الذين يكذبون بآياتنا ^(١) .

(١) تفسير الطبرى ٧ / ١٤٨ . تفسير الرازى ١٣ / ٢٥ .

وروى عن ابن عباس ، وابن سيرين: أنها نزلت في أهل الأهواء والبدع من المسلمين الذين يؤولون الآيات بالباطل ؛ لتأييد ما استحدثوا من مذاهب .

ولما قال المسلمون: إن قمنا كلما خاضوا ، لن نستطيع أن نجلس في المسجد وأن نطوف ، فنزل: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام] . أى يتقون الله من حساب الخائضين ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى إثم إذا جالسوهم . ومن صلة زائدة .

المناسبة : بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة أن الرسول ﷺ ليس عليه أن يكون حفيظا رقيبا على أعمال المكذبين بآيات الله ، وإنما هو مبلغ ، وأن الزمان سيخبرهم بعاقبة تكذيبهم ، أبان فى هذه الآية وجوب إعراض الرسول ﷺ والمؤمنين عن مجالس المشركين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين ، والطعن فى القرآن والرسول^(١) وأرشدت الآية الكريمة إلى :

١- وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بالقرآن أو بالنبي ﷺ ، أو بأحكام الإسلام ومجالس المتأولين آيات القرآن بغير حق ، وتحريفها عن مواضعها .

٢- قال ابن خويز منداد : من خاض فى آيات الله ، تركت مجالسته وهجر مؤمننا كان أو كافرا إذا علم الرجل من الآخر منكرا ، وعلم أنه لا يقبل منه وعظا ولا نصحا ، فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ، ولا يقبل عليه ، كما قال القرطبي^(٢) .

٣- قال ابن العربى : وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل^(٣) . ومنع المالكية الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم والبيع ، ومجالسة الكفار وأهل البدع ، وألا تعتقد مودتهم ، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم .

٤- لا يطرأ النسيان أصلا على الأنبياء فيما يجب عليهم تبليغه من أحكام القرآن : لعصمتهم عن ذلك ، وإنما يمكن طروء النسيان عليهم فى الأمور العادية

(١) التفسير المنير ٧ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) تفسير القرطبي ٧ / ١٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربى ٢ / ٧٣١ .

كالسهو أثناء الصلاة ونحو ذلك وليس النسيان من قبيل وجود السلطة والتصرف مع الشيطان على الإنسان ، فتسلطه محصور في المشركين والكافرين ، لا في المؤمنين .

٥- الاستهزاء في الدين ليس مسوغا في أى شرعة أو ملة ، والمستهزئون ما هم إلا لاعبون لاهون غرتهم الحياة الدنيا أى لم يعلموا إلا ظاهرا في الحياة الدنيا ، وإن تأصل الكفر فيهم أفسد عليهم فطرتهم ، فحجب عنهم كل خير .

٦- القرآن خير مذكر للإنسان من تعريض نفسه للهلاك والعذاب في نار جهنم والمسلم الحق: من اتخذ القرآن إماما وسنة النبي ﷺ منهجا ، لا من اغتر بالأمانى والأوهام^(١) .

٩- مطالبة المشركين بالنبوة

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سِيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام] .

نعود ثانية لنذكر أن معنى آية هنا هو المعجزة الحسية التي أيد الله تعالى بها الأنبياء عليهم السلام ؛ لتكون هذه الآية أو الآيات دعما وتأييدا لما يدعو له النبي . والآية التي تعنى المعجزة تعنى بكل يقين المعجزة الخالدة أبد الدهر ألا وهى القرآن . صحيح أن مشركى قريش عجزوا هم وغيرهم ممن ماثلهم أو لحق بهم وإلى يوم يبعثون على أن يجاروا هذا القرآن بأية وسيلة أو صيغة أرادوها ، فإن الله تعالى عندما تحداهم بهذا القرآن - وهم البلغاء - اعترفوا بأنه معجز بحد ذاته . وبأنه ليس من صنع البشر ، ولكنهم مع هذا قد استكبروا وعتوا عتوا كبيرا .

وفى هذه الآية التى نزلت فى الوليد بن المغيرة والذى قال : لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها من محمد ؛ لأننى أكبر منه سنا ، وأكثر منه مالا وولدا^(١) .

وبعد أن أبان الله تعالى سنته فى البشر بأن يكون فى كل بلد أو جماعة زعماء مجرمون يقاومون دعوة الرسل والإصلاح ، أوضح أن هذه السنة موجودة فى زعماء مكة الذين دفعهم المكر والحسد إلى أنه متى ظهرت لهم معجزة ظاهرة تدل على نبوة محمد ﷺ قالوا : لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله .

فإذا جاءهم - أى المشركين - آية وبرهان وحجة قاطعة من القرآن تتضمن صدق رسول الله ﷺ فى تبليغ وحى ربه . قالوا حسدا منهم وتعتنا وغرورا وظنا منهم أن النبوة منصب دنيوى : لن نؤمن حتى يكون لنا يا محمد منصب عند الله وتظهر على أيدينا آية كونية أو معجزة مثلما أوتى رسل الله كفلق البحر لموسى وإبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى لعيسى : لأنهم أكثر مالا وأولادا وأعز جانبا ورفعة

بين الناس .

وقال ابن كثير: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْآيَاتُ الْمَلَكِيَّةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان] (١) .

النبوة والرسالة تمنح لمن هو مأمون عليها وموضع لها ، وأقدر على تحمل أعبائها وليست هى مثل مناصب الدنيا التى تعتمد على النفوذ والسلطة أو المال والجاه ، أو النسب ، أو كثرة الأعوان والأولاد .

وما على الناس إلا الإيمان بما جاء به الأنبياء ؛ لأن نبوتهم ثبت بدليل قاطع وبمعجزة خارقة للعادة . فإن لم يؤمنوا أصابهم أمران : صغار وذل وهوان ، وعذاب الله الشديد فى الآخرة ، بسبب إجرامهم ومكرهم ، وحسدهم وحقدهم ، وهذا حق وعدل ، تميزا بين الطائعين وبين العصاة ، وإنما قدم الصغار على ذكر الضرر ؛ لأن القوم إنما تردوا على طاعة محمد ﷺ طلبا للعزة والكرامة . فقابلهم الله بضد مطلوبهم (٢) .

أورد ابن كثير (٣) فى مجال تفسير هذه الآية - بعضا من الأحاديث التى تدل على أن الله تعالى باختياره للنبوة من هو أهل لها ردا على مشركى قريش ، وليعلموا أن منصب النبوة هو اختيار من الله والتى أعلم حيث تجعل رسالته :

- محمد واثلة بن الأسقع ؓ أن رسول الله ﷺ قال: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل كنانة . واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعى .

- وعن أبى هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه ، أخرجه البخارى .

(١) التفسير المنير ٨ / ١٢٤ .

(٢) التفسير المنير ٨ / ٣٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٧٩ .

- وقال العباس عليه السلام قال : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : « من أنا ؟ » قالوا : أنت رسول الله ، فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق ، فجعلني من خير خلقه ، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً » رواه الإمام أحمد ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : قلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » رواه الحاكم والبيهقي . وغير هذا كثير .

١٠- آيات الله - تعالى - التي تزيد الإيمان

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال] .

الوجل: الخوف والفرع ، والمراد : إن حصول الخوف من الله والفرع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملى الإيمان ، المخلصين لله ، والحرص باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان ، قال جماعة من المفسرين : هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفاك أن هذا ، وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله وللرسول ، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال ؛ ولا بوقت دون وقت ، ولا بواقعة دون واقعة والمراد من تلاوة آياته: تلاوة الآيات المنزلة (فى القرآن الكريم من الله تعالى) ، أو التعبير عن بديع صنعته ، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون ، قيل : والمراد بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، وانشراح الخاطر عند تلاوة الآيات .

وقيل: المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل ؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص ، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ، ترد ذلك وتدفعه ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره ، والتوكل على الله تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور ، والموصول فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ . ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ فى محل رفع على أنه وصف صلة للموصول الذى قبله ، أو بدل منه ، أو بيان له ، أو فى محل نصب على المدح ، وخص إقامة الصلاة والصدقة

لكونهما أصل الخير وأساسه ، و من في ﴿ مِمَّا ﴾ أى أن هؤلاء هم الكاملو الإيمان ، البالغون فيه إلى أعلى درجاته ، وأقصى غاياته ﴿ حَقًّا ﴾ ومصدر مؤكد لمضمون جملة هم المؤمنون ؛ أى حق ذلك حقا أو صفة مصدر محذوف ، أى : هم المؤمنون إيمانا حقا ، ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال: ﴿ هُمْ دَرَجَتٌ ﴾ وأى : منازل خير وكرامة وشرف فى الجنة كائنة عند ربهم ، وفى كونها عنده سبحانه ، تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم ، وجملة ﴿ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ خبر ثان ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أو مستأنفة جوابا لسؤال مقدر ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ معطوف على درجات ، أى: مغفرة لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده ^(١) .

١١- آيات الله تعالى تتلى على الكافرين

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَإِذْ قَالُوا االلَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ [الأنفال] .

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم ، وتمردهم وعنادهم ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ .

وهذا فهم قول بلا فعل وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا وإنما هذا القول منهم يقرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم .

وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما نص على ذلك سعيد بن جبير ، والسدى وابن جرير وغيرهم ؛ فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر ، فحدثهم من أخبار أولئك ؛ ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصا أنا أو محمد ..؟! ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى ؛ أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبة صبرا بين يديه ففعل ذلك والله الحمد .

وكان الذى أسره المقداد بن الأسود ؓ . كما قال ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قتل النبي ﷺ يوم بدر صبرا عقبه بن أبى معيط ، وطعيمة ابن عدى ، والنضر ابن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى .. فقال رسول الله ﷺ : ((إنه كان يقول فى كتاب الله عز وجل ما يقول)) ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله .

فقال المقداد: هذا الذى أردت . قال: وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾ .

ومعنى ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو جمع أسطورة أى كتبهم اقتبسها فهو يتعلم فيها ويتلوها على الناس ؛ وهذا هو الكذب الحق كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان] أى لمن تاب إليه وأتاب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه .

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال] هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ؛ وهذا مما عيىوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكنهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة^(١) .

١٢- المستهزون بآيات الله تعالى

﴿ تَحْذَرُ الْمُنْفِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ [١٢] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] .

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء: ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] أى عن الإنفاق فى سبيل الله وهذه الصفات جاءت تالية فى آيات أخرى .

يقول مجاهد: يقولون القول بينهم ، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة : ١٢] ، وقال فى هذه الآية: ﴿ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] ، أى أن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَّنْ أَخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٢] إلى قوله: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد ٢٩ ٣٠] ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة ((الفاضحة)) فاضحة المنافقين .

قال أبو معشر المدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين: ما أرى قرآن هؤلاء إلا أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبنا عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب فقال: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥ ، ٦٦] وإن رجليه

لتسفعان الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ .

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله ابن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا . ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل في المسجد : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن . فقال عبد الله بن عمر وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ! ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ أَيْلَهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد حليف لبنى سلمة ، يقال له : مخشن بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض : أتخسبون جلاد (حرب) بنى الأصفر (الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الجبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين . فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإما نفلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه . وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر: " أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا؟ فإن أنكروا ، فقل: بلى قلتكم كذا وكذا فانطلق إليهم عمار ، فقال لهم ذلك ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه . فقال وديعة بن ثابت ورسوله الله ﷺ واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها^(١) : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب . فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى فكان الذى عفا عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعمل بمكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر . وعن قتادة رواية أخرى بهذا الموضوع ، وبهؤلاء النفر^(٢) .

(١) الحقب: الحقب بالتحريك ، الحزام الذى يلى حقو البعير ، وقيل : هو حبل يشد به الرحل فى بطن البعير مما يلى تيله .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٠ / ٣٨١ ، ٣٨٢ .

١٣- ينسخ الله - تعالى - ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۖ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ۖ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) [الحج] .

أسباب نزول هذه الآيات :

ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائق ، ورجوع كثير من مهاجرة الحبشة إلى مكة ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . وذكروا روايات مختلفة ، كلها من طرق مرسله ، وليست مسنده من وجه صحيح كما قال ابن كثير ^(١) .

منها ما رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وابن المنذر عن سعيد بن جبير : أن النبي ﷺ جلس فى ناد من أندية قومه ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شىء ، فينفروا عنه يومئذ ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (١) [النجم] فقرأ حتى إذا بلغ إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ (٢) وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ﴾ (٣) [النجم] وألقى الشيطان كلمتين : تلك الغرائق ^(٢) العلا ، وإن شفاعتهن لترجى فتكلم بها ، ثم مضى بقراءة السورة كلها ، ثم سجد فى آخر السورة ، وسجد القوم جميعا معه ، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير مثل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الآية .

ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا . فلما

(١) تفسير ابن كثير ١٧ / ٢٣٩ .

(٢) الغرائق: إما الأصنام وإما إشارة إلى الملائكة أى هم الشفعاء لا الأصنام ؛ لأن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله ، كما حكى عنهم .

أمسى النبي ﷺ أتاه جبريل ، فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين قال : ما جئتكم بهاتين . فأوحى الله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۚ ﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿ [الإسراء] فما زال مهموما حتى نزلت : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۖ ﴾ .

قال ابن العربي ، وعياض : أن هذه الروايات باطلة لا أصل لها^(١) . وقال الرازي^(٢) ، أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة لا أصل لها موضوعة ، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول .

أما القرآن فوجوه منها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [يونس: ١٥] وقوله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ هَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم] وقوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة] فلو أنه قرأ عقيب آية النجم المذكورة: تلك الغرانيق العلا . لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم .

وأما السنة: فهي ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة: أنه سئل عن هذه القصة ، فقال : هذا وضع من الزنادقة . وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون ، والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق .

وأما المعقول فمن وجوه منها: إن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفى الأوثان .

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٢٨٨ - ١٢٩٠ ، وتفسير القرطبي ١٢ / ٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٣ / ٥٠ .

قال الرازى : وأقوى الوجوه : أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه - أى شرع الله - وجوزنا فى كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ، ويبطل قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَا الرَّسُولُ بِلَغٍّ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ ۗ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة] ، فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فهذا عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة ^(١) .

أرشدت الآيات إلى ما يلى :

١- هذه تسلية أخرى للنبي ﷺ بعد قوله المتقدم ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ أى فلا تحزن ولا تتألم لما يردده الكفار على لسان الشيطان ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء .

٢- الآية تدل على إحكام الوحي ، وحفظ كتاب الله تعالى وحراسة من أقاويل الشيطان وأباطيله وخرافاته ، فإنه إذا ألقى شيئاً من الكلام فى ثنانيا آيات القرآن الكريم ، أو حديث النبي ﷺ فى نفسه فيبطل الله ما ألقى الشيطان ويحكم آياته ويثبتها .

فقوله تعالى : ﴿ تَمَنَّى ﴾ و ﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أى قرأ وتلا ، وقراءته ، وروى البخارى عن ابن عباس فى ذلك إذا حدث - أى النبي - ألقى الشيطان فى حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان والمعنى : أن النبي ﷺ كان إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيلة ، فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون : ويعلم الله عز وجل أن الصلاح فى غير ذلك فيبطل ما يلقي الشيطان أى إن المراد حديث النفس . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه وأجله .

٣- إن فى إلقاء الشيطان حكمة وهو أن يجعل فتنته ابتلاء واختباراً لفئتين هما المنافقون والمشركون وهم الظالمون أنفسهم . والظالمون أى الكافرون لفى خلاف وعصيان ومشاقة الله عز وجل ولرسوله ﷺ .

٤- قال البقلى: فى آية ﴿يَجْعَلْ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ وفى الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والغلط بوساوس الشيطان ، أو عند شغل القلب حتى يغلط . ثم ينبه ويرجع إلى الصحيح . وهو معنى قوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ .

وكان إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا ، فإما ينسب إليه من قولهم: تلك الغرائق العلا . فكذب على النبي ﷺ ؛ لأن فيه تعظيماً للأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ، ثم ينشد شعرا ويقول : غلطت وظننته قرآنا .

٥- وحكمة أخرى لإلقاء الشيطان هى أن يعلم المؤمنون أن الذى أحكم من آيات القرآن هو الحق الصحيح الثابت من الله . فيؤمنون به ، وتخضع وتسكن قلوبهم ، وإن الله يهدى المؤمنين إلى صراط مستقيم أى يثبتهم على الهداية .

٦- سيظل الكفار فى شك من القرآن أو من الدين : وهو الصراط المستقيم أو من الرسول أو مما ألقى الشيطان على لسان محمد ﷺ ، وهو لم يقله فيقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم ارتد عنها ؟ ويستمر الشك إلى وقت مجئ زمن الإيمان القسرى أو الملجئ فجأة ، وهو إما يوم القيامة وإما الموت ، وإما يوم الحرب كبدر وذلك يوم عقيم ، وقد تبين لدينا أن الراجح فى تفسير اليوم العقيم هو يوم القيامة .

قال الضحاك: عذاب يوم لا ليلة له . وهو يوم القيامة .

قال الرازى: وهذا القول أولى ؛ لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: ٥٥] ويكون المراد يوم بدر ؛ لأن من المعلوم أنهم فى مرية بعد يوم بدر ، ولا يكون هناك تكرار بينه وبين قوله: ﴿السَّاعَةُ﴾ لأن الساعة من مقدمات القيامة ، واليوم العقيم هو ذلك اليوم نفسه كما أن فى الأول ذكر الساعة ، وفى الثانى ذكر عذاب ذلك اليوم . ويحتمل أن يكون المراد بالساعة ، وقت موت كل أحد . وبعباب يوم عقيم : القيامة^(١) .

٧- الملك والسلطان له وحده يوم القيامة دون منازع ، فهو الذى يقضى بالمجازاة بين العباد ويكون قرار حكمه أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فى جنات النعيم ، وأن الكافرين المكذبين بآيات القرآن الكريم فى عذاب مهين . وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ من أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو يوم القيامة^(١) .

١٤- تلاوة آيات الله

تظهر على وجه الذين كفروا المنكر

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ [الحج] .

يخبر الله تعالى عن كمال علمه بخلقه وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض فلا يفر منه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ؛ وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ((وإن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)) .

وفى السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : ((أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن وإلى يوم القيامة)) (١) .

والكتاب هنا كما تدل الأحاديث الصحيحة أنه اللوح المحفوظ الذى كتب به الله خلقه مما كتب فى اللوح المحفوظ القرآن الكريم الذى حملته الملائكة الأطهار من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ثم أبلغه جبريل رسول الله ﷺ (٢) .

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضا وما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذى يفعلونه ، فيعلم قبل

(١) راجع بحث ((كتاب الله والقلم)) من فصل القرآن فى هذا الكتاب .

(٢) انظر أيضا : ((القرآن الزمان والمكان)) فى فصل القرآن فى هذا الكتاب .

الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصى باختياره ، وكتب ذلك عنده ، وأحاط بكل شيء علما ، وهو سهل عليه ، يسير لديه ، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۝ ﴾ الآية. يقول الله تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا ، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا . يعنى حجة وبرهانا كقوله: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ۝ كَفَرُوا مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ۝ ﴾ ما لم ينزل به مكانا وما ليس لهم به علم " أى ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۝ ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۝ ﴾ أى وإذا ذكرت لهم آيات القرآن الكريم ، والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه لا إله إلا الله ، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿ يَكَادُّونَ يَسْطُوبَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۝ ﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويسطون إليهم ألسنتهم وأيديهم بالسوء ﴿ قُلْ ۝ ﴾ أى يا محمد هؤلاء: ﴿ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرِّ مِنَ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ (١) .

١٥- وأنزلنا فيها آيات بينات

﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

[النور]

بعض المعانى : ﴿ سُورَةُ ﴾ : طائفة من آيات القرآن ، محددة البدء والنهاية شرعا بالتوقيف أى النقل الثابت عن النبي ﷺ ، والوحي الإلهى بواسطة جبريل عليه السلام . ﴿ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ وأعطيناها الرسول ، وأوحينا بها إليه . والتعبير بالإنزال الذى هو صعود إلى نزول وإشارة إلى العلو للدلالة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى المتعالى على كل شىء وكل من دونه نازل عنه فى المرتبة ، فلا يفهم من ذلك أنه تعالى فى جهة ﴿ آيَاتٍ ﴾ جمع آية ، وهى العلامة ، والمراد هنا جملة من القرآن الكريم متصلة الكلام تحقق غرضا معينا . ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحة الدلالة على ما فيها من الأحكام.

- هذه السورة ((سورة النور)) أوحيناها ، وأعطيناها الرسول ﷺ . وفرضنا ما فيها من أحكام ، كأحكام الزنا ، والقذف ، واللعان والحلف على ترك الخير والاستئذان ، وغض البصر ، وإبداء الزينة للمحارم وغيرهم ، وإنكاح الأيامى واستعفاف من لم يجد نكاحا ، ومكاتبة الأرقاء ، وإكراه الفتيات على البغاء ، وطاعة الرسول ﷺ ، والسلام على المؤمنين .

وأنزلنا فيها دلائل واضحة ، وعلامات بينة على توحيد الله وكمال قدرته لتذكروها ، فتعتقدوا وحدانيته وقدرته تعالى ، وتكرار ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ لكمال العناية بشأنها ، كما هو الحال فى ذكر الخاص بعد العام .

- إن سورة النور متضمنة آيات بينات ترشد إلى النظام الأقوم والسلوك الأمثل فى الأسرة والمجتمع يقصد بها تحقيق العفاف والصون وحماية العرض ، واتقاء المحرمات ، وتوفير السكينة والطمأنينة القلبية البعيدة عن الشواغل والهواجس الشيطانية الداعية إلى المعصية والرذيلة .

كما أن في هذه الأحكام تذكرا وعظة للمؤمنين ، وتربية النفوس ، وتحقيقا للتقوى التي يستشعر بها المؤمن التقى جلال الله وعظمته ، وعلمه وقدرته ، وحسابه على كل صغيرة وكبيرة لهذا افتتحت السورة بما ينبه على العناية بها والاهتمام بأحكامها^(١) .

١٦- آيات الله والحكمة

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب] .

هذه الآية الكريمة واحدة من الآيات التي خص الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ليكون هداهن هدى لنساء المسلمين جميعا ، واتخذهن الله مثلا بهذا الخطاب ليكون بعد ذلك الخطاب عاما جاريا على جميع نساء المسلمين . مع خصوصيات حملن على نساء النبي ﷺ زيادة على ما على نساء المسلمين من التكليف فقد ضاعف الله لنساء النبي ﷺ ومسلم العقوبة على الذنب كما ضاعف لهن الثواب على الحسنات وجاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ إِنَّ أَتَقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٢٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٢٣﴾ [الأحزاب] ، وبعد هذه التكليف جاءت الآية المذكورة .

ويطلب الله تعالى من نساء النبي العمل بما ينزل الله تبارك وتعالى - كما يقول ابن كثير^(١) - على رسوله ﷺ في بيوتكن من القرآن الكريم (الكتاب) وبما يفعل الرسول ﷺ ، وهي أسرار كشفها النبي ﷺ لأمته حتى تكون لهم هداية ومنهجاً وسنة .

قال قتادة وغير واحد: واذكرن هذه النعمة التي خصصن بها من بين الناس أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس . وعائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن بهذه الرحمة العظيمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك الرسول ﷺ .

قال بعض العلماء: رحمه الله لأنه لم يتزوج بكرًا سواها ، فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية .

ولقد تحدثت نساء النبي - أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن ، وأطعن الله تعالى بذكر ما يتلى في بيوتهن ومن أفواههن ، وكان فقه النساء في الإسلام من أحاديث عائشة وحفصة وأم سلمة ، وخديجة قبلهن التي وقفت مع الدعوة وهى الوحيدة التى لم يشاركها أحد فى حياتها مع النبي ﷺ من نساء أخريات .

وبعد هذه الآية جاءت الآية الكريمة التى شملت المسلمين جميعا بالمغفرة وحسن الثواب يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب] .

١٧- آيات الله يكذب بها المستكبرون

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاْفِرِينَ ﴾ (٥٩) [الزمر] .

هذه الآيات وما سبقها من قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ (٥٦) تتحدث عن النفس التي أذنت وانحرفت ، وكفرت بالله وبآياته لما جاءتها وجعل الله تعالى النفس نيابة عن الإنسان ، والنفس في كثير من الآيات في القرآن تدل على صاحبها كقوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٦٠) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٦١) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٦٢) وَقَدْ خَابَ مَنْ مَدَسَّدَهَا ﴾ (٦٣) ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٦٤) أَرْجِعْنِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ (٦٥) فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ﴾ (٦٦) وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتِي ﴾ (٦٧) [الفجر] ، فالحديث للنفس التي تعبر عن الإنسان رجل أو امرأة .

كما أن استخدام كلمة جنب ، أى : قرب ، وجنب الله : قرب الله تعالى ، تتحدث الله تعالى عن هذا التفريط الذى أبعداها عن قرب الله تعالى ، أى عن الجنة

فى مجمع البيان^(١) قول الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: فعلنا ذلك ذلك كراهة أن تقول لو أراد الله هدايتي لكنت ممن يتقى معاصيه خوفا من عقابه ، وقيل: إنهم لما لم ينظروا فى الأدلة وأعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بالدنيا والأباطيل توهموا أن الله تعالى لم يهدهم ؛ فقالوا ذلك بالظن ولهذا والله عليم بقوله: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي ﴾ الآية ، وقيل: معناه لو أن الله هدانى إلى النجاة بأن يردنى إلى حال التكليف لكنت ممن يتقى المعاصى - عن الجبائى - قال: لأنهم يضطرون يوم القيامة إلى العلم بأن الله قد هداهم ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ

لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ ۞ أَيْ: لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحدين المطيعين . ثم قال سبحانه منكرا على هذا القائل ﴿بَلَىٰ﴾ ۞ أَيْ: ليس كما قلت ﴿قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ ۞ أَيْ حججى ودلالاتى وقرآنى ، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ ۞ وأنفت من اتباعها وذلك قوله: ﴿وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ۞ بها ، وإنما قال: ﴿جَاءَتْكَ﴾ ۞ وإن كانت النفس مؤنثة ؛ لأن المراد بالنفس هنا الإنسان. انتهى .

إن الكثير من الأنفس الضالة .. لترى الحق فتعرض عنه ، وترى الباطل فتخوض فيه فى هذه الدنيا كفرا وفسادا وبعدا عن آيات الله تعالى الماثلة فى الكون وفى النفس ، وفى الحواس ، وفى كل ما يحيط بالإنسان فى هذا الكون من معجزات ، والله تعالى قد بث آياته فى هذا الكون من أصغر المخلوقات المحسوسة أمامنا فى الأرض إلى البعد الهائل اللامتناهى فى هذا الكون ، الذى ينطق باسم الله، ويدل على عظمته ، وحتى لا يبتعد الإنسان كثيرا فإن الله تعالى قد أودع آياته فى كتابه الكريم ، والذى حفظه من كل تحويل أو تحريف ، أو تغيير ليكون دلالة لهذه النفس التى تأتيتها الحسرة يوم القيامة ، وترى العذاب فتقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ۞ .

١٨- الذين يلحدون في آيات الله - الذين كفروا بالذكر

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۚ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤٥ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٦﴾ [فصلت] .

فى هذه الآيات البينات ذكر القرآن الكريم بصفتين ، وذكر باسمه مرتين :
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾ [فصلت: ٤٤] .

ذكر بالآيات بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ۗ ﴾ الآية ، وذكر ﴿ بِالذِّكْرِ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ وذكر باسمه بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ كما ذكر بالتنزيل .

وأخيرا فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ، وقد تم ذكر هذا فى فصل القرآن الكريم رقم ٣٧ بعنوان : القرآن العربى .

يقول الشوكانى ^(١) :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ۗ ﴾ أى : يميلون عن الحق ، والإلحاد: الميل والعدول ومنه اللحد فى القبر: لأنه أميل إلى ناحية منه ، يقال ألحد فى دين الله: أى مال وعدل عنه ، ويقال: لحد أى قبر .. قال مجاهد: معنى الآية يميلون عن الإيمان بالقرآن . وقال أيضا: يميلون عن تلاوة القرآن بالمكاء والتصديّة ، واللغو والغناء . وقال قتادة : يكذبون فى آياتنا . وقال السدى : يعاندون ويشاقون . قال ابن زيد :

يشركون . ﴿ لَا تَحْفَوْنَ عَلَيْنَا ۖ ﴾ بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون ، ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال: ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار . وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة .

وظاهر الآية العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقيل: المراد بمن يلقي في النار : أبو جهل ، ومن يأتي آمنا : النبي ﷺ ، وقيل: حمزة ، وقيل : عمر ابن الخطاب ، وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي : ﴿ آَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هذا أمر تهديد ، أى : اعملوا من أعمالكم التي تلقيكم في النار ما شئتم إنه بما تعملون بصير ، فهو مجازيكم على كل ما تعملون قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر . ومعناه الوعيد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وخبر إن محذوف أى : إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم ، أو هالكون ، أو يعذبون ، وقيل : هو قوله : ﴿ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴾ [فصلت] - وهذا بعيد وإن حجه عمرو بن العلاء .

وقال الكسائي: إنه سد مسده الخبر السابق ، وهو ﴿ لَا تَحْفَوْنَ عَلَيْنَا ۖ ﴾ . وقيل: إن الجملة بدل من الجملة الأولى وهى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا ۖ ﴾ . وخبر إن: هو الخبر السابق. ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۖ ﴾ . أى: القرآن الكريم الذى كانوا يلحدون فيه أى: عزيز عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون ، منيع من كل عيب ، ثم وصفه بأنه حق ، لا سبيل إلى الباطل إليه بوجه من الوجوه ، فقال: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ ﴾ قال الزجاج: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزداد فيه ، فيأتيه الباطل من خلفه . وبه قال قتادة والسدى .

ومعنى الباطل على هذا: الزيادة والنقصان .

وقال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله . وبه قال الكلبي وسعيد بن جبير . وقيل : الباطل هو الشيطان . أى : لا يستطيع أن يزيد فيه ، ولا ينقص منه ، وقيل : لا يزداد فيه ، ولا ينقص منه ، لا من جبريل ، ولا من محمد ﷺ ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح ، وقيل : إنه الصفة لكتاب . وجملة ﴿ لَا يَأْتِيهِ ﴾ [فصلت : ٤٢] معترضة بين الموصوف والصفة ثم سلا سبحانه رسوله ﷺ عما كان يتأثر به من أذى الكفار فقال :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ [فصلت] .

١٩- الآيات البينات

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتُّوْا بِقَابِإٍنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ [الجاثية] .

سبب نزول الآية (٢٥) : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ﴾ : أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فأنزل الله ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ الآية .

قال الرازي : هذه الآية من أقوى الدلائل على القول بغير حجة وبينه قول باطل فاسد ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى ^(١) .

ثم ذكر تعالى شبهتهم ودليلهم على إنكار البعث :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتُّوْا بِقَابِإٍنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٦) أى إذا تليت عليهم بعض آيات القرآن ووضحت الدلالة على قدرة الله والبعث واستدل عليهم ، وبين لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إلى الأنفس بعد فنائها ، لم يكن لهم حجة إلا طلب إعادة إحياء آبائهم الذين ماتوا . وإن كنتم - أيها المؤمنون صادقون فى إمكان البعث ، فأحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً ليشهدوا لنا بصحة البعث .

وهذا كلام ساقط ، فإن البعث يكون بعد نهاية الدنيا ، ولا يلزم من عدم حصول الشيء فى الحال امتناع حصوله فى المستقبل يوم القيامة .

ثم ذكر الله تعالى دليل إمكان البعث قائلاً : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى قل : أيها النبي لهؤلاء المشركين منكرى البعث : إن الله أحياكم فى الدنيا ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يجمعكم

جميعاً يوم القيامة جمعاً لا شك فيه ، فإن الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى كما قال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[الروم] ﴿٤٧﴾

وهذه إشارة إلى الآية المتقدمة ، وهو أنه كونه تعالى عادلاً منزهاً عن الجور والظلم ، يقتضى صحة البعث والقيامة .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الن] أى أكثر الناس وهم مشركو العرب حينذاك ينكرون البعث ، ومن غير تأمل وتدبر وروية ، ولا يدركون الحقيقة العلمية ، ويقصرون نظرهم على المحسوسات ، دون تفكير بالغيبات فاستبعدوا قيام الأجساد أحياء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ [الن] وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج]

كذلك لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم . ونلخص المقصود إذا قرئت على المشركين آيات الله تعالى المنزلة (القرآن الكريم) فى جواز البعث لم يكن لهم دفع حجة أو شبهة إلا أن قالوا: اتنوا بآبائنا الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون^(١) .

٢٠- الذين اتخذوا آيات الله هزوا

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ۝٣٠ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣١﴾ [الجاثية]

بعد أن أبان الله تعالى فى هذه السورة أحوال القيامة وأهوالها ، أبان الله تعالى أحوال المؤمنين الطائعين وما أعد لهم الله من الرحمة والثواب ، وأحوال الكافرين وأعد لهم من العقاب ، والتوبيخ على تفريطهم فى الدنيا ، وما حل بهم جزاء استهزائهم بالعذاب ، ومعاملتهم معاملة المنسى بتركهم فى النار ، دون انتظار الخروج منها أو التوبة واسترضاء الله عن الذنوب السالفة .

والآيات ٣٠ - ٣٧ من سورة الجاثية تبين حكم الله فى خلقه يوم القيامة ، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝٣٠﴾ [الجاثية] هذا حكم الفريق الأول ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١﴾ [الجاثية] ، أى وأما الذين أنكروا وحدانية الله والبعث ، فيقال لهم تقريعا وتوبيخا: أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم وأبستم الإيمان بها ، وأعرضتم عن سماعها واتباعها ، وكنت قوما مجرمين فى أفعالكم ، ترتكبون الآثام والمعاصى ، وتكذبون فى قلوبكم بالمعاد والثواب والعقاب؟!

ثم أياسهم الله تعالى من النجاة قائلا:

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية] أى: ويقال لهم: اليوم نعاملكم معاملة الناس لكم وكالشيء المنسى الملقى غير المبالى به . فترككم فى العذاب ، كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وتجاهلتم ما جاء عنه فى كتب الله: لأنكم لم تصدقوا باليوم الآخر ، ومسكنكم

ومستقركم الذى تؤون إليه هو النار، وليس لكم من أنصار ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب.

وبذلك جمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة ألوان هى :

الأول: أنه قطع رحمة الله عنهم بالكلية .

الثانى: أنه جعل مأواهم النار .

الثالث: فقدان الأعوان والأنصار .

ثبت فى الصحيح : ((إن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجك: ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أفظنت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى)) .

ثم ذكر الله تعالى أسباب هذا العقاب أو الجزاء فقال :

﴿ ذَالِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَرَّيْتُمْ آلَ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ

مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية] أى ذلكم العذاب الذى وقع بكم بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا ولعبا ، وخذعتكم الدنيا بزخارفها وزينتها ، فاطمأنتم إليها ، وظننتم أن لا دار غيرها ، ولا بعث ولا نشور ، فاليوم لا يخرجون من النار ولا يطلب منهم العقبى بالرجوع إلى طاعة الله ، واسترضائه ؛ لأنه يوم لا تقبل فيه التوبة ، ولا تنفع فيه المعذرة ^(١) .

٢١- الآيات البينات وصفات أخرى

﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ ۚ وَلَا يَكُمُ إِلَّا اتِّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ ۖ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ۖ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ [الأحقاف] .

في هذه الآيات الست من سورة الأحقاف وردت أكثر صفات القرآن الكريم باسمه ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ وبصفاته ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ و ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ و ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ .

وقوله تعالى: وفي هذه الآية الثانية بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت].

ثم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ۖ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وأخيرا ذكر بصفته أنه ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ومثله في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وأخيرا ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ .

إنه أكبر جمع لصفات القرآن الكريم في آيات متتاليات وتؤكد كلها على ما أراده الله تعالى في الإنذار بهذا الكتاب وبصيغ بليغة قوية آخذة بالألباب .

وقد ورد ذكر كتاب الله تعالى في هذه السورة في مواقف كثيرة أخرى من أبرزها استماع الجن للقرآن من الرسول ﷺ وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٥) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾ [الأحقاف] ويتابع بعد ذلك قصة الجن مع سماع القرآن (١) .

وليس هذا فقط فإن السورة كلها من مجموعة " الحواميم " الست التي تحدثنا عنها في بحث سابق . كل هذا يقودنا إلى أن سورة الأحقاف يمكن أن تكون سورة القرآن لتكرار ذكره فيها وشمولها على كل هذه الآيات المتعلقة به . والملفت للنظر أن كل الآيات تقريباً تركز على تنبيه الناس إلى ملكوت الله ، والإنذار والتبشير ؛ الإنذار للكافرين ، والبشرى للمسلمين باتباع ما أنزل الله تعالى في هذا القرآن من هدى وآيات بينات بلسان عربى مبين . ونلفت النظر إلى تلك الإبداعات الجليلة لهذا الصفات للكتاب الذى لا يمسه إلا المطهرون .

سبب نزول الآية [١٠] : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءِءَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية .

أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن ابن عوف بن مالك الأشجعى قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم ، فكروا دخولنا عليهم . فقال لهم الرسول ﷺ : ((يا معشر اليهود ، أرونى اثنى عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا هو وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه)) . فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم انصرف ، فإذا رجل من خلفه ، فقال : ((كما أنت يا محمد)) ، فأقبل . فقال اليهودى مخاطباً

قومه : أى رجل تعلمونى يا معشر اليهود ؟

قالوا: والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله ، ولا أفقه منك ، ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك ، قال : فإنى أشهد أنه النبي الذى تجدون فى التوراة ، قالوا : كذبت ثم ردوا عليه ، وقالوا فيه شرا ، فأنزل الله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ الآية .

وأخرج الشيخان البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : فى عبد الله ابن سلام نزلت ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله .

وأخرج بن جرير والترمذى وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : فى نزلت . ونزل فى ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣] (١) .

وسبب نزول الآية [١١] : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أخرج الطبرانى عن قتادة قال : قال ناس من المشركين : نحن أعز ، ونحن ، ونحن . فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبى شداد قال: كان لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها: ((زين)) أو ((زينة)) فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتى ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيرا ما سبقتنا إليه ((زين)) فأنزل الله فى شأنها : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ للآية .

وقال عروة بن الزبير: إن زينة رومية كان أبو جهل يعذبها - أسلمت ، فأصيب بصرها ، فقالوا لها : أصابك اللات والعزى ، فرد الله عليها بصرها ، فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زينة فأنزل الله هذه الآية .

وقال ابن عباس والكلبى والزجاج : إن الذين كفروا هم بنو عامر وغطفان وقيم وأسد وحنظلة وأشجع قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا إليه رعاة البهم ؛ إذ نحن أعز منهم .

وقال أكثر المفسرين: إن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه ، لو كان دين محمد حقا ما سبقونا إليه ^(١) .

وترشد هذه الآيات كما استخلصها صاحب التفسير المنير ^(٢) :

١- عادى مشركو مكة النبي ﷺ ، فكذبوا كون القرآن نازلا من عند الله ، وكذبوا النبوة ووصفوا القرآن بأنه سحر واضح .

٢- ولم يكتفوا بوصف القرآن بأنه سحر ، بل قالوا ما هو أشنع من ذلك . قالوا: إن محمدا اختلقه وافتراه من عند نفسه ، لا من عند الله .

٣- رد الله عليهم افتراءهم بأنه لو افتراه محمد ﷺ على سبيل الفرض والتقدير لعجل الله له العقوبة فى الدنيا ، ولم يقدر أحد أن يرد عنه عذاب الله ، والله أعلم بما يتقوله ويجوز به من التكذيب هؤلاء المشركون . وكفى بالله شاهدا على أن القرآن من عند الله . وأنه يعلم صدق نبيه وأنهم مبطلون .

وبالرغم من ذلك فالله الغفور لمن تاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فإذا آمن هؤلاء المشركون ، غفر لهم ما قد سلف منهم من الذنوب والمعاصى .

٤- ليس النبي ﷺ أول نبي أو رسول يرسل ، بل هو خاتم الرسل الكرام . قد كان قبله رسل فليست دعوته إلى التوحيد ، وإنكار عبادة الأصنام ، وعدم علمه بالغيب مقصورا عليه ، وتلك دعوة قديمة هى دعوة جميع الرسل .

٥- النبي ﷺ غير عالم بالغيبيات إلا بطريق الوحي ، فلا وجه لطلب إخباره بمغيبات لا يعلم بها ، فهو لا يدرى ما يفعل به ولا بالناس من أحوال الدنيا وأحوال الآخرة ، من الأحكام والتكاليف وما يؤول أمر المكلفين إليه ، وبه يعلم أن ما يدعى من علم بعض الأولياء بالغيب هو أمر باطل وكذب مفترى لكن النبي ﷺ يعلم كونه نبيا ، فهو يعلم أنه لا تصدر عنه الكبائر ، وأنه مغفور له ، وقد تأكد هذا بقوله تعالى: ﴿ لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح] .

(١) التفسير المنير ٢٦ / ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ٢٦ / ٢١ .

٦- دلت آية ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ على إنذار المشركين الظالمين بعذاب أليم إذا استمروا في تكذيبهم بالقرآن . وتكبروا على الإيمان به وعن اتباعه وطاعة الرسل المنزل عليه ، بالرغم من شهادة رجل منصف عارف بالتوراة بأن القرآن حق ، سواء أكان عبد الله بن سلام أم موسى عليه السلام وعلى كل حال فهذه الآية بشارة للنبي ﷺ في التوراة وعلى لسان موسى عليه السلام ولسان علماء بني إسرائيل ، فهي كبشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف] .

وقوله: ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ تهديد ، وهو قائم مقام الجواب المحذوف للشرط: ((إن)) والتقدير قل رأيتم إن كان من عند الله ، ثم كفرتم به فإنكم لا تكونون مهتدين ، بل تكونون ضالين .

إن شأن المتكبرين المقصرين تسويغ تقصيرهم بأئفه الأسباب وأسخف المقالات بدافع الكبرياء والاستعلاء لذا قال أهل مكة : لو كان هذا الدين حقاً ما سبقنا إليه هؤلاء العبيد المستضعفون ، وأضافوا إلى ذلك - حينما لم يهتدوا - افتراءهم بقولهم : هذا القرآن كذب متوارث ، وأساطير الأولين ، ومن جهل شيئاً عاداه .

ومما يدل على صدق القرآن وأنه من عند الله توافقه في أصول العقيدة والشريعة مع التوراة كتاب موسى عليه السلام الذي يقرون بأنه كتاب الله ، فهو قدوة ورحمة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، والقرآن مصدق للتوراة ولما قبله من كتب الله في أن محمداً ﷺ رسول حقاً من عند الله ، وهو بلغة عربية فصيحة بيّنة واضحة لكل من نظر فيه وتأمل ، يشتمل على إنذار الكافرين وبشارة المؤمنين .

وكأنه تعالى قال : الذي يدل على صحة القرآن ، أنكم لا تتنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به ، ثم إن التوراة - مشتملة على البشارة بمقدم محمد ﷺ فإذا سلمتم كون التوراة إماماً يقتدى به ، فاقبلوا حكمه في كون محمد ﷺ رسولا حقاً من عند الله تعالى .

إن الذين جمعوا بين الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وبين الاستقامة على الشريعة في غاية السعادة النفسية والمادية . فهم مؤمنون مطمئنون مرتاحون لا يعكر صفوهم مخاوف المستقبل ولا أحزان الماضي ، وهم خالدون دائمون في جنات النعيم ، بسبب ما قدموا من عمل صالح في دار الدنيا^(١) .

٢٢- هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم

يتلو عليهم آياته ويزكيهم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ [الجمعة] .

١- نزلت هذه السورة بعد سورة ((الصف)) السابقة لها ، وهى تعالج الموضوع الذى عاجلته سورة الصف ولكن من جانب آخر وأسلوب آخر ، وبمؤتمرات جديدة . وأن هذا فضل من الله عليها ، وأن بعثة الرسول الأخير من الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر . وتقتضى كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التى استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ، وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبثة . فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد ، بعد ما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة ، وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ، وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفاراً ولا وظيفة له فمن إدراكها ، ولا مشاركة له فى أمرها^(١) .

٢- ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾ وهذا المطلع يقرر حقيقة التسييح المستمرة من كل ما فى الوجود لله ؛ وتصفه - سبحانه - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة ، السورة التى اسمها ((الجمعة)) وفيها تعليم صلاة الجمعة . وتذكر ﴿ الْمَلِكُ ﴾ الذى يملك كل شىء بمناسبة التجارة التى يسارعون إليها ابتغاء الكسب .

وتذكر ﴿الْفُقُوسِ﴾ الذى يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما فى السموات والأرض الذى ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر ﴿الْعَزِيزِ﴾ .. بمناسبة المباهلة التى يدعى إليها اليهود ، والموت الذى لا بد أن يلاقى الناس جميعا والرجعة إليه والحساب . وتذكر ﴿الْحَكِيمِ﴾ بمناسبة اختياره الأمين ليعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

٣- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾ . قيل: إن العرب سموا الأمين لأنهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون فى الأعم الأغلب - وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : الشهر هكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال : ((إن نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب)) ^(١) . انتظر اليهود أن يكون منهم لكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب ، من الأمين غير اليهود . فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية ، وأنها زافت وضلت - كما جاء فى سورة الصف - وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعد ما كان منها من فساد فى تاريخها الطويل.

٤- وكانت هناك دعوة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التى أطلقها فى ظل البيت هو وإسماعيل عليهما السلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ١٧٤ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٧٥ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٧٦ [البقرة] .

كانت هنا هذه الدعوة من وراء الغيب ، ومن وراء القرون محفوفة عند الله لا تضيع حتى يحىء دورها فى الكون حسب التدبير الإلهى الذى لا يتقدم عليه شىء ولا يتأخر عن مواعده المرسوم .

(١) ذكره الإمام الجصاص صاحب أحكام القرآن بغير إسناد .

وتحققت هذه الدعوة - وفق قدر الله وتديره - بنصها الذي تقرره السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم: ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ، وكما قال إبراهيم! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال: ((دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام)) .

٥- والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين لجعلهم أهل الكتاب الميين ، وليرسل فيهم رسولا منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ، ويخرجهم من أميتهم أو من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير ما بهم وتمييزهم على العالمين ^(١) .

٦- ثم إن التزكية وهي تطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية ، والحياة الاجتماعية ، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح... ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فيصبحون أهل كتاب بعد أن كانوا أميين ، وأى كتاب هذا الذي علمهم الله تعالى..؟ كتاب القرآن الذي لم ولن يوازيه كتاب أو يتطرق له شيء من التحريف والتزوير على مدى القرون والأزمان لأن الله حفظه ، فلا يمكن أن يتغير أو يتبدل - يصبح الأميون أهل كتاب خالد ، معجزة دائمة ، يتفجر إعجازه في كل وقت وحين . ومع الكتاب يعلمهم الحكمة أيضا .

٧- أما الآخرون : قال الإمام البخارى رحمه الله .. عن أبى هريرة ؓ قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسي ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال: ((لو كان الإيمان في الثريا لنالاه رجال أو رجل من هؤلاء)) ولهذا قال مجاهد في هذه الآية :

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٦٤ ، ٣٥٦٦ بتصرف ويحسن الرجوع إلى ذلك التفسير .

هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » ثم قرأ : ﴿ وَءَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ - ثم تأتي قضية فضل الله مجددا يؤتي فضله لمن يشاء من عباده .

٢٣ ، ٢٤ - المكذبون بآيات الله

٢٣ - ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

﴿ [القلم] ﴾ .

٢٤ - ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّنَاتٍ ﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٢٤﴾

﴿ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ [المطففين] ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات (٢٣): أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قوله: ﴿ وَلَا تُطْعَ كُلِّ ﴾

حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿ [القلم] ﴾ وقال: نزلت في الأخنس بن شريق ، وأخرج ابن المنذر عن الكلبي مثله ، وهو قول الشعبي وابن إسحاق ، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث ، أو عبد الرحمن بن الأسود .

والمشهور أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة . أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت على النبي ﷺ ﴿ وَلَا تُطْعَ كُلِّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنَمِيمٍ ﴾

﴿ [القلم] ﴾ فلم نعرفه ، حتى نزلت عليه بعد ذلك ﴿ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ﴿ [القلم] ﴾ فعرفناه . له زئمة كزئمة الشاة ^(١) .

والمعنى: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أى لأنه كان . والمعنى: أيكفر لأنه كان ذا مال .

﴿ ءَايَتُنَا ﴾ والقرآن الكريم ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ وأى : هى خرافات وأباطيل الأقدمين .

وبعد أن وصفه الله بأوصاف منها ﴿ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنَمِيمٍ ﴾ ﴿ و ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ و ﴿ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ﴿ .

أخرج الإمام أحمد ، وأصحاب الكتب الستة إلا أبا داود عن حارثة بن وهب

(١) أى الجزء المسترخى من أذنهما حين تشق ، ويبقى كالجزء المعلق .

قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف ^(١) لو أقسم على الله لأبره . ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ ^(٢) » .

وبخ الله الوليد بن المغيرة الذي كان دعيا في قريش ، ليس من أصلهم ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، فقد وبخه على مقابلته الإحسان والنعمة بإفساده ، فقد أنعم الله عليه بالمال والبنين ، فكفر واستكبر ، ويكون تقدير الآية ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ لئن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر؟ ويجوز أن يكون التقدير : لئن كان ذا مال وبنين يقول: ﴿ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . أى: وإنه إذا تليت عليه آيات القرآن . زعم أنها كذب مأخوذ من قصص وأباطيل القدماء ، وليس هو من عند الله .

والله تعالى خصص من بين المكذبين النهى عمن اتصف بصفات عشر هي :

- ١- الحلاف: الكثير الحلف .
- ٢- المهين: الحقير الرأى والتميز والتفكير .
- ٣- الهماز: الذى يذكر الناس فى وجودهم .
- ٤- اللماز: الذى يذكر الناس فى مغيبتهم .
- ٥- النمام: الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم .
- ٦- المناع للخير : للمال أن ينفق فى وجوهه ، ويمنع الناس عن الإسلام .
- ٧- المعتدى : أى الظالم ، المتجاوز للحد صاحب الباطل .
- ٨- الأثيم : الكثير الإثم والذنوب .
- ٩- العتل : الغليظ الجافى الشديد فى كفره الشديد الخصومة بالباطل .
- ١٠- الزنيم: الملصق بالقوم الدعى - وكان الوليد كذلك . وهذا كله نزل

(١) روى بكسر العين وفتحها ، والمشهور الفتح ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ، وبالكسر : المتواضع المتذلل .

(٢) الجواظ: الجماع المناع ، الذى يجمع المال ويمنعه .

بالوليد بن المغيرة ، ولا نعلم أن الله تعالى . بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه فألحقه به عارا ...

أما الآيات التاليات في سورة المطففين (٢٤) ، وسميت بهذا الاسم لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ وهم الذين يبخسون المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضوا من الناس ، وإما بالنقصان إن قضوهم أو وزنوهم أو كالوهم . وسبب نزول الآية الأولى : أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، كانوا من أبحس الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

وقال السدي : كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان ، يأخذ بالأوفى ويعطى بالأنقص فنزلت وهى آخر سورة نزلت بمكة ، فهى مكية بقول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ، ويقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فهى مدنية بقول الحسن وعكرمة ^(١) .

روى أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، وكانوا من أبحس الناس كيلا ، فنزلت ، فأحسنوا الكيل (رواه النسائي) ، وهذا أن السورة مدنية ، أو قرأها عليهم بعد قدومه إن كانت مكية . وكانت أول بؤادر الإصلاح للمجتمع الذى سيكون دولة الإسلام .

أما ما يخص موضوعنا فورود نفس الآية الواردة فى سورة القلم ، فإنها تقدم هؤلاء المطففين وكذلك الكفار فى موضع واحد وتفكير واحد ومنهج واحد . ومع تخصيص المغيرة بن شعبة فى سورة القلم فهنا تشمل المجموعات الملتقية على هدف واحد من المطففين والكفار ومن هم فى ركبهم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ۝٢ ﴾ أى عذاب شديد . يوم القيامة لمن كذب بالبعث والجزاء ، وبما جاء به الرسل ، فهؤلاء المكذبون هم الذين لا يصدقون بوقوع الجزاء ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره ، وهذا وعيد للذم لا للبيان ؛ لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله ، سواء كان مكذبا بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى .

ثم أبان الله تعالى صفات من يكذب بيوم الدين وهي ثلاث . فقال :

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [١٢] إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

﴿ ١٣ ﴾ أى لا يكذب بيوم الدين إلا من كان متصفا بهذه الصفات الثلاث وهي :

أولاً: كونه متعديا، أى فاجرا جائرا متجاوزا منهج الحق.

ثانياً: أنه أثيم : وهو المنهمك فى الإثم فى أفعاله من تعاطى الحرام وتجاوز المباح وفى أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر.

ثالثاً: أنه إذا تلى عليه القرآن. ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [١٣] ، أى أخبار الأولين المتقدمين وأكاذيبهم وأباطيلهم التى زخرفوها . تلقاها ﷺ من غيره من السابقين . وهذا يعنى فى زعمهم أن القرآن الكريم ليس وحيا من عند الله تعالى .

وهذه الصفة الثالثة تشبه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل] . وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان] قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل ونظرائهما .

ثم بين الله تعالى أسباب افتراءهم على القرآن فقال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] أى ارتدعوا وانزعجوا عن هذه الأقوال فليس الأمر كما زعمتم أيها المعتدون الآثمون ، ولا كما قلتم إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ، ووحيه ، وتنزيله على رسول الله ﷺ ، وإنما السبب هو كثرة الذنوب والخطايا التى حجبت قلوبكم عن الإيمان بالقرآن والتى كونت عليها ((الرين)) الذى منع نفاذ الحق والخير والنور إليها ، فأعمأها عن رؤية الحقيقة . والرين : يعترى قلوب الكافرين فقوله تعالى: ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أى غطى عليها .

أخرج ابن جرير وأحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال: ((إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر ،

صقل قلبه وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في القرآن » قال الحسن البصري عن الران : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ويسود من الذنوب .

والطبع : أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين .

فالقرآن ليس أساطير الأولين كما زعموا ، وإنما هو كلام الله الحق المنزل على قلب نبيه المصطفى ﷺ . وسبب زعمهم كثرة القبائح والمعاصي التي غطت قلوبهم بالران - وهو الحجاب الكثيف الذي يحدث بسبب تراكم الذنوب - فمنعتها من رؤية الحق والباطل ، والتمييز بين الخير والشر ^(١) .

فصل الكلمات

١- لا تبديل لكلمات الله

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس] .

سبق هذه الآية قول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس] .

الحديث في هذه الآية استكمال لوصف أولياء الله حيث يقرر الله تعالى أن المؤمنين الذين يفهم أن يكونوا أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ من الحق .. ما أنزل عليه من القرآن .. ما أتاه الله من وحى وتنزيل وكلمات .. كانوا بعد هذا متقين لله في أعمالهم ، وفي أقوالهم وفي معتقداتهم يتقون الله تعالى في السر والعلن ، يتقون الله بجواسهم وأفكارهم وقلوبهم وعقولهم .. يتقون الله إيماناً به وتسليماً له ، وبذلك قد وصلوا إلى تلك المرتبة التي رفعهم الله تعالى بقوله: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ هذه المرتبة التي لم يصلها إلا الأنبياء والشهداء والصالحون ، ثم هؤلاء ﴿ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ الذين وعدهم الله تعالى بأنه لا خوف عليهم ولا يحزنون .

قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله . وقد ورد هذا في حديث مرفوع عن ابن عباس وسعيد ابن جبير قال: قال رجل يا رسول الله ، من أولياء الله ؟ قال : ((الذين إذا رؤوا ذكر الله)) ثم قال البزار ، وقد روى عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء)) قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نجهم ؟ قال: ((هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوهم نور على منابر من نور ، لا يخافون

إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس)) . ثم قرأ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ رواه أبو داود بإسناد جيد .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ((يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله وتصافوا فى الله ، يضع الله يوم القيامة منابر من نور ليجلسهم عليها . يفرح الناس ولا يفرعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) والحديث مطول رواه الإمام أحمد .

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ . عن أبي الدرداء كما روى الإمام أحمد أيضا فى قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ الآية قال : الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم أو ترى لهم ، وعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ الآية ، فقال : ((لقد سألتنى عن شىء ما سألتنى عنه أحد من أمتى - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له)) . رواه أبو داود .

وعن أبى هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : عن ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ قال : ((فى الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد - أو ترى له - وهى فى الآخرة الجنة)) .

وعن أبى هريرة أنه قال : ((الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهى من المبشرات)) .

وفى حديث البراء ؓ : ((إن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب ، فقالوا : اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء ، وأما بشرهم فى الآخرة فكما قال تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ [الأنبياء])) .

وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أى هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير

بل هو مقرر ثبت كائن لا محالة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ^(١) ، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن كلمات الله تعالى التى بثها فى القرآن الكريم كلاما لا يتغير ولا يتبدل وفيه الوعد الطيب لأوليائه - وهى كلمات خالدة فى هذا الكتاب الخالد ، الذى يعتريه الخلل من أى قوة فى ملكوت الله تعالى أثبتته الله بكلمات من عنده ، فى اللوح المحفوظ - وما زال وسيبقى محفوظا من البشر بهذه الكلمات التى تشكل الآيات والسور ، بهذه التوجيهات الربانية التى حفظها الله تعالى وحافظ عليها المؤمنون ، ولم يتمكن بعد - من غير المؤمنين - أن يفعلوا أمرا يقابل تحدى الله تعالى لهم بل عجزوا وسيبقون عاجزين ، لا حول لهم ولا قوة ولا اختراع ولا إبداع ، ولا تغيير ولو كلمة واحدة من هذه المعجزة الخالدة - القرآن الكريم .. وتتناسق الآية بقول الله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ صدق الله العظيم .

٢- الإيمان بالله وكلماته

﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف]

يقول تعالى لنبه ولرسوله محمد ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَتَّيِّهَا النَّاسُ ﴾ وهذا
خطاب للأحر والأحر والعربى والعجمى ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أى
جميعكم ؛ وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة
كما قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ
وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ
وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِّئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام] . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ
الْأَحْزَابِ فَلَإِنَّ أَمْرَهُمْ لَشَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٧] . وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ ﴾
[آل عمران : ٢٠]

والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر . وهو
معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس
كلهم .

قال البخارى رحمه الله فى تفسير هذه الآية : عن أبى الدرداء ؓ قال : كانت
بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة ، فأغضب أبوبكر عمر فانصرف عنه
عمر مغضبا ، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابيه فى
وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده ، فقال رسول
الله ﷺ : ((أما صاحبكم هذا فقد غامر)) أى غاضب وحاقد . وندم عمر على ما
كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسوله الله ﷺ الخبر .
قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا

كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : ((هل أنتم تاركون لى صاحبي ؟ إني قلت : يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم : كذبت وقال أبو بكر صدقت)) انفرد به البخارى .

رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال : ((أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلى ، ولا أقوله فخرا .. بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا)) . إسناده جيد ولم يخرجوه ، وعن الإمام أحمد حديثا مثله أيضا بلفظ آخر .

وعن أبى موسى الأشعرى ؓ عن رسول الله ﷺ قال : ((من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى لم يدخل الجنة)) وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر ، وحديث مثله عن أبى موسى أيضا . وتفرد الإمام أحمد بحديث مثله بلفظ : عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)) تفرد به الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وصفة الله تعالى فى قول رسول الله ﷺ : ((إن الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربى ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم)) .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به وقوله : ﴿ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ أى الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة ، فإنه مبعوث بذلك فى كتبهم ولهذا قال : ﴿ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ : أى يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه أى القرآن الكريم . ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أى اسلكوا طريقه واقتفوا أثره . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى إلى الصراط المستقيم ^(١) .

٣- الكلمة الطيبة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمِثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَيَضْرِبُ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۚ يُلْقِي اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴾ [إبراهيم] .

بعد أن بين الله تعالى أحوال الأشقياء وما آل إليه أمرهم من العذاب فى نار جهنم ، وأحوال السعداء وإدراكهم الفوز عند ربهم ، ذكر مثلاً بين فيه حال الفريقين ، وسبب التفرقة بينهما ، بتشبيه المعنويات بالحسيات لترسيخ المعانى فى الأذهان ، كما هو الشأن فى القرآن الكريم .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ۚ ﴾ الآية . ألم تر أيها المخاطب كيف اعتمد الله مثلاً ووضع فى موضعه المناسب له ، وهو تشبيه الكلمة الطيبة : وهى كلمة التوحيد والإسلام ودعوة القرآن ، بالشجرة الطيبة وهى النخلة الموصوفة بصفات أربع هى :
١- كون تلك الشجرة طيبة المنظر والشكل ، وطيبة الرائحة ، وطيبة الثمرة ، وطيبة المنفعة أى يستلذ بأكلها ويعظم الانتفاع بها .

٢- ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أى راسخ باق متمكن فى الأرض لا ينقلع .

٣- ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى كاملة الحال لارتفاع أغصانها إلى الأعلى ، وبعدها عن عفونات الأرض ، فكانت ثمراتها نقية طيبة خالية من جميع الشوائب .

٤- ﴿ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أى تثمر كل وقت وقته الله لإثمارها بإرادة ربها وتيسيره ، ولما كانت الأشجار تؤتى كل سنة مرة . كان ذلك فى حكم الحين .

روى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول : لا إله إلا الله ، وأن الشجرة الطيبة هي النخلة ، وكذلك روى ابن مسعود أنها النخلة ، وهو مروى عن أنس وابن عمر عن النبي ﷺ .

وحديث ابن عمر زواه البخارى ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال : ((أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم - أو كالرجل المسلم - لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء ، وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها)) .

قال ابن عمر ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا ، قال رسول الله ﷺ : ((النخلة)) .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى وهكذا يضرب الله الأمثال للناس ، فإن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وعظة وتصوير للمعانى ؛ لأن تشبيه المعانى المعقولة بالأمور المحسوسة يرسخ المعانى ، ويزيل الخفاء والشك فيها ، ويجعلها كالأشياء الملموسة ، وفى هذا لفت نظر يدعو الإنسان إلى التأمل فى عظم هذا المثل ، والتدبر فيه ، وفهم المقصود منه .

ثم ذكر الله تعالى مثال حالة الكفر ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ أى وصفة الكلمة الخبيثة وهى كلمة الكفر أو الشرك كصفة الشجرة الخبيثة ، وهى شجرة الحنظل ونحوه . كما قال أنس موقوفا فيما روى أبو بكر البزار ، ومرفوعا فيما روى عن ابن أبى حاتم : أن النبي ﷺ قال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ : هى الحنظلة ووصف الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث هى :

١ - إنها خبيثة الطعم أو لما فيها من المضار ، أو الرائحة وهى الحنظلة . وقيل : الثوم ، وقيل : الشوك .

٢ - ﴿ آجَتْثَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ ، أى قلعت واستصلت ، وليس لها أصل ولا عرق ، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة .

٣ - ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى ليس لها استقرار ، وهذه الصفة كالمتمة للصفة الثانية .

وهذه صفات فى غاية الكمال ، فالخُبث وصف للمضار ، والاجتثاث وعدم القرار وصف للخلو عن المنافع . وبالموازنة يتبين الفرق بين كلمتى الحق والباطل ، فكلمة الحق ، وهى كلمة التوحيد والإيمان والقرآن قوله ثابتة نافعة للناس ، وكلمة الباطل وهى كلمة الشرك أو الكفر ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات . وأصحاب الكلمة الأولى هم المؤمنون ، وأولوا الكلمة الثانية هم الكافرون والعصاة .

ثم أخبر الله تعالى عن فوز أهل الكلمة الأولى بمزادهم فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ ﴾ أى أن كرامة الله وثوابه ثابتان للمؤمن فى الآخرة بالقول الذى كان يصدر عنهم فى الدنيا وهو الإيمان المستقر بالحجة والبرهان فى قلوبهم والمقصود : بيان أن الثبات فى المعرفة والطاعة يوجب الثبات فى الثواب والكرامة من الله تعالى .

ثم ذكر الله تعالى مصير الكافرين بقوله : ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى ويمنع الكافرين عن الفوز بثوابه ، أو بتركهم وضلالهم لعدم توفر استعدادهم للإيمان ، وانزلاقهم فى الأهواء والشهوات .

ثم أبان الله تعالى مشيئته المطلقة فى الفريقين فقال : ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى إن شاء هدى ، وإن شاء أضل ، وإضلالهم فى الدنيا أنهم لا يثبتون فى مواقف الفتن ، وتزل أقدامهم أول شىء ، وهم فى الآخرة أضل وأذل ، والضلال لسوء الاستعداد ، والميل مع أهواء النفس .

والكلمة الطيبة وهى الإيمان ، أو لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أو المؤمن نفسه : هى الثابتة الخالدة ، الطيبة النافعة ، أو القرآن الكريم . روى أنس عن النبي ﷺ قال : « إن مثل الإيمان كشجرة ثابتة : الإيمان عروقتها ، والصلاة أصلها والزكاة فروعها ، والصيام أغصانها ، والتأذى فى الله نباتها ، وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرها » . والشجرة الطيبة فى الأصح : هى النخلة ، ذكر الغزنوى والطبرانى فيما رواه ابن عمر عنه ﷺ : « مثل المؤمن كالنخلة ، كل شىء فيها ينتفع به » (١) .

٤- كلمات الله

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [١١] قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [١٢]

[الكهف] .

ليس أبلغ مثالا ، ولا أروع تشبيها ، ولا أعظم تحديا لبني البشر وللجن معهم من هذه الآية ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [١١] [الكهف] ، أى تصور يمكن للإنسان أن يقيس هذه البلاغة على ما يعطى البشر ، أو على ما أعطوا من علم وتفكير وتدبر فى أدوات الكتابة ، أو فى استيعاب العقل البشرى ، أو فى التصور الإيمانى ليقس كل هذه الأمور بهذه الآية البليغة ، والتى أكملتها ، أو على الأقل شابهتها الآية [٢٧] من سورة لقمان ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [١٣] البحر - مداد - سائل أداة الكتابة .. والأشجار - كل الأشجار - صنعت أقلاما .. وماذا بعد .. ؟

ماذا يمكن أن تؤدى هذه التشبيهات وهذه الصور المعجزة الخلاقة .. تعجز هذه الأدوات ؛ الأقلام والمداد - تعجز أمام عظمة الله تعالى وتعجز أمام كلماته - وما هى هذه الكلمات ..؟ الآيات ، المعجزات ، الكتب السماوية - القرآن الكريم تخصيصا فى سموه وعظمته وكرامته ، جزء بسيط وبسيط جدا من كلمات الله تعالى . وليس بالقدر الذى يحيط عقل الإنسان به حتى محاور الدنيا ، وأسرار السموات إلا تفاهة ونقطة من ماء المحيطات والبحار .

وقد أكد المفسرون على أن الاسم - اسم الجنس - ليس تشبيها ولكن تأكيدا على اسم الجنس الماء الذى يملأ البحار والمحيطات ، ويمده من بعده سبعة أبحر .. أو أكثر من ذلك ، واستخدمت السبعة لتمكين الإنسان أن يحيط بالفكرة .. يتصورها

و يندفع وراء ذكر محيطها وأبعادها . ويخسأ العقل ويخشع القلب ، وتنكسر النفس ويعود الإنسان : المفضل بين خلق الله ، الذى تعلم الأسماء كلها ، الذى نفخ الله فيه من روحه بعد أن سواه بيده يتصاغر ، ويتصاغر ، ويتصاغر أمام هذا العرض العظيم بآيتين من كتاب الله ليدوب .. يذوب ، ويفنى ، ويظن أنه فى ساعات الوعى ، قادر على أن يستوعب هذا التحدى أو الإحاطة بالتصور الذى رسمته هاتان الآيتان .

المخلوقات كلها جلوس .. مصانع تصنع كل الأشجار أقلاما ، ومصانع تحول ماء البحر إلى مداد .. إلى حبر ثم ماذا ..؟ ليس الموضوع يقف هنا .. فالأمر أكبر ، وأعظم ، وأبلغ من أن يحيط مخلوق بهذا .. البحر بجنسه ومائه ، والشجر المنبت فى الأرض وما سبقه وما سيلحق به .. سبحانك ربى إنى كنت من الظالمين .. وكما تصور اليهود أن لديهم ذخيرة عظيمة فقالوا : إن لدينا التوراة ، ذخيرة علم - وتحداهم الله بأن يأتوا بالتوراة يتلوها إن كانوا صادقين .. إنه فيض من علم الله . حتى القرآن الكريم إنما هو كلمة من كلمات الله تعالى التى لا تنفد ما نفذت كلمات الله ، وما انتهت ، ولو أن الأمر تم فعلا ونفذت مياه البحار التى تمدها سبعة أبحر .. فكللمات الله تعالى سائرة فى جلال من الله وعظمته سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ ﴾ [الكهف : ١١٠] ما أعظمك يا رسول الله ، ما أسمى تفكيرك ما أروع طاعتك ، ومعرفة حدودك لربك وأمام ربك .. إنك بشر تعترف اعتراف المتيقن بكل ما يحيط به .. وبما أنزل عليه من ربه .. أمانة حملها وبلغها - وهى كلمة من كلمات الله تخبر من حالفك ومن أطاعك .. إنما أنت بشر .. فزت على الناس وتفوقت عليهم بما يوحى إليك من ربك وعظمة هذا الوحي .. عظمة هذا القرآن ، عظمة هذا الكتاب أنه يريد التأكيد على حقيقة أبدية .. إنما إلهكم إله واحد .. لا شريك له يملك الملك ويتصرف به - وهذه واحدة من خلق الله .. الوصول إلى أقصى حدود التفكير بعظمة ما خلق ، ولعظمة الكلمات .. فالله أعظم وأجل ، وهل يحتاج إلى شريك ، أو يحتاج إلى معين أو يحتاج إلى ولد ، أو يحتاج إلى تلك التوافه من مخلوقاته ؟ جل جلال الله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الاعتراف بالبشرية ومحدودياتها الضيقة جدا .. جدا .. مع كل ما أعطى بنو البشر من إمكانات من الله تعالى وقربهم حتى أراد أن يكونوا خلفاء في أرضه تبدو إمكاناتهم أمام هذا التشبيه المفعم بالعظمة . والسمو توافه .. لا يعطى لها بال .. ومع هذا فقد تناول الخلق ، فأشركوا بالله ، وجاء النبيون ليبينوا للناس الحقيقة في مثل هذه الآيات التي تعجز اللغات أن تعطيها بعضا من حقها .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

﴿ ١١ ﴾ يارب جل جلالك ، وعظم شأنك ، وسمت قدرتك ، وعجز اللسان حتى عن التعبير المنطوق أو المبهم عن تصور كلماتك .. يا رب ألقاك ، فمن كان يرجو لقاء ربه ، يا رب ألقاك ؟ أنظر إلى وجهك .. ؟ ولما تجليت للجبل ذاب وخر موسى صعبا .. أنا ألقاك .. ؟ يا رب عملي الصالح ، وتوحيديك ، وعدم الإشراك بك يوصلاني للقائك .. نعم .. يا رب ثبني على الإيمان بك ، وارزقني العمل الصالح .. فليس أروع ولا أعظم ، ولا أبدع ، ولا أجل أن أصدقك يا رب فتصدقني .. وما زلت .. وأنا سائر لألقاك .. يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، أنا وحدي قد أضل وأنحرف .. يا رب أعطني حبلا من حبالك .. فأنا أريد أن ألقاك ، .. ألقاك يا رب وأنت راض عني ، لا أشرك بك شيئا وأعمل عملا صالحا ترضاه .. يا رب اقبلني .. يا رب اقبلني .. يا رب اقبلني برحمتك وغفرانك .. يا أرحم الراحمين .

فصل التنزيل

١- تحدى الكفار بأن يأتوا بسورة مما أنزل

الله تعالى على محمد ﷺ

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [١٢] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القرآن الكريم ، والمراد المشركون الذين تحدوا ، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ما يشبه هذا كلام الله ، وإنا لفى شك منه فنزلت الآية .

ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه ، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده .

قوله: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعنى محمدا ﷺ ، والعبد مأخوذ من التعبد ، وهو التذلل فسمى المملوك - من جنس ما يفعله - عبدا لتذله لمولاه ؛ قال طرفة بن العبد :

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد

أى المذل . قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال ، والتسمى بها أشرف الخطط ، سمي نبيه عبدا ، وأنشدوا :

يا قوم قلبى عند زهراء يعرفه السامع والرائى

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب شرط ، اتوا : مقصور لأنه من باب المجيء ؛ قاله ابن كيسان ، وهو أمر معناه التعجيز ؛ لأنه علم عجزهم عنه .

والسورة واحدة السور - وتقدم الكلام عنها^(١) وفي إعجاز القرآن^(٢) .
 ﴿ مِنْ ﴾ - فى قوله - ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ زائدة كما قال : ﴿ فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾
 والضمير فى (مثله) عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء - كقتادة ومجاهد
 وغيرهما - وقيل : يعود على التوراة والإنجيل ، والمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله
 فإنها تصدق ما فيه ، وقيل : يعود على النبي ﷺ ، والمعنى : من بشر أمى مثله لا
 يكتب ولا يقرأ ، فمن فى هذين التأويلين للتبعض . والوقف على ﴿ مِثْلِهِ ﴾ ليس
 بتام ؛ لأن ﴿ وَادْعُوا ﴾ نسق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ ومعناه أعوانكم ونصراءكم ، قال الفراء :
 ألهتكم . وقال ابن كيسان : فإن قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء
 ليشهدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم : ﴿ فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ ؟
 فالجواب : أن المعنى استعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهدوا ما
 تأتون به ؛ فيكون الرد على الجميع أوكد فى الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد ، قال مجاهد : معنى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أى
 ادعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموهم . قال النحاس :
 ﴿ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ نصب بالفعل جمع شهيد ؛ يقال شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير .
 وقوله : ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من غيره ودون نقيض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية ،
 ويكون ظرفا . والدون : الحقير الخسيس .

قال :

إذا ما علا المرء رام العلاء ويقنع بالدون من كان دونا

ولا يشق منه فعل ؛ وبعضهم يقول منه : دان يدون دونا . ويقال : هذا دون
 ذلك أى أقرب منه . ويقال فى الإغراء بالشئ : دونكه . قالت تميم للحجاج :
 أقبرنا^(٣) صالحا وكان قد صلبه - فقال : دونكوه .

(١) راجع : تفسير القرطبي ١ / ٦٥ فما بعدها .

(٢) راجع : نفس المصدر ١ / ٦٩ - ٧٨ .

(٣) أقبرنا : أى اسمح لنا بدفنه .

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة بقولهم في آية أخرى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] والصدق: خلاف الكذب. وقد صدق في الحديث. والصدق: الصلب من الرماح، ويقال: صدقوهم القتال، والصدیق: الملازم للصدق ويقال: رجل صدق كما يقال: نعم الرجل. والصدقة مشتقة من الصدق في النصيح والود، قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أى تصيوا ذلك فيما يأتى والوقف على هذا على ﴿صَادِقِينَ﴾ تام. وقال جماعة من المفسرين، معنى الآية: وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا. فإن لم تفعلوا فاتقوا النار - فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على صادقين.

فإن قيل: كيف دخلت «إن» على «لم» ولا يدخل عامل على عامل، فالجواب هاهنا غير عاملة فى اللفظ، فدخلت على «لم» كما تدخل على الماضى لأنها لا تعمل فى «لم» كما تعمل فى الماضى، فمعنى إن لم تفعلوا إن تركتم الفعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ نصب بلن، ومن العرب من يجزم بها. ذكره أبو عبيدة، ومنه بيت النابغة: فلن أعرض أبيت اللعن بالصفد.

قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إثارة لهمهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها. وقال ابن كيسان: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ توقيفا على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب. وأنه مفترى، وأنه سحر، وأنه شعر وأنه أساطير الأولين، وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة مثله.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ وجواب ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أى اتقوا النار بتصدق النبي ﷺ وطاعة الله تعالى.

قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها، وليس كذلك؛

بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة على ما يأتي ، وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافا للمبتدعة في قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن وهو القول الذي سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البلوطى الأندلسى .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود ^(١) قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة ^(٢) فقال النبي ﷺ : ((تدرّون ما هذا ؟)) قال : قلنا الله ورسوله أعلم : قال : ((هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوى في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)) ^(٣) .

(١) كذا في الأصول ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة .

(٢) الوجبة : صوت الشيء يسقط فيسمع له كالهوة .

(٣) تفسير القرطبي ١ / ٢٣٣ فما بعدها بتصرف شديد .

٢- التنزيل المصدق لأهل الكتاب

﴿ يَبْنِى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يِعْمَتِى الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّى فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّى فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسِنُوا أَلْحَقَ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا أَلْحَقَ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة] .

وقف المفسرون أمام هذه الآيات ، وتوسع كثير منهم فى سرد شروح ومعان لما فى هذه الآيات من صفات بنى إسرائيل ^(١) ومواقفهم من الدعوة الإسلامية - من الرسول ﷺ ومن القرآن الكريم والذي ورد بصفة التنزيل المصدق لما سبقه من رسل وكتب ، وأورد صاحب التفسير المنير موجزا لهذه الآراء نسوقه فيما يلى ^(٢) :

اختصت هذه الآيات من ٤٠ - ٤٢ ^(٣) بالكلام عن بنى إسرائيل - وإسرائيل هو (يعقوب) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وبنوه وأولاده وهم اليهود . ومعنى (إسرائيل) صفى الله . وقيل : الأمير المجاهد . وقيل : عبد الله أى إسرائيل : عبد وئيل : بلغتهم الله - وفيما يقارب جزءا كاملا لكشف حقائقهم وبيان مثالبهم . وكانت الآيات السابقة من أول السورة إلى هنا حول إثبات وجود الله ووحدانيته ، والأمر بعبادته ، وأن القرآن كلام الله المعجز ، وبيان مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وتكريمه ، وخلق السموات والأرض ، وموقف الناس من ذلك كله ، وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين . ثم بدأ سبحانه بمخاطبة الشعوب التى ظهرت فيها النبوة . فبدأ باليهود ؛ لأنهم أقدم الشعوب ذات الكتب السماوية ، ولأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين بالقرآن . مع أنهم أولى الناس بالإيمان بخاتم الرسل ؛ لذا ذكرهم الله تعالى بنعمة الكثيرة التى أنعم بها عليهم ، وذكرهم

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١ / ٣٣٠ - ٣٤٢ ، فتح القدير ، ١ / ٨٥ - ٩٠ ، ومجمع البيان ١ / ٩٢ - ٩٦ ، وفى ظلال القرآن ١ / ٩٢ فما بعدها ، وتفسير القرآن العظيم ١ / ٨٦ فما بعدها .

(٢) التفسير المنير ١ / ١٤٧ - ١٥٢ .

(٣) بعد هذه الآيات يستمر السياق عن بنى إسرائيل حتى الآية [١٤٢] .

بالعهد المؤكد معهم على التصديق بنبوّة محمد ﷺ ، وتنوع أسلوب القرآن في خطابهم ، تارة بالملاينة والملاطفة ، وتارة بالتخويف والشدة ، وأحيانا بالتذكير بالنعم ، وطورا بتعداد جرائمهم وقبائحهم وتوبيخهم على أعمالهم وإقامة الحجة عليهم.

فمعنى قوله تعالى في هذه الآيات : يا أولاد النبي الصالح يعقوب ، كونوا مثل أبيكم في اتباع الحق ، وتفكروا بالنعم التي أنعم الله بها على آبائكم من الإنجاء من فرعون ، وتظليل الغمام ، واشكروا الله على نعمه بامثال أوامره وإطاعته ، وأوفوا بما عاهدتكم عليه من الإيمان بالله ورسله دون تفريق ، وبخاصة محمد خاتم النبيين ، أوف بعهدى لكم في الدنيا والآخرة ، بالتمكين لكم في الأرض المقدسة - في زمنهم الغابر - ورفع شأنكم ، وتوسيع معيشتكم ونصركم على أعدائكم ، وتوفير السعادة لكم في الآخرة .

وآمنوا - ضمن مشتملات العهد - بالقرآن إيمانا صادقا - وأنه من عند الله ، وأنه نزل مؤيدا ومصدقا وموافقا للتوراة وكتب الأنبياء السابقة ، في الدعوة إلى توحيد الله ، وترك الفواحش ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي التوراة وصف للنبي محمد ﷺ ، فلا تكونوا يا أهل الكتاب أول الناس في الكفر به ، فأنتم أحق الناس بالإيمان به ، لوجود دليل صدقه في التوراة ، ولا تبيعوا آيات الله الدالة على صدق محمد في نبوته ودعوته بثمن دنيوى صغير . من رئاسة أو زعامة ، أو مال أو موروثات وعادات قديمة ، فإنه ثمن قليل بخس ، وتجارة خاسرة غير رابحة ، ولا تخافوا أحدا سوى الله ، فهو بيده الخير كله ، ولا تخلطوا الحق الموجود في التوراة بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه ، ولا تكتموا وصف النبي وبشارته التي هي حق ، وأنتم تعلمون ضرر الكتمان ، فليس جزاء العالم في الآخرة كالجاهل ، وأدوا ما افترض الله عليكم من الصلاة والزكاة ، وأدوها جماعة مع النبي محمد ﷺ ، وعبر بالركوع عن الصلاة ليعبدوها عن صلاتهم القديمة التي لا ركوع فيها .

ولقد أرشدت الآيات إلى أحكام كثيرة في العقيدة والأخلاق والعبادة والحياة الخاصة والعامة فأوجب على اليهود ألا يغفلوا عن نعم الله التي أنعم بها عليهم وألا يتناسوها . والنعمة هنا : اسم جنس مفرد بمعنى الجمع قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ

تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

ومن أهم ما طلب منهم - من اليهود - الوفاء بالعهد ، وخشية الله وحده والإيمان (التصديق) بما أنزل الله .. وهو القرآن ، ونهاهم عن أن يكونوا أول من كفر ، وألا يأخذوا على آياته ثمنا أى على تغيير صفة محمد ﷺ شيئا ، وكان الأخبار يفعلون ذلك فنهوا عنه^(١) .

(١) انظر : تفسير الرازى ٣ / ٣٣ وما بعدها ، قال بعض العارفين : عبيد النعم كثيرون . وعبيد المنعم قليلون .

٣- حسد المشركين بما أنزل على محمد ﷺ

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة] .

هذه الآية جواب واستكمال لما سبقها من قول الله جل شأنه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة] .

وسبب نزول هذه الآية ^(١) : قال ابن عباس في رواية عطاء : ذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها ، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك ، وكان ﴿ رَاعِنَا ﴾ في كلام اليهود سباً قبيحاً فقالوا : إنا كنا نسب محمد سرا ، فالآن أعلنوا السب لمحمد فإنه من كلامه ، فكانوا يأتون نبي الله ﷺ فيقولون : يا محمد راعنا ، ويضحكون . ففطن بها رجل من الأنصار ، وهو سعد بن معاذ وكان عارفاً بلغة اليهود وقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه ، فقالوا : ألسنتم تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ الآية .

سبب نزول الآية [١٠٥] : قال المفسرون : إن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود : آمنوا بمحمد ﷺ ، قالوا : هذا الذي تدعوننا إليه ، ليس بخير مما نحن عليه فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم . خاطب الله المؤمنين في هذه الآية في شأن مشترك بينهم وبين اليهود ، موجهها لهم إلى ما هو الأمثل في اختيار اللفظ الذي يبدأ به الكلام مع النبي ﷺ ، فكانوا يقولون إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم : راعنا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لفهم عنك . وكانت كلمة

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٨ ، ويلاحظ أن الواحدي ذكر ((سعد بن عباد)) والذي عليه المفسرون أنه ((سعد بن معاذ)) .

﴿رَاعَيْنَا﴾ عند اليهود كلمة سب قبيح من الرعونة . فكانوا يخاطبون بها النبي قاصدين معنى السب والشتم ، وأصلها في العبرية ((راعينو)) أى شرير فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة . وأمرهم بكلمة تماثلها في المعنى ، وتختلف في اللفظ وهى : ﴿آنْظُرْنَا﴾ التى تفيد معنى الإنظار والإمهال كما تفيد معنى المراقبة التى تستفاد من النظر بالعين . وإجمال المعنى : أقبل علينا وانظر إلينا .

واسمعوا أيها المؤمنون القرآن سماع قبول وقدر وإمعان ، وللكافرين - ومنهم اليهود - عذاب قولهم شديد وفيه إشارة إلى أن ما صدر منهم من سوء أدب في خطاب النبي ﷺ كفر ؛ لأن من يصف النبي بأنه شرير ، قد أنكر نبوته ، فهذا أدب للمؤمنين وتشنيع على اليهود . وأنتم أيها المؤمنون الذين عرفتم شأن اليهود مع أنبيائهم كونوا على حذر ، فما يود أهل الكتاب ومشركو العرب أن ينزل عليكم خير من ربكم كالقرآن والرسالة . والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهداية العظمى ، وبه جمع الله شملكم ووحد صفوفكم ، وطهر عقولكم من زيغ الوثنية ، وأقامكم على سنن الفطرة وهم يودون نزول الشر بكم وانتهاء أمركم ، وزوال دينكم .

وحسد الحاسد لا يمنع نعم الله ، والله العليم القدير الحكيم يختص بالنبوة والرحمة والخير من يشاء من عباده ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . ويعلم ما يؤدى واجبه بشأنها خير أداء فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحدا على خير أصابه ، وفضل أوتيته من عند ربه ، فالله وحده صاحب الفضل العظيم .

ودل قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ على سد باب الحسد . قال الإمام على بن أبى طالب ؑ : ﴿تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أى بنبوته . خص بها محمدا ﷺ . وقيل : الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التى قد منحها الله عباده قديما وحديثا . ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه عنهم ^(١) .

٤- الإيمان بالله وما أنزل على رسله

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١] فَإِنَّ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة] .

أجمع المفسرون على أن الخطاب للمسلمين أتباع محمد ﷺ وما أنزل إلينا هو القرآن الكريم أن نؤمن أيضا بالسابقين من الرسل والكتب وألا نفرق بين أحد منهم ونحن لله مسلمون . وإن شذ على ذلك بعض المفسرين أن النداء لأهل الكتاب ، لكن مدلول الآية يتجه إلى أن الخطاب للمسلمين لتكرار صفتهم من جهة ولتسميتهم في آخر الآية . ومن ذلك ما قيل ^(١) :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ خطاب للمسلمين ، وقيل خطاب للنبي محمد ﷺ والمؤمنين أمرهم تعالى بإظهار ما يدينون به على الشرع ، فبدأ بالإيمان بالله لأنه أول الواجبات ، ولأنه بتقديم معرفته تصح معرفة النبوات والشرائع ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ يعنى القرآن الكريم ، نؤمن بأنه حق وصدق وواجب اتباعه في الحال وإن تقدمته كتب .

﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ ^(٢) . قال قتادة :

(١) مجمع البيان ١ / ٢١٧ بتصرف .

(٢) الأسباط واحدهم سبط : وهم أولاد إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم اثنا عشر سبطا من اثني عشر ابنا ، وقالوا : الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ أى ولداه . والأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل . قال الزجاج : السبط : الجماعة يرجعون إلى أب واحد ، والسبط فى اللغة : الشجر ، فالسبط الذين هم من شجرة واحدة . وقال ثعلب : يقال : سبط عليه العطاء أو الضرب إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض . وأنشد الثورى فى قطع بقر : ((كأنه سبط من الأسباط)) فشبهه بالجماعة من الناس يتتابعون فى أمر ، ومن ثم قيل لولد يعقوب أسباط ، والفرق بين التفريق والفرق : أن التفريق : جعل الشيء مفارقا لغيره . والفرق نقيض الجمع ؛ والجمع جعل الشيء مع غيره . والفرق : جعل الشيء لا مع غيره . والفرق بالحجة هو البيان الذى يشهد أن الحكم لأحد الشيئين دون الآخر .

هم يوسف عليه السلام وإخوته بنو يعقوب ، ولد كل واحد منهم أمة من الناس فسموا الأسباط .

قال كثير من المفسرين : أنهم كانوا أنبياء . والذي يقتضيه مذهبنا أنهم لم يكونوا أنبياء بأجمعهم ، لأن ما وقع منهم من المعصية فيما فعلوه بيوسف عليه السلام . والنبي عندنا معصوم من القبائح صغيرها وكبيرها ، وليس في ظاهر القرآن أن ما يدل على أنهم كانوا أنبياء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ لا يدل على أنهم كانوا أنبياء . لأن الإنزال يجوز أن يكون على بعضهم ممن كان نبيا ، ولم يقع منه ما ذكرناه من الأفعال القبيحة ، ويتحمل أن يكون مثل قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ وإن المنزل على النبي ﷺ خاصة ، لكن المسلمين لما كانوا مأمورين بما فيه أضيف الإنزال إليهم .

﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ أى أعطياه ، وخصهما بالذكر لأنه احتجاج على اليهود والنصارى ، والمراد بما أوتى عيسى الإنجيل ﴿ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ ﴾ أى ما أعطيه النبيون ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ أى بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعله اليهود والنصارى ، فكفرت اليهود بعيسى ومحمد وكفرت النصارى بسليمان ونبينا محمد ﷺ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أى نحن لما تقدم ذكره . وقيل : لله خاضعون بالطاعة ، مذعنون بالعبودية . وقيل : منقادون لأمره ونهيه .

وفائدة الآية : الأمر بالإيمان بالله ، والإقرار بالنبين ، وما أنزل إليهم من الكتب والشرائع والرد على من فرق بينهم فيما جمعهم الله عليه من النبوة ، وإن كانت شرائعهم غير لازمة لنا ، فإن الإيمان بهم لا يقتضى لزوم شرائعهم .

وروى عن الضحاك أنه قال : علموا أولادكم وأهلكم وخدمكم أسماء الأنبياء الذين ذكرهم الله في كتابه حتى يؤمنوا بهم ، ويصدقوا بما جاؤوا به .. فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا ﴾ أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار حتى آمنوا على حد ما آمن المؤمنون به ﴿ فَقَدْ أَهْتَدُوا ﴾ إلى طريق الجنة ، وقيل : سلكوا طريق الاستقامة

والهداية . وقيل : كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : أقرؤا بما آمنتُم به فليس لله مثل ، وهذا محمول على أنه فسر الكلام لا أنه أنكر القراءة الظاهرة مع صحة المعنى . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عن الإيمان وجحدوه ولم يعترفوا به ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ أى فى خلاف . قد فارقوا الحق ، وتمسكوا بالباطل ، فصاروا مخالفين لله سبحانه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وقريب منه ما روى عن جعفر الصادق أنه قال: يعنى من كفر وقيل فى ضلال . عن أبى عبيدة؟ وقيل فى منازعة ومحاربة وقيل: فى عداوة ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ وعد الله رسوله بالنصرة وكفايته من يعاديه من اليهود والنصارى الذين شاقوه وفى هذا دلالة بيّنة على نبوته وصدقه ﷺ . والمعنى : أن الله سبحانه سيكفيك يا محمد أمرهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأعمالهم فى إبطال أمرك ولن يصلوا إليك . انتهى .

٥- شهاد ما أنزل الله على محمد ﷺ

﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴾ [النساء] .

استكمالا لما أوحى تعالى إلى النبي ﷺ والنبين . أورد الله شهودا على الذي أنزله عليه ﷺ والملائكة الحفظة الذين نقلوا القرآن من السماء السابعة إلى السماء الأولى ، وبذلك فإن الله تعالى يشهد أنه هو الذي أنزل الكتاب وكفى بالله شهيدا .

لما ضمن - قوله تعالى: (إنما أوحينا إليك) إلى آخر السياق - إثبات نبوته ﷺ والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب - قال الله تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أى وإن كفر من كفر به ممن كذبك وخالفك فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت] ولهذا قال : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البيئات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا على بن الحسين ، عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن السلمى القرآن وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم يقرأ قوله : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . قوله : ﴿ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ﴾ أى بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى لك بذلك. ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ قال محمد بن إسحاق . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود . فقال لهم: إني لأعلم والله إنكم لتعلمون أني رسول الله ، فقالوا : ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ ﴾ الآية^(١) .

٦- الإيمان بالكتب وما أنزل على محمد ﷺ

﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتْقِمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة] .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أى من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل أى حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها ؛ ومما فيها الإيمان بمحمد ، والأمر باتباعه والإيمان بمبعثه والافتداء بشريعته .

ولهذا قال ليث بن أبى سليم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن العظيم ، وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) أى فلا تحزن عليهم ولا يهنيك ذلك منهم ^(٢) .

قوله تعالى ﴿ عَلَى شَيْءٍ ﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه : أى لستم على شيء يعتد به حتى تقيموا التوراة والإنجيل أى تعملوا بما فيها من أوامر الله ونواهيه التى من جملها أمركم باتباع محمد ﷺ ، ونهيكم عن مخالفته .

قال أبو على الفارسى : ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما . قوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ قيل : هو القرآن فإن إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامته ، ويجوز أن يكون المراد ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين وقوله :

(١) ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا ﴾ الآية ، أى كفرًا إلى كفرهم وطغيانًا إلى طغيانهم ، والمراد بالكثير منهم من لم يسلم واستمر على المعاندة ، وقيل : المراد به العلماء منهم ، وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها ، قوله : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فتح القدير ٦ / ٧١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٨٢ .

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ كما شرح فى الحاشية قوله: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى دع عنك التأسف على هؤلاء ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم ونازل بهم ، وفى المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم .

إن امتداد العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب إنما هي تأكيد لوحدة رسالته الأنبياء عليهم السلام . وتصديق كل نبي بمن سبقه أمر في غاية الشفافية والصدق وكل ما عند أهل الكتاب من اتفاق هو أنهم جميعا قد بشروا برسول الله ﷺ وأكدوا بما لم يتمكنوا من إخفائهم في كتبهم وإخبارهم صفة النبي ﷺ والبعض ذكره باسمه صريحا ، والذي يؤكد أيضا اتفاقهم على هذا يؤكد أيضا أنه ما جاء أحد منهم للناس كافة إلا الإسلام ، وهذا تصديق أكيد بأن محمدا ، ومعجزته الدائمة (القرآن الكريم) هما الفيصل في هذا .. وإن كفر الأتباع بما أنزل على أنبيائهم فحقيق عليهم أن يكفروا بما أنزل على محمد - إلا من هدى الله تعالى على مر العصور والأزمان وهم ليسوا بالقلائل ، وليسوا أفرادا ، وليسوا نادرين ، بل إن شعوبا بأكملها قد تحولت إلى الإسلام ، ولعل الشاهد القوي في هذا ما نراه اليوم من تحول الكثيرين إلى الإسلام بغير إكراه ولا ضغط فليس في هذا الدين - الإسلام - ما يوجب الإكراه بل إن الإسلام يرفضه رفضا باتا ابتداء من قوله تعالى في سورة البقرة [٢٥٦] ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿٢٦٠﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦١﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [الكافرون] . إلى كل ما صرح الله تعالى في القرآن من العلاقة مع أهل الكتاب.

وهذه واحدة من هذه الآيات الواضحة التي تبين تلك العلاقة الواضحة مع أهل الكتاب في فترة ظهور الإسلام ، وفي تطور الأحداث منذ ذلك الوقت مروراً بهذا الزمن ، وانطلاقاً إلى المستقبل الذي بينه الله تعالى لنا - كيف يمكن أن تكون هذه العلاقة في أي زمان ومكان. والتي رسمتها الآية الكريمة ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابِ

تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٠٩﴾

[آل عمران] .

٧- ما أنزل على الرسول ﷺ

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [٢٢] وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة] .


هاتان الآيتان ترتبطان بما سبقهما من الآيات وما لحق بهما ، وذلك لتبيان وتوضيح مواقف أهل الكتاب مما أنزل على محمد من جهة - ومن الدعوة الإسلامية على عمومها . وهنا وبعد أن ورد تعبير أهل الكتاب إجمال اليهود والنصارى - فرق بينهما في المعاملة تماما ، وأوضح جل وعلا مواقفهما المعلنة والمخباة لقوله تعالى بالآية السابقة لهذه الآيات . ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ ۚ وَرُحَبَاءَانِ ۚ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة] .

نسوق بعض المعاني للآية [٨٢] وما تلاها من موضوع دراستنا :


﴿ النَّاسِ ﴾ هم اليهود العرب ومشركو العرب ونصارى الحبشة في عصر التنزيل .

﴿ عَدَاوَةً ﴾ اعتداء وبغضاء ، والعداوة ضد المسالمة والمحبة .

﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ هم الذين جعلوا مع الله إلهًا آخر كعبدة الأوثان من أهل مكة . وسبب عداوتهم للمؤمنين هو زيادة كفرهم وجهلهم وإغراقهم في اتباع الهوى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أى قرب مودتهم للمؤمنين بسبب أن منهم ﴿ قَسِيسِينَ ﴾ جمع قس وقسيس وهو أحد رؤساء النصارى: العالم بالدين والكتاب فوق الشماس ودون الأسقف ، والقسيسون : علماء النصارى .

- ﴿ وَرُحَبَانًا ﴾ عبادا . جمع راهب وهو العابد المتفرغ للعبادة في دير أو صومعة .
- ﴿ وَأَنْتُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾  عن اتباع الحق ، كما يستكبر اليهود وأهل مكة .
- ﴿ مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ القرآن الكريم .
- ﴿ أَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ تمتلئ دمعاً حتى يتدفق من جوانبها لكثرتة .
- ﴿ ءَامَنَّا ﴾ صدقنا بنبيك وكتبك ، ﴿ فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾  المقربين الذين يشهدون بربوبيتك وألوهيتك وبتصديق نبيك .
- ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى لا مانع لنا من الإيمان من وجود مقتضيه .
- ﴿ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ﴾ القرآن الكريم .
- ﴿ أَنْ يُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ .
- ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾  المؤمنين .
- ﴿ فَأَنْتَبَهُمْ ﴾ جازاهم .
- ﴿ بِمَا قَالُوا ﴾ أى بما أعلنوا من اعتقاد^(١) .

سبب النزول:

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب وأبى بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتاباً إلى النجاشى ، فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه ، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين ، ثم أمر جعفر بن أبى طالب ، فقرأ عليهم سورة مريم ، فأمنوا بالقرآن ، وفاضت أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾  ، وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشى ثلاثين رجلاً

من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ، فقرأ عليهم سورة ((يس)) : فبكوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى فنزلت الآية .

وأخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت هذه الآية فى النجاشى وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ وروى الطبرانى عن ابن عباس نحوه ^(١) .

قال ابن عباس وسعيد بن جبیر وعطاء والسدى : المراد به النجاشى وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول ﷺ وآمنوا به .

قال الطبرى: والصواب فى ذلك من القول عندى : أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى ، أن نبى الله ﷺ يجدهم أقرب الناس ودادا لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم ، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشى ، ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى ، فأدركهم الإسلام ، فأسلموا لما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ولم يستكبروا عنه ^(٢) .

المناسبة: بعد أن أوضح الله تعالى أحوال أهل الكتاب ، فأوضح مخازى اليهود وعبوبهم ومن أهمها قولهم ﴿الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة : ٦٤] . ﴿وَقَتْلَهُمُ الْآبِيَاءَ﴾ [آل عمران : ١٨١] وأبان زيف عقيدة النصارى فى التثليث وتأليه المسيح ذكر هنا موقفهم فى العداوة والمحبة من المؤمنين ونبه على أن اليهود فى غاية العداوة للمسلمين . ولذلك جعلهم قرناء للمشركين فى شدة العداوة بل إنهم أشد عداوة من المشركين لتقديم ذكرهم على ذكر المشركين قال ﷺ ، فيما رواه ابن مردويه عن أبى هريرة : ((ما خلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله)) . وذكر تعالى أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم ^(٣) .

وقدر رأى النبي ﷺ من النصارى خيرا ، فتلقى نصارى الحبشة المؤمنين المهاجرين إليها بالجماعة والتكريم ، هربا من أذى المشركين ، ورد هرقل ملك الروم النصارى كتاب النبي ﷺ ردا حسنا ، بعد أن حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام

(١) أسباب النزول للسيوطى ، أسباب النزول للواحدي .

(٢) تفسير القرطبي ٣ / ٧ .

(٣) التفسير المنير ٧ / ٧ ، ٨ .

وكان المقوقس عظيم القبط في مصر أحسن ردا منه ، فأرسل إلى النبي ﷺ هدية ، وبعد فتح مصر والشام أسلم كثير من النصارى فى تلك البلاد ، لما رأوا فى الإسلام من مزايا ، وأسلم أصحاب النجاشى ملك الحبشة مع بطانته . ولما مات .. صلى عليه النبي ﷺ صلاة الجنازة على الغائب ونعاه الناس .

وكان سبب مودة النصارى للمؤمنين : أنه يوجد فيهم قسيسون ((علماء)) ، ورهبان ((عباد)) يدعون للإيمان والفضيلة والتواضع ، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه ، والإنصاف .

وإذا سمعوا شيئا من القرآن المنزل على رسول الله ﷺ - وهو موضوع الآية [٨٣] - بكوا حارا غزيرا تعاطفا مع كلام الله ، وما عرفوا من الحق ، مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ، ثم يبادرون لقبول دعوة الإيمان قائلين: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . والمراد به إنشاء الإيمان والدخول فيه أى آمنا بك وبرسلك وبمحمد ﷺ ، فاكْتُبْنَا مع من يشهد بصحة هذا المنزل على الأنبياء ومنهم محمد ﷺ ويشهد لك بالوحدانية .

وروى ابن مردويه وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وأى مع محمد ﷺ وأمتة الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ، كما قال تعالى فى خصائص أمة المصطفى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . ثم أكدوا قولهم فقالوا : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ ﴾ إنكار استبعاد ، أى ولا مانع يمنعنا من الإيمان بالله ، واتباع الحق الذى جاء به محمد ﷺ . ونطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين أتباع هذا النبى الكريم الذين ثبت لنا صلاحهم وصحة إيمانهم ^(١) .

٨- دعوة إلى الإيمان بما أنزل الله وإلى الرسول ﷺ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة]

وردت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْمَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(١) [المائدة] .

هذه المحرمات الواردة في الآية والتي حرّمها العرب على أنفسهم وكذب الله هذا التحريم والتي جاءت على يد عمرو بن لحي - من خزاعة - الذي غير دين إسماعيل والخنيفية التي كان عليها العرب ، وأحضر من الشام تماثيل ودعا قومه لعبادتها في مكة وتقديسها وقلب مفاهيم العرب من الوحدانية إلى الشرك ، وحرّم عليهم وأحلّ لهم ، وروى الطبري : عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون : «يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يحجر قصبه - أمعاه - في النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك » ،

(١) ﴿مَا جَعَلَ﴾ و ما شرع شيئا من الأحكام التي كانت العرب في الجاهلية ، ولا أمر بواحدة من المحرمات - ولكنهم يفترون ويقلدون .

﴿نَجْمَةٍ﴾ هي الناقة التي كانوا يبحرون أذنّها ، أي يشقونها شقا واسعا ، إذا أنتجت خمسة أبطن إنانا آخرها أنثى وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها ، فإن كان آخرها ذكرا نحروه تأكله النساء والرجال ، وقيل : غير ذلك بأن آخرها ذكرا .

و ﴿سَائِبَةٍ﴾ الناقة التي كانت تسبب بنذرهما لأهّتهم الأصنام ، فتعطى للسدنة ، وترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها شيء ولا يحجز صوفها ، ولا يجلب لبنها إلا لضيّف .
﴿وَصِيلَةٍ﴾ الشاة أو الناقة التي تصل أخاها ، فإذا بكرت في أول التّاج بأنثى كانت لهم ، وإن ولدت ذكرا كان لأهّتهم وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لأهّتهم .
وقيل : غير ذلك .

و ﴿حَامٍ﴾ الفحل الذي يضرب في حال صاحبه فيولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون : حمى ظهره ، فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

فقال أكرم : أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إسماعيل ، وجر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحام »^(١) .

ثم ناقشهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا ﴾ أى إذا قيل للمشركين : تعالوا إلى العمل بما أنزل الله فى القرآن الكريم من الأحكام المؤيدة بالبراهين ، وإلى الرسول المبلغ ﷺ المبلغ لها والمبين لمجملها ، وأجابوا يكفيننا ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم لنا أئمة قادة مشرعون . ونحن لهم تبع .

فرد الله عليهم مستفهما استفهما إنكاريا ؛ أيكيفهم ذلك ، ﴿ أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ شيئا أبدا من الشرائع ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مصلحة أو خيرا أصلا فى الدين والدنيا ، فهم يتخبطون فى ظلمات الوثنية ، وخرافة المعتقدات ويشرعون لأنفسهم بحسب أهوائهم ، من وأد البنات ، وشرب الخمر ، وظلم الأيتام والنساء ، وارتكاب المنكرات وشن الحروب لأتفه الأسباب ، وإثارة العداوة والبغضاء . وهذا تزيد بالتقليد الأعمى والتعصب الموروث من غير وعى ولا إدراك كما قال الله تعالى فى آيات كثيرة^(٢) .

(١) التفسير المنير ٧ / ٨٥ .

(٢) تفسير الطبرى ٧ / ٥٦ ، وابن كثير ٢ / ١٠٧ .

٩- تنزيل رب العالمين

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٣﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٦﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] .

قبل هذه الآيات ذكرت قصص الرسل والرسالات ، وقصص التكذيب والإعراض ، وقصة التحدى والعقاب وقد بدأت هذه القصص بعد مقدمة السورة والحديث عنها خاص برسول الله ﷺ ومشركى قريش ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء] فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذى تضمنته المقدمة ، فجاء هذا التعقيب الأخير يتحدث عن القرآن ، فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين - ومنه هذا القصص الذى مضت به القرون ، فإذا كان القرآن ينزل به من رب العالمين - ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول ، وما معه من القرآن ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ، ويزعمون أنها سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين ؛ لأن العناد هو الذى يعتد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد - ﷺ - كما تنزل بالأخبار على الكهان وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتا والشعراء يهيمون فى كل واد وفق الانفعالات والأهواء .

إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكير المشركين ، قبل أن يأخذهم الله بالعذاب

وقيل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء] . ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْأَعْلَامِينَ ﴾ [الأيات] .

والروح الأمين جبريل عليه السلام نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله ﷺ وهو أمين على ما نزل به ، حفيظ عليه ، نزل به على قلبه فتلقيه تلقيا مباشرا ، ووعاه وعيا مباشرا . نزل به على قلبه ليكون من المندرين بلسان عربى مبين ، هو لسان قومه الذى يدعوهم به ويتلوا عليهم القرآن ، وهم يعرفون مدى ما يملك البشر أن يقولوا ؛ ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وإن كان بلغتهم ؛ وأنه بنظمه ، وبمعانيه ، وبمنهجه ، وبتناسقه . يشى بأنه أن من مصدر غير بشرى بيقين .

ويتنقل من هذا الدليل الذاتى إلى دليل آخر خارجى :

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الم] أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الشعراء] فقد وردت صفة الرسول الذى ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التى جاء بها فى كتب الأولين . ومن ثم كان علماء بنى إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، ويتنظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلمهم ويحدث بعضهم بعضا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسى ، ولسان عبد الله بن سلام رضى الله عنهما والأخبار فى هذا ثابتة كذلك بيقين .

إنما يكابر المشركون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد ؛ لضعف الحجة ولا لقصور الدليل ، فلو جاءهم به أعجمى لا ينطق العربية فتلاه عليهم قرآنا عربيا ما آمنوا به ولا صدقوه ، ولا اعترفوا أنه موحى به إليه ، حتى مع هذا الدليل الذى يجبه المكابرون .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ [الم] فى هذا تسرية عن رسول الله ﷺ وتصوير لعنادهم ومكابرتهم فى كل دليل ، ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم ، فهكذا قضى الأمر أن يتلقوه بالتكذيب ، كأنه طبع فى قلوبهم . لا يحول حتى يأتيهم العذاب وهم فى غفلة لا يشعرون .

﴿كَذَلِكَ سَلَكَنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
 الْأَلِيمَ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء] والتعبير يرسم صورة
 حسية للملازمة التكريب لهم . فيقول : إنه على هذه الهيئة ، هيئة عدم الإيمان
 والتكريب بالقرآن ، على هذه الهيئة نظمناه في قلوبهم وأجريناه فهو لا يجري فيها
 إلا مكذبا به ويظل على هيئته هذه في قلوبهم ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٣﴾﴾
 فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقد بقي بعضهم فعلا على هذا الوضع
 حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم العذاب الأليم وفي هذه اللحظة
 فقط يفيقون ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء] ^(١) .

١٠- الإيمان بما أنزل الله ((القرآن ، وما سبق من الكتب))

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ^٢ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ^٣ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ^٤ وَمَا تَجْحَدُ بِإِيْتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ^(٥) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِمِمْبَرِكَ^٦ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ^(٧) بَلْ هُوَ ءَايَتٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ^٨ وَمَا تَجْحَدُ بِإِيْتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ^(٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَتٌ مِنْ رَبِّهِ^{١٠} قُلْ إِنَّمَا الْآيَتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ^(١١) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ^{١٢} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(١٣) ﴿ [العنكبوت] .

فى هذه الآيات الست من سورة العنكبوت تعدد ذكر كتاب الله تعالى باسمه ﴿ الْكِتَابَ ﴾ وبصفات أخرى أهمها التنزيل والآيات .

وصفات الإنزال لكتاب الله تعالى والكتب السابقة له وردت خمس مرات .
والآيات سواء آيات القرآن الكريم أو الآيات المعجزات من غير القرآن وردت أربع مرات .

والكتاب ، سواء القرآن أو الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل أربع مرات أيضا . وقد أكد الله تعالى أيضا ذكر الكتاب - القرآن الكريم - فى الآية التى سبقت هذه الآيات مباشرة فى قوله تعالى : ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ^{١٤} إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ^{١٥} وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ^{١٦} وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ^(١٧) ﴾ [العنكبوت] وقد وردت تفصيلاتها فى فصل الكتاب تحت رقم ٤٢ .

ومن معانى هذه الآيات الست^(١) :

﴿ وَلَا تَجْدِلُوا ﴾ المجادلة والجدل : الحجاج والمناظرة والمناقشة .

﴿ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى عليهما السلام .
يؤمنون بوجود الله واليوم الآخر ، وبالتوراة والإنجيل .

﴿ إِلَّا بِالنِّبَىٰ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى إلا بالخصلة التى هى أحسن كمعارضة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم وضبط النفس ، والمشغبة بالنصح ، والتنبيه إلى آيات الله وحججه .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى : لكن الظالمون منهم بالإفراط فى الاعتداء والعناد والمحاربة فجادلوهم وعاملوهم بالمثل .

﴿ وَقُولُوا ءَامَنَّا ﴾ لم سألكم وأذعن للحق ، أو قبل المعاهدة السلمية معكم إذا أخبروكم بشىء مما فى كتبهم .

﴿ ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : صدقنا بما أنزله الله إلينا وهو القرآن ، وما أنزله إليكم فى أصوله الصحيحة من التوراة والإنجيل ، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم فى ذلك ، فهذا من المجادلة بالتى هى أحسن وعن النبي ﷺ : ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم ، وإن قالوا حقا لم تكذبوهم)) .

﴿ وَالنَّهْنَا وَالنَّهْكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ خاضعون مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أى القرآن كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها ، وكان القرآن وحيا مصدقا لسائر الكتب الإلهية .

﴿ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ التوراة كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن .

﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أهل مكة أو العرب أو الكتائبون الموجودون فى عهد الرسول ﷺ .

﴿وَمَا تَجِدُ فِيهَا مِنْ مَعْلُومٍ﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها . والجحد : إنكار الشيء بعد معرفته والعلم به .

﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المتوغلون في الكفر . وهم المشركون ، وغير المسلمين الذين لا يؤمنون بالإسلام والقرآن والنبى محمد ﷺ . بعد أن ظهر لهم أن القرآن حق ، ومحمد ﷺ حق ، ثم جحدوا ذلك .

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أى إنك أُمى لم تكن تعرف القراءة والكتابة قبل نزول القرآن . فإن هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الذى نزل على أُمى لم تعرف القراءة والتعلم أمر خارق للعادة ﴿إِذَا لَازَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى لو كنت قارئاً كاتباً لشك أهل الباطل كاليهود فيك، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم وكونهم غير محقين فيما ذهبوا إليه من التنكر للرسالة رسالة الإسلام .

﴿بَلْ هُوَ﴾ أى القرآن الذى جئت به ﴿ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى هو آيات واضحة الدلالة على الحق فى قلوب أهل العلم ، وهم المؤمنون فيحفظونه من كل تحريف .

﴿وَمَا تَجِدُ فِيهَا مِنْ مَعْلُومٍ إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أى وما ينكر آيات الله إلا الظالمى أنفسهم والذين جحدوا وجه الحق بعد وضوح دلائل إعجاز تلك الآيات .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أى قال كفار مكة : هلا أنزل على محمد ﷺ ﴿ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قبل ناقة صالح وعصا موسى ، ومائدة عيسى ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد لهم : إنما الآيات ينزلها الله كيف يشاء ، ولست أملكها ، فاتيكم بما تقترحونه . ﴿وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى : ليس من شأنى إلا إنذار أهل المعصية بالنار بما أعطيت من الآيات .

﴿أُولَئِكَ يَكْفُرُهُمْ﴾ آية لما طلبوا أو اقترحوا ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم فهو آية ثابتة مستمرة لا انقضاء لها ، يتحداهم ، بخلاف سائر

الآيات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتاب الذى هو آية مستمرة ، وحجة بينة . ﴿لَرَحْمَةً﴾
لنعمة عظيمة ، ﴿وَذِكْرَى﴾ عظيمة وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن همهم الإيمان
دون التعتن (١) .

بعد سرد المعانى لهذه الآيات الكريمة [٤٦ - ٥١] والإشارة إلى أن تكرار اسم
وصفات القرآن الكريم ، وارتباط هذه المعانى بوجود القرآن الكريم كآية منزلة من
الله تعالى ، ومعجزة خالدة إلى يوم الدين والتأكيد على أن هذا القرآن من عند الله .
ليس لأحد كان ولا لمحمد نفسه إلا الإيمان والخضوع والتلقى ، فهو قبل نزول
القرآن لبث سنين طوال ما ادعى ، أو فكر ، أو أشار ، أو حاول القول لأى أمر
يتعلق بهذا الموضوع ، موضوع تلقى الكتاب ، ولكنه عندما تنزل عليه الوحي حمله
وصدقه واتبع أوامر الله تعالى مبينا إنما هو منذر لفتن متباعدتين نوعا ما فى المعتقد
وهاتان الفتتان هما أهل الكتاب (نصارى ويهود) ومشركو العرب من أهل مكة .
ونبين بعضا من الأحكام المرتبطة بهذه الآيات تحقيقا للفائدة وتوضيحا لما غمض
فى بعض الجوانب .

يقول مجددا صاحب التفسير المنير (٢) :

سبب نزول الآية [٥١] (آخر آية مرتبطة بالموضوع) :

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ : أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والدارمى فى مسنده وأبو
داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب كتبوها ، فيها بعض ما
سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ : ((كفى بقوم حقما أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء
به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم)) فنزلت : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ .

وأخرج البخارى عند تفسير الآية قوله ﷺ : ((ليس منا من لم يتغن بالقرآن))
أى : يستغنى به عن غيره .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن الحارث الأنصارى قال : دخل عمر بن

(١) التفسير المنير ٢١ / ١٥ .

(٢) التفسير المنير ٢١ / ١١ - ١٣ ، ٢٠ .

الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة ، فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط ، فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . فسرى عن النبي ﷺ وقال : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبیین ، وأنتم حظى من الأمم » .

وبعد بيان كون القرآن منزلاً من عند الله ، وليس من عند محمد ﷺ . ذكر الله تعالى شبهة للمشركين ، وهى أنهم قالوا للنبي ﷺ : إنك تقول : إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، أفلا تأتينا بآية أو معجزة مادية محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقاة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى ليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، والله إن أراد ينزلها ، وإن لم يرد لا ينزلها . وكفى بالقرآن فهو معجزة ظاهرة باقية ، والله شهيد عليم : يحكم به بين عباده .

وبعد بيان الطريقين فى إرشاد الفريقين : المشركين وأهل الكتاب ، أعلن الله تعالى الإنذار الشامل العام بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ولما أُنذروا بالخسران أوضح الله تعالى أن العذاب لا يأتهم بسؤالهم واستعجالهم ، وإنما له أجل مسمى اقتضته حكمته وارتضته رحمته ^(١) .

وبعد :

١- فإن فضيلة الجدل والنقاش بالأسلوب الحسن وبالحكمة والموعظة الحسنة ، فذلك أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة ، والوصول إلى الإيمان ، وتحقيق الهدف المقصود .

٢- إن المعاملة بالمثل واللجوء إلى القتال والعنف واستخدام القوة هو السبيل المتعين فى الرد على أهل المعصية والعناد والإصرار على الكفر .

٣- إن هذه الآية الآمرة بالجدال بالتي هى أحسن والدعوة إلى الله عز وجل بالحجة والمنطق والبرهان آية محكمة كما قرر إثبات العلماء والمفسرين مثل مجاهد التابعى وغيره ، قال القرطبى : وقول مجاهد حسن : لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها : إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول ^(١) . وهذا اختيار ابن جرير الطبرى وابن العربى . قال ابن العربى : الآيات ليست منسوخة ، وإنما هى مخصوصة ؛ لأن النبي ﷺ بعث باللسان يقاتل به فى الله . ثم أمره الله بالسيف واللسان ، فمن قاتل قتل ، ومن سالم بقى الجدال فى حقه ولكن بما يحسن من الأدلة ، ويحمل من الكلام ، وليس الخطاب ^(٢) .

٤- بعض أهل الكتاب متعصبون فى آرائهم ومعتقداتهم ، بعيدون عن الشرك وإثبات الولد والتثليث وهؤلاء ينفع معهم الجدال والنقاش ، فهم يؤمنون بالله وبكتابتهم وباليوم الآخر ، ولم يبق إلا الإيمان بمحمد ﷺ ، كالإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام .

وبعض أهل الكتاب متعصبون حائرون خلطوا بين التوحيد والتثليث ، وحرفوا فى الكتاب وغيروا . ونسبوا لله ولدا أو شريكا ، ثم صيروا هو الإله ، وهؤلاء يصعب معهم الجدال ، وقد لا ينفع معهم النقاش ، ومع ذلك ندعوهم إلى الإيمان بالتي هى أحسن : لأنه لا إكراه فى الدين ، والإسلام يقر بحرية الرأى ، والتعبير والاعتقاد . بعد التبليغ والإنذار ، والترغيب والترهيب .

وأما المشركون عبدة الأوثان ففى جزيرة العرب لا مجال لإقراهم على وثنيتهن وأما فى غير جزيرة العرب فكذلك ندعوهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة .

٥- النبي محمد ﷺ دليل قاطع واضح على أن القرآن كلام الله العزيز الحكيم ثم ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبي ﷺ حتى كتب وقرأ وقد ثبت فى صحيحى البخارى ومسلم أن النبي فى صلح الحديبية كتب بيده محمد بن عبد الله ، كلمة رسول الله حينما أصر المشركون على كتابتها

(١) تفسير القرطبى ١٣ / ٣٥٠ .

(٢) أحكام القرآن ٣ / ٤٧٥ بتصرف .

قال القرطبي: الصحيح أنه ﷺ ما كتب ولا حرفا واحدا ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى . وقال: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . رواه الشيخان ، وأبو داود والنسائي عن ابن عمر .

آيات القرآن آيات بينات واضحات ، وليس هذا القرآن كما يقول المبطلون : إنه سحر وشعر ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه ، وتلك الآيات يحفظها علماء الأمة ويقرؤونها وقد وصف الله المؤمنين بالعلم : لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين ، قال : كعب الأحبار في صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء ، وهم في الفقه أنبياء .

٧- لا ينكر كون القرآن منزلا حقا من عند الله إلا القوم المبطلون الجاهلون ، وهم المشركون ، وإلا الكفار الظالمون الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وما جاء به .

٨- ليس القرآن من مخترعات أحد من الملائكة أو الإنس أو الجن ، إذ لا يستطيع الكل على الإتيان بمثله أو بمثل عشر آيات أو بمثل سورة من أقصر سورة ، وهذا الإعجاز المتحدى به دليل قاطع على كونه كلام الله الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى ﷺ ^(١)

وشر بعد :

١- طلب المشركون من النبي ﷺ معجزة مادية محسوسة ، مثل : عصا موسى وناقعة صالح ومائدة عيسى . على سبيل العناد والكفر والمكابرة . لا على سبيل التوصل بحسن نية إلى الإيمان بالله عز وجل وتوحيده .

٢- كان الرد القرآني المفحم عليهم أنه : ألا يكفيهم هذا الكتاب المعجز الذي قد تحداهم الله بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، فعجزوا . ولو آتاهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ، والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ، وليس من شرط الرسالة وجود المعجزة . فقد علمنا وجود رسل كيث وإدريس وشعيب ، ولم نعلم لهم معجزة .

٣- والقرآن رحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، رحمة في الدنيا باستنقاذهم من

الضلالة ، وفي الآخرة بصرفهم عن النار ، وهو أيضا ذكر في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ، ومعجزة باقية يتذكر بها كل إنسان على مر الزمان . فيكون القرآن أتم من كل معجزة ؛ لأنه باقى الأثر ، والمعجزات المادية لم يبق لها أثر ولأنه بلغ خبره المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، والمعجزات المادية محصورة في مكان واحد^(١)

١١- اتبعوا ما أنزل الله

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِقْبَةُ الْأُمُورِ ۝﴾ [لقمان] .

لما فرغ سبحانه وتعالى من قصة لقمان ، رجع إلى توبيخ المشركين ، وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: معنى تسخيرها للآدميين الانتفاع بها فمن مخلوقات السموات المسخرة لبنى آدم: أى التى ينتفعون بها الشمس والقمر والنجوم ، ونحو ذلك ، ومن جملة ذلك الملائكة فإنهم حفظة لبنى آدم بأمر الله سبحانه ، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبنى آدم: الأحجار ، والتراب ، والزرع والشجر ، والثمر ، والحيوانات التى ينتفعون بها ، والعشب الذى يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك فيما لا يحصى كثرة ، فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منفاداً له ، وداخلاً تحت تصرفه أم لا .

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَّرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ أى أتم وأكمل عليكم نعمه ، يقال: سبغت النعمة: إذا تمت وكملت . قرأ الجمهور «(أسبغ)» بالسين . وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمار «(أصبغ)» بالصاد مكان السين ، والنعم: جمع نعمة على قراءة نافع وأبى عمرو وحفص . وقرأ الباقر «(نعمه)» لسكون العين على الأفراد والتنوين: اسم جنس يراد به الجمع ، ويدل على الكثرة كقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، وهى قراءة ابن عباس . والمراد بالنعم الظاهرة: ما يدرك بالعقل ، أو الحس ، ويعرفه من يتعرفه ، وبالباطنة: ما لا يدرك ويخفى عليهم .

وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق ، والباطنة المعرفة ، والعقل . وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال ، والجاه ، والجمال ، وفعل الطاعات ،

والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفعه الله عن العبد من الآفات . وقيل : الظاهرة : نعم الدنيا ، والباطنة : نعم الآخرة . وقيل : الظاهرة : الإسلام والجمال ، والباطنة ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي آلِهَةٍ ﴾ أى : فى شأن الله سبحانه فى توحيده ، وصفاته مكابرة ، وعنادا بعد ظهور الحق له ، وقيام الحجة عليه ، ولهذا قال : ﴿ يَغْيِرْ عِلْمٍ ﴾ من عقل ، ولا نقل ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ يهتدى به إلى طريق الصواب ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أنزله الله سبحانه . بل مجرد تعنت ، ومحض عناد وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى : إذا قيل لهؤلاء المجادلين ، والجمع : باعتبار معنى « من » ، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب ، تمسكوا بمجرد التقليد البحت ، و ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدون من الأصنام ثم قال : على طريق الاستفهام للاستبعاد ، أى : يتبعونهم فى الشرك ، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ، وما أقبح التقليد وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عاقبته وأشأن عائذته على من وقع فيه .

١٢- ما نزل على محمد ﷺ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿ [محمد] .

هذه السورة مدنية في قول ابن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردي : في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة بأنهما قالوا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا عليه ؛ فنزل عليه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ﴾ [محمد : ١٣] . وقال الثعلبي : إنها مكية ؛ وحكاها ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبیر . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية .

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدي . وقال الضحاك : ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى : ﴿ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ .

وجعل الدائرة عليهم ؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم ؛ ومن صلة الأرحام وفك الأسارى ، وقرى الضيف ، وحفظ الجوار .

وقال ابن عباس : نزلت في المطعمين في بدر وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل والحرث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبى وأمية ابنا خلف ، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البختری بن هشام وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام والحرث بن عامر بن نوفل .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الآية . قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت

خاصة في ناس من قريش . وقيل : هما عامتان فيمن كفر وآمن . ومعنى ﴿ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق ، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضى الله تعالى : ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه في شيء . قاله سفيان الثوري . وقيل : صدقوا محمد ﷺ فيما جاء به ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم وقيل : أى أن القرآن هو الحق من ربهم نسخ به ما قبله .

﴿ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أى شأنهم عن مجاهد وغيره . وقال قتادة : حالهم . قال ابن عباس : أمورهم ، والثلاثة متقاربة ، وهي متأولة على إصلاح ما بينهم . وحكى النقاش : أن المعنى أصلح نياتهم^(١) . وهي مقارنة واضحة في هذه الآية وما بعدها بين من كفر فله عقابه وبين من آمن فله ثوابه . والأمر متعلق بما أنزل على محمد ﷺ من القرآن ، أو كل القرآن فهو الحق من ربهم .

١٣- إنزال السورة المحكمة

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۞ ﴾ [محمد] .

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى المؤمنون المخلصون ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوحى وحرصا على الجهاد وثوابه .

ومعنى ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة . وهى أشد القرآن على المنافقين . وفى قراءة عبد الله : (فإذا أنزلت سورة محدثة) أى محدثة النزول ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أى فرض فيها الجهاد . وقرئ ((فإذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال)) . على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى نظروا مغمومين مغتاظين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره عند الموت ، وذلك لجنبهم عن القتال جزعا وهلعا ، ولميلهم فى السر إلى الكفار .

قوله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ ﴾ قال الجوهري : وقولهم : أولى لك : تهديد ووعيد .

قال الشاعر:

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدر يحلب من مرد؟

قال الأصمعى : معناه قاربه ما يهلكه؛ أى نزل به . وأنشد :

فعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد فى أولى : أحسن مما قال الأصمعى .

وقال المبرد : يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت : أولى لك ؛ أى قارب العطب .
كما روى أن أعربيا كان يوالى رمى الصيد فيفلت منه فيقول : أولى لك ، ثم رمى
صيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال : فلو كان أولى يطعم القوم صدتهم
ولكن أولى يترك القوم جزعا .

وقيل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أى شىء فاتك ! وقال الجرجاني :
هو مأخوذ من الويل ، فهو أفعل ، ولكن فيه قلب ، وهو أن عين الفعل وقع موقع
اللام . وقد تم الكلام على قوله : ﴿ فَأُولَىٰ لَهُمْ ﴾ قال قتادة : كأنه قال العقاب أولى
لهم . وقيل : إن وليهم المكروه ، ثم قال : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أى طاعة وقول
معروف أمثل وأحسن ، وهو مذهب سيبويه والخليل .

وقيل : إن التقرير أمر طاعة وقول معروف بجذف المبتدأ فيوقف على ﴿ فَأُولَىٰ ﴾ كذا
من قدر يقولون منا طاعة ، وقيل : إن الآية الثانية متصلة بالأولى ، واللام فى قوله :
﴿ لَهُمْ ﴾ بمعنى الباء . أى : الطاعة أولى وأليق بهم ، وحق لهم من ترك امثال أمر الله ،
وهى قراءة أبى : ((يقولون طاعة)) .

وقيل : إن ﴿ طَاعَةٌ ﴾ نعت أى صفة لـ ﴿ سُورَةٌ ﴾ على تقدير : فإذا أنزلت سورة
ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على ﴿ فَأُولَىٰ لَهُمْ ﴾ . وقال ابن عباس : إن قولهم
﴿ طَاعَةٌ ﴾ إخبار من الله عز وجل من المنافقين ، والمعنى لهم طاعة وقول معروف .
قيل : وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها ، فيوقف
على هذا على ﴿ فَأُولَىٰ ﴾ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جد القتال ، أوجب
فرض القتال ، كرهوه ، فكرهوه جواب ((إذا)) وهو محذوف .

وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا ﴾ أى فى الإيمان والجهاد
﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة ^(١) .

١٤- تنزيل من رب العالمين

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة] .

أسباب نزول الآيات (٤٠-٣٨) :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ وقال مقاتل: سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمدا ساحر وقال أبو جهل: شاعر وقال عقبة: كاهن . فقال الله عز وجل: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أى أقسم .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أى القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أى لقول جبرائيل ومحمد عليهما السلام ، رسول كريم على الله ، يبلغه عن الله تعالى ، فإن الرسول لا يقول عن نفسه . والمراد به هنا النبي ﷺ فى قول الأكثرين ، وأما المراد به فى سورة التكويد فهو جبريل عليه السلام .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ أى أقسم لخلقى بما تشاهدون من المخلوقات الدالة على كمالى فى أسمائى وصفاتى ، وبما غاب عنكم من المغيبات ، أو أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر إن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة : وإنه لتلاوة رسول كريم ، وقول يبلغه رسول كريم ، مؤدى عن الله بطريق الرسالة . وإنما أضافه إلى الرسول على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن الرسل . وفى ذكر ((الرسول)) إشارة إلى أن هذا القرآن ليس قوله من تلقاء نفسه ، وإنما هو قوله المؤدى عن الله بطريق الرسالة . وفى وصفه بالكرم إشارة إلى أمانته ، وأنه ليس ممن يغير الرسالة طمعا فى أغراض الدنيا الخسيسة .

والأكثر من على أن الرسول الكريم هنا هو محمد ﷺ ؛ لأنه ذكر بعده أنه ليس

بقول شاعر ولا كاهن . والقوم ما كانوا يصفون جبرائيل بالشعر والكهانة وإنما يصفون محمدا ﷺ .

وأما في سورة التكوير فالأكثر على أنه جبريل عليه السلام ؛ لأن الأوصاف التي بعده تناسبه ، كما سيأتى ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾ [الحاقة] أى ليس القرآن بقول شاعر ، كما تزعمون : لأن محمدا ﷺ ليس بشاعر ، ولأن الآيات ، آيات القرآن ليست من أصناف الشعر وأنتم تؤمنون إيمانا قليلا وتصدقون تصديقا يسيرا ، والعلة على ظاهرها وهى إقرارهم إذا سئلوا : من خلقكم ؟ قالوا : الله ويحتمل أن يكون المتصف بالقلة هو الإيمان اللغوى ؛ لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغنى عنهم شيئا إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف ونحوه الذى كان يأمر به رسول الله ﷺ هو حق وصواب وإنما قال عند نفى الشعر عنه ﴿ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾ وعند نفى الكهانة ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالين المحسوس .

أما من حيث اللفظ فظاهر : لأن الشعر كلام موزون مقفى ، وألفاظ القرآن ليست كذلك إلا النادر غير المعتمد ، وأما من جهة التخیل فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق إذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند .

وانتفاء الكهانة عنه يحتاج إلى تأمل . فإن كلام الكهان أسجاع لا معانى لها ، وأوضاع تنبو عنها الطباع وأيضا فى القرآن سب الشيطان وذم سيرتهم ، والكهان إخوان الشياطين ، فكيف رضوا بإظهار قبائحهم ^(١) ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ [الأنعام] أى وليس القرآن بقول كاهن (وهو من يدعى الغيب فى المستقبل) كما تزعمون ، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين القرآن ، ولأن القرآن ورد بسبب الشياطين ، فلا يعقل أن يكون بإلهامهم ، ولكنكم تتذكرون تذكرا قليلا ، ولذلك يلبس الأمر عليكم . فلا تتذكرون كيفية نظم القرآن ، واشتماله على شتم الشياطين ، فقلتم: إنه كهانة ، ثم صرح تعالى بالمقصود فقال: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ

الْعَلَمِينَ ﴿١٧﴾ أي بل هو تنزيل من الله رب الإنس والجن ، نزل به جبريل الأمين على قلب رسوله محمد ﷺ ، وهو قول هذا الرسول بمعنى أنه مبلغ له عن المرسل ، وهو الذي أظهره للخلق ، ودعا الناس إلى الإيمان به وجعله حجة لنبوته .

روى الإمام أحمد عن شريح بن عبيد قال: قال عمر بن الخطاب: « خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن . قال: فقلت كاهن ، قال: فقرأ : ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٠﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٢١﴾ » إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع ، قال ابن كثير : فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ﷺ . ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٩﴾ » أي لو افترى محمد أو جبريل شيئاً من الأقوال الباطلة ، وجاء به من عند نفسه ، ونسبه إلى الله على سبيل الفرض ، لأخذناه بالقوة ، وعاجلناه بالعقوبة ، وانتقمنا منه ، أو لأخذنا بيمينه ، كما يؤخذ الشخص عند إرادة قتله ، فاليمين : القوة » .

كما قال الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٠﴾ » أي ثم بترنا الوتين من قلبه ، وهو عرق متصل من القلب بالرأس . إذا انقطع مات صاحبه ، وهذا تصوير لإهلاكه بأفطع وأشنع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ^(١) .

١- الوحي المنزل على رسول الله ﷺ

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ ﴾ [النساء] .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾

والمعنى: أن أمر محمد ﷺ كأمر من تقدمه من الأنبياء ، فما لكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسول ؟ والوحي : إعلام في خفاء ، يقال : وحي إليه بالكلام وحيا ، وأوحى يوحي إيجاء . وخص نوحا لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع ، وقيل: غير ذلك ، والكاف في قوله : ﴿ كَمَا ﴾ نعت مصدر محذوف . أى : إيجاء مثل إيجائنا إلى نوح ، أو حال ، أى : أوحينا إليك هذا الإيجاء حال كونه مشبها بإيجائنا إلى نوح .

قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ معطوف على ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ وهم أولاد يعقوب كما تقدم ﴿ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريعا لهم ، كقوله : ﴿ وَمَلَكْنَاهُ وَرُسُلَهُ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : ٩٨] وقدم عيسى على أيوب ، ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه ، ردا على اليهود الذين كفروا به . وأيضا قالوا وليست إلا لمطلق الجمع .

قوله: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ معطوف على أوحينا . والزبور : كتاب داود . قال القرطبي : وهو مائة وخمسون سورة ، ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام . وإنما هي حكم ومواعظ - انتهى - قلت ^(١) : هو مائة وخمسون مزمورا . والمزمور : فصل

يشتمل على كلام داود يستغيث بالله من خصومه ، ويدعو الله عليهم ويستنصره ، وتارة يأتي بمواعظ . وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة . ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئاً من الآلات ، التي لها نغمات حسنة . كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات .

والزبر: الكتابة ، والمزبور بمعنى المزمور وقال حمزة : زبوراً بضم الزاي كفلس وفلوس ، والزبر بمعنى المزبور ، والأصل في الكلمة التوثيق ، يقال : بثر مزبورة ، أى مطوية بالحجارة ، والكتاب سمي زبوراً : لقوة الوثيقة به . قوله : ﴿ وَرُسُلًا ﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ أى وأرسلنا رسلاً ﴿ قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقيل : هو منصوب بفعل دل عليه ﴿ قَصَصْنَاهُمْ ﴾ أى وقصصنا رسلاً ومثله ما أنشده سيبويه :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدى وأخشى الرياح والمطرا

أى : أخشى الذئب . وقرأ أبى : ﴿ وَرُسُلًا ﴾ بالرفع على تقدير : ومنهم رسل . ومعنى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة ، أو من قبل هذا اليوم قيل : إنه لما قص الله فى كتابه بعض أسماء أنبيائه ، ولم يذكر أسماء بعض . قالت اليهود : ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى . نزل : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] وقوله : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [النساء : ١٦٥] بدل من رسلا الأول ، أو منصوب بفعل مقدر ، أى : وأرسلنا ، أو على الحال بأن يكون رسلاً موطناً لما بعده ، أو على المدح : أى مبشرين لأهل الطاعات ومنذرين لأهل المعاصى . قوله : ﴿ لَعَلَّأ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] أى : معذرة يعتذرون بها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ [طه : ١٣٤] وسميت المعذرة حجة على أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة ، تنبيها على أن هذه المعذرة مقبولة لديه

تفضلا منه ورحمة . ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ بعد إرسال الرسل ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا﴾ لا يغالبه مغالب ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد : ﴿وَبَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ . قال : أنفسهم وغيرهم عن الحق .

وأخرج ابن إسحاق في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سلام وأسيد بن شعبة ، وثعلبة بن شعبة ، حين فارقوا اليهود وأسلموا .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل عنه أن بعض اليهود قال : يا محمد : ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن حبان في صحيحه ، والحكم ، وابن عساكر عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ^(١) : كم الأنبياء ؟ قال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا)) . قلت : كم الرسل فيهم ؟ قال : ((ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير)) .

وأخرج نحوه عن ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعا إلا أنه قال : ((والرسل ثلاثمائة وخمسة عشر)) ، وأخرج أبو يعلى والحاكم بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((كان فيمن خلا من إخواني الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثم كان عيسى ، ثم كنت أنا)) .

وأخرج الحاكم عن أنس بسند ضعيف نحوه .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا

(١) توسع ابن كثير في ((تفسير القرآن العظيم)) كثيرا في ذكر حديث أبي ذر : وتوجه إلى أن فيه

أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)) انتهى .

٢- اتباع الرسول ﷺ لما يوحى إليه

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢﴾ [الأنعام] .

يذكر صاحب الظلال في هاتين الآيتين وما تلاهما (١) من قضايا اختلاط المفاهيم التي تلبست الديانات السابقة واختلاط المفاهيم بين السحر والغيب والكهانة والنبوة مشوشة قائمة مظلمة في مفاهيم البشر حتى جاء الإسلام ليقدم النبي الإنسان ، والعلم الموحى إليه من ربه ، وليبطل الأباطيل ، ويزيل الغشاوة عن أبصار الناس قبل بصائرهم . يقول : هذه الموجة بقية في مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة ، وطبيعة الرسول ؛ بمناسبة طلبهم للخوارق بعدما عبثت بها جاهليات العرب وغيرهم من الأمم حولهم ؛ فابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة بالسحر والكهانة ، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضا !

وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب ، وأن يأتي بالخوارق ، وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر .

ثم جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته ، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل ، التي شاعت في الجاهليات كلها . وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم ، وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه .

وينتقل بعد ذلك لتوضيح صورة النبوة بتفسير هاتين الآيتين فيقول (٢) :

(١) في ظلال القرآن ٧ / ١٠٩٤ ؛ يحسن الرجوع إليها تفصيلا وقد نقلنا بعضها منها بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٧ / ١٠٩٧ .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ^(١) اللَّهِ ﴾ الآية .

إنه ﷺ يؤمر من ربه أن يقدم نفسه للناس - من قريش خاصة - بشرا مجردا من كل الأوهام التى سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة ، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء ؛ وكل ادعاء . إنها عقيدة يحملها رسول ، لا يملك إلا هداية الله تنير له الطريق .

ولا يتبع إلا وحى الله يعلمه ما لم يكن يعلم (القرآن الكريم) وأوامر الله تعالى له . إنه لا يقعد على خزائن الله ، ليغدق منها على من يتبعه ، ولا يملك مفاتيح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن . ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا ، إنما هو بشر رسول ، وإنما هى هذه العقيدة وحدها . فى صورتها الناصعة الواضحة البسيطة .

إنها العقيدة هتاف هذه الفطرة ، وقوام هذه الحياة ودليل الطريق إلى الآخرة وإلى الله ، فهى مستغنية بذاتها عن كل زخرف . من أرادها لذاتها فهو بها حقيق وهى عنده قيمة أكبر من كل قيمة . ومن أرادها سلعة فى سوق المنافع فهو لا يدرك طبيعتها . ولا يعرف قيمتها ، وهى لا تمنحه زادا ولا غناء .

لذلك كله يؤمر رسول الله ﷺ أن يقدمها للناس هكذا ، عاطلة عن كل زخرف ؛ لأنها غنية عن كل زخرف ، وليعرف من يفيؤون إلى ظلها أنهم لا يفيؤون إلى خزائن مال ولا إلى وجاهة دنيا ، ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى إنما يفيؤون إلى هداية الله وهى أكرم وأغنى ﴿ قُلْ ﴾ هى يستوى الأعمى والبصير ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثم إن اتباع الوحى وحده هداية وبصر والمتروك بغير هذا الهادى متروك أعمى . هذا ما تقرره هذه الآية فى وضوح وصراحة . فما شأن العقل البشرى فى هذا المجال ؟

سؤال جوابه فى التصور الإسلامى واضح بسيط . إن هذا العقل البشرى الذى

(١) خزائن جمع خزانة ، وهى اسم المكان الذى يخزن فيه الشيء بحيث لا تناله الأيدى . مجمع البيان

وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي وإدراك مدلولاته . وهذه وظيفته ، ثم هذه هي فرصته في النور والهداية . وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فأما حين يستقل هذا العقل البشرى بنفسه بعيدا عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف وسوء الرؤية ونقص الرؤية ، وسوء التقدير وسوء التدبير . ثم يقول ^(١) :

والذين يرون أن هذا العقل يغنى عن الوحي - حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر - إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله . فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشرى ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به ؛ لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل وأن الفطرة وحدها تنحرف ، وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي وهو النور والبصيرة

وترشد الآيات إلى :

١- إن الرسول ليس عنده خزائن الله ، ولا يملك التصرف في الكون ولا يستطيع إنزال ما اقترحوه من الآيات .

٢- إنه لا يعلم الغيب مثل بقية البشر .

٣- إنه لا يملك حساب المؤمنين وجزاءهم .

٤- لا يعمل إلا بالوحي ، أى لا يقطع أمرا إلا إذا كان فيه وحي ، وبهذا تمسك القائلون بأنه لم يكن للنبي ﷺ الاجتهاد . بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾ [النجم] . وقال نفاة القياس : وإذا كان لا يعمل إلا بالوحي فلا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه .

(١) في ظلال القرآن ٧ / ١٠٩٨ .

والصحيح لدى الأصوليين أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد والقياس على المنصوص ، والقياس أحد أدلة الشرع والأدلة السابقة مخصوصة بالقرآن بالرد على من زعم أن محمدا ﷺ يفتى القرآن من عند نفسه ولإثبات كون القرآن منزلا عليه بالوحى الإلهى ، ومهمة الرسول كغيره من الرسل الموصوفين بكونهم مبشرين ومنذرين ، هى الإنذار لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا ﴾ ^(١) .

٣- اتبع ما يوحى إليك

﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس]

الأمر للرسول ﷺ والخطاب له بإبلاغ الرسالة إلى الناس جميعا ، فبدأ الخطاب بالمفرد ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد .. ماذا يجب عليك أن تقول في أمر هنا واحد من مجمل الدعوة الإسلامية تأكيدا وتوثيقا لأن يتبع الناس الحق الذى جاءكم به محمد ﷺ ، وورد أن ﴿ الْحَقُّ ﴾ هنا هو القرآن الكريم أى أيها الناس المبلغون اتبعوا ما جاء فى هذا القرآن الذى هو الكتاب الخاتم نزل على النبي الخاتم فى وقت بلغت الإنسانية حالة من الإدراك والوعى والفهم ما يمكنها أن تحمل هذه الرسالة الممثلة بهذا القرآن الخالد الذى تكفل الله تعالى بحفظه .

ولذلك فإن الله تعالى أمر النبي أن يخاطب الناس جميعا بأنه قد جاءكم الحق ولعل الذين أُنذروا بهذا القرآن من أهل الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم ، فهم عرفوا ذلك على لسان أنبيائهم الذين بشروا بالرسول ﷺ وبشروا بهذا الحق الذى يجدونه عندهم فى كتبهم وأسفارهم وصحفهم التى أنزلها الله على أنبيائهم ولذلك فإن بعض المفسرين قال : إن الخطاب لأهل الكتاب خصوصا وللناس عامة حيث إن عرب الجزيرة الذين جاءهم الحق وهم قد انحرفوا عن ديانة إبراهيم ﷺ وإسماعيل إلى عبادة الأوثان يعلمون ممن جاورهم من أهل الكتاب ، ويعلمون بشارة إبراهيم ﷺ بأنه سيكون منهم النبي الخاتم وبذلك فإن البلاغ فى هذه الآية سواء أكان للعموم من الناس أو للخصوص من أهل الكتاب فإن مهمة محمد ﷺ أن يبلغهم بأن الزمان الذى عشتم لتروه ، وحدثتم كل من سألكم لماذا جئتم إلى يثرب ، إلى جزيرة العرب .. أجبتهم : لقد أطل زمان نبي ستكون يثرب مهاجرة سنؤمن به

ونقتلكم - قتل عاد وإرم . فلما جاءهم الحق من ربهم هذا الذى عاشوا ليروه ، كفروا به وصدوا عن سبيل الله ، ثم يعود الخطاب ثانية للرسول ﷺ ليعلمه بأن عليك الإنذار وعلى الله تعالى الهداية ﴿ فَمَنْ آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ ولا تحزن يا محمد على النتائج التى ستحصل عليها من إنذارك وإعلامك هؤلاء القوم فمن آمن معك فقد آمن لنفسه ، ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى عاقبة الصد والهجران والكفر بما أنزل الله عليك إنما نتائجه يتلقاها الذين ضلوا عن هذا السبيل ، وهم يعلمون عاقبة ضلالهم ويعرضون مصيرهم إلى النار .

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ورأى لا تحزن ولا تأس على القوم الكافرين فأنت عليك البلاغ فقط ومن ثم فأنت لست عليهم بوكيل ؛ وإنما أمرهم إلى الله ؛ والله الموكل بعباده وبخلقه ، وبكل ما أبدع وأوجد .

ورد فى الأثر فى قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ الآية . أن إبراهيم عليه السلام أمر بالآذان بالحج بعد أن أتم بناء الكعبة مع ابنه إسماعيل فأمره الله تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج أى يدعوهم إلى هذه الفريضة . فقال إبراهيم : رب وأين يصل صوتى .. ؟

قال : يا إبراهيم عليك النداء ، وعلى الإجابة وعزتى وجلالى سأجعلها فى ظهور آبائهم وأرحام أمهاتهم حتى يوم الدين .. وهذا هو الحجيج يزداد يوما بعد يوم وعاما بعد عام ملين هذا النداء ، الخالد ((ليك اللهم ليك .. ليك لا شريك لك ليك ، إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك)) .

وهكذا جاء الأمر لمحمد ﷺ بالإبلاغ والله يتولى هداهم فهو عليهم الوكيل ، قلها يا محمد ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ وأنت عليك يا محمد أن تتبع ما يوحى إليك من ربك من هذا القرآن ، واتباعك يوصلك إلى الصد والهجران ، والكفر بما بلغت ، ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ﴾ وإذا فعليك الصبر حتى يحكم الله تعالى في أمر هؤلاء سواء المحبين أو الصادين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فلا حاكم رلا ظان بنفسه أى خير أو قوة أو سلطان فالله خير الحاكمين ، ولا راد لحكمه جل وعلا .

إن هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ ودرسا للدعاة إلى الله عز وجل في كل الأزمان والأماكن فعليهم الواجبات التالية:

١- الإبلاغ للناس جميعا وعلى مختلف انتماءاتهم ومشاربيهم ومعتقداتهم . فقد جاء آخرها لكل الرسالات وآخر الأنبياء .

٢- تقديم ما بين أيديهم في هذه الدعوة القرآن الكريم ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو خير ما يريد إليه الناس فهو الفيصل المعجز أبد الدهر .

٣- ليس على الدعاة تحصيل النتائج التي يريدونها وهذا أمر منوط بالله جل وعلا دون سواء ، وإنما على الدعاة الصبر والثبات حتى يحكم الله - تعالى - بأمره فهو الموكل بهذا الأمر .

٤- على الدعاة الثبات على المبدأ ، وعدم التحول واليأس والقنوط من النتائج التي يتحصلون عليها ، فالله هو الذى يحكم بينهم وهو خير الحاكمين .

٤- الإنذار بالوحي

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء] .

جاءت هذه الآية استكمالاً ومتابعة لموقف الكفار من دعوة الإسلام ، وبأنهم هم الأعلون في الأرض الفائزون والمنصورون على المسلمين . ونسوا أن الموت الذى سيلاقوه فى ختام أعمارهم ، ثم المال الذى سيؤولون إليه من العذاب والنار والمساءلة عن أعمالهم ، ونسوا أن الله تعالى قد متعهم فى هذه الدنيا بقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء] .

يقول تعالى : مخبراً عن المشركين إنما غرهم وحلهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا فى الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شىء ، ثم قال واعظاً لهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف المفسرون فى معناه - وقد أسلفنا ^(١) فى سورة الرعد . وأحسن ما فسر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف] . وقال الحسن البصرى : يعنى بظهور الإسلام على الكفر والمعنى : أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة ، والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين . ولهذا قال : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء] يعنى بل هم المقلبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ؛ ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلى - فى كتابه الكريم القرآن العظيم الذى بين بوضوح فى هذا القرآن مصير الكافرين ، وآيات الإنذار التى أوحى الله تعالى بها إليه ليلبغهم مصيرهم إن هم استمروا الشك والكفر وأصروا

عليه ، وأقاموا أمرهم على أن عذاب الله لن ينالهم ، ولن يطاھم .. طالما أنه لم يلحق بهم ما يكرهون فوجدوا في معاندتهم راحة واطمئنان - ولكن لا يجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ ^(١) .

هذه السورة للاستكبار واستصغار ما أنذروا به مما أوحى إلى رسول الله ﷺ . أكد الله تعالى بها أن هؤلاء قد أعمى الله أبصارهم ، وأن غشاوة من الضلال قد غطت أبصارهم ، وأمام هذا الموقف حجمت النفس الشريرة هؤلاء على أن يستجيبوا للداعي ، ويستجيبوا لما بلغهم من هداية ووحى يسمعون ويصمون آذانهم عنه ، وأعماهم عما يرون آماهم من خواتيم الظالمين مهما تناولوا في ظلمهم ، وغطت تلك النفوس المشاعر كلها على أن تستجيب لدعاة الله - عز وجل - الذين وعوا الوحى وفهموه ، وآمنوا به وصدقوه واستيقنوا صدقه واستوعبوه ، أولئك على هدى من ربهم ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد] .

٥- أمر الله جل وعلا لرسوله ﷺ باتباع ما يوحى إليه

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾ [الأحزاب : ١-٣] .

فى مجمل الصراع المحتوم بين الإيمان والكفر ، تتفق المواقف أحيانا وتختلف أحيانا أكثر ، ولكنها جميعا يتحسس بها الكافرون عن مداخل يدخلون بها على المؤمنين عموما ، وعلى النبي المرسل إليهم ﷺ خصوصا ، الموقف هنا يتجلى بأن الكفار فى قريش لما استئسوا من ذكر النبي ﷺ لآلهتهم بخير ، رضوا منه أن يقبل الأصنام - يمكن أن يكونوا شفعاء عند الله - فإن محتوى عقيدتهم تتركز كما قال تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] . وهنا يأمر الله تعالى نبيه بقوله :

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ آتَى اللَّهِ﴾ ^(١) أى : دم على ذلك ، وازدد منه ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ، ومن هو على مثل كفرهم ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أى الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

قال الواحدى : إنه أراد سبحانه بالكافرين : أبا سفيان ، وعكرمة ، وأبا الأعور السلمى ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ : ارفض ذكر آلهتنا ، وقل : إنا لها شفاعة لمن عبدها .

قال : والمنافقون : عبد الله بن أبى وعبد الله بن سعد بن أبى سرح .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى : كثير العلم والحكمة بليغهم .

قال النحاس : ودل بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على أنه كان يعيل إليهم ، يعنى النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الإسلام .

والمعنى : أنه لا يأمرك أو ينهك إلا بما علم فيه صلاحاً ، أو فساداً لكثرة علمه وسعة حكمته ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن وما أنزل إليك منه . أى اتبع الوحي فى كل أمورك ، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين ، ولا من رأى البحت ، فإن فيما أوحى إليك ما يغنيك عن ذلك ، وجملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحى إليك ، والأمر له ﷺ أمر لأمرته ، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه ، ولهذا جاء بخطابه ، وخطابهم فى قوله ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ أبو عمرو السلمي وابن إسحاق بالتحية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى : اعتمد عليه وفوض أمورك التى هى من الوحي الذى أمر الله باتباعه ، انتهى .

هذا درس للدعاة فى كل زمان ومكان.. إن الله تعالى قد أنزل القرآن فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فلا يجادل رجل الكافرين والمنافقين على اتباع مقترحات منهم تخرج المسلم عن صلب العقيدة ، والتوحيد ، والولاء لغير المؤمنين حتى لا يخدع المسلم بما يقدمه هؤلاء الذين لم ينته أمرهم بحياة الرسول لم ينتهوا بدخول قريش الإسلام ، وزوال المنافقين فى المدينة ، إنه استمرار دائماً ، وصراع مستمر بين الإيمان والكفر وصنوه النفاق وليتق المؤمنون ربهم - وقالها الله تعالى لرسوله - اتقوا الله فى فهم وتمثل هذا الدين فى كل زمان ومكان .

٦ ، ٧ ، ٨ - وحى الله إلى محمد ﷺ ومن سبقه من الأنبياء

٦ - ﴿ حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿ الشورى ﴾ .

٧ - ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ تَجَبَّتْ إِلَيْهِ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى] .

٨ - ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى] .

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ؛ حتى ليصح أن يقال : إنها المحور الرئيسى الذى ترتبط به السورة كلها ، وتأتى سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع فى الحديث عن حقيقة الوحداية وتعرضها من جوانب متعددة ، كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها . ويأتى ذكر الآخرة ومشاهدها فى مواضع متعددة منها ، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التى يمتازون بها ، كما تلسم بقضية الرزق ، بسطه وقبضه ، وصفات الإنسان فى السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة ، وما يتصل بها تظل - مع ذلك - هى الحقيقة البارزة فى محيط السورة والتى تطبعها وتظللها ، وكأن سائر الموضوعات الأخرى

مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها ويسير سياق السورة فى عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة ، فهى تعرض من جوانب متعددة يفترق بعضها عن بعض يبضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق أو وحدانية الرازق ، أو وحدانية المتصرف فى القلوب أو وحدانية المتصرف فى المصير ، ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحى - سبحانه - ووحدة الوحي ، ووحدة العقيدة ، ووحدة المنهج والطريق ، وأخيرا وحدة القيادة البشرية فى ظل العقيدة .

٦ - ﴿ حَمْرٌ ۝ عَسَقٌ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۝ ﴾ الآية . سبق الحديث عن الأحرف المقطعة (النورانية) فى أوائل السور ، وهى تذكر هنا فى مطلع السورة ويليهما قول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۝ ﴾ الآية .

أى مثل ذلك وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحي إليك ، وإلى الذين من قبلك فهى كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف التى يعرفها الناس ، ويفهمونها ، ويدركون معانيها ، ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحي ، بوحدة مصدره فالموحي هو الله العزيز الحكيم ، والموحي إليهم هم الرسل على مدار الزمان ، والوحي واحد فى جوهره ، على اختلاف الرسل واختلاف الزمان ﴿ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة فى أطواء الزمان ، وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات ، ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة - على هذا النحو - حين تستقر فى ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه ، وتشدهم إلى مصدر هذا الوحي ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحي فى كل زمان ومكان . فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ ، وتمتد جذورها فى

شعاب الزمن ، وتتصل كلها بالله فى النهاية ، فيلتقون جميعا . وهو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ القوى القادر ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى يوحى لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير ، فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهى الواحد ، الثابت إلى السبل المتفرقة التى لا تؤدى إلى الله ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

ويستطرد فى صفة الله الذى يوحى وحده إلى الرسل جميعا ، فيقرر أنه المالك الوحيد لما فى السماوات وما فى الأرض ، وأنه وحده العلى العظيم ^(١) .

٧- ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى] .

لقد جاء فى مطلع السورة ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فكانت هذه إشارة إجمالية لوحدة المصدر ، ووحدة المنهج ، ووحدة الاتجاه ، فالآن يفصل هذه الإشارة ، ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو - فى عمومه - ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى - وهؤلاء مع نبينا محمد ﷺ أولى العزم من الرسل ، وهذا ما يفيد مهمة هؤلاء عليهم السلام - وهو أن يقيموا دين الله الواحد، ولا يتفرقوا فيه ، ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهى القويم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض حجة الذين يحاجون فى الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد .

ويبدو من التماسك والتناسق فى هذه الفقرة كالذى بدا فى سابقتها بشكل ملحوظ .

وبذلك يقرر الحقيقة التى فصلناها فى مطلع السورة ، حقيقة الأصل الواحد

والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن ، وهو ينظر إلى سلفه فى الطريق الممتدة من بعيد فإذا هم على التابع هؤلاء الكرام : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد - صلوات الله وسلام عليهم أجمعين - ويستشعر أنه امتداد هؤلاء الكرام ، وأنه على دربهم يسير .

ثم إنه سيستروح السير فى الطريق ، مهما يجد فيه من شرك ونصب ، وحرمان من أعراض كثيرة ، وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله . الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد ، السائرين على شرعه الثابت ، وانتفاء الخلاف والشقاق والشعور بالقربى الوثيقة ، والتى تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضى ، والماضى بالحاضر والسير جملة فى الطريق .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . فلم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى مع أتباع محمد ؟! وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ، ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ فيقيمون الدين ، ويقومون بتكاليفه ، ولا ينحرفون عنه ولا يلحقون به ويقفون تحت رايته صفا ، وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى صلوات الله عليهم ، حتى انتهت إلى محمد ﷺ فى العهد الأخير .

﴿ اللَّهُ تَجَتَّى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ . وقد اجتبى ﷺ للرسالة وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويتوب^(١) .

٨- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾

﴿وَإِنَّا لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى] .

وفى ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التى تدور عليها السورة حقيقة الوحي والرسالة ، يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ، وفى آية صورة يكون ، ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الأخير ﷺ لغاية يريد بها الله سبحانه ، ليهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : ((من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية)) متفق عليه . إنما يتم كلام الله للبشر بواحد من ثلاث :

١- ﴿وَحْيًا﴾ يلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله .

٢- ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم الله موسى ﷺ وحين طلب الرؤيا لم يجب عليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل ﴿وَحَرَ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

٣- ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو الملك ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، بالطرق التى وردت عن رسول الله ﷺ

أ - الأولى: ما كان يلقى به الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : ((إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)) .

ب - الثانية: أنه كان ﷺ تميل له الملك رجلا ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول

ج - والثالثة: أنه كان يأتية فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشد عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض ، إن كان راكبا . ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد ابن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

د - والرابعة: أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء أن

يوحيه . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم ^(١)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية . وكذلك بمثل هذه الطريقة وبمثل هذا الاتصال ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ فيه حياة ، يبت الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفي الواقع العملي المشهود. ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ ﴾ هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها. قبل أن تتلقى هذا الوحي . وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفا في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة ، فليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود هو اشتغال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها في الضمير . وهذا لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي لا بس قلب محمد ﷺ .

﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ ﴾ وهذه طبيعته الخالصة ، طبيعة هذا الوحي . هذا الروح ، هذا الكتاب - القرآن الكريم إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء لها الله أن تهتدي به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها ^(٢) .

(١) عن زاد المعاد للإمام شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية . راجع : في ظلال القرآن ٢٥ /

٣١٧٠ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ٢٥ / ٣١٧١ .

٩- إن هو إلا وحي يوحى

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ
أَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ
﴿١٠﴾﴾ [النجم] .

تسميتها: سميت سورة النجم ؛ لأن الله تعالى افتتحها بالقسم بالنجم ، وأل للجنس . أى بنجوم السماء وقت سقوطها وغروبها ؛ لأن النجم إذا كان فى وسط السماء لم يهتد به السارى ؛ لأنه لا يعلم المغرب من المشرق ، والجنوب والشمال ، فإذا مال فى الأفق عرف به هذه الجهات ، والميل إلى أفق المغرب أولى بالذكر ؛ لأن الناظر إليه يستدل بغروبه على الجهة .

افتتحت السورة بإثبات ظاهرة الوحي بوساطة جبريل عليه السلام والكلام عن ((المعراج)) وقرب النبي ﷺ من ربه ، ورؤيته عجائب ملكوت الله تعالى ، ومشاهدته جبريل على صورته الحقيقية الملكية مرتين ^(١) .

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ أَيُّ أَقْسَمَ بالنجم ، أى بالنجوم عندما تميل للغروب ؛ إذ بالميل إلى الأفق تعرف الجهات ، ما عدل محمد عن طريق الهداية والحق ، وما صار غاويا متكلمًا بالباطل ، وقيل : النجم : الثريا إذا سقطت مع الفجر ، روى ابن أبى حاتم عن الشعبي وغيره قال : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق .

وقد عرض الرازى مقارنة فى القسم به والمقسم عليه بين هذه السورة والسور المتقدمة ، فذكر أن السور التى تقدمت وهى : الصافات والذاريات والطور وهذه السور كان القسم فيها بالأسماء دون الحروف ، أقسم الله فى الأولى لإثبات

الوحدانية ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [الصفات] وفي الثانية لإثبات الحشر والجزاء ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات] وفي الثالثة نبوة محمد ﷺ ، فاكتملت الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والحشر ، والنبوة ^(١) .

ويلاحظ أن القسم على الوحدانية والنبوة قليل في القرآن ، والقسم على إثبات البعث كثير ، كما في سورة الذاريات والطور والليل والشمس والبروج وغير ذلك ؛ لأن دلائل الوحدانية كثيرة وكلها عقلية كما قيل : وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

ولأهمية النجوم أقسم الله بها على أن محمدا ﷺ ليس بضال تائه عن الحق ، ولا غاو يعدل عن الحق ، وسبب رشده وعدم ضلاله وغوايته ما قال تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض . وما ينطق بالقرآن من هواه الشخصي ، إنما ينطق بوحى من الله أوحاه إليه ، ويبلغ ما أمر به كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه . فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب . فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » .

وأخرج الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا أقول إلا حقاً » ، قال بعض أصحابه ، فإنك تداعبنا يا رسول الله . قال : « إنني لا أقول إلا حقاً » .

ثم أخبر الله تعالى عن معلم رسول الله ﷺ وهو جبريل عليه السلام فقال : ﴿ شَهِدَ الْقَوْمُ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ مِّنْهُ ﴾ أي علم القرآن النبي

جبريل والذي هو شديد قواه العلمية والعملية . وهو ذو قوة وشدة في الخلق ، وذو حصافة في العقل ، ومثانة في الرأي وقد استقام جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ، حين أحب النبي ﷺ رؤيته كذلك ، فظهر له في الأفق الأعلى أى في الجهة العليا من السماء ، وهو أفق الشمس ، فسد الأفق عندما جاء بالوحي إلى النبي ﷺ أول ما جاءه بالوحي .

ونظير الآيات عن جبريل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١١﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٢﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴿١٤﴾ [التكوين] .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿١٥﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١٦﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٧﴾ ﴾ أى استوى واعتدل جبريل بالأفق الأعلى أولا ، ثم قرب من الأرض ، وازداد في القرب والتزول ، حتى نزل على النبي ﷺ ، فكان مقدار ما بين جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحاه من القرآن في تلك المنزلة من شؤون الدين ، وقيل : أوحى الله إلى محمد ﷺ ما أوحى ، وفيه تفخيم لشأن الوحي .

وهذا كان ورسول الله ﷺ في الأرض ، لا ليلة الإسراء ، ولهذا قال الله تعالى بعده : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٨﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٩﴾ ﴾ روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود ، قال في هذه الآية ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٢٠﴾ ﴾ قال رسول الله ﷺ : رأيت جبريل له ستمائة جناح .

وأخيرا : القرآن الكريم ليس كلاما للرسول ﷺ ، وإنما هو وحي صادر من الله ﷻ . قد يحتج بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٢١﴾ ﴾ من لا يجوز لرسول الله ﷺ الاجتهاد في الحوادث ، وهذا خطأ ؛ لأن المراد بالآية إثبات كون القرآن وحيا من عند الله . والقرآن ذاته أمره بالاجتهاد . وقد اجتهد ﷺ في الحروب فيما لم يحرمه الله . وأذن لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعاتبه ربه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٣] ^(١) .

فصل النور

١- النور الذى أنزل مع الرسول ﷺ

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَتَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ الْخَبِيثَاتُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف] .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ وهو محمد ﷺ ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل والأُمى : إما نسبة إلى الأمة الأمية التى لا تكتب ولا تحسب وهم العرب ، أو نسبة إلى الأم ، والمعنى أنه باق على حالته التى ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ! وقيل نسبة إلى أم القرى ، وهى مكة .

﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ ﴾ يعنى اليهود والنصارى أى : يجدون نعته ﴿ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ ﴾ فى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿ وهما مرجعهما فى الدين ، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون ، ثم وصف هذا النبي الذى يجدونه كذلك بأنه ﴾ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، أى : بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق .

﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أى : ما تنكره القلوب ولا تعرفه ، وهو ما كان من مساوىء الأخلاق ، قيل : إن قوله : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها ذكر معناه الزجاج ، وقيل : هو فى محل نصب على الحال من النبي ﷺ ، وقيل : هو مفسر لقوله ﴿ مَكْتُوبًا ﴾ .

قوله : ﴿ وَتَحَرَّمَ لَهُمُ الْخَبِيثَاتُ ﴾ أى : المستلذات ، وقيل : يحل لهم ما حرم عليهم

من الأشياء التي حرمت عليهم بسبب ذنوبهم ﴿ وَنُحِرْمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ ﴾ أى :
المستخبثات كالحشرات والخنازير . ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الإصر : الثقل ، أى :
يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة . وقد تقدم بيانه فى سورة البقرة : ﴿ وَالْأَغْلَلِ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم ، الأغلال
مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها .

﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ ﴾ أى بمحمد ﷺ ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ فيما جاء به من الشرع
﴿ وَعَزَّوْهُ ﴾ أى عظموه ووقروه ، قاله الأخفش . وقيل : معناه منعه من عدوه ،
وأصل العزر : المنع ، وقرأ الجحدري ﴿ وَعَزَّوْهُ ﴾ بالتخفيف . ﴿ وَنَصْرُوهُ ﴾ أى :
قاموا بنصره على من يعاديه . ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ أى القرآن الذى
أنزل عليه مع نبوته ؛ وقيل المعنى : واتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه .
والإشارة بـ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إلى المنصفين بهذه الأوصاف ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
والفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم ^(١)

والإشارة واضحة بذكر النور لمعنى القرآن الكريم ، ذلك النور الذى ينير
أبصارهم وبصائرهم ، وينير قلوبهم ودروبهم ، هذا النور «القرآن» الذى يخرجهم
من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى ، وقد شبه أو ذكر بصفة النور لعلو منزلته
ومكانته وإشفاعه الذى يقابل نور الشمس أو نور القمر ، أو أى نور عظيم يزيل
الظلام العميم . أورد ابن كثير ^(٢) فى معنى هذه الآية ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ وهذه صفة محمد
ﷺ فى كتب الأنبياء بشروا أمهم ببعثه وأمرهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى
كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم .

(١) فتح القدير ٩ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩ / ٢٦٢ .

كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني عن رجل من الأعراب ، قال : جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي ، قلت : لألقين هذا الرجل فلاأسمعن منه ، قال فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم ، حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجل الفتيان وأحسنها . فقال رسول الله ﷺ : ((أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟)) فقال برأسة هكذا ... أي : لا .. فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : ((أقيموا اليهودى عن أخيكم)) ثم تولى كفنه والصلاة عليه ، هذا حديث جيد قوى له شاهد في الصحيح عن أنس .

٢- الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزل الله

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن] .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية . هذه آية ثالثة أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد .

الأولى منها : قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس] .

والثانية منها : قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبا] .

والثالثة منها : قوله سبحانه : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس] .

إن أسباب تعذيب الكفار: هي كفرهم بالله وجحودهم بآياته ، وتكذيب رسلهم الذين أرسلوا إليهم بالمعجزات والدلائل الواضحة ، وإنكارهم البعث والحساب والجزاء .

وكان كفرهم برسلهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول من البشر ، واستصغروه ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده ، كما لم يعلموا أن الله تعالى مستغن بسلطانه عن طاعة عباده .

أمر الله تعالى نبيه بأن يقسم بربه للمشركين على أن البعث حق كائن لا محالة فلا بد من أن يخرجوا من قبورهم أحياء ، وعلى أنهم سيخبرون بما عملوا ، وأن البعث والجزاء يسير على الله إذ الإعادة أسهل من الابتداء . وبعد بيان أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ، والرد على منكرى البعث ، وإيضاح ما نزل من العقوبة بالأمم الماضية ، لكفرهم بالله وتكذيب الرسل طالب الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله ، وبأى القرآن وبالبعث ، علما بأن الاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان ، ثم حذر من الحساب والجزاء فى الآخرة ، وأبان مظاهر التغاين فيه ، وفصله تفصيلا تاما .

﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن]
 أى : إذا كان أمر البعث هينا يسيرا على الله لا يصرفه صارف ، فصدقوا بالله ورسوله محمد ﷺ وكتابه المنير الهادى إلى السعادة ، والمنقذ من ظلمة الضلالة ، فهو نور يهتدى به إذا أشكلت الأمور ، والله عالم بكل شىء ، لا يخفى عليه شىء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك خيرا أو شرا . وفى هذا وعيد على كل ما يؤتى من المعاصى ، أو يترك من الفرائض والواجبات . ووصف القرآن بأن نور : لأنه يهتدى به من الشبهات ، كما يهتدى بالنور فى الظلمات .

فبعد الإخبار بقيام الساعة ، أمر الله عباده بالإيمان به ورسوله محمد ﷺ وبالقرآن المنزل عليه الذى استخدم من صفات القرآن ((النور)) ، لئلا ينزل بهم من العقوبة ما نزل بالأمم الخالية لكفرهم بالله وتكذيب الرسل . وأكد تعالى الأمر بقوله :
 ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١)

٣- ولكن جعلناه نورا

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ^٦ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ ^٧ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^٩ أَلَا
إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [الشورى] .

ورد شرح هاتين الآيتين في فصل الوحي الذي اشتمل على الأقسام (٦ ، ٧ ،
٨) ، وكانت هاتان الآيتان شرحتا تحت رقم (٨) ويحسن الرجوع إلى ذلك الشرح .

فصل الهدى

١- الهدى الواجب الاتباع

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٨] قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾

[البقرة .]

جاءت هذه الآية [٣٨] وما قبلها وما بعدها فى سياق الحديث عن بدء الخليقة وخلق آدم عليه السلام من تراب الأرض ويعيش فى الأرض وإقرار الله تعالى أنه جاعل فى الأرض خليفة ثم إسكان آدم فى الجنة مؤقتا بعد سجود الملائكة له ورفض إبليس السجود ، ثم إخراج آدم وحواء من الجنة وهبوطهم إلى الأرض ، وتقدير النبوات والكتب والدعاة والخير والشر ... إلخ وإنهاء هذه الحياة فى هذا الكوكب .

بعد المعركة التى كانت بين آدم وإبليس فى مكان يعلمه الله - وذكر أنه جنة - ومحاولات إبليس المتكررة لغواية آدم وإخراجه من طاعة الله تعالى والإقدام على مخالفة أمره ، ونجاح إبليس فى غواية آدم وأكله مع زوجته حواء من الشجرة التى حرمها الله تعالى عليهم ، واستيقاظ ضمير آدم وتوبته وقبول الله هذه التوبة .

انتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل ، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تعثرت ، وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار .

وبعد ، فلا بد من العودة إلى مطالع القصة ، قصة البشرية الأولى :

لقد قال الله تعالى للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] وإذا آدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى : ففيم إذا كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيما إذا كان بلاء آدم ؟ وفيما إذا كان الهبوط إلى الأرض ، وهو مخلوق لهذه

الأرض منذ اللحظة الأولى؟ .

على الملح - كما يقول المؤلف^(١) - أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعدادا له كانت إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه . وتدريباً له على تلقى الغواية ، وتجبرع الندامة . وتذوق العقاب ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة . ونسيان العهد بالمعصية والصحوة بعد السكر ، وطلب المغفرة ! .. إنها هى تجربة البشرية المتكررة أو المكررة .

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته ؛ مزوداً بهذه التجربة التى ستعرض لمثلها طويلاً استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً .

وبعد.. مرة أخرى .. فأين كان هذا الذى كان ؟ وما الجنة التى عاش فيها آدم وزوجته حيناً من الزمن ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ وكيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟

هذا وأمثاله فى القرآن الكريم غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر من معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به ، والأداة التى وهبهم إياها لخلافة الأرض ، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب وبقدر ما سخر الله للإنسان من النواميس الكونية ، وعرفه بأسرارها ، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب ، فيما لا جدوى له فى معرفته .

وما يزال الإنسان مثلاً على الرغم من كل ما فتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلاً مطلقاً ، ولا يملك بأى أداة من الأدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة ، وهل النفس الذى خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر لأنه لا يدخل فى مقتضيات الخلافة ، بل ربي كان مقوماً لها لو كشف للإنسان عنه! وهنالك

ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، ومن ثم لم يعد للعقل البشرى أن يخوض فيه ؛ لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره وكل جهد بذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع ، ذاهب سوى ، بلا ثمرة ولا جدوى ، إن من قدر الله تعالى الذي خلق الإنسان من تربة الأرض ، وقدر في علمه أن يكون هذا المخلوق خليفة له فيها فلا بد من التذكير بما قدر الله تعالى الذي قبل توبة آدم وقرر أن يهبط الجميع ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ والحديث عن جماعة ظاهرا آدم وحواء .. وإبليس .. إذا فقد حرم إبليس من دخول الجنة وأغوى آدم .. لكنه الآن سيهبط مع آدم وحواء إلى الأرض ليعيشا معا مخلوق من نار - لا يرى إلا إذا تمثل - ومخلوق من تراب لا يحجبه عن العين إلا المخبأ .

وهنا بين الله جل جلاله لهؤلاء من سلالة آدم الإنس ومن أتباع إبليس الجن أن الله سيكون معهم ويأتيهم من لدنه هدى .. والهدى هو إرادة الله تعالى من خلقه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] فالهدى هو العبادة ﴿ فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة] ، والهدى سيكون يرسل وأنبياء ، وكتب وصحف ، ووحى وتذكير فمن تبع هدى الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وجمع الرسائل والنبوات بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وبكتاب الله (القرآن الكريم) المحفوظ من الله والبعيد عن تأثير البشر وتحريفهم وزياداتهم ونقصانهم . فهؤلاء الذين سيتبعون الهدى وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما الآخرون من الكفار فهم أصحاب النار هم فيها خالدون .

٢- هدى الله

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۚ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ ۚ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ ﴾ [البقرة] .

هذا إقرار من الله جل جلاله ، خالق الناس ، ومرسل الرسل ومنزل الكتب ، والعليم الخبير بتطوراتهم وأحوالهم والهادى إلى الخير ، والذي يعلم السر وأخفى وكيف وصل به حال الدنيا والناس يوم أن بعث محمداً ﷺ وأنزل معه الكتاب ليكون هاديا وبشيرا ونذيرا ، ويعلم أن البشرية فى وقت بعث محمد كم هى بحاجة إلى الخروج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى وهديه ، والله جل جلاله الذى أعطى محمدا الرسالة والفرقان ؛ ليكون المسلمون شهداء على الناس ، ويكون الرسول ﷺ عليهم شهيدا .

وأخير محمداً أن معركة عقائدية ومعركة حسية ، ومعركة اجتماعية وخلقية ستقوم بين محمد وأتباعه ﷺ وبين اليهود والنصارى والمشركين والكافرين من البشر . والآيات السابقة تحديدا للعلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب مستقبلا وإقرارا واضحا بموقف هؤلاء الذين انحرفوا عن عقيدة التوحيد وهدى الله تعالى إلى الشرك والضلال ، وماذا سيكون موقفهم من دعوة الإسلام التى ستحكى عن أصول دعوتهم وأسماء رسلهم وأنبيائهم ومواقفهم من الرسل والأنبياء ، وتكشف انحرافهم وزيفهم عن الطريق الذى رسمه الله تعالى لهم على لسان أنبيائهم ، إنها ومدة صميم الهدى الذى أراده الله تعالى - كما سبق فى البحث السابق - ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

إنها معركة العقيدة ، إنها ليست معركة الأرض ، ولا الغلة ، ولا المراكز

العسكرية ، ولا هذه الرايات المزيفة كلها ، إنهم يزيفونها علينا لغرض فى نفوسهم دفين ، ليخدعون عن حقيقة المعركة وطبيعتها ، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا - ونحن نبعد عن توجيه الله تعالى لنبىه ﷺ ولأمته وهو - سبحانه - أصدق القائلين:

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] ، فذلك

هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه ، وما سواه فمرفوض ومردود !

ولكن الأمر الحازم ، والتوجيه الصادق ﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ ﴾ على سبيل القصر والحصر . هدى الله هو الهدى ، وما عداه ليس بهدى . فلا براح منه ، ولا فكاك منه ولا محاولة فيه ، ولا ترضية على حسابه ولا مساومة فى شىء منه قليل أو كثير . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وحادار أن تميل بك الرغبة فى هدايتهم وإيمانهم ، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة] بهذا التهديد المفزع ، وبهذا القطع الجازم ، وبهذا الوعيد الرعب . ولمن؟ لنبى الله ورسوله وحبيه الكريم ! إنها الأهواء .. إن أنت ملت عن الهوى .. هدى الله الذى لا هدى سواه . وهى الأهواء التى تقفهم منك هذا الموقف وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل .

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته ، ومن ثم يؤمنون بالحق الذى معك فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون ، لا أنت ولا المؤمنون .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فُؤُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة] وأى خسارة بعد خسارة الإيمان . أعظم آلاء الله على الناس فى هذا الوجود ^(١) .

إن المساومات الرخيصة على العقيدة الحق لا تفيد شيئاً . ولا تحقق هدفاً ، وإن

من يتمسك بدينه الأصلى حتى ولو كان من اليهود والنصارى فلا بد أن يؤدى به دينه الذى لم يبدله ولم يحرفه إلى الاستمساك بالقرآن ، والإقرار بنبوة محمد ﷺ ؛ لأن دين الله فى الأصل ذو جوهر واحد . وعباداته وشرائعه تلتقى عند غاية واحدة ، وهى توحيد الإله والاعتراف بربوبيته . والأخلاق والفضائل الإنسانية الصحيحة لا يختلف فيها اثنان . وليس غرض اليهود والنصارى بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتاهم بكل ما يسألون عنه لم يرضوا عن وإنما يرضيهم ترك ما هو عليه من الإسلام ، واتباعهم .

وفى كل ذلك عبرة للأجيال ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف] ، وإن تلاوة كتاب الله ينبغي أن تكون بتدبر وفهم وإمعان ، ولا مجرد التلاوة ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد] وقال : ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب .

والفائدة المنشورة من القرآن هو العمل به ، فهو كما ثبت فى الحديث الصحيح : « القرآن حجة لك أو عليك » ومن يتل القرآن وهو معرض عن آياته والعمل به يكن كالمستهزئ بربه . أما الأمى فعليه سؤال العلماء لشرح معنى القرآن ، وإفهامه مراده ﴿ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل] ^(١) .

٣- الهدى والبيّنات

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

سبب نزول الآية (١٥٩) وما بعدها :

نزلت في علماء أهل الكتاب ، وكتمانهم آية الرجم وأمر محمد ﷺ . روى الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد سألو نفرًا من اليهود عما في التوراة من ذكر النبي ﷺ ؛ فكتموهم إياه . فأنزل الله هذه الآية .

المناسبة من الآيات: كان تحويل القبلة فى الآيات السابقة نعمة كبرى على المسلمين ؛ إذ جعلتهم مستقلين عن التبعة لغيرهم . ومكنتهم من الإشراف على البيت الحرام لتطهيره من الشرك والوثنية . ووجهت أنظار المسلمين نحو مكة - قلب الجزيرة والعالم . ولما أثنى الله على الصابرين ، وكان الحج من الأعمال الشاقة المضنية للمال والبدن ناسب هنا ذكر الحج وبعض شعائره . وهى السعى فى الصفا والمروة (الآية ١٥٨) لإتمام النعمة بالإشراف على مكة ، والتذكير بأهميتها ، وإقامة مناسك الحج فيها . وكل من الاتجاه إلى الكعبة ، والسعى هو أيضا إحياء لملة إبراهيم عليه السلام . فلا مسوغ بعدئذ لمعادنة أهل الكتاب والمشركين فى تحويل القبلة ، ولا داعى لزرع الأحقاد والضغائن ضد المسلمين ؛ الذين أمرهم الله تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة .

ولقد عاد القرآن الكريم إلى كشف موقف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فى عناد النبي ﷺ ومعاداتهم إياه ، ولا سيما علماء اليهود وأخبارهم ، وما تضمنته موقفهم من أنهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، وأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون .

إن الذين يكتمون ويخفون ما أنزل الله - إما بعدم ذكر نصوصه للناس حين

الحاجة إليه أو السؤال عنه . كالبشارة بالنبي ﷺ ، وصفاته الموجودة في سفر التثنية وإما بتحريف الكلم عن مواضعه حين الترجمة ، ووضع شيء مكذوب من عندهم مكانه ، سواء في التوراة والإنجيل - جزاؤهم الطرد من رحمة الله ، وغضب الله عليهم ، ولعنهم من الملائكة والناس أجمعين .

وحكمة هذا الجزاء : أن ما أنزل الله من البينات والهدى ؛ كان لخير الناس وهدايتهم إلى الطريق المستقيم عن طريق إيراد الأدلة الواضحة على صدق محمد ﷺ وتبيان حقيقة أمره ووجوب اتباعه والإيمان به ، فإذا كتموا ما أنزل ، وحجبوا الحقائق عن الأعين ، وأوقعوا الناس في ضرر جسيم عميم ، وعطلوا الكتب السماوية ، وفوتوا ما تؤتيه من ثمار وغايات طيبة مرجوة منها .

والآية عامة في كل كاتم ومكتوم ، يحتاج الناس إلى معرفته في أمر معاشهم ومعادهم ، ومنه كتمان العلم الذي فرض الله بيانه للناس ، كما روى عنه ﷺ أنه قال: ((من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)) ، ولا عبرة بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية والمراد من قوله: ﴿ مَا أُنزِلْنَا مِنْ آلَيْبِنْتِ وَأَهْدَى ﴾ : كل ما أنزله الله على الأنبياء من الكتب والوحي والدلائل التي تهتدى بها العقول في ظلمات الحيرة .

والمراد من قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ وإما التوراة والإنجيل ، والمكتوم : ما جاء فيهما من صفة محمد ﷺ والأحكام ، وإما الكتب المتقدمة وما تبعها وهو القرآن واستثنى القرآن من جزاء الكتمان السابق من تاب من أهل الكتاب وأصلح ما أفسده وأعلن الحق المسطور في الكتب المنزلة ، وأقر بنبوته محمد ﷺ ، وصدق ما جاء به من عند الله وأماط اللثام عما أنزل الله من غير تحريف ولا تبديل ، وأصلح نفسه بصالح الأعمال ، فهؤلاء يتوب الله عليهم ويغفر لهم ، ويدخلهم الجنة ؛ لأن الله تعالى قابل التوبة من غير حدود ، رحيم بالمقبلين عليه رحمة واسعة ، يعفو عن المسيء ، ويغفر زلة المخطئ ويفيض برحمته على المقصرين إذا أنابوا وتابوا ورجعوا إلى الله تعالى .

أما من ظل مصرا على الخطأ ، معانداً عن قبول الحق ، معرضاً عن دعوة الله في قرآنه ، وعلى لسان نبيه ﷺ ، وظل يغير ويحرف حتى مات . فهذا وأمثاله هم الذين كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون ، لذا استحقوا لعنة الله ، وغضبه ، ولعنة الملائكة والناس أجمعين . وكانوا خالدين في النار خلوداً دائماً ، لا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم يمهلون ، فهم ماكثون في تلك اللعنة الشاملة على طريق الدوام حتى يردوا النار ، ويخلدون في عذاب جهنم ، لموتهم وهم كفار .

وفي بيان موقف التائبين والمعاندين ترغيب في التوبة عما فرط الإنسان من الذنوب، وحث على ترك العناد ، وإبعاد اليأس من رحمة الله قبل هجوم الموت - كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر] (١) .

٤- الهدى والرحمة للمؤمنين

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥٧] قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ [٥٨] [يونس] .

المعنى : القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه . والوعظ في الأصل : هو التذكير بالعواقب ، سواء أكان بالترغيب أو التهيب ، والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضره . ومن في ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلقة بالفعل ، وهو جاء تكم ، فتكون ابتدائية ، أو متعلقة بمحذوف فتكون تبعية .

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ من الشكوك التي تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه في العقائد الحقة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة . والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر به وتدبر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة ، والرحمة : هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم الله بها عباده ، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها .

فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور ، ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم ، فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

والمراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر والرحمة : رحمته لهم .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإسلام .

وروى عن الحسن ، والضحاك ، ومجاهد ، وقتادة : أن فضل الله : الإيمان .

ورحمته : القرآن ، والأولى : حمل الفضل والرحمة على العموم . ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولا أوليا .

وأصل الكلام: قل : بفضل الله ورحمته بالفرح . وتكرير الباء في : برحمته ، للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مشغل في الفرح ، والفرح : هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب وقد ذم الله الفرح في مواطن ، كقوله : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] . وجوزة في قوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران: ١٧٠] . وكما في هذه الآية . ويجوز أن تتعلق الباء في ﴿ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ : بقوله : (جاءتكم) والتقدير: جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك، أى : فبمجيئها فليفرحوا .

وقرأ يزيد بن القعقاع ، ويعقوب : ﴿ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ بالفوقية . وقرأ الجمهور بالتحية والضمير ؛ والضمير في (هو خير) راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة أو: إلى المجيء على الوجه الثاني أو إلى اسم الإشارة في قوله: ﴿ فَبِذَلِكَ ﴾ والمعنى : إن هذا خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا ، وقد قرئ بالتاء الفوقية في ﴿ يَجْمَعُونَ ﴾ مطابقة للقراءة بها في فلتفرحوا . وقد تقرر في العربية : أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة ، جاءت هذه القراءة عليها ، وقرأ الجمهور بالثناة التحتية في يجمعون ، كما قرؤوا في : ﴿ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ . وروى عن ابن عامر أنه قرأ : بالفوقية في : يجمعون ، والتحية في : فلتفرحوا .

وقد أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن أبي الأحوص قال: جاء رجل إلى عبد الله ابن مسعود وقال: إني أخى يشتكى بطنه فوصف له الخمر ، فقال : سبحان الله ما جعل الله في رجس شفاء ، وإنما الشفاء في شئ من القرآن والعسل ، فهما شفاء لما في الصدور ، وشفاء للناس . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: إن الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : جاء رجل إلى

النبي ﷺ فقال: إني أشتكى صدرى ، فقال: ((اقرأ القرآن : يقول الله : ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾)) ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقة قال: ((عليك بقراءة القرآن والعسل . فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء)) .

وأخرج أبو داود ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي قال : أقرأني رسول الله ﷺ بالتاء ، يعنى : الفوقية ، وقد روى نحو هذا من غير هذا الطريق ،

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ قال: بفضل الله القرآن ، وبرحمته: أن جعلك من أهله .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن البراء مثله من قوله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب ، عن أبي سعيد الخدري مثله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي ، عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب الله وبالإسلام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، عنه قال : فضله: الإسلام ، ورحمته : القرآن . وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عنه أيضا قال: بفضل الله: القرآن ، وبرحمته حين جعلهم من أهله. وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس: ((هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام))^(١) .

(١) فتح القدير ١١ / ٥١٦ فما بعدها .

٥- إيمان الجن بالهدى

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۚ﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۚ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا تَخَافُ خَضًّا وَلَا رَهَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الجن] .

هاتان الآيتان استكمال ومتابعة للآيات التي ابتدأت بها سورة الجن والتي أتينا على شرح بدايتها في موضع آخر^(١) ، وما زال الحديث على لسان الجن الذي استمعوا إلى كتاب الله تعالى يتلى في هذه الدنيا بعد أن جاء موعد نزوله على محمد ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۚ﴾ يَهْدَىٰ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٣٢﴾﴾ [الجن]

ويعود السياق إلى هاتين الآيتين إلى حديث الجن .. الذين خلقوا من نار ولا ندرى أشكالهم ولا أعمالهم ولا مساكنهم إلا أنهم هبطوا إلى الأرض مع آدم وحواء ليعايشوهم فيها ، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، وطال الحديث عنهم في بداية السورة ، وتلقيهم القرآن الذي أعطوه صفة ما أعطيت له في كل المواقع التي ذكر فيها في هذا البحث ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ . عادوا في هاتين الآيتين للحديث عن علاقتهم بهذا الكتاب والذي اتخذ صفة الهدى عندهم هذه المرة عادوا ليتساءلوا بينهم عن العلاقة التي تمت بينهم وبين هذا الكتاب العجيب بل أكثر من هذا ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ .

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ الحديث هنا أنهم يمكن أن يفعلوا شيئاً في هذا الكوكب بعد أن هبطوا إليه أنهم يمكن أن يخرجوا عن سلطان الله تعالى بعد أن هبطوا مع ممثلى الإنس أو أبوى البشرية ((آدم وحواء)) ليتعايشوا معا في بداية الخلق - هم من نار - والإنسان من تراب - ظنوا أنهم قادرون على أن يعجزوا الله

(١) انظر : فصل القرآن الكريم رقم ٤١ ((القرآن هدى للجن كما للإنس)) .

فى الأرض ، لما أعطوا من طاقة فى بداية الخلق .. وهم من تلك النار التى تأكل الأخضر واليابس على سطح الأرض ، والتى منحها الله تعالى لهذين المخلوقين ، ومن ثم جعلها هى مأوى الكافرين من الإنس والجن ، والذين سيكونون فى مألم حطبا لها - كما تشير كثير من الآيات التى تحدثت عن الإنس والجن فى هذا المضمار ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَلَّا نَسْمِعُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف] وغيرها . ولقد جعل الله تعالى شهابا رسدا لمن يحاول من الجن أن يخرج من هذه الأرض ، أو يستمع إلى خبر السماء فظن بذلك الجن أنهم يمكن أن يعجزوا الله تعالى بمحاولة هروبهم من هذه الأرض ﴿ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر] . وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن] .

ثم عادوا واستدركوا أمرهم وعرفوا موقعهم فى هذه الدنيا ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] . عادوا فى هذا الموقع الذى عرفوا أن القرآن الكريم هو الهادى لهم كما هو الحال بالنسبة للإنس ، فاعترفهم وإيمانهم به فى مطلع السورة التى سميت باسمهم ورقمها (٧٢) عادوا إلى رشدهم ليؤكدوا إيمانهم بهذا القرآن ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰ ﴾ أى سمعنا القرآن الذى من صفاته الهدى وبعد أن آمنوا بسماعهم القرآن فى مطلع السورة ، عند سماعهم لهذا الهدى من ربهم قالوا : ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ إذا فقد أكدت هذه الآيات أن القرآن الكريم هو هداية الجن ، وليس هناك كتاب آخر نزل إليهم ، وإن شمولهم فى كثير مع الأماكن من الإنس فى قضايا الإيمان بالقرآن الكريم والضلالة المشتركة ، والإيمان المشترك ، بينهم وبين الإنسان أكدوا الإيمان بالهدى ﴿ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا تَحَافُ نَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ وهنا يتحولون إلى الاعتراف الكامل ، والانقياد الكامل ، ومعرفة مآل المؤمنين بهذا القرآن فلا يخاف المؤمن ﴿ نَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ والبخس : النقص ، بخسه

حقه يبخسه بخسا إذا نقصه^(١) . والرهق ، الكذب . قال الشاعر :

حلفت يمينا غير ما رهق بالله رب محمد وبلال

ويقول أبو عمر: الـرهق : الخفة والعريـدة وأنشد في وصف كرمـة وشرابها

لها حليب كأن المسك خالطه يغشى الندامى عليه الجود والرهق

أراد : عصير العنب .

والرهق : جهل في الإنسان وخفة في عقله^(٢) .

وهذا الهدى من القرآن الكريم فلا يخاف كذبا ولا نقصا ولا خفة ولا جهلا وخفة في عقله ، وإنما يتلقى الجزاء الأوفى من ربه عز وجل ، وبذلك فقد أكدت الآيتان إيمان « الفئـة من الجن » التي سمعت القرآن العجب فأمنت به ، وعادت لتؤكد أن الإيمان هو الطريق الأمثل للوصول إلى مرضاة الله تعالى .

(١) لسان العرب : ابن منظور ٦ / ١٢٤ .

(٢) لسان العرب ١٠ / ١٢٨ .

فصل الذكر

١- ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم

وردت في فصل الآيات تحت رقم ٤.

٢- إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر] .

سبب نزول هذه الآيات :

قال قتادة : القائلون هذه المقالة هم : عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة من صناديد قريش .

والمناسبة : بعد أن بالغ الله تعالى في تهديد الكفار ، ذكر شبهتهم في إنكار نبوة محمد ﷺ ، وإساءتهم الأدب بوصفه بالسفاهة والجنون ، ثم ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء على هذا النحو . فلك يا محمد أسوة بالأنبياء في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم .

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن بعض مقالات المشركين وشبهاتهم الصادرة عن كفرهم وعنادهم ، فقالوا استهزاء وتهكما ، يا أيها الذي تدعى نزول القرآن عليك إنك متصف بالجنون ، حينما تدعوننا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا فلا نقبل دعوتك .

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ ﴿ لو كنت ما تدعيه حقا وصدقا ، قهلا تأتينا بالملائكة يشهدون لك بصدقك وصحة ما جئت به ، ويؤيدونك في إنذارك ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ ﴿ [الفرقان : ٧] وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ

لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ تَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ [الفرقان] .

فأجابهم الله تعالى عن المقالة الثانية بقوله : ﴿ مَا نُزِّلُ الْمَلَايِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى : لا تنزل الملائكة إلا بحق وحكمة ومصلحة نعلمها ، ولا حكمة فى أن تأتىكم عيانا تشهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ، وهم من غير جنسكم ولا على صورتكم فيلبس الأمر عليكم إذ لكل جنس هاد من جنسه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ أى : ولو نزلنا الملائكة لكان ذلك إنزالا للهلاك والعذاب ، وما أخر عنهم العذاب ساعة ؛ لأن ستننا إذا أنزلنا آية كما يقترح الناس ولم يؤمنوا بها ، اتبعنا ذلك بعذاب الاستئصال ، فكان فى إنزال الملائكة ضرر محقق لهم ، لا نفع ^(١) .

ثم أجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّا خَشِئْنَا تَرْكُنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فى هذه الآية الكريمة عنوان التحدى الكبير لبنى البشر ولمن يؤيدهم من الجن على مر الأزمان ومختلف الأماكن . إن الله تعالى أنزل الكتب وأنزل الصحف وأرسل الأنبياء ، وأوكل للأتباع حفظ هذه الأمانة .. فأضاعها أولئك ، أضاعها أحبار اليهود . أضاعوا التوراة وغيروا وبدلوا بحسب أهوائهم ورغباتهم ، وأضاعها رهبان النصرى وقساوستهم ، ولم تبق فيهم إلا المين كما وصفهم الله تعالى . لكن أصول الكتب المقدسة ضاعت ، وتداول الناس والأتباع ما تغير وتبدل . وبذلك فلم يبق فيها إلا أقوال واضيعها من الذين ائتمنوا على ذكرها فضيعوها ، ولكن الله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّا خَشِئْنَا تَرْكُنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أكد الحقيقة الكبرى الخالدة بأن هذا القرآن الكريم تنزيل من الله جل وعلا ، لم يفتره محمد ﷺ ، ولم يعنه عليه قوم آخرون .. كما ورد فى كثير من الآيات التى تبطل دعواهم تنزيل

من الله عزوجل ، فلا مراء ولا كذب ، ولا تصور يذهب بنى الإنسان شرقا أو غربا . الحقيقة الكبرى الخالدة أنه منزل من الله تعالى ، وكان يكفى هذا ليصدق الناس ، ولكن الله جل وعلا قد وضع التحدى المطلق فى الجزء الثانى من الآية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

التحدى الذى ثبت ويثبت إلى يوم الدين .. لقد مر على هذا التحدى زهاء وخمسة عشر قرنا . تقلبت به الدنيا ، وسادت أمم وضاعت شعوب ، وغاب الإيمان وساد الكفر ، وعلا الإيمان ومحق الكفر فى صراع مستمر دائم لم ينته حتى هذا اليوم ، ولن ينتهى إلى يوم الدين ، فالجهاد ماض إلى يوم القيامة ، فى هذه الأيام ساد الكفر والضلال والشك والعلمانية ، والإلحاد ، وسادت الهجمة الشرسة ليس على الإسلام فحسب بل على الأديان الأخرى . علت اليهودية التى سخرت النصرانية لخدمتها . وعلت النصرانية أيضا ، وسخرت فيالق ودول من المسلمين لسيادتها .. وانهزم المسلمون .. وتشتتوا وتفرقوا ، وتباعدوا وتناحروا وتقاتلوا ، وتركوا قرآنهم .

ومع هذا فإن التحدى قائم وفاز القرآن ، ولم يجرؤ أحد على تشويهه ، أو على تحريفه ، أو على تغييره ، مع العدد الهائل من المسلمين ((غثاء كغثاء السيل والذين يتلقون جميع رسائل الاختراع والإبداع من أعدائهم الذين أذهب الله من نفوسهم خوف المسلمين .. وألقى فى قلوب المسلمين الوهن -)) وهو حب الدنيا وكرهية الموت)) إلا أن القرآن شىء آخر ، حاول الأعداء منذ بداية الصراع فى مكة وحتى اليوم ، كل مجهوداتهم وكل أفكارهم ، وكل مكائدهم .. لكن القرآن أمر آخر .. نعم حاولوا .. ففشلوا .

فهذا القرآن الذى بين أيدينا هو ما تداوله المسلمون على مدار تاريخهم وتدارسوه وتفننوا فى علومه وتفسيره ، وما تلاه محمد ﷺ على صحابته ، وما حافظ عليه الصحابة بجميع وسائلهم المتاحة الذهنية والقلبية ، وما أنزله جبريل على محمد منجما متفرقا فى ثلاث وعشرين سنة . وهو القرآن الذى مامسه إلا المطهرون - الملائكة الأبرار - الذين حملوه من السماء السابعة إلى السماء الدنيا فى

ليلة هى خير من ألف شهر .. هو نفسه بترتيبه وألفاظه ، ومقاطعته ، وأجزائه ، ومن ثم فهو المتعبد به برسمه العربى ، مع أن معانيه قد ترجمت إلى لغات الدنيا كلها ، وبمختلف مشارب المترجمين لكنهم جميعا لم يتجاوزوا الحدود الشرعية المرتبطة به .

فهو محفوظ من الله تعالى .. واليوم .. وقبل اليوم .. وبعد اليوم .. محفور بصدور الملايين من المسلمين من أطفال لا تتجاوز أعمارهم الخامسة أو الرابعة من العمر . إلى الذين يفارقون الحياة فى كل لحظة .. نعم فى قلوب الملايين من المسلمين وجميعا يرتلونه ترتيلا .. لا خلاف فى لفظ ، أو حركة ، أو معنى . إنما هو القرآن صاحب التحدى القائم الذى لا يقف عند حق ، ولا يسأل عن نوع المتحدين من الإنس أو الجن كانوا .

ثم إن التعبد بلفظه العربى محفوظ فى صدور أكثر من مليار ونصف يتفاوت حفظهم بين القرآن كله ، أو الجزء المطلوب منهم ، أو الذى تمكنوا من حفظه ، ومن ثم فما من مسلم فى الدنيا إلا ويحفظ فاتحة الكتاب ، وبذلك فقد حفظه الله تعالى فى صدور جميع المسلمين كاملا أو مجزؤا . عدا من يحفظه من غير المسلمين والدارسين فى العالم .

القرآن الكريم : أصدق كتاب وأصوب كتاب ، والكتاب الوحيد فى الدنيا الصحيح فى جميع الأخلاط من الناس الذين يتداولونه .

القرآن الكريم : أكثر كتاب مطبوع فى الدنيا على الإطلاق على الرغم من أن النصارى أكثر عدداً من المسلمين ، والصينيون يعادلونهم ، والهندوس والوثيون .. كل ليس لكتبهم المقدسة إلا مكانة محدودة جدا تجاه كتبهم التى يقدسونها .

القرآن الكريم : أكثر كتاب يقرأ فى الدنيا على مدار الساعة ودورة الأرض ودورة المجموعة الشمسية .. ولا يدانيه أو ينازعه كتاب أو كتب أخرى مهما كثرت .

القرآن الكريم : أكثر الكتب المكتوبة فى المساجد والزوايا والمناصب والآثار

والمتاحف ، وأكثر مخطوطة متداولة ممن سبقنا الذين حرموا حرية القراءة والتعبير عن آرائهم .

القرآن الكريم : الذى لم تشبه شائبة .. وإن وجدت الشوائب تتلف وتحرق إن وجد بها شبهة أو محاولة من عدو ، فالله حفظه والله أنزله ، والله على كل شىء قدير .

القرآن الكريم : فى مليارات المسجلات الصوتية فى العالم كله ما غلب المسلمون على بلدانه ، وحتى فى البلاد الذى يستضعف فيها المسلمون ، أو فى أى مكان وجد المسلمون فيه بعالمهم .

القرآن الكريم : أكثر كتاب يحمله الناس فى هذه الساعة وفى أى ساعة من نهار أو ليل على مدار العالم .

هذا هو القرآن الكريم .. قدر الله - تعالى - له على مر العصور دارسين ، وعلماء ومفسرين ، وكتاب ، وخطاطين ، وباحثين ، وحافظين ، وحافظات ، وما لا يخطر على بال الناس ، حتى إن المسلم تراه مرتاحا سعيدا لهذه الصلة العظيمة القوية بهذا الكتاب العظيم: إن هذا القرآن يهدى أى الأقوم ... واشتروا به آخرتهم ، ولم يشتر أحد به دنياهم ، فى عالم اليوم فى ديار المسلمين أو دور غيرهم وما هذه الدراسة المتواضعة إلا مساهمة صغيرة جدا فى عالم الدارسين والمساهمين ونعوذ بالله أن نتمكن من الوصول إلى أى مجال إحصائى لهذا الكتاب .

٣- اسألوا أهل الذكر

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَّبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل] .

فى خضم الصراع المحتدم بين المشركين والمسلمين ، كانت أساليب وقضايا طويلة معقدة ، يأتى بها الكفار برسالة الإسلام ليصدوا الناس عن ذكر الله ، فإن كان الأمر يتعلق بالسادة وآلاء القوم ، فإنهم ينكرون الرسالة على محمد ، ويذكرون أنهم هم الأحق بها . وإن كانت القضايا تتعلق بالعقيدة والتوحيد فإنهم يعجبون أن يجعل محمد ﷺ الآلهة إلهها واحدا ، وإن كانت تتعلق بالمستضعفين من المؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا رسوله آذوهم وأهانوهم . والله عزوجل لهم بالمرصاد ، ويجزيهم على أفعالهم .

والأمر الأخطر فى هذا هى قضية النبوة ؛ إذ إن القوم أنكروا ذلك ، واعتقدوا أن النبوة مرتبطة بالملائكة ، على الرغم أنهم يقرون ويعملون نبوات سبقت وجاوروا اليهود فى شمال مكة فى يثرب ، وجاوروا النصارى فى نجران واطلعوا بترحالهم المتواصل إلى نصارى الشام أيضا وتعاملوا معهم ، وعرفوا رهبانهم وقسيسهم ، وبعضهم سواء فى مكة أو المدينة قرأ كتب أهل الكتاب وبعضهم تنصر مثل ورقة بن نوفل - مع التحفظ على نصرانيته - لكن أبا عامر الراهب من الأوس من يثرب تنصر واتبع ملة الغساسنة فى الشام ، كما أن قبائل كثيرة تنصرت أمثال تغلب وطى والغساسنة وغيرهم ينكرون ذلك على أن محمدا ﷺ يكون نبيا ، وليس نبيا أو رسولا كما سبقه من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلوا إلى أقوامهم ، فإن محمدا ﷺ أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا ، وبذلك فإن الله تعالى يجيبهم بآيات بينات واضحات على ادعاءاتهم المختلفة وآرائهم المتناقضة المختلفة .

يقول الزحيلي : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، قال : فى هذه الآية: هؤلاء أصحاب محمد ﷺ أهل مكة ، فأخرجوهم من ديارهم حتى

لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين ، وفي هذه الآيات : ذكر الله تعالى الشبهة المتعلقة بمنكرى النبوة الذين قالوا : الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر بل لو أراد بعثه رسول إلينا ؛ لكان يبعث ملكاً - وهذه حجة قديمة واهية - استخدمها قوم نوح عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٠) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (١١) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقْرُصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (١٢) [المؤمنون] (١) .

ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله - تعالى - وعادته أن يبعث رسولا من البشر ، وما أرسل الله من رسول للناس من أهل السماء ((الملائكة)) وإنما أرسل رجالا من أهل الأرض يوحى إليه أوامره ونواهيه ، ثم توجه الخطاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلم نرسل إلى قومك يا محمد إلا كما أرسلنا إلى من قبلهم من الأمم ، أى رسلا من جنسهم وطبيعتهم ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (١٣) [الإسراء] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ﴾ (١٤) [الكهف] .

قال ابن عباس : لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ، أنكرت العرب ذلك . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله رسولا بشرا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ الآية . ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ۖ أَىٰ فَاسَأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ وَأَهْلَ الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ أَبْشَرًا كَانَتْ الرِّسَالُ إِلَيْهِمْ أَمْ مَلَائِكَةٌ ؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ رَسُولًا ﴾ .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ أى أرسلناهم بالحجج والدلائل التى تشهد لهم بصدق نبوتهم ، وبالكُتُبِ المشتملة على التشريع الربانى .

والزبر : جمع زبور أى كتاب . تقول العرب : زبرت الكتاب : إذا كتبه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر] وفى الآية ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ تقديم وتأخير ، أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا : أى : غير رجال . فكلمه « إلا » بمعنى غير ، كقوله : لا إله إلا الله .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ أى وكما أنزلنا الكتاب إلى من قبلك يا محمد ، أنزلنا إليك القرآن ؛ لتبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم من الشرائع والأحكام والحلال والحرام ، وقصص الأمم الماضية التى أبدت وأهلكت لتكذيبها الأنبياء لعلمك بمعانى ما أنزل الله عليك .

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى ومن أجل أن يتفكروا وينظروا فى حقائق الكون وأسرار الحياة وعبر التاريخ ، فيهتدون ويفوزون بالنجاة فى الدارين .

ويرد اسم القرآن والكتب المقدسة السابقة المنزلة على الأنبياء والرسل السابقين بصفة الذكر فقال تعالى : ﴿ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ وهم أهل الكتاب المعروفة تسميتهم بهذا الاسم ذكرهم هنا بأنهم أهل الذكر ، من التذكر والحفظ وإعادة المحفوظات بالتذكر للعمل بموجبها ؛ كما أن الله تعالى توافقا مع ذكر « أهل التذكر » قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ أى القرآن الكريم المتصف بأنه خير وأكرم وأعظم وأنزل الله على البشر ، وحفظه جل جلاله بنفسه فأبعد عنه يد التحريف والتحويل ، فما زال وسيكون محفوظا إلى يوم الدين بإذن الله وإقراره جل وعلا ^(١) .

(١) انظر الفقرة السابقة رقم واحد (١) من هذا الفصل .

٤- الذكر الآتي من الله جل

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ① مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَا هِيََ قُلُوبُهُمْ ③ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ④ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ⑤ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ⑦ مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ⑧ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑨ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ⑩ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ⑪ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ⑫ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⑬ [الأنبياء] .

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار ، عن أبي إسحاق ، سمعت عبد الرحمن بن زيد عن عبد الله ، قال : بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى ^(١) .

هذه السورة مكية تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية .. موضوع العقيدة ، تعالجه في ميادينه الكبيرة : ميادين التوحيد والرسالة ، والبعث .

وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع يعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها ، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى ، وهى تقوم على الحق الذى قامت عليه السموات والأرض ، وعلى الجدل الذى تدبر به السموات والأرض وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا ، ولا يشب خلقه باطل ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴾ ⑫ ^(٢) .

سميت سورة ((الأنبياء)) لتضمنها الحديث عن جهاد الأنبياء والمرسلين من

(١) تفسير القرآن العظيم - بداية سورة الأنبياء ١٧ / ١٨١ .

(٢) الظلال ١٧ / ٢٣٦٤ .

أقوامهم الوثنيين ، بدءا من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام بإسهاب وتفصيل ، ثم إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب وإسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، وذى النون ، ويونس ، وزكريا ، وعيسى إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وذلك بإيجاز على ما تعرضوا له من أهوال وشدائد ، فصبروا عليها ، وضحوا فى سبيل الله لإسعاد البشرية ^(١) .

حديث صارخ للناس جميعا ، قيل : لكفار قريش ، وقيل : للناس أجمعين ، إنذار بقرب الساعة والناس لاهون ، والأهم فى هذه الآيات العشر السابقة أن ذكر القرآن ورد فى سياق الآيات بصفات « الذكر » حيث أوردتها فى هذا الفصل ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ ﴾ و ﴿ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ ﴾ ﴿ أَصْغَتْ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرْتَهُ ﴾ ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِنَآيَةٍ ﴾ معجزة من غير القرآن الكريم . ﴿ نُوْحِى إِلَيْهِمْ ﴾ ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ وختم ذلك بذكر القرآن باسمه : الكتاب بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

إن هذا التأكيد يوحى بأن الله تعالى قد جعل القرآن نذيرا ومذكرا وفيه ذكر الأنبياء وأقوامهم وما أصابهم من عذاب لكفرهم وصددهم عن ذكر الله ، وهم يستمعون القول وهم يلعبون . وكما سلف فإن تسمية هذه السورة بأسماء الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، والتذكير بما أنزل عليهم ليعين الناس أن عذاب الدنيا أهون كثيرا من عذاب الآخرة لو كانوا يعلمون .

سبب نزول الآية (٦) : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ ٦ ﴾ :

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبي ﷺ : إن كان ما تقول حقا ويسرك أن تؤمن ، فحول إلينا الصفا ذها ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم ولم يؤمنوا ، لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : بل أستأنى بقومى . فأنزل الله : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ الآية .

روى أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ كان بنى جدارا ، فمر به آخر فى يوم نزوله هذه السورة فقال الذى كان بنى الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ فنفض يده من البنيان وقال : والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب .

وفى الآية دليل على قرب القيامة ، لذا قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذى عن أنس : « بعثت أنا والساعة كهاتين » . ثم استدل الله تعالى على غفلة الناس ، فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۝٣ أى : ما يأتى أولئك الكفار من قریش وأشباههم من قرآن جديد إنزاله . ينزل سورة سورة ، وآية آية على وفق المناسبات والوقائع ، إلا استمعوه وهم لاهون ، ساخرون مستهزون ، متشاغلة قلوبهم على التأمل وتفهم معناه .

وهذا ذم صريح للكفار ، وزجر لأمثالهم عن تعطيل الانتفاع بما يحقق لهم السعادة فى الدنيا والآخرة وقوله : ﴿ مُّحَدَّثٍ ﴾ لا يوهم كون القرآن مخلوقا ، فإن الحروف المنطوق بها ، والصوت المسموع حادث بلا شك وأما أصل القرآن الذى هو كلام الله تعالى النفسى فهو قديم بقدم الله تعالى وصفاته القدسية

ثم وصف الله تعالى موقف الكفار عند نزول القرآن فقال :

﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ ۖ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ۝٤ ﴾ .

فهم يستبعدون كون رسول الله ﷺ نبيا ؛ لأنه بشر مثلهم ، والرسول لا يكون إلا ملكا وأما ما أتى به من القرآن فهو سحر ، وإنما أسروا الحديث بينهم فى ذلك للتشاور فى المخلص والتوصل إلى أنجع الطرق لهدم دينه .

فأجابهم الله تعالى عما اقترفوه واختلقوه من الكذب بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ ﴾ أى قال لهم

الرسول بأمر الله مفتضحا أسرارهم : لا تخفوا ما تقولون . فإن الله ربى وربكم يعلم ذلك ، لا تخفى عليه خافية من أمر السماء والأرض وما يحدث فيها من أقوال وأفعال ، وهو الذى أنزل القرآن المشتمل على خير الأولين والآخرين وهو السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم . وفى هذا تهديد ووعد .

ثم أخبر الله تعالى عن تحبط الكفار وتعتهم وإحادهم ، وحيرتهم وضلالهم ، وترددهم فى وصف القرآن واختلافهم فى ذلك . فقال :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلِ آفَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ .

أى أنهم وصفوا رسول الله ﷺ أولا بأنه ساحر ، ثم انتقلوا إلى القول بأنه تخالطه الأحلام التى يراها فى المنام ، ثم إلى أنه كلام مفترى مختلق من عنده .

ولما فرغوا من تعداد هذه الاحتمالات ، وترداد هذه المزاعم قالوا : إن كان محمد صادقا فى أنه رسول من عند الله وأن القرآن الموحى به إليه كلام الله فليأتنا بآية جلية غير القرآن ، لا يتطرق إليها شئ من هذه الاحتمالات كآيات المنقولة عن الأنبياء السابقين ، مما يدل على أن تلك الآيات مسلم بها عندهم ، وتحقق المقصود .

ثم أجابهم تعالى على هذا السؤال الأخير مفندا كذبهم ، ومشييرا إلى عدم إفادة الآيات المنزلة ، بسبب إمعانهم فى الكفر فقال :

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ١ ﴿ أى ما آتينا أهل قرية من القرى الذين بعث إليهم الرسل آية على يدى نبيهم فآمنوا بها ؛ بل كذبوا ، فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك . والخلاصة أن عدم تلبية اقتراحاتهم هو فى صالحهم ؛ إذ لو أجابهم تعالى لما طلبوا ثم بقوا على كفرهم وعنادهم ، المنزل بهم عذاب الاستئصال ، إلا أن حكمة الله اقتضت تأخير العذاب عنهم إلى الآخرة . وأما سؤاهاهم فهو سؤال تعنت . والله يعلم أنهم لا يؤمنون .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١﴾ يرد الله تعالى على من أنكر بعثة الرسل من البشر بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ أى أن جميع الرسل السابقين كانوا من البشر ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ أى: إن كنتم من كون جميع الرسل بشرا فاسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة. وإنما أحالهم على أولئك ؛ لأن المشركين كانوا يشاورونهم فى أمر النبي ﷺ ويثقتون بقولهم ، ويلتقون معهم فى معاداته .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ ﴿٢﴾ أى وما جعلنا الأنبياء ذوى جسد غير طاعمين كالملائكة ، بل أجسادا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين باقين فى الدنيا .

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ ﴾ أى إننا نصون حياة الرسل وكراماتهم ونصدقهم فى الوعد الذى نعدهم به من النصر على أعدائهم وإهلاك الظالمين ، وننجيهم ومن نشاء من أتباعهم المؤمنين بهم ، ونهلك المكذبين لهم ، المسرفين على أنفسهم بالكفر والمعاصى ، المكذبين بما جاءت بهم الرسل .

وبعد إثبات بشرية الرسل عليهم السلام للرد على المشركين الذين اعتقدوا بأن الرسالة من خواص الملائكة نبه تعالى على شرف القرآن وفضله ونفعه للناس ، وحرص على معرفة قدره فقال: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٣﴾ . أى لقد أعطيناكم هذا القرآن العظيم المشتمل على دستور الحياة الإنسانية الفاضلة ، فيه شرفكم وصيتكم وسمعتكم كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] ، أى أوفيه عظمتكم وتذكيركم بمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، والأخذ بأيديكم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤﴾ أى أفلا تتدبرون أمركم ، وتقدرن هذه النعمة وتلقونها

بالقبول ، وتتفكرون بما اشتمل عليه هذا القرآن من العظات والعبر فتأخذون بما فيه وتتجنبون ما حذره وما نهى عنه وفى هذا حث شديد على تدبر أحكام القرآن وتعقل ما جاء فيه من أمور الدنيا والدين والحياة .

وفيما يختص بكتاب الله فى هذه الآيات نستخلص :

١- الإعراض: هو الإمعان فى البعد عن القرآن وترك آياته وعدم الإيمان بالله ، بالرغم من الانتباه من الغفلة والجهالة .

٢- لقد عطل كفار قريش مفاتيح الهداية والانتفاع بنور القرآن ، وهزؤوا وسخروا من آيات الله التى تأخذ بيدهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

٣- احتج المعتزلة على حدوث القرآن بقوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ فقالوا: القرآن ذكر والذكر محدث ، فالقرآن محدث . ورد عليهم أهل السنة : بأن المقصود بالإحداث ، هو ما يسمع من حروف القرآن وأصواته فهذا حادث لا شك ، أما القرآن الذى هو كلام الله تعالى فهو قديم بقدم الله تعالى وصفاته الحسنى .

٤- إن ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره لا تمويه فيه ولا تلبيس ، وليس فيه شئ من ظواهر السحر ، فقد تحداهم ﷺ بالقرآن ، فلم يأتوا بمثله ، دل ذلك على كونه معجزة فى نفسه .

٥- إن القرآن الكريم سبب لرفعة شأن العرب ؛ لأنه نزل بلغتهم ، وفيه أحكام الشرع ، وبيان مصير الناس فى الآخرة ، وما يلقونه من ثواب وعقاب .

وهو أيضا عظة وعبرة ، يرغب ويبشر ، ويحذر وينفر ، ويأمر وينهى ، ويرشد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويوضح ما فيه سعادة الدارين ، ويرشد البشرية كافة إلى اتباع النظام الأصلى ، ويحث القرآن الكريم دائما على تدبر ما جاء فيه من أحكام ، وتفهم ما تضمنه من نظام سديد فى الدين والدنيا والآخرة ^(١) .

٥- ذكر للمتقين

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿١٤٢﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنبياء] .

المناسبة: بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لقومه: ﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] أتبعه ببيان أن هذه سنة الله تعالى في أنبيائه ، فقد أنزل الوحي عليهم ليكون ما تضمنه من الشريعة والأحكام سببا لهداية البشر .

وبعد أن أبان تعالى أدلة التوحيد والنبوة والمعاد شرع من التذكير بقصص الأنبياء عليهم السلام تسلياً لرسوله ﷺ فيما يناله من قومه ، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر عليها . وهذه هي القصة الأولى - قصة موسى وهارون عليهما السلام سبق في سياق السورة أن المشركين كانوا يستهزئون بالرسول ﷺ لأنه بشر ، وأنهم كانوا يكذبون بالوحي ، ويقولون إنه سحر أو شعر أو افتراء .

فها هو ذا يكشف لهم أن إرسال الرسل من البشر هي السنة المطردة ؛ وهذه نماذج لها من قبل ، وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة فيها هما ذان موسى وهارون آتاهما الله كتابا .

ويسمى هذا الكتاب ((الفرقان)) وهم اسم من أسماء القرآن الكريم ، فهناك وحدة حتى في الاسم ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين منهج في الحياة ومنهج ، واتجاه في الحياة واتجاه ، فهي في عمومها فرقان وفي هذه الصفة تلتقى التوراة والقرآن .

وجعل التوراة كذلك ﴿ ضِيَاءٌ ﴾ يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل ، وهي ظلمات يحار فيها العقل ، ويضل فيها الضمير ، وإن القلب البشري ليظل مظلماً حتى تشرق فيه شعلة الإيمان ، فتتير جوانبه ، وينكشف

له منهجه ويستقيم له اتجاهه ، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقدير .

وجعل التوراة كالقرآن ﴿ وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ تذكرهم بالله ، وتبقى لهم ذكرا في الناس ، وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة ؛ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، ويستذلهم بالسخرة والإيذاء . ويخص المتقين ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ ؛ لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ فيعملون لها ، ويسعد هؤلاء الذين يتفنون بالضياء ويسرون على هداه ، فيكون كتاب الله لهم ذكرا ، يذكرهم بالله ويرفع لهم ذكرا في الناس .

ذلك شأن موسى وهارون ، ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ فليس بدعا ولا عجا إنما هو أمر مسبق وسنة معروفة ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ، فماذا تنكرون منه وقد سبقت به الرسائل ^(١) .

واشتملت الآيات على بيان الهدف الجوهرى منها : وهى التعجب من إنكار العرب للقرآن ، وهو كلام الله تعالى ، بدليل أنه معجز لا يقدر على الإتيان بمثله ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ^(٢) .

(١) التفسير المنير ١٧ / ٦٨ ، ٧١ .

(٢) فى ظلال القرآن ١٧ / ٢٣٨٤ .

٦- من اتبع الذكر وخشى

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٢﴾ [يس]

سبق الحديث عن سورة (يس) في فصل القرآن الكريم تحت رقم ٢٢ وللآيات من (١ - ٧) ونستكمل بعض الحديث عن هذه السورة والآيتين (١٠ - ١١).

سبب النزول: ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ : أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يقرئ السجدة ، فيجهر بالقراءة حتى يتأذى به الناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه . وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمى لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا : نشدك الله والرحم يا محمد ، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم . فنزلت ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ (يس) إلى قوله: ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلم يؤمن من ذلك نفر أحد .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ : أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمد لأفعلن ، فأنزل الله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ إلى قوله: ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فكانوا يقولون : هذا محمد .. فيقول : أين هو ، أين هو ، لا يبصر .

وفي تفسير ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ الآية . قال صاحب التفسير المنير ^(١) نتيجة لما سبق من آيات في الكافرين ؛ فإن إنذارك لهؤلاء المصيرين على كفرهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، ماداموا غير مستعدين لقبول الحق . والخضوع لنداء الله تعالى والنظر في الدلائل الدالة على صدق رسالة النبي ﷺ ، والتأمل في عجائب الكون المشاهدة الدالة على وجود الله ووحدانيته .

أما نفع الإنذار فهو كما ذكر تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ أى إنما ينفع إنذارك الذين آمنوا بالإنذار العظيم ، واتبعوا أحكامه وشرائعه ، وخافوا عقاب الله قبل حدوثه ومعاينة أهواله ، وخشوا الله قبل رؤيته ، فهؤلاء بشرهم بمغفرة لذنوبهم ، ورضوان من الله وأجر كريم ونعيم مقيم هو الجنة ، ونظير الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾ [الملك] ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ۙ أَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَهُمْ أَعْيُنُهُمْ الْغُشَىٰ ۚ وَالْحَقُّ أَن رَّبُّهُم يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ أَتَمًّا ۚ وَمَنْ يَتَذَكَّرْ فَإِنَّهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ۚ ﴾ فقال : يا غيرهم . وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدرى فقال : يا غيلان ، بلغنى أنك تتكلم بالقدر . فقال : يكذبون على يا أمير المؤمنين . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أرايت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾ فقال : اقرأ يا غيلان ، فقرأ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ ﴾ فقال : اقرأ . فقال : ما تشاؤون إلا أن يشاء الله فقال : يا أمير المؤمنين ، إن شعرت أن هذا فى كتاب الله قط . فقال: يا غيلان اقرأ أول سورة يس ، فقرأ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين كأننى لم أرها قط قبل اليوم ؛ أشهد يا أمير المؤمنين أنى تائب . فقال عمر : اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذبا فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين . فأخذه هشام بن عبد الملك فقطع يديه ورجليه وصلبه . قال ابن عون : فأنا رأيت مصلوبا على باب دمشق ، فسألناه ؟ فقال : أصابتنى دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ^(١) .

٧- الشك في الذكر

﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ط بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾

[ص] .

وردت هذه الآية الكريمة في ذكر جماعة المشركين من قريش في مكة ، لما استيأسوا من جدال الرسول ﷺ والحديث معه ليكف عن شتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، ولما لم يجدوا في محصلاتهم ما يمكن أن يردوا به على الرسول سواء أكان لقاءهم فرادى أو جماعات .. ، ولما لم يعد لديهم من الحيل والتلفيق والكذب على الرسول ما ينطلى على السامعين أو المشاهدين ، ولما وجدوا أن عددهم يقل ، وجماعة المسلمين تتنامى وتكثر ، وبعد أن كان الأمر مقصورا على ضعفائهم ، ومواليهم وعبيدهم - وقد أخذوا على أيديهم بشدة - تطرق الأمر إلى دخول العديد من علية القوم في الإسلام .. راجعوا أبا طالب شيخ بنى هاشم وقتها في أمر النبي ﷺ . راجعوه بأن يكف ابن أخيه الأذى عنهم وعن آلهتهم « بادعائهم » . ولم يقتنعوا أن يتابعوه فتخضع لهم العرب ، ويدفع العجم الجزية لهم .

كل هذا حذبهم إلى عرض مطالبهم المعروفة ، والتي وردت في كتب الحديث وفي اليسر ، بأن عرضوا عليه الملك فيحكم في رقابهم ، والمال ليصبح أغناهم ، والنساء فيزوجوه أجمل نسائهم مقارنة بالمرأة الخالدة خديجة التي تقدم بها العمر . وربما يكون هذا العرض بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ؛ إذ إنها توفيت وأبو طالب في عام واحد « عام الحزن » . وأن يلتمسوا لهم الطب إن كان هذا الأمر يأتيه من الجن - على طريقة الكهان وذكرت هذه القضايا ولكن المغريات كانت أكثر من هذا بكثير .

وكان جواب الرسول ﷺ قولا واحدا « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وكان جواب أبي طالب : اذهب يا بن أخى إلى ما أنت فيه ، والله لن أدعك لسوء .

وتكررت قضية حسدهم ألا وهى أن ينزل القرآن على يتييم بنى هاشم ، وفى مكة وغيرها من المستحقين كثير ، ولذلك قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف] مكة أو الطائف - كما ورد فى فصل القرآن .

وفى هذه الآية الكريمة ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يعنى أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم واختيار الله تعالى من بين كبراء القوم وساداتهم وقادتهم كما قال تعالى : ﴿ أَهْمَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف : ٣٣] ولذلك كانوا يستبعدون نزول القرآن على محمد ﷺ ، ويريدون أن يختص واحد من عظمائهم وكبرائهم بهذا الشرف الذى يقوله محمد ﷺ ، قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ﴾ أى : إنما يقولون ؛ لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونعمته سيعلمون غب ما قالوا ، وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا .

٨ - الذين كفروا بالذكر

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [فصلت] .

ورد تفصيل لها فى فصل الآيات رقم (١٨) تحت عنوان : الذين يلحدون فى آيات الله - الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . يحسن الرجوع إليها .

٩ - قد أنزل الله إليكم

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝ ﴾ [الطلاق] .

تأتى هذه الآيات استكمالاً وتتبعها لما سبقها من الآيات فى قوله تعالى :
﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَابُهُ أَمْرًا خُسْرًا ۝ ﴾ [الطلاق] وجاء استكمالاً لهذا المشهد لستم العبرة من أخبار تلك القرى التى عتت عن أمر ربها - أى خرجت عن أوامر الله تعالى وما أنزل إلى هذه القرى من الأنبياء والكتب والصحف ، وكيف أن الله قد حاسبها حساباً شديداً ، وعذبها عذاباً نكراً .. وقد نالت هذه القرى العقاب التى استحقته فذاقت وبال أمرها .. وكان عاقبة أمرها خسراً . وتلتها الآيات (١٠ ، ١١) على نفس السياق من تصوير الأهوال وشدة العذاب ، وهول العقاب ، وذلك تحذير وإنذار لذوى القلوب من العباد الذين آمنوا ، ومن ثم فإن الله تعالى قد أكد الوعيد بقوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ ﴾ أى هياً الله لهم عذاباً شديداً الوقوع والألم لكفرهم وعتوهم وتمردهم ، وهو عذاب النار .

ثم ذكر الله تعالى العبرة من الإنذار والوعيد وهي حث المؤمنين على التقوى فقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ آلَآلِبِ ﴾ أى فخافوا عقاب الله يا أصحاب العقول الراجحة ، والأفهام المستقيمة ، فلا تكونوا مثلهم ، فيصيبكم مثل ما أصابهم ثم أوضح لهم ما يذكرهم بنحو دائم فقال :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَأَي : فاتقوا الله يا أولى العقول من هذه الأمة الذين صدقوا بالله ورسله ، وأسلموا لله ، واتبعوا رسولهم محمد ﷺ ، قد أنزل إليكم ذكرا دائما وهو القرآن العظيم وأرسل إليكم رسولا بهذا القرآن ، فهو الترجمان الصادق ، وهو الذى يبلغكم وحى الله ، ويقرأ عليكم كلام الله وآياته فى حال كونها بينة واضحة جلية يبين فيها للناس ما يحتاجونه إليه من الأحكام ؛ ليخرج الله بالآيات والرسول الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ثم أكرمهم ورغبهم ببيان جزاء الإيمان والعمل الصالح ، فقال:

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ أى : ومن يصدق بالله ، ويعمل العمل الصالح ، فيجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه . يدخله جنات أى بساتين تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ، ماكثين فيها أبدا على الدوام ، وقد وسع الله رزقه فى الجنة... (١) .

١٠- حسد الكفار

﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم] .

حذر الله تعالى نبيه ﷺ من عداوة المشركين فقال : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية أى : إنهم - كما قال الزمخشري - من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شذرا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك ، أو يهلكونك ، وكان هذا لنظر يشتد منهم فى حال قراءة النبي ﷺ القرآن ، لشدة كراهيتهم وحسدا على ما أوتى من النبوة ، ويقولون : إنه مجنون ، حيرة فى أمره ، وتنفيرا عنه ، وإلا فإنهم قد علموا أنه أعقلهم . والمعنى : أنهم جنتوه لأجل القرآن .

وقال بعضهم : المراد أنهم يكادون يصيبونك بالعين . روى أن العين كانت فى بنى أسد ، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام ، فلا يمر به شئ فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله ، إلا عانه ، فأريد بعض العيانيين على أن يقول فى رسول الله ﷺ قبل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم رجلا ، فعصمه الله .

قال الهروى : أراد ليعتانونك بعيونهم ، فيزيلونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه ، عداوة لك .

ورد ابن قتبية على ذلك قائلا : ليس يريد الله أن يصيبونك بأعينهم ، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديدا بالعداوة والبغضاء ، يكاد يسقطك ورأى ابن كثير ^(١) أن المعنى : يحسدونك لبغضهم إياك ، لولا وقاية الله لك ، وحايته إياك منهم ، وفى هذه الآية على رأى البعض - دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

منها ما أخرجه أحمد بن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ، ولا حسد ، والعين حق)) أى بإرادة الله .

(١) تفسير القرآن العظيم ، وقد توسع فى هذا الموضوع ٢٩ / ٤٣٦ - ٤٣٩ .

ومنها ما أخرجه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قد تدخل الرجل العين في العبر ، وتدخل الجمل القدر » ، وإسناد رجاله كلهم ثقات .

ومنها ما أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العين لتولع الرجل بإذن الله ، فيتصاعد حالقا ، ثم يرتدى منه » وإسناده غريب .

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى ويقولون عن محمد ﷺ : إنه لمجنون ، أى : لمجيئه بالقرآن ، وما القرآن إلا موعظة وتذكير للجن والإنس ، فلا يتحملة إلا من كان أهلا له من العقلاء ، وفيه نسبة الجهل إلى من يقول هذا القول . وكيف يجتن من جاء بمثله من الآداب والحكم وأصول كل العلوم والمعارف ؟!

قال الحسن البصرى : دواء الإصابة بالعين أن يقرأ هذه الآية : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ^(١) ولقد اشتدت عداوة الكفار للنبي ﷺ ، فكانوا إذا سمعوه يقرأ القرآن ، نظروا إليه نظرة شديدة ملؤها الحقد والعداوة والبغضاء ، حتى لتكاد نظراتهم تسقطه وتزل قدمه ، أو تهلكه .

وينسبونه أيضا إلى الجنون إذا رآوه يقرأ القرآن ، مع أن القرآن لا يحتمله إلا من كان أهلا له من العقلاء وهو شرف وتذكير وموعظة للعالمين ، شرفوا باتباعه والإيمان به ﷺ ، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن آتيا على يد مجنون . وكيف يجتن من جاء بمثله .. ؟ ^(٢)

(١) انظر : التفسير المنير ٢٩ / ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) التفسير المنير ٢٩ / ٧٨ .

فصل متفرقات

١- لسان

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم] .

جرى الحديث عن مقدمات هذه الآية في فصل كتاب (٢٩) . وذلك في فاتحة سورة إبراهيم عليه السلام والآيتين (١ ، ٢) . واستمرار لذلك فإن الله تعالى قد ربط تلك الآيات (١ ، ٢ ، ٣) بالآية رقم (٤) فقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [١] عليه السلام **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** [٢] عليه السلام الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [٣] عليه السلام وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم] .

الحق بمقدمة سورة إبراهيم في كتاب رقم (٢٩) .

٢- بلاغ

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم] .

في بداية سورة إبراهيم جاء ذكر القرآن : ﴿ الرَّحْمَنُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [١] عليه السلام **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** [٢] عليه السلام [إبراهيم] .

واختتمت السورة بذات الموضوع ، وليس فقط ذكر القرآن بأحد صفاته ﴿ بَلَاغٌ ﴾

ولكن للتأكيد على نفس التوجه فى بداية السورة وهو إنذار الكافرين مؤكداً على وحدانية الله تعالى ، وبأنه لا شريك له ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا القرآن بلاغ للناس أى تبليغ فى الموعظة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنعام] أى : هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن .

﴿ وَلْيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليكون منذاراً لهم بالعقاب ومحذراً من العذاب ، وهو معطوف على محذوف ، أى : ليتصححوا ولينذروا بهذا البلاغ .
﴿ وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ أى وليستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو .

﴿ وَلْيَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى وليتذكر ويتعظ به ذوو العقول . أى ، أن لهذا البلاغ ثلاث فوائد وهى : التخويف من عذاب الله ، والاستدلال به على وجود الخالق ووحدانيته ، والاتعاظ به وإصلاح شؤون الإنسان . ومن هنا نستخلص :

١- القرآن وما فيه من عظات تبليغ للناس وعظة ، وإنذار وتخويف من عقاب الله عز وجل . ومصدر للعلم بوحدانية الله بما تتضمنه من الحجج والبراهين ، وموعظة يتعظ بها أصحاب العقول . روى يمان بن رثاب أن هذه الآية ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ نزلت فى أبى بكر الصديق ؓ . وسئل بعضهم ، وهل لكتاب الله عنوان؟ فقال : نعم ؛ قيل : وأين هو ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلْيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ إلى آخرها .

٢- هذه الآية الأخيرة من السورة دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة إلا بسبب عقله ؛ لأنه تعالى بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل لتذكير أولى الألباب .

٣- أول هذه السورة مقرون بآخرها ، ومطابق له فى المعنى . فأولها ﴿ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد

الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية وآخر السورة :
﴿ وَلْيَذَكِّرْ أُولَئِكَ أَتَى عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُ هَذِهِ الْمَوَاعِظِ وَالنَّصَائِحِ لِيَتَنَفَعَ
الخلق بها ، فيصيروا مؤمنين مطيعين ، ويتركوا الكفر والمعصية ^(١) .

٣- صدق

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ
﴿٣١﴾ [الزمر] .

هاتان الآيتان ضمن مقطع - في سورة الزمر - يأتي تعقيبا على ما قبله . فبعد أن
عرض آية الماء النازل من السماء وآية الزرع الذي يخرج بهذا الماء وآية الكتاب
النازل من عند الله ، وأشار إلى ما يضر به في القرآن من الأمثال ولكن أكثرهم لا
يعلمون . عقب على هذا بأن أمر النبي ﷺ وأمرهم موكل إلى الله ، وأنه هو الذي
يحكم بينهم بعد الموت ، فيجازى الكاذبين المكذبين بما يستحقون ويجازى الصادقين
المصدقين جزاء إلى الإحسان .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ ۖ .

سؤال للتقرير فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله ، فزعم أن له بنات
وأن له شركاء ، وكذب بالصدق الذي جاء به الرسول ﷺ وهو القرآن الذي يدعو
إلى توحيد الله تعالى .. إنه الكفر وفي جهنم مَثْوًى للكافرين ، على سبيل التقدير
الذي يرد في صورة سؤال لزيادة الإيضاح والتوكيد هذا طرف من الخصومة ، فأما
الطرف الآخر فهو الذي جاء بالصدق من عند الله ، وصدق به فبلغه عن عقيدة
واقتناع ، ويشترك مع رسول الله ﷺ في هذه الصفة كل الرسل قبله كما يشاركه

فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق ، يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه .. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .

ويتوسع بعد ذلك في عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعد لهم من جزاء :

﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر] .

وهو تعبير جامع ، يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن (لهم) عند ربهم فهو حقهم الذي لا يخيب ولا يضيع ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ذلك ليحقق الله ما أَراده لهم من خير ومن كرامة ومن فضل ومن يزيد على العدل يعاملهم به متفضلاً محسناً ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر] .

فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ، ثم يكون الجزاء . والفضل هو هذا الذي يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء . أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم ، وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح في الميزان .

إنه فضل الله يؤتيه من يشاء . كتبه الله على نفسه بوعدده ، فهو واقع يطمئن إليه المتقون المحسنون ^(١) .

٤- الحق

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف] .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يبدأ الخطاب للنبي ﷺ ﴿ وَقُلِ ﴾ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الحق ومنه القرآن الكريم الذى لا شك فيه ولا مرية ولا كذب - هذا القرآن هو الحق البارز الظاهر الذى حملته الملائكة وحفظه الإنس والجان ، وتعهد الله تعالى بحفظه ورعايته ، وصدق كل الذين تعاملوا معه صدق الملائكة بنقله إلى السماء الدنيا ، وصدق جبريل بنقله إلى محمد ﷺ . وحفظه محمد ﷺ الذى لم يكن فى علمه شىء قبله .

ومات ﷺ بعد قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ ﴾ وكان قد حفظ الآلاف المؤلفة من الصحابة رضوان الله عليهم وحفظه معهم الجن إلى اليوم وإلى يوم الدين ^(١) .

والتوجيه الثالث: إعلان مجيء الحق واضحا ظاهرا من الله تعالى ، بحيث لم يبق إلا التهديد والوعيد الشديد على كفرهم فقال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى قل يا محمد للناس هذا الذى جئتكم به من ربكم (القرآن الكريم) هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك . وهو النظام الأصلح للحياة ، فمن شاء آمن به ، ومن شاء كفر به ، فأنا فى غنى عنكم ، ومن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم يحاسبكم ربكم على أعمالكم . وفى هذا تهديد ووعيد شديد . ثم ذكر الله - تعالى - نوع الوعيد على الكفر ، والوعد على العمل الصالح ، فقال : واصفا الأول ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أى إنا أرصدنا وهيانا وأعدنا للكافرين بالله ورسوله وكتابه نار جهنم ، الذى أحاط من كل جانب ، حتى لا يجدوا مخلصا منها . أخرج أحمد والترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله أنه قال: « لسرادق النار أربعة جدر كثف ^(٢) كل جدار مسافة أربعين سنة » ، والسرادق : واحد السرادقات التى تمد فوق صحف الدار أو السور .

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أى إن يطلب هؤلاء الكافرون الظالمون الإغاثة والمدد والماء وهم فى النار ، لإطفاء عطشهم . بسبب حر جهنم ، يغاثوا بماء غليظ كدردى (عكر) الزيت ، أو كالدم والقيح يشوى جلود

(١) التفسير المنير ١٥ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) كثف جمع كثيف : وهو الثخين الغليظ .

الوجوه من شدة حره ، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه . أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « المهل كعكر الزيت ، فإذا تربه إلى وجهه ، سقطت فروة وجهه فيه » .

﴿ بئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أى : بئس هذا الشراب شرابهم فما أقبحه ، فهو لا يزيل عطشا ، ولا يسكن حرارة ، بل يزيد فيها ، وساءت جهنم مرتفقا ، أى : وساءت النار منزلا ومجتما وموضعا للارتفاع والانتفاع كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان] .

٥- من عند الله

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ سُنِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : أخبروني عن حالكم ما أنتم فاعلون ، إن كل هذا القرآن من عند الله حقا ثم كذبتكم به ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه ، أفلا تكونون أعداء للحق والصواب ؟! بل لا أحد أضل منكم لشدة عداوتكم ، وإمعانكم في الكفر والعناد ومجانبة الحق ومخالفته ^(١) .

ثم دعاهم إلى التأمل والتفكر في الآيات والأنفس فقال : ﴿ سُنِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أى سنظهر لهم دلالات صدق القرآن ، وعلامات كونه من عند الله في أقطار السموات والأرض المشتتة على خلق الشمس والقمر والنجوم ، وتعاقب الليل والنهار ، وأحداث الكون الرهيبة من الأعاصير والبراكين والصواعق ، وعظمة الجبال والبحار ، وإبداع صنع النباتات والأشجار ، وما يحدث في الأرض من فتوحات كبرى على أيدي المسلمين في أرجاء الأرض المحيطة بمكة والجزيرة العربية ، وهذا الإخبار عن الغيب معجزة .

وسنظهر صدق القرآن ، وأنه منزل من عند الله أيضا في خلق أنفس البشر ، وما فيها من إبداع الصنعة وعظمة التركيب ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات] ، وفي مصائر الناس وتبدل أحوال أهل مكة العتاة من سادة متكبرين إلى أذلة صاغرين كل ذلك ليعرفوا من هذه الوقائع والأحداث والخلائق ويتبينوا بجلاء أن القرآن ومنزله ومن أنزل عليه حق وصدق لا شك فيه .

وإذا لم ينظروا ويتأملوا ، فتكفى شهادة الله بأن القرآن حق ، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى كفى بالله شاهدا على أفعال عباده وأقوالهم . من الكفار وغيرهم ، وكفى به شاهدا على أن القرآن منزل من عنده .
أنشد ابن أبي الدنيا في كتابه التفكير والاعتبار عن شيخه أبى جعفر القرشى حيث قال وأحسن المقال:

| | |
|------------------------|------------------------|
| وإذا نظرت تريد معتبرا | فانظر إليك ففيك معتبر |
| أنت الذى تمسى وتصبح فى | الدنيا وكل أموره عبر |
| أنت المصرف كان فى صغر | ثم استقل بشخصك الكبر |
| أنت الذى تنعاه خلقتة | ينعاه منه الشعر والبشر |
| أنت الذى تعطى وتسلب لا | ينجيه من أن يسلب الحذر |
| أنت الذى لا شىء منه له | وأحق منه بماله القدر |

حدثنا سعيد الأنصارى قال : خطب عمر بن عبد العزيز مرة ، فأثنى على الله وحده ثم قال : أما بعد : أيها الناس ، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه حائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق أى : لأنه لا يعمل له عمل مثله ولا يحذر منه ، والمكذب به هالك وهذا مفهوم المعنى ^(١) .

٦- أنباء

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۖ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ [القمر] .

وردت الآيتان (٤ ، ٥) بعد قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٦﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٧﴾ [القمر] .

اقتراب الساعة وانشقاق القمر .. آيتان عظيمتان - والكفار إن يروا آية يتنحوا ويعرضوا ، ويخرجوا من أذهانهم تلك المعجزة بانشقاق القمر ويؤولوه أنه سحر مستمر ، أخرج الشيخان والحاكم - واللفظ له - عن ابن مسعود قال : رأيت القمر منشقا شقين بمكة ، قبل مخرج النبي ﷺ فقالوا : سحر القمر ، فنزلت ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

وأخرج الترمذى عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

وأخرج محمد بن جرير وأبو داود الطيالسي والبيهقي عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، سحركم فاسألوا السفار ، فسألوهم فقالوا : نعم قد رأينا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٦﴾ أى وإن ير المشركون علامة على النبوة ودليلا على صدق النبي ﷺ يعرضوا عن التصديق والإيمان بها ويولوا مكذبين بها قائلين : هذا سحر قوى شديد يعلو كل سحر ، مأخوذ من قولهم : استمر الشيء : إذا ثوى واستحكم ، وقيل : مستمر : أى دائم مطرد .

وهذا رد على المشركين الذين طالبوا بآية ، قال المفسرين : لما انشق القمر ، قال المشركون : سحرنا محمد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً ﴾ يعنى انشقاق القمر ثم أكد تعالى موقفهم هذا بقوله :

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ أى كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا ما أملت عليه أهواءهم وآراءهم فى أن محمدا ﷺ ساحر أو كاهن بسبب جهلهم وسخافة عقولهم .

ثم ونجهم الله على إصدارهم على الكفر وعلى ضلالهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ

مِّنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١٠﴾ أى ولقد جاء كفار مكة وأمثالهم من أخبار الأمم المكذبة رسلها ، وما حل بها من العقاب والنكال فى هذا القرآن ما فيه كفاية لكفهم عن السوء ، وزجر وردع ووعظ عما هم فيه من الشرك والوثنية والعصيان والتمادى فى التكذيب ، ووصف الله تعالى تلك الأنباء بقوله: ﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النَّذُرُ ﴾ ﴿١١﴾ أى : أن هذه الأنباء فى القرآن ، وما تضمنه من عبرة وعظة وهداية ، حكمة بالغة كاملة قد بلغت منتهى البيان ، ليس فيها نقص ولا خلل ، ولا تفيد النذر أو الإنذارات شيئا للمعاندین ، فإن عنادهم يصرفهم عن الحق ، فتكون ((ما)) نافية ويصح أن تكون استفهاما إنكاريا ، بمعنى أى غناء أو شىء ﴿ تُغْنِ النَّذُرُ ﴾ أى الإنذارات لهؤلاء الكفار الطغاة ؟ فإنك أيها النبي أتيت بما عليك من الإخبار بالنبوة مقرونة بالآية الباهرة ، وأنذرتهم بأحوال الأقدمين ، فلم يفدهم شيئا . ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ [يونس] (١) .

٧- سحر

﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿١٤﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿١٥﴾

[المدثر] .

الحديث هنا كله يدور حول مواقف الوليد بن المغيرة ، الذى ورد ذكره فى آيات أخرى ، دون أن يذكر اسمه بل ذكرت صفاته وأخلاقه ، وتكبره وتجبره ، وكما ذكر فرعون فى مواقف الجبروت والتطاؤل والكفر فى القرآن أكثر من مرة وكذلك الوليد بن المغيرة ، الذى تكرر ذكره . وهنا يبدأ الذكر فى أول سورة من سور القرآن أو ثانيها أو ثالثها على الأقل ينبئ بروز هذا الطاغوت مبكرا يعاند الدعوة الإسلامية ويحاربها ويقف بحاله وولده عائقا فى وجه تقدمها فى مكة ، ومن عجائب صنع الله أن يكون خالد ابنه ، الذى ساق الله النصر على يديه من إسلامه حتى اختاره الله لجواره .

فالوليد .. والعزى سبق ذكره يأتى بمواقف متناقضة ، لكنه لم يؤمن ، ولم يرتدع عن غيه ، رغم أن هذه السورة من أولها تبين فضل الله تعالى عليه ، حيث خلق وحيدا ، وأمده الله بالمال والولد ، وجعل له الريادة والقيادة - فكان لبنى مخزوم وهو قائدهم « القبة والأعنة » القبة التى تنصب لجمع السلاح عندما تنذر قريش حربا ، والأعنة : وهى قيادة الفرسان فى المعارك . وهنا نقف على موقف واحد من مواقفه المعادية لهذا الدين ولمحمد ﷺ - ففى إجماع المفسرين المقصود هنا هو الوليد بن المغيرة ، ومن هذه المواقف .. قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا ۖ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرًا ۖ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿ ١٣ ﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ ﴿ ١٤ ﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿ ١٥ ﴾

﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ أى ثم أعاد النظر والتروى والتأمل فى الطعن بالقرآن ، ثم قطب وجهه لما لم يجد مطعنا يطعن به القرآن ، وكلح وجهه وتغير وأظهر الكراهة ، ثم أعرض عن الإيمان ، وانصرف عن الحق ، وتكبر عن الانقياد للقرآن فقال : ما هذا إلا سحر ينقل ويحكى ، نقله محمد عن غيره ممن قبله وحكاه ورواه عنهم ، فليس بكلام الله ، بل هو كلام البشر والإنس . وهذا دليل على أنه كان متناقضاً فيما اختلقه لقناعته الذاتية فقد كان بقلبه مصدقا للنبي ﷺ ، ولكنه أنكره عنادا .

روى العوفى عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر ﷺ فسأله عن القرآن ، فلما أخبر وخرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة ، فوالله ما هو بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ، ائتمروا وقالوا : لئن صبا الوليد ، لتصبو قريش . فلما سمع ذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق ، حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد : ألم تر إلى قومك ، قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : أأست أكثرهم مالا وولدا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقدر تحدث به عشيرتى !! فلا . والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا تُبْقِ وَلَا تَذَرُ ۖ ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ مر الوليد برسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة السجدة : فرجع إلى قومه وقال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت أنفا من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا

من كلام الجن . إنه له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه .. فأنزل الله تعالى : ﴿ فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۚ ﴾ ^(١)

٨- بينة

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ ﴾
رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿١﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٢﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ ﴿٣﴾

سميت سورة البينة لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ ﴾ أى مفارقين ما هم عليه من الكفر ، منتهين زائلين عن الشرك ، حتى تأتيتهم الحجة الواضحة ، وهى ذلك المنزل الذى يتلوه رسول الله ﷺ . وتسمى أيضا سورة ((البرية)) .

هذه السورة كالعلة لما قبلها ، فكأنه لما قال سبحانه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ ﴾ قيل : لم أنزل القرآن ؟ فقيل : لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيتهم البينة ، فهى كالعلة لإنزال القرآن ، المشار إليه فى سورة القدر المتقدمة .

أرسل الله تعالى رسوله محمدا ﷺ لجميع العاملين من الإنس والجن ، ولجميع الأمم والشعوب عن عصره والعصور التالية له ، ولكل أهل الملل والأديان . حتى أهل الكتاب والمشركون الذين بعدوا عن الدين الصحيح . لذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ ﴾ أى لم يكن الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ وأنكروا نبوته ، من اليهود والنصارى وعبداء الأوثان والأصنام من مشركى العرب وغيرهم منتهين عما هم عليه من الكفر مفارقين لكفرهم الموروث ، حتى تأتيتهم الحجة الواضحة وهى رسول الله ﷺ والقرآن الكريم . والمراد : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشكرهم بالله ، حتى يأتيتهم الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن حتى يبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان ثم أوضح المراد بالبينة فقال :

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿١﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٢﴾ أَي تِلْكَ الْبَيِّنَةُ هِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، يقرأ عليهم ما تتضمنه صحف القرآن المطهرة من الخلط والكذب ، والشبهات والكفر ، والتحريف واللبس ، بل فيها الحق الصريح الذي يتبين لأهل الكتاب والمشركين كل ما يشتهه عليهم من أمور الدين وفيها الآيات والأحكام المكتوبة المستقيمة المستوية المحكمة ، دون زيغ عن الحق ، وإنما هو صلاح ورشاد ، وهدى وحكمة كما قال تعالى : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ [فصلت] ، وقال سبحانه نظير هذه الآية : ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ﴿٤﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿٥﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿٦﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٧﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٨﴾ [عبس] .

ثم أبان تفرق الكتابيين ، فقال : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿٩﴾ فَإِنْ تَفَرَّقَهُمْ وَاخْتَلَفَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَاشْتِبَاهِ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ بَلْ كَانَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ ، وظهور الصواب ، ومجىء الدليل المرشد إلى الدين الحق والبيينة الواضحة وهو محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن موافقا لما في أيديهم من الكتاب بنعته ووصفه ، فلما بعث الله محمدا ، تفرقوا في الدين ، فأمن به بعضهم وكفر آخرون وكان عليهم أن يتفقوا على طريقة واحدة من أتباع دين الله ، ومتابعة الرسول الذي جاءهم من عند الله ، مصدقا لما معهم . ونظير الآية : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠﴾ [آل عمران] (١) .

٩- الذي علم بالقلم

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ .

ورد الحديث عن آيات بداية القرآن في الفصل الأول عن القرآن الكريم ، يحسن الرجوع إليه من هذا الكتاب .

١٠- تذكرة

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ ﴾ [عبس] .

هذه الآيات من سورة عبس التي عاتب الله بها الرسول ﷺ لعبوسه في وجه ابن أم مكتوم بسبب انشغاله مع رؤساء قريش ، سرى الله عنه بقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ أى لا تفعل مثل ذلك ، وعرفه بأن الهداية لا تحتاج لجهود ومحاولات كثيرة ، وأن هذا التأديب الذى أوحى إليه به كان لإجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا ، وهذا القرآن مجرد تذكرة لتنبية الغافلين ، فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، وهى مودعة فى صحف شريفة القدر .

وبعد بيان حال القرآن ، وأنه كتاب الذكرى والموعظة ، ذم الله الإنسان ووبخه على كفران نعم ربه وتكبره وتعاضمه عن قبول هداية الله له ، وأنه استحق أعظم أنواع العقاب لأجل ارتكابه أعظم أنواع القبائح .

- فالقرآن الكريم كتاب تذكرة وموعظة وتبصرة للناس جميعا ، فمن أراد اتعظ بالقرآن وانتفع به وعمل بموجبه ، وهذا دليل على حرية الاختيار .

- القرآن كتاب جليل عند الله ، فهو مثبت مودع فى صحف مكرمة عند الله ، لما فيها من العلم والحكمة ، رفيعة القدر عند الله ، مطهرة من كل دنس ، مصانة عن أن ينالها الكفار ، محمولة بأيدى ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ، وهم كرام على ربهم ، كرام عن المعاصى ، يرفعون أنفسهم عنها ، مطيعون لله صادقون لله فى أعمالهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ ﴾ [الواقعة] .

- لعن الإنسان حيث كفر بالقرآن ، وما أظلمه حيث أنكر البعث والنشور ، فالله قادر على إعادته كما قدر على بدء خلقه ، فإنه خلقه من ماء يسير مهين ، ثم جعله يمر بأطوار بعد كونه نطفة ، إلى وقت إنشائه خلقا آخر .

وبأحوال من كونه ذكرا أم أنثى ، أو شقيا أو سعيدا ، حسنا أو دميما ، قصيرا أو طويلا . فكيف يليق به التكبر والتجبر عن أوامر الله ، ثم يسر له سلوك طريق الخير والشر: أى بين له ذلك كما قال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ [الإنسان : ٣] . وقال :

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد] .

ثم جعل له قبرا يوارى فيه إكراما له ، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض ،
تأكله الطير والسباع ، وهذا دليل على أن الله سبحانه أمر بدفن الأموات الإنسية
تكرمة لهم ، سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا دون أن يطرحوا على وجه الأرض طعمة
للسباع ، كسائر الحيوانات . ثم إذا شاء الله أنشره أى أحياه بعد موته ^(١) .

فصل

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

التفاسير:

- ١- التفسير المنير : أ.د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر - دمشق .
- ٢- تفسير الطبري : جامع البيان في تأويل آي القرآن : محمد بن جرير الطبري .
- ٣- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير الدمشقي ، طبعة دار طيبة ، الرياض ، السعودية ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
- ٤- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير الدمشقي ، طبعة دار ابن حزم ٢٠٠٠ م .
- ٥- الجامع لأحكام القرآن : محمد بن علي القرطبي .
- ٦- تفسير الرازي : الرازي .
- ٧- تفسير التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور .
- ٨- روح المعاني : محمد بن شكري آللوسي : (تفسير آللوسي) .
- ٩- تناسق الدرر في تناسب السور : السيوطي ، دار الكتاب العربي .
- ٢٠- في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق .
- ٢١- مجمع البيان في تفسير القرآن : أبو الفضل الطبرسي .
- ٢٢- غرائب القرآن : ابن الحسن القمي النيسابوري .
- ٢٣- التبيان في أقسام القرآن : ابن قيم الجوزية ، دار الفكر .
- ٢٤- أحكام القرآن : أبو بكر ابن العربي .
- ٢٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل : عبد الله بن أحمد النسفي (تفسير النسفي) .
- ٢٦- فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني .
- ٢٧- تنوير الأذهان : الشيخ إسماعيل حقي البروسوي .

٢٨- مفصل آيات القرآن : د. عبد الصبور شاهين .

٢٩- إعراب القرآن الكريم : محيى الدين درويش .

٣٠- تفسير الخازن .

٣١- أسباب النزول : الواحدى .

كتب الحديث النبوى الشريف :

١- صحيح الإمام البخارى بحاشية السندى .

٢- صحيح الإمام مسلم .

٣- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان : على بن أبى بكر الهيثمى .

٤- سنن الترمذى .

٥- سنن أبى داود .

٦- سنن النسائى .

٧- سنن ابن ماجه .

٨- مسند الإمام أحمد : أحمد بن حنبل .

٩- السنن الكبرى : أحمد بن حسن البيهقى .

١٠- المعجم الكبير ، المعجم الأوسط ، المعجم الصغير : أبو القاسم الطبرانى .

١١- سنن الدارقطنى : على بن عمر الدارقطنى .

١٢- جامع الأصول : ابن الأثير الجزرى .

١٣- كنز العمال : علاء الدين الهندى البرهان فورى .

المعاجم :

١- معجم كلمات الله العظيم : محمد عدنان سالم ، محمد وهبى سليمان .

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي .

٣- تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلانى .

٤- لسان العرب : ابن منظور - تصنيف يوسف خياط ، دار لسان العرب .

- ٥- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية - القاهرة .
- ٦- دائرة المعارف الإسلامية : أحمد الشنتاوى وآخرون .
- ٧- الموسوعة العربية الميسرة : محمد شفيق غربال .

كتب أخرى :

- ١- الإصابة فى تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلانى .
- ٢- سيرة ابن هشام : ابن هشام .
- ٣- زاد المعاد فى هدى خير العباد : ابن قيم الجوزية .
- ٤- الرحيق المختوم : المباركفورى .
- ٥- الطبقات الكبرى : ابن سعد .
- ٦- مباحث فى علوم القرآن : صبحى الصالح .

كتب للمؤلف

- ١- نساء فى حياة الأنبياء .
- ٢- نساء فى حياة خاتم الأنبياء .
- ٣- الدعوة فى العشيرة الأقربين .
- ٤- كنتم خير أمة أخرجت للناس .

رقم الإيداع : ٢٢٤٦٠ / ٢٠٠٥ م

I.S.B.N. : 977 - 15 - 0536 -X
